

البؤساء

فيكتـــور هيجـــو

« ما بقيت هناك بفعل القوانين والعرف لعنة اجتماعية تخلق وسط المدينة الوانا من الجحيم ، وتعقد بالمحن البشرية المشيئة الإلهية . وما ظلت — بدون حل — مشـكلات العصر الثلاث : وهى امتهان الإنسان بوضع الطبقة العاملة المجحف ، وسقوط المرأة بفعل الجوع ، وهزال الطفل بفعل الظلمة .. وما برحت عمليات الاختناق الاجتماعى ممكنة فى بعض المناطق .. وبعبارة اخرى ، وبنظرة اشمل : ما ظلت على وجه الأرض ظلمات الجهل والبؤس ، فلن تكون الكتب على شاكلة هـذا الكتب بغير طائل ! » .

فيكتور هيجو

هوتفيل هاوس
١٨٦٢

القسم الأول

فانتين FANTINE

الكتاب الأول

رجل صالح

— ١ —

مسيو ميرييل MYRIEL

فى سنة ١٨١٥ ، كان مسيو « شارل فرانسوا بينفينى ميرييل » يشغل منصب اسقف بلدة (د) ، وهو يومئذ شيخ فى نحو الخامسة والسبعين من عمره ، وقد شغل كرسى (د) منذ سنة ١٨٠٦ .

ومع ان هذا التفصيل لا يمس على اى نحو من الانحاء صميم ما نحن بسـبيل سرده ، إلا انه قد لا يكون خلوا من الفائدة — على الأقل تحريا للدقة فى كل شىء — ان نشيرها هنا إلى الشـائعات والاحاديث التى ترامت حول الاسقف عندما وصل إلى هذه الأبروشية . وسواء صحاو لم يصح ما يقال عن الناس ، فإنه يحتل فى حياتهم ، وفى مصائرهم على الأخص ، مثل مكانة ما يصدر عنهم من افعال . والمسيو ميرييل كان نجل مستشار فى برلمان (ايكس) ، فهو من نبلاء « الرداء » فى العهد الملكى . والمعروف ان اباه كان يعده لكى يرث منصـبه ، لذا زوجه فى سن مبكرة — وهو فى الثامنة عشرة او العشرين — جريا على العادة المتفشية فى العائلات البرلمانية يومئذ . ويقال إن شـارل ميرييل برغم زواجه المبكر اثار حوله كثيرا من الاقاويل . وكان وسيم الشكل ، وإن كان قصير القامة ، انيقا ، رشيقا ، حاضر النكتة . وقد خصص الجانب الأول من حياته للمجتمع والمغازلات . ثم نشبت الثورة ، وتعاقبت الاحداث سراعا ، واستمر القتل فى النبلاء والأسر البرلمانية ، او طردوا

وطوردوا وتشتتوا . وهاجر مسيو شـارل ميرييل منذ الأيام الأولى للثورة إلى إيطاليا ، وهناك ماتت زوجته بذات الصدر ، وكانتتشكو من هذه العلة منذ أمد طويل . ولم يكن لهما أولاد . فماذا حدث بعد هذا لمسيو ميرييل؟ يبدو أن انهيار المجتمع القديم فى فرنسـا ، وسقوط أسرته ، والأحداث الرهيبة التى جرت فى سنة ١٧٩٣ — التى لعل السماع بهـا عن بعـد زادها هولا ورهبة — ولد فى نفسه فكرة التخلى عن الدنيا وطلب العزلة . أم هل اصابته وسط هـذا البحر المائج من المحن طعنة نافذة فى القلب ، أدهى من النكبات العامة التى حاقت بمجتمعه وأسرته ؟ لا سبيل إلى القطع بشىء من هـذا ، فكل ما ندريه انه عندما عاد من إيطاليا كان قد صار قسا .

وفى سنة ١٨٠٤ كان مسيو ميرييل يشغل منصب خورى (قسيس) بلدة برينول (BRIGNOLLES) . وكان قد تقدم فى السن ، وصار يعيش فى عزلة تامة .

وقرابة وقت تتويج نابليون إمبراطورا ، اضطر للذهاب إلى باريس بسبب مسألة تتعلق بأبروشيته ، وإن كنا لا ندرى طبيعة هذه المسألة بالضبط . وذهب بطبيعة الحـال يلتمس معونة كبار من بيدهم مثل هذا الأمر ، ومن بينهم الكردينـال «فيشى» خال الإمبراطور نابليون ، وذات يوم ذهب الإمبراطور لزيارة خاله الكردينـال ، وكان هذا الخورى الريفى الوقور جالسا بقاعة الانتظار عند دخول الإمبراطور ، فراح القسيس الشيخ يحدق فى نابليون بفضول لاحظه الإمبراطور ، فالتفت إلى خاله الكردينال فجاة وساله بدهشة : « من هـذا الرجل الطيب الذى يرمقنى هكذا ؟ » .

فقال مسيو ميرييل : « مولاى ! انت ترى امامك رجلا طيبا كما تقول . وانا ارى امامى رجلا عظيما فكيف لا انظر إليه ؟ كل منا فى وسعه ان يجد فيما يراه فائدة » .

وفى ذلك المساء نفسه سأل الإمبراطور الكردينال عن اسم هذا الخورى . وبعد فترة وجيزة ادهش مسيو ميرييل ان يسمع بأنه عين اسقفا لأبروشية (د) .

وما مدى صدق ما رددته الألسنة عن الجانب الأول من حياة مسيو ميرييل ؟ لا احد يدرى . فما اقل الأسر التى كانت تعرف آل ميرييل قبل الثورة .

وكان لا بد للمسيو ميرييل ان يقاسى المقسوم لكل قادم جديد فى مدينة صغيرة بها كثرة من الأفواه التى تنطلق بالكلام ، وقلة نادرة من الرءوس التى تفكر ! كان لا بـد له من معاناة هذا المصير ، برغم انه الأسقف ، بل ولأنه الأســقف ! ولكن الأراجيف التى قرنوها باســمه لم تكن إلا اراجيف ، وثرثرة كلام وصــخب اقاويل ... محض ترهات . ومهما يكن من شىء ، فبعد تسع سنين من شغله كرسى الأســقفية وإقامته فى (د) طوى النسيان كل هــذه الأحــاديث التى يلغط بهــا صغار الناس حول كل قادم جديد فى المدن الصغيرة ، بل لم يعد أحد بعد هذه السنوات التسع يجسر على ان يلوكها . او يجسر على تذكرها .

وكان المسيو ميرييل قد وصل إلى مدينة (د) وفى صحبته عانس متقدمة فى السن ، هى الآنسة باتستين ، اختــه التى تصغره بعشرة سنين . وكانت تقوم على خــدمتهما خادمة فى مثل سن الآنسة باتستين اسمها « مدام مجلوار » . وهكذا ،

بعد ان كانت خادمة حضرة الخورى (القس) ، صارت الآن خادمة الآنسة وخادمة صاحب النيافة « سيدنا » الأسقف .

والآنسة باتستين طويلة القامة ، شاحبة ، نحيلة ، لطيفة ، تتمثل فيها صورة الآنسة «المحترمة»لأنه فيما يبدو لا بد انتكون المراة متزوجة كى توصف بأنها «سيدة جليلة» . ولم تكن فى اى وقت من الأوقات جميلة : وقد قضت كل حياتها فى سلسلة من الأعمال المقدسة والخيرية ، مما اكسبها ضربا من البياض والإشراق ، وعندما تقدمت فى السن اكتسبت ما يمكن ان يسمى جمال الطيبة . وما كان فى شبابها نحافة وهزالا صار فى ســنها هــذه شفافية ، تشف عن الملك الكريم فى دخيلة نفسها . فهى روح اكثر منها عذراء، وكان جسمها ظل بلا مادة، فلا يكاد يكون لها جسد يسمح بأن يكون لها جنس . إنها شبح مادة تشع ضياء ، وعيناها على الدوام مغضيتان ، كأنها مجرد ذريعة لبقاء روحها على الأرض .

اما مدام مجلوار فعجوز قصيرة ، بيضــاء ، سمينة ، مشغولة دائما ، ولاهثة دائما ، بسبب نشاطها الزائد على الدوام ، ثم بعد ذلك بسبب داء الربو .

وعندما وصل مسيو ميرييل انزلوه فى قصره ، المخصص للأسقف ، بكل التكريم الواجب للمراسيم الإمبراطورية الذى يجعل مقام الأسقف تاليا مباشرة لقائد المعسكر بالإقليم . وقام العمدة ورئيس المحكمة بالزيارة الأولى له ، وقام هو من جانبه بالزيارة الأولى للجنرال والمحافظ . وبعد ان تم استقراره فى قصر الأسقف ، انتظرت المدينة ان ترى ماذا سيصنع الأسقف الجديد ..

— ٢ —

مسيو ميرييل يصبح سيدنا «بينفينى» (ومعناها «مرحبا»)

كان قصر الأسقف فى مدينــة (د) مجاورا للمستشفى .

وقصر الأسقف مسكن فسيح جميل ، مبنى بالحجارة فى بداية القرن السابق ، بناه سيدنا الأسقف هنرى بيجيه ، الدكتور فى اللاهوت من كلية باريس ، وكان قد عين اسقفا لمدينة (د) فى سنة ١٧١٢ ، فجاء هذا القصر مسكنا يليق حقا بامير وسيد مهيب ، فكل ما فيــه يوحى بالعظمة والفخامة : من أجنحــة الأسقف ، إلى الصالونات ، إلى الحجرات ، وفنــاء الشرف الذى تحف به المماشى ذات الأعمــدة والعقود على الطراز الفلورنسى القديم ، والحدائق المغروســة فيهـــا الأشــجار البديعة . وقاعة الطعام فى الطابق الأرضى رواق ضخم طويل يفضى إلى الحدائق . وكان سيدنا هنرى بيجيه قد أولم فيهـــا باحتفال عظيم فى ٢٩ يوليو سنة ١٧١٤ عشاء فاخرا لنخبة من أمراء الكنيسة الفرنسية وأعيانها عددهم سبعة وصور هؤلاء السبعة تزين الآن جدران هذه القاعة ، واقيمت لوحة رخامية بيضاء عليها أسماؤهم بحروف من ذهب .

أما المستشفى فبيت متواضع ضيق منخفض من طابق واحد يعلو الطابق الأرضى ، له حديقة صغيرة .

وبعد وصول الأسقف بثلاثة ايام ، زار المستشفى . وفى

ختام الزيارة رجا مدير المستشفى ان يتفضل بالمجىء معه إلى قصره. وهناك قال له : « سيدى مدير المستشفى ، كم عندك الآن من المرضى » .

— ست وعشرون يا سيدنا .

فقال الأسقف : « هذا هو عددهم كما أحصيته » .

واستطرد المدير قـــائلا : « والأسرة ملتصق بعضهـــا ببعض ، لضيق المكان » .

— هذا ما لاحظته .

— والقاعات ليست إلا حجرات ، بحيث لا يتجدد فيهـــا الهواء بسهولة .

— هذا ما بدا لى .

— وعنـــدما تشرق الشمس ، لا تكفى الحديقة الصغيرة لكل الناقهين .

— هذا ما قلته لنفسى .

— وفى ايام الأوبئة كان عندنا مرضى بالتيفوس وغيره ، فيصل عدد المرضى احيانا إلى مائتين ...

— هذا ما خطر لى .

— وما الحيلة يا سيدنا ؟ لا بد من الإذعان .

وكان هذا الحديث يدور فى قاعـــة الطعـــام فى الطابق الأرضى . ولزم الأسقف الصمت لحظة طويلة ، ثم التفت فجاة إلى مدير المستشفى وساله :

— سيدى . كم تظن هذه القاعة تسع من الأسرة ؟

فصاح المدير ماخوذا :

— قاعة طعام سيدنا ؟

وشغل الأسقف نفسه بقياس القاعة بنظرة طولا وعرضا، ثم قال كالمحدث نفسه : « تتسع لعشرين سريرا » .. ثم رفع صوته وقال : « اسمع يا سيدى مدير المستشفى . واضح ان هناك خطأ . فأنتم ستة وعشرون شخصا فى خمس حجرات او ست صغيرة . ونحن هنا ثلاثة ولدينا مكان يتسع لستين . هناك إذن خطأ . ستأخذون مسكنى وآخذ أنا مقركم . أعطنى بيتى . فها هنا بيتكم ! » .

وفى اليوم التالى كان المرضى الستة والعشرون مقيمين فى قصر الأسقف ، وكان الأسقف مقيما بالمستشفى .

ولم يكن لدى مسيو ميرييل ممتلكات ، فأسرته قضت الثورة على ممتلكاتها وأخته تتقاضى إيرادا مدى حياتها قدره خمسمائة فرنك سنويا ، كانت تكفى ، وهم فى بيت الكاهن — قبل رسامته أسقفا — لنفقاتها الشخصية . ويتقاضى المسيو ميرييل من الدولة بوصفه أسقفا راتبا قدره خمسة عشر الف فرنك سنويا . وفى نفس اليوم الذى استقر فيه بالمستشفى قرر بصفة نهائية استخدام هذا المبلغ على الوجه التالى : كتب قائمة بجهات البر ورعاية اليتامى والأرامل والسجناء ومرضى المستشفى ليوزع عليها المبلغ كله ما عدا الف فرنك سنويا لنفقاته الشخصية . وظل طوال الفترة التى شغل فيها كرسى أسقف (د) لا يغير شيئا من هذا الترتيب ، الذى كان يسميه : تنظيم مصروفات بيته .

وتقبلت أخته الآنسة باتستين هذا التنظيم بكل إذعان تام . ففى نظرة هذه الفتاة القديسة كان مسيو ميرييل أخاها

واسقفها فى آن واحد ، وصديقها بموجب الطبيعة الجسدية ورئيسها بموجب تعاليم الكنيسة . فكانت تحبه وتجله بكل بساطة . وعندما كان يتكلم كانت تنحنى . وعندما كان يتصرف كانت تؤيده . وكانت الخادمة وحدها — مدام مجلوار — هى التى غمغمت قليلا . وقد لاحظنا ان نيافة الأسقف لم يحتفظ لنفسه إلا بالف فرنك ، إذا ضمت إلى معاش الآنسة باتستين صار المجموع الفا وخمسمائة فرنك فى السنة . وبهذا المبلغ الهزيل كان يعيش الشيخ والمرأتان العجوزان .

وعندما كان يأتى خورى (قس) من إحدى القرى للأسقفية إلى مدينة (د) كان نيافة الأسقف يجد وسيلة لضيافته ، بفضل شدة اقتصاد وتدبير مدام مجلوار وذكاء إدارة الآنسة باتستين .

وذات يوم ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على حلوله بالمدينة ، قال الأسقف : « إنى اشعر رغم هذا بضيق شديد » .. فصاحت مدام مجلوار : « هذا ما اعتقده . فسيدنا لم يطلب المخصصات السنوية التى تعطيها محافظة الإقليم للأسقف لمصروفات عربته الفاخرة للتجوال فى المدينة والطواف بنواحى الأبروشية الواسعة ، وكان هذا هو المتبع سابقا مع جميع الأساقفة » .. فهتف الأسقف : « مرحى ! معك كل الحق يا مدام مجلوار » . وبعث بطلبه إلى المحافظ .

وبعد فترة اجتمع مجلس الإقليم ونظر فى هذه المسألة ، وقرر للأسقف مبلغا إجماليا لمصروفات كاتبه مقداره ثلاثة آلاف فرنك فى السنة تحت بند « مصروفات عربة ذات ستة جياد للأسقف مع مصروفات عربات البريد او الخيل التى يحتاج

إليها فى جولاته بالأبروشـــية » .. وقـــد اثار هـــذا القرار البورجوازية المحلية ، وانبرى على الخصوص عضو بمجلس الشـــيوخ الإمبراطـــورى ، وهو عضـــو ســـابق فى مجلس الخمسمائة الذى ايد انقـــلاب « ١٨ بروميز » ، وكوفىء على هذا بمنصب عضو الشيوخ عن مدينة (د) مع ضيعة مترامية فخمة ، وقدم هـــذا « السناتور » إلى وزير الديانات مذكرة صغيرة سرية نقتبس منها السطور الآتية :

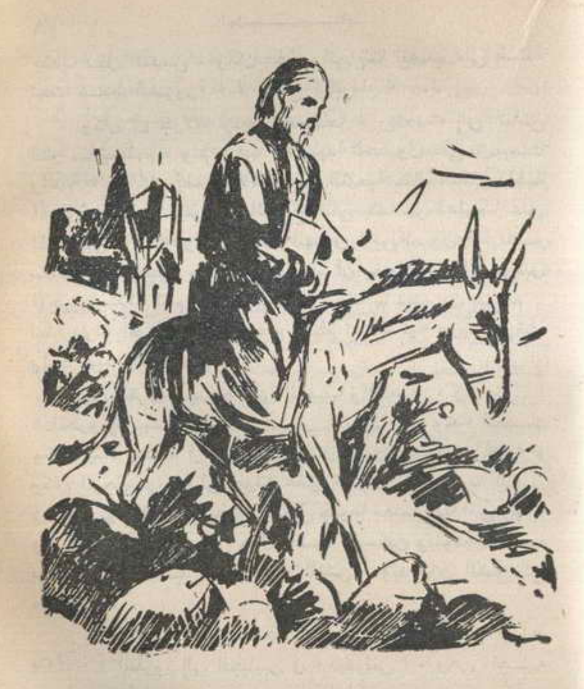
« وفيم مصروفات العربة المطهمة ؟ وما لزومها فى مدينة سكانها اقل من اربعة آلاف ؟ ومصروفات لجولات ! ما لزوم هذه الجولات اساسا؟ ثم كيف يمكن المرور بمركبة بريد فى طرق جبلية كطرق إقليمنا ؟ انه خال من الطرق . ولا يركب النـــاس إلا الخيل . والجسر المقام فى بعض المنـــاطق لا يتحمل مرور عربة تجرها الثيران . أن جميع القسوس من هذا الصنف ، كلهم بخلاء خشعون . وهذا الأسقف تظاهر بأنه رســـول من رسل المسيح كله طيبة عندما جاءنا ، ولكن ها هو يحذو حذو الآخرين ، ويطالب بعربة مطهمة وعربة خفيفة ومقعد فى عربة بريد . يطالب بالأبهة والفخفخة . مثل الاساقفة القدامى ! إن الحال لن ينصلح إلا إذا خلصنا الإمبراطور من هذه الطغمة كلها . فليسقط البابا ! (وكانت الأمور قد ساءت مع رومـــا) اما انا فمع قيصر وحده ... الخ الخ » .

ولكن موافقة مجلس الإقليم على هذه الميزانية اثلجت صدر مدام مجلوار ، وقالت للآنسة باتستين: « آه . إن سيدنا بدأ برعاية الآخرين ، ولكنه حسنا فعل حين تذكر نفســـه فى

النهاية ، بعد أن انتهى من كل انـــواع الصدقات . وها هى اخيرا ثلاثة آلاف فرنك لنا نحن ! اخيرا ! » .

وفى نفس ذلك المساء كتب الأسقف لأخته مذكرة وزع بها المورد الجديد على جهات بر اخرى ، وخص مرضى المستشفى بنصيب كبير ، ولم يبق لنفســـه شيئا . وشعر هكذا ان ضيق ذات يده قد خف ! واما نثريات الكاتدرائية فاعتمد فيهـــا على ما يحصل عليه من الأغنيـــاء . واحس الشعب واســـتجاب للأسقف ، فتوالت عليـــه العطايا والهبات النقـــدية فى كل المناسبات . وكان الجميع ، من المحتاجين والموسرين على السواء ، يطرقون بابه ، بعضهم يطلب الصدقة ، والبعض الآخر يأتى ليودعها لديه . وفى مدى عام صار الأسقف امين خزانة جميع الخيرات ، وصراف جميع الإعانات . فمرت من بين أصابعه مبالغ جزيلة ، ولكنه لم يغير شيئا من اسلوب حياته ولم يضف قط شيئا إلى ضروراته .

ولما كان البؤس فى البؤساء اكثر دائمـــا من الإخـــاء فى الميسورين ، لذا كان كل شىء ينفد بسرعـــة قبل ان يحصـــل عليه ، كأنه ماء يســـقط من السماء على أرض شديدة الجدب والظمأ . فهو مهما وصلت إليه الأموال . لم يكن يجد ابدا فى يده منها شيئا ، وعندئذ كان يحاول تدبير اموره . فسماه الناس « سيدنا مرحبا » (بينفينى) .



وذات يوم وصل إلى (سينيز) وهى مدينة قديمة تابعة له ، على ظهر حمار ..

- ٣ -

أسقف طيب وأسقفية شاقة

ومع أن نيافة الاسقف حول عربته المطهمة بخيولها الستة إلى صدقات ، إلا أنه لم يقلل من جولاته . وأبروشيه (د) ابروشية مجهدة، فالسهول فيها جد قليلة، والجبال جد كثيرة، وتكاد تخلو من الطرق المهدة . وعدد الكنائس المتفرقة فى نجوعها وبلدانها وقراها ثلاثمائة وثمان وستون ، يشعر سيدنا مرحبا أن من واجبه تفقدها وتفقد كهنتها وشعبها . وكان يذهب سيرا على قدميه عندما تكون الكنيسة قريبة من المدينة ، وفى عربة ريفية عندما تكون فى السهل ، ويستخدم كل انواع الركائب المتاحة ليصل إلى كنائس الجبال . وكانت المراتان المسنتان تصحبانه . ولكن عندما يشعر ان الرحلة شاقة عليهما كان يذهب بمفرده .

وذات يوم وصل إلى (سينيز) (SENEZ) وهى مدينة قديمة تابعة له ، على ظهر حمار ، فقد كان كيس نقوده خاويا فى ذلك الحين فلم يستطع اكتراء ركوبة افضل منه . وكان عمدة المدينة واقفا فى استقباله مع الأعيان على باب دار الأسقفية ، ورأوه ينزل عن ظهر الحمار ، ونظراتهم تنطق بالدهشة والاستنكار ، وضحك بعض الثراة الواقفين حوله ، فقال الاسقف : « سيادة العمدة . وحضرات الأعيان . إنى اعرف ماذا اثار استنكاركم ، فانتم ترونها غطرسة منى انا الكاهن المسكين ان امتطى ركوبة امتطاها السيد المسيح

عندما دخل القدس . ولكن عذرى انى إنما اقدمت على هذا تحت ضغط الضرورة ، لا بدافع الكبرياء » . . .

وكان فى جولاته رقيقا متسامحا ، ويتحدث إلى الناس اكثر مما يعظهم . ولم يذهب قط بعيدا للحصول على تشبيهات وامثلة ، بل كان يضرب لأهل هذه الناحية مثال سكان ناحية اخرى مماثلة . فيقول فى النجوع التى يقسو اهلها على المحتاجين : « انظروا إلى اخوانهم فى (بريانسون) ! لقد سمحوا للمحتاجين والأرامل والأيتام ان يحصدوا مراعيهم قبل الآخرين بثلاثة ايام . وشيدوا لهم مجانا ما تهدم من بيوتهم . لهذا بارك الله فى هذا النجع ، فلم تحدث فيه جريمة قتل واحدة منذ مائة عام ! » .

وفى القرى الجشعة إلى الكسب والحصاد ، كان يقول : « انظرو إلى سكان قرية (أمبران) . إذا جاء وقت الحصاد وكان ابناء احدهم فى الجيش وبناته يخدمن فى بيوت المدينة ، وكان الرجل مريضا أو يعوقه عائق ، أوصى الكاهن به الناس فى عظة يوم الأحد ، فيخرج الناس جميعا بعد القداس رجالا ونساء وبنات وبنين إلى حقل هذا المسكين ويقومون عنه بالحصاد مجانا ، ويجمعون القش ، ويدخلون القمح إلى مخزنه ! » .

وفى الأسر التى بها انقسامات بسبب النقود او الميراث يقول : « انظروا إلى الجبليين فى (ديفولنى) ، وهى ناحية موحشة جدا لم يسمع فيها صداح البلبل منذ خمسين سنة ، عندما يموت هناك رب اسرة ، يهاجر اولاده الفتيان لطلب الرزق ويتركون الميراث للبنات كى يجدون ازواجا ! » .

وفى النواحى التى يغرم أهلها بالقضايا والمنازعات امام المحاكم يقول : « انظروا إلى فلاحى (وادى كويراس) . انهم ثلاثة آلاف نسمة ! ما أشبههم بجمهورية صغيرة ! وهم لا يعرفون قاضيا ولا محضرا ، فالعمدة يقوم بكل شىء . فهو الذى يوزع أنصبة الضرائب ، ويحصل من كل واحد بذمة الله وعدله ، ويحكم فى القضايا مجانا ، ويوزع الميراث بلا أتعاب ، ويصدر الأحكام بلا رسوم ، ويطيعه الجميع لأنه رجل عادل صالح وسط اناس بسطاء » .

وعلى هذا النحو البسيط كان يحل فى كل ناحية مشكلاتها ، وهو يتكلم بوقار وجد وأبوة ، وعندما تعوزه الأمثلة الواقعية ، كان يضرب أمثلة خيالية كما كان يصنع السيد المسيح ، تنفذ مباشرة إلى الصميم ، بقليل جدا من الكلمات وكثير جدا من الصور والتشبيهات .. وهكذا كانت بلاغة السيد المسيح المقنعة المفحمة .

- ٤ -

أعماله مطابقة لأقواله

وكانت احاديثه لطيفة وكلها بهجة . وكان يتبسط مع العجوزين اللتين تقضيان حياتهما إلى جواره ويضع نفسه تحت تصرفهما . وعندما كان يضحك كانت ضحكته اشبه بضحكة تلميذ ! . . وكانت مدام مجلوار تلقبه « صاحب العظمة » . وفى ذات يوم نهض من مقعده وذهب إلى مكتبته ليحضر كتابا ، وكان هذا الكتاب فى رف مرتفع ، ولما كان الأسقف قصير القامة فإنه لم يستطع الوصول إليه ، فقال : « مدام مجلوار . هات لى مقعدا اقف عليه ، لأن « عظمتى » اضأل من ان تصل إلى هذا الرف ! » .

وكانت له قريبة بعيدة ، هى « الكونتس دى لو » ، قلما تدع فرصة إلا وتكرر فيها — فى حضوره — ما كانت تسميه « آمال » ابنائها الثلاثة فقد كان لها اقارب مسنون جدا كان اولادها ورثتهم الطبيعيين فأصغر اولادها سيرث من عمة لها إيرادا سنويا قدره مائة الف فرنك ، والثانى سيرث لقب دوق من عمه ، والأكبر سيرث لقب الإمارة من جده ! وكان الأسقف يصغى عادة وهو ساكت سكوت المغضى عن الضعف البشرى ، ولكنه ذات مرة بدا اكثر شرودا من المعتاد ، بينما « الكونتس دى لو » تفيض فى تفصيلات هذه التركات المأمولة . وقالت له فجاة : « يا إلهى ! إنك يا بن عمى شديد الشرود ! فيم تفكر او بم تحلم ؟ » .

— أفكر فى شىء قاله القديس اوغسطين : « ضعوا آمالكم فيمن لا يمكن أن يرثه أحد ! » .

وفى ذات يوم تلقى نعيا مطبوعا لأحد اعيان الإقليم ، فيه عشرون سطرا من القاب ومناصب ذلك الوجيه ، ثم قائمة طويلة بأسماء اقاربه واجداده من كبار الاقطاعيين السابقين وحملة الالقاب النبيلة ، فهز الأسقف راسه وقال : « إنى لارثى لظهر ملك الموت الذى سيحمل كل هذا العبث من الالقاب والمظاهر الدنيوية ! وما اعجب ان يتخذ الناس الموت مناسبة للتفاخر الفانى ! » .

وعندما كان يتعلق الأمر بالصدقات ، لم يكن يحجم او يحفل أمام الرفض ، وكان يتفوه عندئذ بكلمات تدعو للتأمل . وفى ذات يوم كان يطلب عطايا للفقراء فى صالون بالمدينة . وكان موجودا بين الحاضرين المركيز « دى شانترسييه » المسن البخيل الثرى جدا ، وكان يجمع بين النقيضين ، فهو ملكى متطرف وفولتيرى متطرف ، واتجه إليه الأسقف ولمس ذراعه وقال : « سيادة المركيز ، يجب ان تعطينى شيئا ! » . فالتفت إليه المركيز وقال : « عندى فقرائى يا سيدنا ! » .

— إذن أعطنى إياهم !

وذات يوم وهو فى الكاتدرائية القى هذه العظة : « إخوتى واحبائى ! فى فرنسا مليون وثلاثمائة الف منزل للفلاحين ليس بكل منها إلا ثلاث فتحات ، ومليون وثمانمائة الف مسكن لها فتحتان : الباب والنافذة . واكثر من ثلاثمائة الف مسكن فلاح ليس لها إلا « فتحة واحدة هى الباب .

وهذا بسبب ما يسمونه ضريبة الأبواب والنوافذ . فلا غرابة ان تكثر بين الأطفال والنساء الحميات والأمراض ! يا ويلنا ! إن الله يعطينا الهواء مجانا والقانون يبيعه للناس . وانا لا اتهم القانون ، ولكنى ابارك الرب ! واذكركم هو كريم بلا حدود . وفى اقاليم (الايزير) ISERE ، والألب ، والفار VAR لا يملك الفلاحون عربات ذات عجلة واحـدة لنقل السماد ، لذا ينقلونه على ظهورهم . ولا يملكون شموعا ، لذا يشعلون اغصانا مغموسة فى الراتنج . ويصنعون الخبز لستة اشهر مقدما ، ويخبزونه على روث البقر الجـاف (الجلة) ، وفى الشتاء يكسرون هذا الخبز بالفأس ، وينقعونه فى الماء اربعا وعشرين ساعة حتى يتسنى لهم اكله . يا إخوتى واحبائى ، ارحموا المساكين ، واشعروا بما يعانونه من حولكم ! » .

****

وكان يتكلم ببساطة تامة مع العلية والبسطاء ، بلا تغيير او تمييز ، ولا يسارع إلى إدانة شىء ، وليس فيـه شىء من تزمت الصارمين والفريسيين ، ويرفع صـوته بالتعليم عاليا ويندد بالمتزمتين قائلا : « إن لحم الإنسان هو عبئه وغوايته فى آن واحد . فهو يجره وراءه ، ويستجيب له ! ولذا كان عليه ان يراقبـه ويحتويـه او يكبحـه ولا ينقـاد له إلا للضرورة القصوى . ومن الجائز ان يكون فى هذا الانقياد خطيئة ، ولكن الخطيئة فى هذه الحالة غير مميتة . إنها عثرة ، قد يقع بها المرء على ركبتيه ، وتصبح بعد ذلك ركوع يختم بالصلاة والتوبة ! ان القداسة استثناء ، اما القاعدة فهى البر او العـدل او

الصلاح . اخطئوا إذن ، واعثروا ، ولكن كونـوا عـادلين صالحين . إن قانون الإنســان هو الإقلال من الخطيئة قدر الامكان ، اما الامتناع التام عن الخطيئة فهو حلم الملائكة . فكل ما هو ارضى خاضع للخطيئة ، لأن للخطيئة جاذبيتها ! » .

وعندما كان يرى الناس يتصايحون وينفد صبرهم بسرعة، يقول باسما : « يبـدو ان النفـاق والرياء مستشريا ، بين الناس . فالمراءون هم الذين يسارعون بالاستنكار تغطية لذنوبهم ! » . وكان شديد الرفق بالنساء والفقراء الذين تبهظ كواهلهم اعباء المجتمع البشرى . لذا كان يقول : « إن اخطاء النسـاء والأطفال والخدم والضعفاء والجهلاء إنمـا هى فى الحقيقة اخطاء الأزواج والآباء والأسياد والأقوياء والأغنياء والعلماء ! » .

وكان يقول ايضا : « اما الجهلاء فسارعوا إلى تعليمهم، ما استطعتم ، أقصى تعليم ممكن .. فالمجتمع مذنب ومسئول عن عدم تعليم الناس بالمجان ! وبذلك تنتشر الظلمة ويجب ان نتحمل عواقبهـا . فالنفس المعتمة تعشش فيهـا الخطـايا وتتكاثر ، والمذنب ليس مرتكب الخطيئـة بل من نشر الظـلام والعتمة فى النفوس ! » .

ومن هذا يتضح انه كان ذا اسلوب خاص فى النظر إلى الأمور والحكم عليها . واشك انه استقى هـذا من الإنجيل مباشرة . وذات يوم سمع فى احد الصالونات قصة قضـية جنائية يحققون فيها وسيصدر فيها الحكم . وهى قضـية . رجل مسكين بائس دفعه حبه لامرأة وللطفل الذى انجبه منها، وقد نفدت حيلته ، إلى الاقدام على تزييف النقود. وكانت جريمة

تزييف النقود يومئذ عقوبتها الاعدام . وكانوا قد قبضوا على المراة وهى تروج اول قطعة نقود زيفها صاحبها . ولكن لم تكن تحت يدهم ادلة ضدها تثبت عليها التزييف . فهى وحدها التى كانت تملك اتهام عشيقها والقضاء عليه إذا وشت به . والحوا عليها ، واصرت على الإنكار . وعندئذ قرر المدعى العام ان يلجا للحيلة ، واستعان بكتابات ملفقة لإيهامها بأن عشيقها يخونها مع امراة اخرى . فاستشاطت غضبا واشتعلت غيرتها ، فوشت بعشيقها واعترفت عليه اعترافا كاملا مؤيدا بالأدلة ، وهكذا قضى على الرجل . وستتم محاكمته قريبا فى إيكس، مع شريكته. وكان الناس يروون ذلك وهم مبهورون ببراعة المدعى العام وسعة حيلته ، لأنه نجح فى إشعال الغيرة فتكشف الحقيقة ، وتوصل إلى العدالة عن طريق استغلال انتقام المراة من عشيقها الخائن فى تصورها .

واصغى الأسقف لهذا الحديث كله فى صمت حتى نهايته ، وعندئذ سالهم :

ــ اين سيحاكم هذا الرجل وهذه المراة ؟

ــ فى محكمة الجنايات .

فسالهم : «واين سيحاكمون المدعى العام على خدعته؟» .

* * *

وحدث امر نادر الحدوث فى (د) إذ حكم على رجل بالاعدام بتهمة القتل ، وهو رجل تعس ليس اميا ولا جاهلا تماما ، كان يعمل مشعوذا فى الأسواق الريفية وكاتبا عموميا بها فى نفس الوقت . وشغلت المدينة بالقضية . وفى ليلة تنفيذ الإعدام مرض قسيس السجن ، وصار لا بد من تدبير كاهن آخر ليساعد المحكوم عليه فى لحظاته الأخيرة . وذهبوا

لاستدعاء خورى المدينة ، ويبدو انه رفض قائلا : « هذا ليس من شانى ، فانا لا شان لى بهذه السخرة ولا بهذا المهرج ، وانا ايضا مريض » . ونقلوا إلى الأسقف ما قالوا وطلبوا منه الحل ، فقال : « حضرة الخورى معه حق . ليس هذا مكانه ، بل مكانى انا ! » .. ومضى على الفور إلى السجن ، ونزل إلى زنزانة « المهرج » وناداه باسمه ، وتناول يده ، وكلمه . وقضى سحابة النهار معه ، وقد نسى طعامه ونومه ، وهو يضرع إلى الله لخلاص روح المحكوم عليه ، ولخلاص روحه هو ايضا . وقال له أحسن الحقائق ، وهى دائما أبسطها ، وكان له بمثابة الأب والأخ والصديق .. ثم باركه البركة الأسقفية . وعلمه كل شىء وهو يطمئنه إلى محبة الرب وغفرانه ويدخل عليه العزاء ، كان هذا الرجل سيموت بائسا لأن الموت كان يبدو له هوة ما لها من قرار . لذا كان يتراجع وهو على شفاها فى ذعر . ولم يكن جاهلا تماما بحيث لا يكترث ، وكان الحكم عليه قد جعله اشد تعلقا بالحياة ، ولكنه رفع الغشاوة عن عينيه فرأى تفاهاتها ، وأطبقت عليه ظلمة اليأس ، ولكن الأسقف ابدى له وسط غياهبه فجوة من الضياء .

وفى الصباح ، عندما جاءوا لأخذ المسكين ، كان الاسقف هناك. وتبعه وبدا لعيون الجماهير المحتشدة لمشاهدة الإعدام فى طيلسانه البنفسجى ، وصليب الاسقفية يتدلى فوق صدره ، يمشى جنبا إلى جنب مع هذا المسكين المقيد بالحبال. وصعد معه إلى العربة المكشوفة ، وصعد معه إلى منصة المقصلة ، فاذا بالمسكين الذى كان منهارا مبتئسا بالأمس ، وقد بدا متهللا ، لأنه شعر ان روحه تصالحت مع خالقها وان

ابواب الرجاء مفتوحة أمامه . وعانقه الاسقف وقبله ، وفى لحظة هبوط حد المقصلة هتف به : « من يقتله الناس يبعثه الرب حيا ! ومن يطرده إخوته ، يفتح له الأب ذراعيه ! استبشر ، وادخل من باب الرجاء إلى الحياة الابدية ! فالأب السماوى فى انتظارك ! » .

وعندما هبط من فوق منصة المقصلة ، كان فى عينيه ضياء جعل الحشود تفسح له الطريق ، وهم لا يدرون ايهما كان اروع ، اهو شحوبه ام طمأنينته . وعندما عاد إلى المسكين المتواضع الذى يسميه باسما قصره ، قال لأخته : « لقد اديت خدمة الرب بثياب الكهنوت ! » .

وظلت عملية الإعدام بالمقصلة التى شهدها الأسقف عالقة بوجدانه إلى امد طويل ، لأن صدمته بهذا الواقع الدامى كانت رهيبة . فهذه الآلة التى يسمونها اداة العقاب والقصاص رهيبة جدا لمن يشهدها وهى تقوم بعملها . اما وهى قائمة هكذا عن بعد . بدون عمل ، فالنفس لا تدرك خطورتها الحقيقية ، لأنها مجرد نصب هائل من خشب وحديد وحبال . لا حياة فيها ولا دم تريقه . ولكنها حين تعمل تتحول إلى كيان له إرادة ، وبصر ، وفهم ، وتملأ النفوس قشعريرة ، وتتخذ فيها ابعادا جديدة . إنها تصبح شريكة الجلاد التى تلتهم ، وتفترس اللحم وتريق الدم ، بل تعبه عبا ! انها وحش خلقه القاضى والنجار معا ، انها شبح مخيف يستمد حياته من عشرات الاعمار التى يقضى عليها !

لذا كان وقعها على الأسقف « سيدنا مرحبا » هائلا جدا وعميقا جدا ، ولذا بدا فى الايام التالية مهموما ، وفارقته رباطة الجاش التى رآها الناس فى ذلك الموقف ، واستولى

عليه القلق مما يسمونه عدالة المجتمع . وكانما انقلب يؤنب نفسه ، وكان فى بعض الأحيان يكلم نفسه ويناجيها بصوت نصف مسموع كله اسى وشجن . وهذاما سمعته اخته ذات مساء يقوله : « لم اكن اتصور ان الامر بهذه الوحشية ! ومن الخطا ان انغمس فى قانون الله بحيث اغفل عن قانون البشر . ولكن الموت ليس من حق احد غير الله . فبأى حق يمس الإنسان هذا الشىء المجهول ؟ » .. ومع مرور الوقت خفت حدة هذا الهم ، ولعل هذه الانطباعات محيت . ولكن لوحظ ان الأسقف تعمد بعدها الا يمر بساحة الإعدام تلك !

* * *

وكان فى وسع الناس ان ينادوا مسيو ميرييل فى اى ساعة ليدعوه إلى سرير مريض او محتضر . فهو لا يجهل ان هذا واجبه الأكبر وعمله الأعظم . وعائلات الأرامل واليتامى لم تكن بها حاجة إلى استدعائه ، لأنه كان يذهب إليهم من تلقاء نفسه . وكان يعرف كيف يجلس ويصمت الساعات الطوال بقرب الرجل الذى فقد زوجته التى كان يحبها ، او الأم التى فقدت ولدها . وكما كان يعرف الوقت الذى يحسن فيه الصمت ، كان يعرف الوقت الذى يحسن فيه الكلام . ويا له من معز رائع ! انه لم يكن يحاول محو الالم بالنسيان ، بل يضخمه ويجعله عظيما بالرجاء . وكان يقول : « لا تنظروا إلى ما يتعفن من الموتى ، بل إلى ما يظل منهم حيا لانه تحول إلى نور فى ملكوت السماء ! » .. وكان يعرف ان الإيمان يقوى ، ولذا كان يعزى اليائس المحزون بان يشير إلى اخ له مذعن لإرادة الله ، ويحول الم من ينظر إلى حفرة القبر ، بتحويل نظره إلى نجم فى قبة السماء !

— ٥ —

سيدنا «مرحبا» لا يستهلك أثوابه الخارجية

كانت حياة مسيو ميرييل الخارجية تملؤها عين افكار حياته الداخلية . فمن يراها عن كثب يجدها مهيبة فاتنة مثل حياة الفقر التطوعى التى كان يعيشها اسقف (د)، فهو – شأنه شأن كثيرين من الشيوخ ومعظم المفكرين – لا ينام إلا قليلا . ولكن هذا النوم القصير كان عميقا . وكان فى الصباح يقضى ساعة فى التأمل ، ثم يتلو قداسه ، إما فى الكاتدرائيـــة او فى بيته ، ومتى فرغ من قداسه ، افطر بخبز الجودار المغموس فى لبن بقرتيه . ثم يشرع فى العمل .

وكان عمله كثيرا وشاقا ومتنوعا . فهو يقابل من يفد عليه من القسوس التابعين له ، أو يرد على مكاتباتهم ، ويقابل الموظفين العموميين ، ويكتب للجهات الرســمية التقارير ، وكذلك يكتب التقارير للكرسى الرسولى ، ويرد على الإفادات الرسمية ، وينظر فى الملتمسات ، ويطوف بالكنائس البعيدة ، او يزور المرضى ويتفقـد الأرامل واليتـامى ، ويقابل ذوى الحاجات ، ويذهب لجمع التبرعـات من الاغنياء ، ويعـد المواعظ ، فاذا بقيت من هذا كله ساعة من نهار او من ليـل قضاها فى القراءة والدرس ، وفى زراعـة حديقته الصغيرة . والحق انه كان يسمى عمله بكل انواعه « زراعة الحديقة » ، لان « الروح ايضا بستان » ، فاذا اعتنى بارواح النـاس ، او روحه ، او حديقته ، فهو بستانى !

وحوالى الظهر ، عنـدما يكون الجو جميـلا ، يخرج

للمشى على قدميــه فى الريف او فى المدينة ، وكثيرا ما يدخل الاكواخ الحقيرة التى يمر بها فى طريقه . وكان الناس يرونه يمشى بمفرده ، مختليا بأفكاره ، خافض البصر ، متوكئا على عصـاه الطويلة ، لابســا معطفا مبطنا بنفسجى اللون شديد الدفء ، وفى قدميه جورب بنفسجى وحذاء غليظ ، وعلى راسه قلنسوة مسطحة ، على زواياها ثلاثة اشرطة مذهبة .. واينما مر فهو يوم عيد للناس! فكان مروره بمكان يملأه حرارة وضياء، او يخرج المسنون والأطفال لرؤية الأسقف كما يخرجون على ابوابهم للتمتع بالشمس . ويباركهم ويباركونه . ويشيرون إلى بيته ليدلوا عليه اى محتاج .

وهنا وهناك ، كان يقف ويكلم صـغار الغلمان والبنات ويبتسم للأمهات . وكان يزور الفقراء ما وجد معـه نقودا ، حتى إذا صار خالى الوفاض زار الاغنياء ! .. ولما كان من عادته أن يستبقى رستامياته (ثيابه الخارجية) اطول وقت ممكن ، حتى لا يشترى ثوبا جديدا . لذا كان لا يخـرج إلى المدينة إلا فى معطفه المبطن البنفســجى اللون ، فكان هـذا يضايقه فى الصيف .

وعندما يعود من السير على قدميه فى الظهيرة يتغدى . وكان غداؤه مثل إفطاره . وفى المساء ، فى الســاعة الثامنة والنصـف يتعشى مع اخته ، وتقف مـدام مجلوار خلفهما لخدمتهما . ولم يكن هناك قط ما هو اكثر تقشـفا من هـذا العشـاء ، وإذا كان لدى الاسقف ضيف من القسوس على العشاء ، انتهزت مدام مجلوار هذه الفرصة لتقدم لسـيدنا سمكة ممتازة من البحيرات ، او صيدا من حيوانات الجبـال او طيورها .. فكل قس يزوره كان ذريعة لعشاء جيد ، وكان

الأسقف يترك مدام مجلوار تصنع ما تشاء فى هذه المناسبة .
اما فيما عدا هذا فكان عشاؤه العادى لا يتكون مطلقا إلا من خضراوات مسلوقة فى الماء وحساء بالزيت .

وبعد العشاء يظل يتحدث نصف ساعة مع الآنسة اخته ومدام مجلوار ، ثم يدخل حجرته ويشرع فى الكتابة ، على بعض اوراق مفردة احيانا ، او على هامش كتاب ، احيانا اخرى . وكان متعلما وعالما إلى حد ما ، وقد ترك عدة مخطوطات ، منها بحث طريف فى قول سفر التكوين « فى البدء كان روح الله طافيا على وجه الغمر » ، وقارنه بأقوال أخرى من ديانات شرقية ، وأساطير الكلدانيين وغيرهم . وكان من عادته احيانا وسط القراءة ، كائنا ما كان الكتاب الذى بين يديه ، أن يستغرق فى تأمل عميق قد لا تبدو له علاقة إطلاقا بما يطالعه ، ويسطر بضع عبارات على هامش الكتاب .
وتحت يدنا إحدى هذه الخواطر ، نوردها فيما يلى : « انت يا من انت ! إن سفر الجامعة يدعوك الكلى القدرة . والمكابيون يدعونك الخالق . والرسالة إلى اهل افسس تدعوك الحرية . وباروخ يدعوك العظمة او المقدار ، والمزامير تدعوك الحكمة والحق ، ويوحنا يدعوك النور ، واخبار الملوك تدعوك المولى ، وسفر الخروج يدعوك العناية ، والإنسان يدعوك الأب ، وسفر اللاويين يدعوك القداسة ، والخليقة تدعوك الله ، ولكن سليمان يدعوك الرحيم . وهو اجمل اسمائك قاطبة ! . .

وفى نحو الساعة التاسعة تذهب المراتان إلى غرفتيهما فى الطابق العلوى ، وتتركانه وحده فى الطابق السفلى . وهنا يحسن بنا ان ندلى بصورة دقيقة لمسكن اسقف (د .) . .

– ٦ –

من الذى يحرس له مسكنه

قلنا إن منزله كان يتكون من الطابق الأرضى وطابق واحد . وفى الطابق الأرضى ثلاث غرف ، وثلاث غرف اخرى فى الطابق الأول ، يعلوها مخزن الغلال . وخلف الدار حديقة صغيرة . والمراتان تشغلان الطابق الأول ، ويقطن الأسقف الطابق السفلى . وكانت الغرفة التى تفتح بابها على الشارع هى حجرة طعامه ، والغرفة الثانية مخدع نومه ، والثالثة مصلاه . ولا يمكن الخروج من هذا المصلى بدون المرور من غرفة نومه ، وكذلك لا يمكن الخروج من حجرة نومه إلا عن طريق حجرة الطعام .

وفى المصلى ، فى الصدر ، توجد خلوة مغلقة بها فراش لحالات الضيافة الطارئة . وكان نيافة الأسقف يقدم هذا الفراش لقسوس الريف الذين تأتى بهم حاجات كنائسهم إلى مدينة (د) . اما صيدلة المستشفى سابقا ، فهى بناء صغير ملحق بالبيت ، ومقتطع من الحديقة ، وقد حولها إلى مطبخ ومخزن للمؤن . ويوجد فضلا عن هذا بالحديقة حظيرة كانت المطبخ السابق للمستشفى وفيها يضع الأسقف بقرتيه . وايا كانت كمية اللبن التى تدرها له البقرتان ، فنصفها يذهب يوميا إلى مرضى المستشفى ، وكان يعبر عن ذلك بقوله : « إنى بهذا اؤدى العشور ! » . .

وكانت حجرة نومه متسعة ولذا من الصعب تدفئتها فى الفصل البارد بتلك المنطقة الجبلية . ولما كان خشب التدفئة غاليا جدا فى (د) لذا خطر للأسقف أن يعد لنفسه فى حظيرة البقرتين حجيرة جعل لها سورا من الخشب ، ليستمد الدفء فى الليالى الباردة من حرارة البقرتين ، وكان يسمى هذا المكان « صالونه الشتوى ! » . ولم يكن فى صالونه الشتوى ذاك ، مثل حجرة المائدة ، اثاث إلا منضدة من الخشب الابيض ، مربعة الشكل واربعة كراسى من القش . اما حجرة المائدة فكانت مزينة بصوان قديم مدهون بطلاء مائى لونه وردى. ومثل ذلك الصوان موجود ايضا فى المصلى ولكنه مزين بالمفارش والمخرمات المقلدة ، وقد جعل منه مذبح صلواته .

وكانت السيدات الثريات والنقبات من اهل (د) ، كثيرا ما تبرعن لتكاليف مذبح أنيق جميل جديد لمصلى سيدنا ، ولكنه كان كلما وصلت النقود إلى يده وزعها على الفقراء والمحتاجين . وكان يعلق على هذا بقوله : « إن اجمل مذبح يقام لإله الرحمة والمحبة هى روح مسكين ادخلنا العزاء على نفسه فنشكر الرب من اعماقه ! » .

كان فى مصلاه ايضا مقعدان من القش للركوع عليهما ، وهناك كرسى ذو ذراعين منخفض ايضا ومن القش كذلك فى مخدع نومه . وكان إن اتفق له استقبال سبعة او ثمانية اشخاص دفعة واحدة ، كالمحافظ او الجنرال واركان حرب الالاى المعسكر فى المدينة ، او بعض تلاميذ مدرسة اللاهوت الصغيرة ، فلا بد من إحضار المقاعد الموجودة فى الحظيرة

« صالون الشتاء» وفى المصلى، وإحضار الكرسى ذى الذراعين من حجرة النوم . وبهذه الطريقة يمكن جمع حوالى احد عشر مقعدا للزائرين .. وفى بعض الاحيان يكون الزائرون اثنا عشر . عندئذ يخفى الأسقف حرج الموقف بأن يظل واقفا أمام المدفأة إن كان الوقت شتاء ، أو يتمشى فى الحديقة إن كان الوقت صيفا ! .. وكان ثمة ايضا كرسى فى الخلوة المقفلة ، ولكنه عال منزوع القش تقريبا وليس له إلا ثلاثة ارجل ، فلا يمكن استخدامه إلا مستندا إلى الجدار . وكان لدى الآنسة باتستين فى مخدعها اريكة من الخشب كانت مذهبة فيما مضى ومكسوة بالحرير المشجر ، ولكنها اكبر من ان يتسنى إنزالها من السلم الضيق . ولذا لا يمكن احتسابها من بين اثاث الطوارىء .

وكان فى ذهن او طموح الآنسة باتستين ان تتمكن من شراء صالون من مخمل (اترخت) الاصفر ، مصنوع من خشب الاكاجو ، ولكن هذا يتكلف خمسمائة فرنك على الأقل، ولما كانت لم تتمكن من ادخار اكثر من اثنين واربعين فرنكا وكسور الفرنك فى خمس سنوات لهذا الغرض ، لذا انتهى بها الامر إلى التخلى عن الفكرة . وعزت نفسها بقولها : « ومن ذا فى هذه الدنيا يحقق مثله الأعلى كله ؟ » .

اما حجرة نوم الأسقف فليس هناك ما هو اسهل من تخيلها ، ففيها باب يفضى إلى الحديقة ، وفراش مستشفى من الحرير له كلة من القماش الأخضر . وفى ظل الفراش ، خلف ستار ، ادوات زينة الأسقف وهى بقايا عهد تأنقه الغابر ، وهناك بابان احدهما بقرب المدفأة ويؤدى إلى المصلى ،

والآخر بقرب المكتبة يفضى إلى قاعة الطعام ، والمكتبة عبارة عن صوان كبير له واجهة زجاجية غاص بالكتب ، والمدفأة من الخشب المطلى بحيث تبدو كانها من الرخام ، وهى عادة خالية من النار ، وفى المدفأة مسندان للحطب من الحديد مزخرفان باكاليل زهر ، كانا فيما مضى مطليين بالفضة . وفوق رف المدفأة صليب من النحاس كان بدوره مطليا بالفضة ، مثبت على مخمل اسود رث ، فى إطار من الخشب المذهب الذى نصل طلاؤه . وبقرب الباب المفضى إلى الحديقة منضدة كبيرة فوقها محبرة ، ومزدحمة بأوراق مهوشة ، ومجلدات . وامام هذه المنضدة الكرسى ذو الذراعين المصـــنوع من القش ، وامام الفراش مركع مستعار من المصلى .

وكانت على الجدار عن جانبى الفـــراش صـــورتان لقسيسين، وجدهما الأسقف هناك عندما حل محل المستشفى، فتركهما حيث هما ، ورجح انهما كانا لاثنين من رعاة المستشفى والمتبرعين له . وعلى نافذته ستارة عتيقة من قماش غليظ من الصوف ، انتهى امرها إلى البلى لفرط قدمها ، ولما كان لا طاقة لميزانيته بتحمل ثمن ستارة جديدة ، فقد حاكت مدام مجلوار وسطها الرث ، فجاءت الحياكة على شكل صليب كبير ، فسره هذا الاتفاق الحسن ، وكان كثيرا ما يقـــول : « كم زاد جمالها هكذا ! » .

وكانت جميع حجرات الطابق الأرضى والطابق الاول مطليـــة بالجير الأبيض ، شـــأن ما هـــو متبع فى الثكنات والمستشفيات . وجميع الحجرات مبلطة بالطوب الأحمر ، وكانت مدام مجلوار تغسلها وتحكها كل اسبوع . وامام كل

سرير يوجد حصير من القش المجدول . وكان هذا المســـكن الذى تشرف عليه امراتان آية فى النظافة دائما ، من اعلاه إلى اسفله . فالنظافة هى الترف الوحيد الذى كان الأسقف يسمح به لنفســه ، ويقول : « هذا ترف لا يعز على الفقراء . . » .

ولكن الدقة تقتضينا أن نذكر انه احتفظ مما كان له من عز سابق بستة اطباق من الفضة الأثرية الخالصة وملعقة حساء من نفس المعدن النفيس ، كانت مدام مجلوار ترمقها فى كل يوم بسعادة بالغة وهى تنظفها إلى أن تتلألأ وتضعها على المفرش الأبيض الغليظ . وما دمنا نصور هنا الأسقف كما كان ، فلا بد أن نضيف انه كثيرا ما كان يقول : « اراني اجد مشقة فى التنازل عن تناول الطعام فى الأوانى الفضية» . . وينبغى أن نضيف إلى هذه الفضيات شمعدانين ضخمين من الفضة الخالصة المصمتة ورثها عن اخت لجدته . وكان هذان الشمعدانان يحملان شمعتين ، ويزينان عادة مدفأة الأسقف . وعندما يدعو احدا للعشاء، كانت مدام مجلوار توقد الشمعتين وتضع الشمعدانين على المائدة .

وكان فى مخدع الأسقف بالذات ــ عند راس فراشه ــ صوان صغير تضع فيه مدام مجلوار كل ليلة ــ بكل عناية ــ الصحاف الفضية الست ومغرفة الحساء الكبيرة الفضية . ويجمل بنا ان نقول إن المفتاح لم يكن ينزع من ذلك الصوان ابدا .

وكانت الحديقة التى افسدتها إلى حد ما تلك الأبنية القبيحة التى اشرنا إليها . عبارة عن أربعة مماشى متصالبة متفرعة من مصرف للمياه ، وهناك ممشى خامس يدور حول

الحديقة محاذيا للسور الأبيض ، وكانت هذه المماشى تترك فيما بينها اربعة مربعات يحيط بها نبات البقس . وفى ثلاثة منها زرعت مدام مجلوار خضراوات ، وفى الرابع زرع الأسقف ازهارا . وكانت بضعة اشجار للفاكهة متناثرة هنا وهناك . وذات مرة قالت له مدام مجلوار فى شيطنة لطيفة : «يا سيدنا! انت تستغل كل شيء ، ولكن هذا المربع لا نفع فيه ! » .

فأجابها الأسقف بدماثته: «انت مخطئة يا مدام مجلوار. فالجميل يضارع فى نفعه المفيد . . بل ربما كان انفع منه ! » .

وهذا المربع المزهر قسمه الأسقف إلى اربعة أحواض ، وكان يشغله كما تشغله الكتب . ففيه يمضى بكل سرور ساعة او ساعتين فى رعاية وحفر الحفر لبذوره ، ولم يكن مع هذا عدوا للحشرات كما ينبغى للبستانى المحترف . ولم يكن عالما بالنبات ، فلا يشغله درسها ، بل هو عاشق للزهور لا أكثر ، علاقته بها علاقة هيام لا علاقة درس . وفى كل مساء — فى شهور الصيف الجافة — كان يسقى احواض زهوره من مسقاة من الزنك مطلية باللون الأخضر .

ولم يكن للبيت باب يقفل بالمفتاح . وكان باب قاعة الطعام الذى يفضى إلى ميدان الكاتدرائية مزودا فيما مضى بأقفال وترابيس كالتى تزود بها أبواب السجون ، فأصر الأسقف على نزع كل هذه الحدائد . وهكذا صار هذا الباب فى الليل والنهار على السواء غير مقفل إلا بالأكرة . فليس على اى قادم ، فى اى ساعة من ساعات النهار او الليل ، إلا ان يدفعه بيده كى يفتح .

وفى البداية كانت العجوزان مروعتين من هذا الباب الذى لا يقفل ابدا ، ولكن سيدنا أسقف (د) قال لهما إن فى وسعهما وضع الترابيس على بابى حجرتيهما العلويتين إن شاءتا . وانتهى بهما الأمر إلى مشاركته ثقته وطمأنينته ، او على الأقل إلى التظاهر بمشاركته فيهما . وكانت مدام مجلوار وحدها هى التى تنتابها فى بعض الأحيان المخاوف . اما الأسقف نفسه فيمكن ان نجد تفكيره مشروحا — أو على الأقل مشارا إليه — فى هذه السطور الثلاثة التى كتبها على هامش الانجيل : « هذا هو الفرق الضئيل بين الطبيب والكاهن : إن باب الطبيب ينبغى الا يقفل ابدا ، اما باب الكاهن فينبغى أن يظل مفتوحا دوما ! » .

وعلى هامش كتاب آخر ، عنوانه «فلسفة العلم الطبى» كتب هذه النبذة : « الست انا ايضا طبيبا مثلهم ؟ فانا ايضا لى مرضاى ، فعندى مرضاهم ايضا الذين يسمونهم المرضى ، ثم عندى مرضاى انا الذين اسميهم المساكين ! » .

وفى موضع آخر كتب : « لا تسأل من يطلب منك المأوى عن اسمه ، فإن من يحرجه ذكر اسمه بالذات هو الأحوج إلى مأوى عندك انت ! » .

وقد حدث ذات يوم أن سأله كاهن فاضل ، لا أذكر هل هو كاهن (كولوبرو) أم كاهن (بومبييرى) ، وبتحريض من مدام مجلوار غالبا : اليس سيدنا مجانبا الحذر الواجب بتركه بابه تحت رحمة كل من يدفعه بالليل او بالنهار . وهل لا يساوره احتمال حدوث مكروه عن هذا الطريق لبيت ليست عليه حراسة من اى نوع؟ فلمس الأسقف كتفه فى رقة وقال له:

الله خير حافظا ! » .

ثم خاض فى حديث آخـــر . وكان يقول بكل ارتيـــاح : « هناك شجاعة مفروضة فى الكاهن ، كما أن هناك شجاعة مفروضة فى قائد كتيبة الفرسان . وكل الفرق بين الشجاعتين أن شجاعة الكاهن ينبغى أن تكون فى صـــورة الطمأنينة التى لا حدود لها ! ... » .

– ٧ –

((كراڤـــات))

وها هنا حدث يجمل بنا الا نغفله ، لأنه من هذا النوع الذى يرينا اى رجل كان اسقف (د) .

بعد القضاء على عصابة « جسبار بيس » الذى كان يروع شعاب الجبل فى (أوليول) اختبأ أحد مساعديه – ويدعى كراڤات – فى الجبل مع قراصنته من بقايا عصابة جســـبار بيس ، فى كونتية (نيس) ، ثم هرب إلى (بيمون) ، وبعدها ظهر فجاة فى فرنسا من جهة (برسيلونيت) ، وشـــوهد فى (جوزييه) فى بـــادىء الأمر ، ثم فى (تويل) ، وتـــوارى فى الكهوف ومن هناك صار يهبط على نجوع وقـــرى المنطقة ، للسلب والنهب والقتل .

وذات مـــرة توغل إلى (امبران) ، ودخـــل ليـــلا إلى الكاتدرائية وسلب مجوهرات قدس الأقداس ، فصار اسمه مثار الرعب . وبعثت الحكومة بعوث الشرطة فى اثره ولكن بلا فائدة ، لأنه كان يفلت دائما ، وفى بعض الأحيان كان يقاوم بالقوة المسلحة . فهو شخص بالغ الجسارة مخيف لا يتورع عن شىء .

ووسط كل هذا الارتياع وصل الأسقف ، ليقوم بجولته فى نواحى (شاستلار) : وجاء العمدة للقاء الأسقف وتوسل إليه ان يعود أدراجه من حيث اتى ، لأن كراڤات يسيطر على

الجبل حتى آرش وما بعدها ، الأمر الذى يشكل خطرا على السالك فى هـــذه الناحية ولو كانت معه حراسة . ففى ذلك تعريض لا لزوم له لحياة شرطيين او ثلاثة لخطر الموت . فقال الأسقف : « هذا صحيح . ولذا قررت أن أمضى إلى هنـــاك بلا حرس ! » .

فصاح العمدة : « كيف تفكر فى هذا يا سيدنا ؟ » .

ـــ تفكيرا جديا ، إلى درجـــة انى أرفض الحراســـة وسأمضى وحدى بعد ساعة !

ـــ تمضى ؟

ـــ أمضى !

ـــ وحدك ؟

ـــ وحدى !

ـــ إنك لن تصنع هذا يا سيدنا .

ـــ بل هذا سأصنعه . ففى الجبل نجع متواضع من رعيتى لم أره منذ ثلاث سنين . وهم اصدقاء طيبون . رعاة صالحون لطاف شرفاء ، لا يملكون إلا عنزا واحـــدة من كل ثلاثين عنزة فى قطعانهم . ويصنعون من الصوف أشغالا جميلة متعددة الألوان، ويعزفون موسيقى جبيلة على ناياتهم الصغيرة ذات الثقوب الستة . وهم فى حاجة إلى من يكلمهم بين الحين والحين عن الله . فماذا عساهم يقولون عن أسقف خائف ؟ ماذا يقولون عنى إن لم اذهب إليهم ؟

ـــ ولكن القراصنة وقطاع الطريق يا سيدنا !

ـــ آه ! لقد فكرت فيهم . معك حق . لقد ذكرتنى بهم ، وقد القاهم ، ولكنهم أيضا فى حاجة إلى من يكلمهم عن الله !

ـــ ولكنهم يا سيدنا قطيع من الذئاب !

ـــ يا سيادة العمدة ! ربما كان هذا القطيع بالذات هو ما اختارنى الرب لأكون راعيه ! فمن ذا يعرف طرق العناية الإلهية وحكمتها !

ـــ ولكنهم سيسلبونك يا سيدنا !

ـــ ليس معى شىء .

ـــ سيقتلونك !

ـــ يقتلون كاهنا فقيرا مسكينا يسير وهو يرتل صلواته؟ وما جدوى هذا ؟

ـــ آه ياربى ! لا اتصور ما يحدث إن قابلوك !

ـــ سأطلب منهم صدقة لفقرائى !

ـــ يا سيدنا لا تذهب ! إنك تعرض حياتك للخطر !

ـــ أهذا كل ما فى الأمر يا سيادة العمدة ؟ إنى لست فى الدنيا لأحافظ على حياتى ، بل لأحافظ على نفوس الناس !

فلم يبق بـــد من تركه يرحل ، ومضى غير مصـــحوب إلا بطفل تطوع ليكون دليله فى الطريق الجبلى . وقد تسامع الجوار كله بتهور الأسقف وتملكهم الفزع على حياته .

ولم يشأ فى هذه الرحلة الخطرة أن يصحب معه اخته ولا مدام مجلوار ، واخترق الجبل على ظهر بغل ، فلم يصادف فى طريقه احدا ، ووصل ســـالما معافى إلى اصدقائه الرعاة

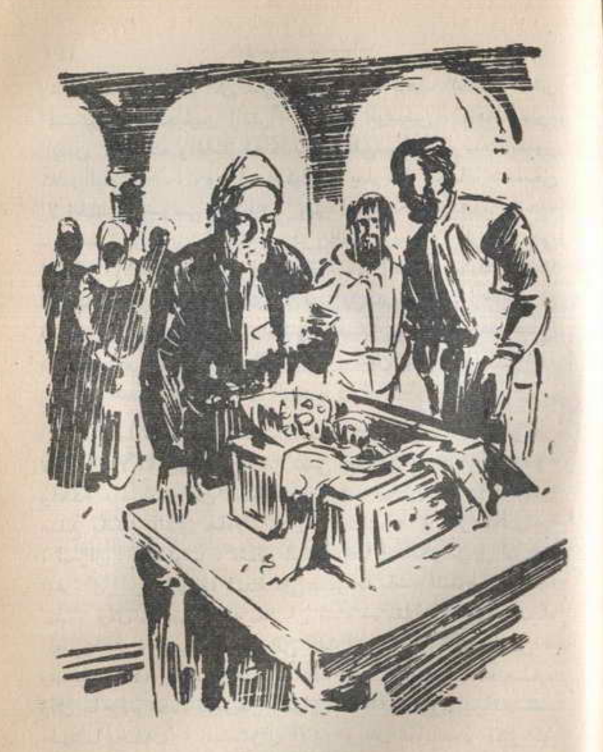
الطيبيين ، ومكث عندهم خمسة عشر يوما يعظ ويعلم وينصح ويصلح . وعندما اقترب موعد رجوعه قرر ان ينشد ترنيمة « المجد لله » بملابس وابهة احتفالية . وتحدث فى هذا إلى القس. ولكن ما العمل وليس لديهم اى زينة او بهارج اسقفية، ولم يستطيعوا ان يقدموا له إلا صليبا ريفيا وبضع شرائط من الحرير الرث مزينة بخيوط من الذهب الزائف . فقال الأسقف : « يا حضرة القس ! سنرتل « المجد لله » بعد العظة ، وليكن ما اراد الله ! » .. وبحثوا فى كل القرى المجاورة ، فلم تستطع المنطقة جمع ما يكفى من ملابس الشمامسة اللائقة للجوقة التى ستقوم بالترتيل ، وبينما هم فى هذه الحيرة وصل صندوق كبير مع خيالين فتيين إلى باب مسكن القس ، برسم سيدنا الأسقف ، وفتح الصندوق فاذا كل الجواهر والطنافس وملابس الكهنوت الذهبية وتاج رئيس اساقفة (مطران) وصليب من الذهب التى كانت قد سلبت من كاتدرائية نوتردام فى (امبران) قبل عدة شهور . وفى الصندوق ورقة مكتوب عليها : من « كرافات » إلى « سيدنا مرحبا » .

وابتسم الأسقف ميرييل وقال : « من يقنع بقلنسوة كاهن يرسل له الرب تاج مطران ! » .

فغمغم القس باسما : « يرسل له الله ... او الشيطان ! ؟ » .

فرمقه الأسقف بنظرة نافذة وقال بحزم : « بل الله ! » .

وعندما عاد الأسقف إلى شاستلار وجد فى بيت كاهنها الآنسة باتستين ومدام مجلوار وقد ارهقهما الانتظار والقلق .



وفتح الصندوق فإذا كل الجواهر والطنافس وملابس الكهنوت الذهبية وتاج رئيس اساقفة (مطران) ..

وقال لاخته : « الم اكن على حق ؟ لقــد ذهب الكاهن الفقير المسكين إلى الجبليين الفقراء خــالى الوفاض . وعاد مملوء اليدين ! ذهبت وانا لا احتقب إلا ثقتى بالله . وعدت بكنوز كاتدرائية ! » .. وفى المساء قبل ان ينام قال ايضا : « ينبغى الا نخاف اللصوص والقتلة . فهذه مخاطر خارجية . ولنخف من انفسنا وسرائرنا فالتحيز هو اللصــوص ، والرذائل هى القتلة. فالاخطار الكبرى فى داخلنا. وما اهون ما يتهدد راسنا او كيسنا . ينبغى الا نفكر إلا فيما يتهدد نفوسنا ! » .. ثم التفت إلى اخته وقال : « لنكتف بالصلاة للرب إن خفنا خطرا من جانب قريبنا واخينا فى البشرية . ولتكن صلاتنا لا من اجلنا، بل لكى يحمى الله اخانا من الوقوع فى الخطيئة بسببنا ! » .

وفيما عدا هذا كانت الأحداث نادرة فى حياته . ونحن لا نروى إلا ما نعرفه ، ولكنه قضى عمره فى العادة على وتيرة واحدة . فالشهر من سنته ، كالساعة من نهاره .. اما ماذا صنع بالكنز الذى جاءه من « كرافـــات » ، كنز كاتدرائية (امبران) المسلوب ، فنحن نجد حرجا فى الخوض فى أمره . فقد كان إغراء جمالها شديد كى يسرقها باسم الفقراء ليعطيها لهم . وكل ما بقى عليه بعد ان تمت سرقتها ان يحول اتجاه المسروقات ، بحيث تذهب إلى الفقراء بدلا من اللصــوص . ولكننا لا نقطع بشىء فى هذا الصدد ، لانه لا يقين لنا بما صنع. وكل ما وقع تحت يدنا من القرائن قصاصة بين أوراقه كتب عليهــا بخطه : « الســؤال الآن هو هل نعيـــد الكنز إلى الكاتدرائية ، ام نعطيه للفقراء ! ؟ » .

– ٨ –

فلسفة بعد الشراب

كان السناتير (عضو مجلس الشيوخ) الذى اشرنا إليه آنفا رجلا مسموعا ، عرف كيف يشق طريقه غير ملق بالا إلى اى نوع من صنوف العوائق التى يسميها الناس « الضمير » ، فهو لا يثنيه عن هدفه ومطمعه شىء، بل يمضى إليه من اقصر الطرق ، والغاية عنده تبرر الوسيلة ، والغاية دائمــا هى المصلحة الخاصة . وقد صقله النجاح ، فصار يبدو دمثــا يعرف كيف يصانع ، واصبح بعد وصوله إلى مطامعه سمحا مع أبنائه وأنسبائه واصدقائه ، ياخــذ من الحياة جانبهــا الحسن ، وينعم بطيباتهــا ، ويغتنم كل فرصها . أما ما عدا هذا من القيم والمبادىء فهو فى نظــره هراء وسخف . وكان حسن الفكاهة ذكيا ، وقد تعلم ما يكفيه للادعــاء بانه تلميذ لأبيقور ، مع انه كان شهوانيا فى حدود السلامة واللياقة . وكان يهزأ من الأمور اللامتناهية والمطلقة والأبدية . ويسمى أفكار الأسقف اضغاث أحلام ، ويضحك منها أحيانا فى تعال ممزوج بالدماثة امام الأسقف نفسه .

ولست ادرى اى مناسبة رسمية جمعت الكونت «س» (عضو الشيوخ) والاسقف ميرييل على مائدة العشــاء عند المحافظ . وبعد العشاء الذى عب فيه هذا الكونت من الخمر الجيدة قال بمرح لا يفارقه الوقار : « لنتحدث معا يا سيادة الأسقف . فنحن نقيضان، وانا اعترف لك ان لى فلسفتى! » .

— ولم لا . يقال إن فلسفة المرء هى فراشه ، وأنت ترقد على فراش من ارجوان ! فتشجع عضو الشيوخ وقال : « لنكن طفلين طيبين ! » .

— او شيطانين إن شئت !

— إنى اعلن لك ان بيرون PYRRHON وهوبز والمركيز دارجن وم . نايجيون ومن إليهم ليسوا من الأوغاد ، وعندى فى مكتبتى كل كتب الفلاسفة مجلدة ، ومذهبة الحواشى!

— انهم مثلك يا سيدى الكونت !

— وانا أبغض « ديديرو » ، فهو ايديولوجى ، ومبالغ فى اقواله ، وثورى . وهو فى أعماقه مؤمن بالله مثل فولتير ، بل اشد تعصبا من فولتير . وقد سخر فولتير من « نيدهام » بغير حق ، لأن تجارب نيدهام اثبتت ان الله لا لزوم له . فما حاجة الإنسان إلى أب ابدى ؟ إن فرضية « يهوا » يا سيادة الأسقف تضايقنى وتضجرنى ! فليسقط هذا الكل الأعظم الذى يسحقنى سحقا ! وليحيا الصفر الذى يتركنى فى سلام ! واعترف لك كما ينبغى أن يعترف المرء لكاهنه اننى اكتفى بالبداهة السديدة ، ولست مفتونا بمسيحك الذى يبشر فى كل مكان بالتضحية والتنازل وإنكار الذات . فهذا نصح البخيل للصعاليك ! انكر ذاتى ؟ لماذا ؟ اضحى ؟ لماذا ؟ وفى سبيل ماذا ؟ فأنا لا افهم أن يضحى ذئب بنفسه فى سبيل ذئب آخر ؟ فلنبق فى الطبيعة ولنترسم خطاها ! نحن فى القمة فلتكن لنا فلسفة عليا ! وما جدوى أن نكون فى الأعالى إن لم نبصر إلى ابعد من أنوف الآخرين ؟ لنعش فى مرح وبهجة ما دمنا أحياء.

فالحياة هى كل شىء . اما ان يكون للانسان مستقبل فى الأعالى أو تحت الثرى ، او فى اى مكان ، فذلك ما لا أصدق منه حرفا واحدا ! هناك من يوصينى بالتضحية وإنكار الذات، ولكنى لا اهتم إلا بالمحافظة على ما أملك ، ولا اصدع رأسى بالتفكير فى الخير والشر ، والصلاح والطلاح ، والحلال والحرام . ولماذا ؟ بدعوى اننى سأقدم حسابا عن أعمالى . ومتى ؟ بعد موتى ! يا له من حلم جميل ! بعد موتى فليكن ما يكون! ولك ان تتناول حفنة من رماد بقبضة شبح! ولنواجه الحقيقة ، نحن العارفون الذين رفعنا قناع إيزيس : فليس هناك خير ولا شر ، ليس هناك إلا الكون والفساد . لنبحث عن الواقع ، ففى اطوائه تكمن كل الحقيقة . والواقع هو اغتنام الفرصة السانحة للمدح والتمتع بطيبات الحياة . عندئذ تتملىء بالقوة وتضحك من كل شىء ، وخلود النفس الإنسانية خدعة يصغى لها البلهاء ! يا له من وعد ساحر ، ان ابن آدم روح على الأرض تسكن الجسد ، ومتى بارحته صارت ملاكا كريما ، له اجنحة زرقاء ! اليس « ترتيليان » هو الذى قال إن القديسين سيطيرون من نجم إلى نجم . ليكن إذن ! سنكون جراد السماء ! ثم ماذا ؟ ثم نعاين الله ! إلا ان كل حديث عن الفردوس هراء ! والله خزعبلة كبرى ! وانا لا اقول هذا طبعا على رءوس الأشهاد ولا انشره فى الصحف ، ولكنى اقوله لك بين أصدقاء . والتضحية بالأرض فى سبيل الفردوس ، بمثابة إفلات الفريسة التى فى اليد أملا فى ظل زائل او وهم باطل ! لست غرا كى انخدع بالمطلق اللامتناهى ، انا عدمى ! اسمى الكونت العدم ؟ عضو مجلس

شيوخ فرنسا ! فهل كنت شيئا قبل مولدى ؟ كلا ! هل سأغدو
شيئا بعد موتى ؟ لا ! من انا ؟ حفنة تراب يدبرها جهاز بدنى !
وماذا يجب أن أصنع على وجه الأرض ؟ لى الخيار فى هذا !
إما أن أستمتع أو أقاسى ! وإلى اين تؤدى بى المعاناة ؟ إلى
العـدم ! والكون قد عانيت . وإلام تفضى بى المتعـة ؟ إلى
العدم ! ولكنى اكون قد استمتعت ! وهكذا تم اختيـارى .
قررت الا اكون مغفلا ، وان أستمتع ما وسعنى الاستمتاع !
فانت فى هذه الدنيا إما آكل وإما مأكول : وقد اخترت ان آكل !
وخير لك ان تكون الناب من أن تكون العشب! هذه حكمتى ايها
الأسقف ، وبعـد ذلك زج بى إلى الحفرة ، فهى التصـفية
الأخيرة ولا شىء بعدها ! اما ان يقال لى إن أحدا هناك سوف
يقول لى شيئا او يناقشنى الحساب ، فهذا ما اضحك منـه
ملء فمى ! هذه كلها من اختراعات المرضعات يحشين بهـا
عقول الأطفال! كلا! ان غدنا هو الظلام المطبق ، وليس وراء
القبر إلا المساواة فى العدم . اكنت فى الحيـاة ملكا ؟ اكنت
صعلوكا ؟ اكنت شيطانا ؟ اكنت قديسـا ؟ كل هؤلاء يصبحون
بالموت سواسية ولا غد لهم بعده ابدا . عش إذن واستخدم
ذاتك وانت حى للتمتع بالحياة . وهذه هى فلسفتى يا سيدى
الأسقف ، ولن تغرر بى الأباطيل الأخروية ! ولكنى اقدر طبعا
ان الصعاليك والضـعفاء والفقراء والمحتاجين لا بد لهم من
شىء ، لانهم لا يملكون شيئا . ليكن لهم « الله » إذن ! فهو
عوض خيالى عما لا واقع له ! فالله لا يصلح إلا للعامة ، اما انا
فلى فلسفتى الدنيوية الخالصة !

فصفق الأسقف بيديه وصاح :

ـ هذا هو الـكلام ! هـذه هى المادية سافرة ! ومن
يملكها لا يكون غرا ! ولا يعيش لشىء أو مبـدأ او قيمة . فلا
يتعرض للنفى مثل كاتو ولا للإحراق حيـا مثل جان دارك !
سعداء هم أمثالك من الماديين ، لأنهم تخلصوا بالمادية من كل
مسئولية عما عدا ملذاتهم ومصالحهم الخاصـة ، ولم يجدوا
مانعا من أنفسهم يحـول بينهم وبين التهام كل شىء ، بدون
وازع ، وبدون قلق ، فهم يستولون بلا حساب على المناصب
والرتب والأوسمة والألقاب ، وعلى السلطة المشروعة وغير
المشروعة ، ويرتدون عن آرائهم عنـدما تكون الردة مفيدة ،
ولا يتورعون عن الخيـانة عندما تفىء عليهم الخيانة المنافع
والمغـانم . ولا يصـيبهم مهما التهموا عسر هضم ، إلى ان
يطويهم القبر . الا ما أمتع هذا ! ولست اخصك بهذا القول
يا سيدى الكونت عضـو مجلس شيوخ فرنسـا ، إلا أنى
لا يفوتنى أن أهنئك ، لانه تسنى لك ان تعتنق هذه الفلسفة
لانك من العلية المحظوظين الذين لديهم كل شىء. اما من ليسوا
مثلك من أمراء الدنيـا ، وتعضهم الحاجة بأنيابهـا ، فكيف
يؤمنون بها؟ من اين لهم المتعة كى يجدوا المتعة ويعيشوا لها؟
إنهم تعسـاء ! والله لا المـادة هو فلسـفة الشعب الفقير
التعس .

- ٩ -

الأخ كما تصفه أخته

ولكى نصف الحيـــاة الداخلية لأسقف (د) وكيف كانت المراتان الصالحتان تخضعان فى كل تصرفاتهما وافكارهما ، بل وعرائزهما النسوية السهلة الارتياع لعـــادات ورغبـــات الأسقف ، من غير ان تكلفاه التعبير عن ذلك بالكلام ، فليس اوفق لذلك من إيراد فقرات من خطاب كتبته الآنسة باتستين إلى الكونتس « بواشيفرون » صديقة طفولتها :

« د . فى ١٦ من ديسمبر — ٨ » .

« سيدتى العزيزة . ما من يوم يمر وإلا ونذكرك فيه ، وهذه عادتنا ، ولكن هناك سببا إضافيا . فمـــدام مجلوار مزقت كل الورق القـــديم الرث الذى كان على الجـــدران ، واكتشفت تحته رسوما جميلة على جدران حجرتينا ، وكذلك فى صالونى الخالى من الاثاث والذى نستخدمه لنشر غسيلنا وجدنا على السقف تصاوير قديمة مذهبة . اما حجرة نومى فتصاويرها اجمل وتمثل شخصيات من الأساطير القديمـــة ، تكاد تجعل من حجرتى متحفا صغيرا .

« وانا سعيدة جدا بالإقامة هنا . واخى طيب جدا ، يعطى كل ما تقع عليه يده للفقراء والمحتـــاجين والمرضى . فالإقليم هنا فى حالة ضنك ، والجو قاس فى الشتاء ، ولا بد من عمل شىء للمســـاكين المحتـــاجين . اما نحن فى بيتنا فلا تكاد تنقصنا التدفئة والإضاءة ، وهذا فى حد ذاته نعمة جزيلة .

« ولاخى عادات خاصة به . فعنـــدما يتكلم يقول ان الأسقف ينبغى ان يكون كذا وكيت . وينفذ هذه الأفكار . تصورى ان باب البيت لا يغلق ليلا ولا نهارا . يدخله كل من شاء ، فإذا به على الفور فى حجرة اخى ! وهو لا يخشى شيئا حتى فى الليل . ويقول ان هذه شجاعته الخاصة . وهو يريد منى الا اخاف عليه ، ولا ان تخاف عليه مدام مجلوار . ويعرض نفسه لكل المخاطر ، ويريد منا الا يبدو علينا اننا ندرك هذا ، ويجب ان نعرف كيف نفهمه .

« وهو يخرج تحت المطر ، ويمشى فى الماء ، ويســـافر ويتجول فى الشتاء القارس ، ولا يخاف الليل ، ولا الطـــرق المحفوفة بالمخاطر وعوارض الطرق وقطاعها .

وفى العام الماضى ذهب وحده إلى منطقة يسيطر عليها اللصوص ولم يقبل ان نصحبه ، وظل غائبا خمسة عشر يوما ، ولما عاد لم نجد به سوءا ، وكان الجميع يحسبونه مات ، وقال لنا « هاكم كيف سرقونى ! » .

« وفتح لنا حقيبة فإذا بها كل المجوهرات التى سرقت من كاتدرائية (أمبران) ، وقد وهبها له أولئك اللصوص !

« وفى هذه المرة لم اطق السكوت ولمته ونحن فى العربة حتى لا يسمعنا احد . ولكن لا جدوى من الملام . وقد كففت الآن عن الانزعاج ، واشير إلى مدام مجلوار حتى لا تعارضه ، ولذا فهو الآن يجازف بنفسه كما يريد ، اما انا فآخذ معى مدام مجلوار إلى حجرتى ، واصلى من اجله ثم انام . وانا مطمئنة ، لانى واثقة انه إن حدث له شىء كانت هذه نهايتى ، وساذهب

للقاء ربى مع اسقفى واخى . اما مدام مجلوار فلقيت عناء اشد من هذا فى تعود هذا التهور كما تسميه . اما الآن فقد فاءت إلى الإذعان هى ايضا ، ونصلى من اجله معا ، ونخاف معا ، ثم ننام ! وإذا دخل الشيطان نفسه البيت ليلا فماذا نخشى؟ ليس عندنا ما نخاف عليه. ومعنا دائما ما هو اقوى من كل قوى . والشيطان يمكن ان يمر بيننا ولكنه لا يجسر على دخوله على كل حال ، لان الله يسكنه ! واخى لم تعد به حاجة إلى ان يقول لى شيئا الآن ، فانا افهمه من غير ان يتكلم . ونحن نتكل على عناية الله بالكامل . وهكذا ينبغى ان نكون ونحن نعيش مع رجل وهبه الله عظمة الروح .

« وارجو يا سيدتى العزيزة ان تطلبى من قريبك غبطة الكردينال ان يذكرنا فى صلواته » .

باتستين

- ١٠ -

الأسقف أمام ضياء مجهول

وفى فترة تالية لتاريخ الرسالة التى اوردنا جانبا منها فى الفصل السابق اقدم الأسقف على عمـل ، كان فى نظـر المدينة باسرها اشد مجازفة من رحلته فى الجبال وسط قطاع الطرق . فقد كان بالقرب من مدينة (د) فى الريف رجل يعيش متوحـدا . وكان هذا الرجل — إذا قلنا الحق بلا مواربة — عضوا قديما فى مجلس ميثاق الثورة الفرنسية واسمه (جـ) .

وكان مجتمع مدينة (د) الصغير يتكلم عن هذا الميثاقى (جـ) بشىء من الفزع. اتدرى ما معنى كلمة « الميثاقى » ؟ كان معناها فى ذلك الحين مرادفا لمعنى الوحشى الكاسر ، وهو من بقايا ذلك العهد الذى كان لقب كل فرنسى فيه هو «المواطن». ولم يكن قد اقر إعدام الملك لويس السادس عشر ، ولكنه كان اشبه بمن وافقوا عليه . فهو إذن « شبه قاتل الملك » . وكان رجلا فظيعا . وقد تتساءل كيف لم يقدم للمحاكمة فور عودة امراء فرنسا الشرعيين بعد سقوط نابليون ؟ ربما قلت انه من الجائز عدم الحكم بإعدامه . ولكن ليس اقل من الحكم عليه بالنفى المؤبد إن وجبت الشفقة به ، كى يكون مثلا وعبرة ، وما إلى هذا . ثم هو ملحد سافر ، مثل كل هذه الطغمة . وهكذا دائما ثرثرة الأوز عن النسور الجوارح !

ولكن هل كان (جـ) نسرا حقا ؟ اجل ، إذا نظرنا إلى

ما فى عزلته الضارية من شراسة . ولكن السبب فى عــدم تعقبه بأى عقوبة راجع إلى انه لم يصوت لإعـــدام الأسرة المالكة ، ولذا لم يدرج اسمه فى قائمة المحكوم عليهم بالنفى ، وهكذا بقى فى فرنسا . ولكنه نفى نفسه بنفسه عن مجتمع الناس .

كان يقطن على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة من المدينة ، بعيدا عن كل النجوع ، وعن كل الطرق والدروب ، فى ثنية منعزلة مجهولة من واد جبلى موحش . ويقال إن له هنـــاك حقلا ، وجحرا يدعوه عرينه ، بلا جيران ، بل ولا يمر به احد فى غدو أو رواح . ومنذ نزل هذه البقعة طمس العشب الدرب المفضى إليها ، وكان الناس يتحدثون عن منزله بمثل الرعب الذى يتحدثون به عن بيت الجلاد !

وبينما كان الأسقف يفكر وهو يتطلع بين الحين والحين إلى الأفق من حوله ، ويرى موضعا نبتت فيـــه اجمـــة من الأشجار ، هى العـــلامة المميزة للوادى الذى يقطنه هـــذا الميثاقى ، جعل يقول فى نفسه : « هناك ولا شك تعيش نفس فى عزلة ووحشـــة ! » .

وكان يضيف إلى هذا فى اعماق فكره : « إنى إذن مدين له بالزيارة ! » .

ولكن لنعترف ان هذه الفكرة ، التى كانت لأول وهلة طبيعية جدا ، بدت له بعد لحظة تفــكير ، وكأنهـــا غريبـــة ومستحيلة ، بل تكاد تكون منفرة ، لأنه فى اعماق نفســه كان يشارك الناس انطباعهم العام ، وكان هذا الميثاقى يوحى

إليه — من غير ان يشعر بذلك شـــعورا واضـــحا — بذلك الإحساس الذى يتاخم الكراهية ، وتعبر عنه خير تعبير كلمة « التباعد » . ولكن ايليق بالراعى ان يتراجع امام داء الجرب فى الشـاة ؟ كلا ! ولكن يالها من شاة !

ومع هذا ظل الأسقف الطيب متحيرا ، وكان يمضى احيانا فى هذا الاتجاه ، ثم ينكص على عقبيه . واخيرا شـاع فى المدينة ان راعيا صغير السن كان يقوم على خدمة هذا الميثاقى (جـ) فى مأواه قد هبط إلى المدينة ليأخذ إليه طبيبا ، وان ذلك الوغد المسن على شفا الموت ، لأن الشلل حاق به ، وانه لا ينتظر له أن يعيش حتى صباح الغد . وعلق بعضهم على هذا بقوله :

— الحمد لله !

ولم يتردد الأسقف . تناول عصـــاه ، ولبس معطفه — لأن « رستاميته » كانت بالية بعض الشىء كما قلنا آنفا — وايضا لأن ريح الليل لن تلبث أن تهب ، وتوكل على الله .

وكانت الشمس قد جنحت للمغيب وكادت تمس حافة الأفق ، عندما وصل الأسقف إلى المكان المنبوذ من رحمة الله والكنيسة . واكتشف انه صار قريبا من الوجد ، فخفق قلبه ، واجتاز خندقا ، ثم سياجا ، ودخل إلى فناء خرب ، وخطا عدة خطوات وهو يستجمع شجاعته ، وفجأة ، فى اقصى الأرض البور ، وراء اعشاب برية طويلة ، لمح المغارة !

وكانت هذه المغارة عبارة عن كوخ منخفض جدا ، فقير جدا ، وصغير ولكنه نظيف ، وقد ثبتت لى واجهته بمسمار تكعيبة عنب . وامام الباب ، فى كرسى عتيق ركبت له عجلات

ويشبه مقاعد الفلاحين ، جلس رجل ابيض الشعر يبتسم للشمس . وبالقرب من الشيخ الجالس وقف صـبى ، هو الراعى الصغير ، يقدم للشيخ كوزا من اللبن .

وفيما كان الأسقف ينظر ، رفع الشيخ صوته قائلا للصبى : « شكرا . لم اعد بحاجة إلى شىء » .

وتحولت ابتسامته عن الشمس واسـتقرت على ذلك الغلام الصغير . وتقدم منه الأسقف ، فالتفت الشيخ عنـد سماع وقع خطاه ، وارتسمت على محياه كل علائم الدهشة التى يمكن أن ترتسم على وجه عاش طويلا فى عزلة تامة ، وقال : « منذ حللت بهذا المكان ، هذه اول مرة يدخل فيهـا إنسان بيتى . من انت يا سيدى ؟ » .

فاجابه الأسقف : « اسمى بينفينى ميرييل » .

— بينفينى ميرييل . لقد سمعت هذا الاسم يذكر أمامى . اهو انت من يسميه الناس سيدنا بينفينى ؟

— هذا انا !

فاستطرد الشيخ بنصف ابتسامة : « انت اسقفى ؟ » .

— إلى حد ما . . .

— ادخل يا سيدى .

وبسط الميثاقى يده إلى الأسقف ، ولكن الأسـقف لم يتناولها . واكتفى بقوله : « انا مسرور إذ ارى ما قيل لى غير صحيح ، فانت يقينا لا تبدو لى مريضا » .

فقال الشيخ : « سيدى . . إنى سـأموت بعد ثلاث ساعات ! » .

ثم استطرد بعد برهة صمت : « انا على معرفة بشىء من الطب . واعرف كيف تحين الساعة الأخيرة . فبالأمس لم تكن البرودة سارية إلا فى قدمى . واليوم سرت البرودة منهما إلى ركبتى . والآن أحس انها صعدت إلى الخاصرة . وعندما تصل الى القلب سيتوقف . الشمس جميلة ، أليس كذلك ! لقد جعلت الغلام يدفع مقعدى إلى الخارج كى القى نظرة اخيرة على الأشياء . وفى وسعك أن تكلمنى . فهذا لا يتعبنى. وقد صنعت خيرا إذ حضرت لترى رجلا يموت . فمن الخير أن يكون لهذه اللحظة شهود . وكانت امنيتى أن اظل حيا إلى طلوع الفجر ، ولكنى أعرف اننى لن أعيش اكثـر من ثلاث ساعات . وسيكون الليل مخيما . ولكن ما قيمة هذا ؟ فالنهاية امر غاية فى البساطة ، ولسنا بحاجة إلى الصباح كى ننتهى من الحياة . ليكن إذن . سأموت فى ضوء النجوم اللامعة ! » .

والتفت الشيخ إلى الراعى الصغير وقال : « اذهب انت ونم . فقد سهرت طول الليلة الماضية . وانت مجهد » .

ودخل الغلام الصغير إلى الكوخ . وتبعه الشيخ بعينيه ثم قال كمن يحدث نفسه : « بينما ينام هو سـأموت انا ، فالإغفاءتان يمكن ان تتجاورا » .

ولم يشعر الأسقف بتأثر كما كان يتوقع ، لأنه لم يحس روح الله فى هذه الميتة . ولنقل الحق كله : لقد كان الأسقف يشعر بصدمة لانه لا يخاطبه « يا سيدنا » ، وكاد يرد عليه بقوله : ايها المواطن . ومع هذا شـعر بأن هـذا الميثاقى المحتضر كان فى يوم من الأيام من اقـوياء الأرض واصـحاب



إن الأسقف من جهته تحاشى الفضول لما فيه
من شـــبهة الإســـاءة فى نظـــره ..

السلطان فيها، ولعلها اول مرة فى حياة الأسقف شعر فيها بميل إلى الشدة ! .. ومع هذا كان الميثاقى يتأمله بمودة وتواضع ، ولعله تواضع المذعن عندما يدنو اجله ويعلم انه موشك ان يتحول إلى تراب .

ومع أن الأسقف من جهته تحاشى الفضول لما نيه من شبهة الإساءة فى نظره . إلا انه لم يتمالك نفسه من تفحص الميثاقى بانتباه شديد ليس مبعثه التعاطف . فقد كان انطباعه عن اى ميثاقى انه شخص خارج على القانون ، بل ومطرود من قانون الصدقة والرحمة !

اما (جـ) فكان هادئا ، منتصب الصدر تقريبا ، وصوته مجلجل رنان ، فهو من ذلك النمط من أبناء الثمانين الضخام الذين يثيرون دهشة عالم وظائف الأعضاء . وكانت الثورة حافلة بعدد كبير من أولئك الرجال الذين تتناسب قامتهم وقوتهم البدنية مع تلك الحقبة . ولذا يشعر المرء فى ذلك الميثاقى الشيخ بأنه امام رجل صارع المحن . فها هو وهو على وشك النهاية يحتفظ بكل علامات الصحة — وفى نظرته الصافية ، ونبرته الحازمة ، وحركة كتفيه القوية ، ما يناقض الموت ، بحيث يتصور المـــرء ان عزرائيل ملك الموت يتردد امامه ، ويحسب انه اخطأ العنوان ! ومع هذا فهو يعلم انه على شفا الموت ، ولا اعتراض له على هذا ، ففى احتضـــاره حـــرية اختيار ! وساقاه وحدهما لا حراك بهما ، فالظلمة استولت عليه من هذه الناحية . وقدماه ميتتان باردتان ، اما الرأس فحى بكل قوة الحياة وتدفقها ، ويبدو فى كامل إشراقه . فكان

(جـ) فى هذه اللحظة الرهيبة يشبه ملك الحكاية الشرقية الذى نصفه العلوى لحم ودم ، ونصفه الأدنى من الرخام !

وكانت على الأرض صخرة ، فجلس الأسقف عليها ، وقال بصوت يشى بالملام : « إنى اهنئك . فانت على كل حال لم تصوت لإعدام الملك ! » .

وبدا كأن الميثاقى لم يفطن للمغزى الضمنى المرير لقوله « على كل حال » واجابه بلا ابتسام : « لا تبالغ أو تسترسل فى تهنئتى يا سيدى ، فقد صوتت لنهاية الطاغية ! » .

وهكذا واجهت نبرته الصارمة النبرة الملائمة . فسأله الأسقف : « ماذا تعنى ؟ » .

— أردت ان أقول إن الإنسان عليه طاغية جبار هو الجهل . وقد صوتت لنهاية هذا الطاغية ! وهذا الطاغية ، الجهل ، انجب الملكية ، وهى سلطة قائمة على باطل . أما العلم فسلطان قائم على الحقيقة . والإنسان ينبغى الا يحكمه إلا العلم !

فأضاف الأسقف : « والضمير ! ؟ » .

— هما نفس الشىء . فالضمير هو كمية العلم الفطرى فى داخلنا .

واصغى سيدنا بينفينى لهذا الكلام بشىء من الدهشة ، لأنه لغة جديدة على سمعه . واستطرد الميثاقى : « اما عن موت لويس السادس عشر فقد قلت لا ! فلست ارى لنفسى الحق فى قتل إنسان ، ولكن من واجبى استئصال شأفة الشر . لقد صوت لنهاية الطاغية والطغيان ، اى نهاية دعارة المرأة ،

ونهاية استرقاق الإنسان ، ونهاية الظلام والهزال للطفل . وبالتصويت للجمهورية صوت لكل هذا : للإخاء والوئام ، والفجر ! لقد ساعدت على سقوط التحيز والأهواء والأخطاء . وانهيار الأهواء والأخطاء معناه إشراق النور والضياء . لقد أسقطنا العالم القديم ، وبانهيار العالم القديم الذى كان حماة الشقاء ، انبثق للنوع البشرى ينبوع الفرح والبهجة .

فقال الأسقف : « فرح مشوب ! » .

— فى وسعك ان تقول انه فرح مضطرب ، واليوم وقد عاد الماضى الفظيع الذى تسمونه ١٨١٤ ، اختفى الفرح تماما. واأسفاه ! ان العمل لم يتم . هذا ما أوافقك عليه ، فقد قوضنا النظام القديم فى الأحداث ولكننا لم نقض عليه تماما فى عالم الأفكار . فالقضاء على المساوىء لا يكفى ، بل يجب تغيير العرف ، ودخائل النفوس ، ان الطاحونة لم يعد لها وجود ، ولكن الريح لم تزل تهب كما كانت !

— لقد هدمت . والهدم يمكن أن يكون نافعا ، ولكنى ارتاب واتوجس من الهدم الممزوج بالغضب !

— إن للحق غضبة يا سيدى الأسقف ، وغضبة الحق عنصر من عناصر التقدم . ما علينا ! ومهما قيل فالثورة الفرنسية اكبر خطوة تقدم خطتها البشرية منذ مجىء المسيح . قد تكون ناقصة ، ليكن ! ولكنها جليلة ! لقد حررت كل المغبونين اجتماعيا ، وارهفت النفوس والأفكار ، وهدأت وانارت ، وافاضت على وجه الأرض موجات دافقة من المدنية! كانت شيئا حسنا . إن الثورة الفرنسية هى تتويج البشرية !

ولم يتمالك الأسقف نفسه فصاح : « هكذا ؟ و ٩٣ ؟ » .

فانتفض الشيخ فوق مقعده فى جد رهيب ، وصاح بأعلى صوت يملكه محتضر : « ها أنت تقول ٩٣ ! وكنت انتظر هذه الكلمة . لقد تجمع السحاب خمسة عشر قرنا من الزمان، وإذا به بعد خمسة عشر قرنا ينفجر . وها أنت تحاكم قصف هذا الرعد ! » .

وشعر الأسقف ان هذا الكلام اصاب شيئا فى داخله ونال منه . ومع هذا تماسك وقال : « القاضى ينطق باسم العدالة ، والكاهن ينطق باسم الرحمة ، التى هى فوق العدل . وليس لقصف الرعد ان يخطىء ؟ » .

ثم أردف وهو يثبت نظره فى الميثاقى : « ولويس السابع عشر ؟ » .

فمد الميثاقى يده وامسك بذراع الأسقف وقال : « لويس السابع عشر ! على من تراك تبكى؟ أعلى الطفل البرىء؟ ليكن إذن ، وانا ابكى عليه معك . أم على الطفل الملكى ، ولى العهد ؟ عندئذ اطلب منك مهلة للتفكير . واذكر لك الطفل شقيق « كارتوش » ، وهو أيضا طفل برىء شنقوه فى ميدان (لاجريف) — الاعتصاب — بباريس حتى الموت ، بلا جريرة على الاطلاق سوى انه شقيق كارتوش . وهذا ليس اقل إيلاما واقل جدارة بالغضب من قتل الطفل حفيد الخامس عشر ، الذى استشهد فى برج (التامبل) بلا جريرة على الإطلاق سوى انه كان حفيد لويس الخامس عشر !

فقال الأسقف : « سيدى انا لا احب هذه المقاربة بين الأسماء ! » .

— اسمى لويس الخامس عشر وكارتوش ؟ لمن منهما تأسى وإلى من منهما تنضم ؟

وسادت لحظة صمت . وكاد الأسقف يندم على الحضور ، ومع هذا شعر بهزة غريبة . واستطرد الميثاقى : « آه يا سيدى الكاهن ! أنت لا تحب فجاجة الحق ! اما المسيح فكان يحبها ، لذا أمسك بسوط ونظف الهيكل ، وكان سوطه ناطقا بالغ العنف بالحقيقة . وعندما قال : « تعالوا إلى ايها الصغار وبسطاء القلب ! » . لم يميز بين مراتب ومقامات الأطفال . ولم يكن يضيق بالجمع بين سليل اللص باراباس وسليل الملك هيرود. يا سيدى! إن براءة الطفولة فى حد ذاتها تاج لكل الأطفال يزرى بكل تيجان الملوك ! ولا شأن للطفولة بألقاب السمو الملكى ، لأنها عين السمو الأصيل ، بلا حاجة إلى شعار الملكية !

فقال الأسقف عندئذ بصوت خفيض : « هذا حق ! » . واستطرد الميثاقى (جـ) : « ولكنى مصر على المضى فى الموضوع . لقد ذكرت اسم لويس السابع عشر ، فلنتفاهم. وتعال لنبكى على كل الأبرياء وعلى كل الشهداء وعلى كل الأطفال ، من العلية كانوا أو من اهل الحضيض . وانا معك فى هذا . ولكن علينا — كما قلت لك — ان نصعد إلى ما قبل ١٧٩٣ ، ويجب ان نبدأ بذرف دموعنا على من استشهدوا من الأطفال قبل لويس السابع عشر . سأبكى على أطفال الملوك معك ، بشرط ان تبكى معى على أطفال عامة الشعب » .

فقال الأسقف : « إنى أبكى على الجميع » .

فصاح (جـ) : « على قدم المساواة ! وإذا كان لكفة أن ترجح ، فلتكن كفة أبناء الشعب ! فقد طال عليهم جدا تحمل المظالم » .

وساد الصمت مرة أخرى . وكان الميثاقى هو الذى قطعه ، فرفع إحدى يديه وتناول قطعة من لحم خده بين إبهامه وسبابته ، كما يفعل المرء بصورة آلية حين يستجوب ويحكم ، وسأل الأسقف بنظرة طافحة بكل حيوية الاحتضار ، وكأنه ينفجر : « نعم ياسيدى . طال جدا على الشعب معاناة المحن والمظالم . ففيم تأتى اليوم لتسألنى عن لويس السابع عشر ؟ أنا لا أعرفك . ومنذ حللت هذا الاقليم وأنا أقيم داخل هذا السور وحيدا ، ولم أضع قدمى خارجه مرة واحدة ، ولم أر أحدا ، سوى هذا الطفل الذى يساعدنى . أجل إن اسمك وصل إلى سمعى ، وأعترف أنه ترامى إلى محمود السيرة غير سيىء الصفحة ، ولكن هذا لا يعنى شيئا . فالبارعون من الناس يجيدون إيهام الخلق من سواد هذا الشعب بما يشاءون . وبهذه المناسبة ، أنا لم أسمع صوت عجلات مركبتك الفاخرة . ولا أشك أنك تركتها وراء هذه الأجمة ، عند تفرع الطريق . أقول لك أنى أعرفك ، وقلت لى إنك الأسقف ، ولكن هذا لا يطلعنى على خلقك ومعدنك . ولذا أكرر عليك سؤالى : من أنت ؟ أنت أسقف ، أى أمير من أمراء الكنيسة ، أو واحد من أولئك الرجال المذهبيين ، أصحاب الايرادات الضخمة والامتيازات الكبيرة الفخمة . فأسقفية (د) معناها خمسة

عشر ألف فرنك راتبا ثابتا ، وعشر آلاف فرنك أخرى للنثريات والانتقالات . والمجموع خمسة وعشرون ألف فرنك فى السنة . وأمثالك لهم مطابخ ، وخدمهم يلبسون الكسى المطرزة ، وطعام أمثالك أفخر الطعام ، ويروحون ويغدون وأمامهم ووراءهم الحجاب فى مركبة للتشريفة ، وأخرى للنزهات وثالثة للجبل ، وتقيم فى قصر باذخ ، كل هذا باسم يسوع المسيح الذى كان يمشى حافى القدمين ! أنت أمير من أمراء الكهنوت له قصر وهيلمان وخيول ومائدة فاخرة وكل أطايب الحياة . وتستمتع بها كالآخرين . وكل هذا حسن ولكنه لا يدل على شىء . أو لا يدل دلالة على معدنك كانسان ومدى سمو روحك ، بما يتيح لك أن تأتى لتعلم مثلى الحكمة . فإلى من أتحدث الآن ؟ ومن عساك تكون بالضبط ؟ » .

فأغضى الأسقف وقال باللاتينية : « دودة من ديدان الأرض ! » .

فزمجر الميثاقى : « دودة فى مركبة فارهة ! » .

— فقد جاء دور الميثاقى ليستعلى ، وجاء دور الأسقف ليغضى ويتضع . وقال الأسقف فى عذوبة : « ليكن يا سيدى ! ولكن فسر لى كيف تثبت عربتى الفارهة التى تجثم وراء الأشجار بخطوتين . وكذلك مائدتى الحافلة بأطايب الطعام ، والخمسة وعشرون ألف فرنك التى أتقاضاها كل عام ، وقصرى وحجابى .. كيف يثبت هذا كله أن الرحمة ليست فضيلة ، وأن الشفقة ليست واجبا ، وأن ١٧٩٣ لم يكن بلا رحمة !؟ » .

فمر الميثاقى بيده على جبهته ، كانما ليبعد عنه سحابة ،
وقال : « قبل ان اجيبك ارجوك ان تصفح عنى ، فقد اخطأت
الآن يا سيدى . فانت هنا فى دارى ، انت إذن ضيفى ، ومن
واجبى مجاملتك والتلطف معـــك . وحين تناقش افكارى .
ينبغى ان اكتفى بالرد على حججك وتفنيدها . وثروتك ومتعك
إنما هى مزايا اقف ضدها فى المناظرة ، ولكن حسن الذوق
يقتضى منى الا استخدمها . واعدك الا اعود إلى استخدامها .

فقال الأسقف : « اشكرك ! » . واستأنف (جـ) كلامه :
« ولنعد الآن إلى التفسير الذى طالبتنى به . أين كنا ؟ ماذا
كنت تقول لى ؟ أن ١٧٩٣ كانت خلوا من الرحمة ؟ » . فقال
الأسقف : اجــل خلوا من الرحمـــة . ما رايك فى « مارا »
MARAT وهو يصفق للمقصلة ؟

— وما رايك فى بوسييه ينشد « المجد لله ! » بمناسبة
مذابح امر بها الملك ؟

وكان الرد قاسيا ، ولكنه نفذ إلى الصميم كسن السيف
الفولاذى . وانتفض الأسقف ، ولم يخطر على باله اى رد ،
ولكنهاستاء من ذكر بوسييه على هذه الصورة.. وبدأ الميثاقى
يلهث ، وقد اصابته ازمة الاحتضـــار التى تختلط بالانفـــاس
الأخيرة ، فتقطع صوته ، ومع هذا ظلت نظرات عينيه تامة
الصفاء ، واستطرد : « لنتكلم برهة اخرى .. إنى يا سيدى
ارثى لمصير مارى انطوانيت الأرشيدوقة والملكة ، ولكنى أرثى
ايضا لتلك المراة من الهيجنوت (البروتستنت) التى كانت فى
سنة ١٦٨٥ — تحت حكم لويس العظيم — ترضع طفلها ،

فقيدوها عارية الصدر حتى الخاصرة إلى عمود محرقة ،
وابقوا الطفل على مسافة منها ، وكان ثديها منتفخا باللبن ؛
وقلبها يكاد ينفجر من الكرب ، ولما راى الطفل الجائع هذا
الثدى راح يصرخ وقال الجلاد للأم المرضع : « ارتدى !
انكرى عقيــدتك ! » وخيرها بذلك بين موت ابنهـــا وموت
ضميرها . فماذا تقول فى هذا التعذيب لأم ؟ تذكر هذا جيدا
يا سيدى : إن الثورة الفرنسية كانت لها اسبابها . والغضب
يستحق المغفرة فى سبيل المستقبل . ونتيجتها عالم افضل .
ومن ضرباتها الشديدة الوقع نجمت هدهدة للبشرية . وهذه
هى الخلاصة السريعة . فانى أموت .. » .

وكف الميثاقى عن تثبيت نظره فى الأسقف ، واتم فكرته
بهذه الكلمات الهادئة : « اجل ! ان وحشية التقدم تسمى
ثورة . وعندما تنتهى نكتشف هذا : أن النوع البشرى عومل
بفظاظة ، ولكنه دفع للسير إلى الأمام » .

ولم يشك الميثاقى انه استولى تبـــاعا على المعـــاقل
الداخلية للأسقف . معقلا فى إثر معقل ، ولكن بقى مع هذا
معقل واحد هو سر مقاومة سيدنا « بينفينى » ، ومنه خرجت
هذه العبارة التى لعلها تحمل كل خشونة بداية النقاش : « إن
التقدم ينبغى ان يؤمن بالله . والخير ينبغى الا تكون وسيلته
كافرة . والملحد قائد ورائد سيىء للنوع البشرى ! » .

ولم يرد ممثل الشعب المسن . بل ارتجف ، ونظر إلى
السماء وطفرت إلى مقلتيه دمعة . ولما غصت بها اجفانه
سالت الدمعة على وجهه الشاحب ، وقال بصوت خفيض كأنه

يخاطب نفسه ، وعينه تائهة فى اعماق السماء : « انت : ايها المثل الاعلى ! انت وحدك الموجود ! » .

فاعترت الأسقف رجفة لا توصف . وبعد لحظة صمت رفع الشيخ اصبعا إلى السماء وقال : « اللامتناهى كائن . إنه هناك ! ولو لم يكن للامتناهى ذات لكانت الذات حدا له ونقصا ، ولما كان لا متناهيا . وبعبارة اخرى لما كان كائنا . ولكنه كائن ، فله إذن ذات . وهذه الذات هى اللامتناهى . هى الله ! » .

وكان المحتضر قد لفظ هذه الكلمات الاخيرة بصوت عال وارتجافة نشوة ، كأنما كان يرى شخصا ما . ولما انتهى من كلامه اغمض عينيه ، وقد أنهكه الجهد . وكان واضحا انه عاش فى دقيقة واحدة بضع الساعات التى كانت باقية له . وحلت اللحظة القصوى .

وفهم الأسقف قوله . وها هو الوقت يجرى ، وهو الذى جاء بوصفه كاهنا ، وإذا به ينتقل من اقصى البرودة شيئا فشيئا إلى الانفعال الأقصى ، ونظر إلى عينيه المقفلتين ، وتناول تلك اليد المعروقة الباردة وانحنى على المحتضر وقال : « هذه الساعة هى ساعة الرب . الا ترى انه من المؤسف ان يكون لقاؤنا عبثا ؟ » .

ففتح الميثاقى عينيه ، وانطبعت على محياه قتامة الظلال فى ناظريه وقال ببطء لعله راجع إلى هيبة الروح اكثر من رجوعه إلى هبوط القوى :

ــ سيدى الأسقف ! لقد قضيت حياتى فى التأمل والدرس . وكنت فى الستين عندما نادانى وطنى وكلفنى بالاهتمام بأموره ، فلبيت النداء ، وقد اساء البعض استخدام السلطة ، وحدث تجاوز وجور ، وقد قاومت هذا ، وكان هناك طغيان ، وقد هدمته . وكانت هناك حقوق ومبادىء ، وقد اعتنقتها وناديت بها . وغزيت اراضينا فدافعت عنها، وكانت فرنسا مهددة فعرضت صدرى من دونها ، ولم اكن غنيا ، فانا رجل فقير . وصرت من أسياد الدولة . وكانت اقبية البنك تكاد تنفجر من كثرة ما بداخلها من النقود الذهبية والجواهر والنفائس ، اما انا فكنت اتغدى فى شارع الشجرة الجافة مقابل ٢٢ سنتيما . وساعدت المسحوقين ، ورفهت عن المنكوبين . اجل انى مزقت ستار المذبح ، ولكن لكى اضمد به جراح الوطن . وقد ساعدت دائما وايدت مسيرة النوع البشرى نحو التقدم والنور ، وقاومت احيانا التقدم بلا رحمة. وفى بعض الأحيان حميت خصومى . ففى (الفلاندر) دير للقديسة « كلير » فى (بولييه) انا الذى انقذته فى سنة ١٧٩٣ . وقد اديت واجبى فى حدود قدراتى ، وفعلت ما استطعت من الخير . وبعد ذلك طردت وطوردت وشوهت سمعتى وسخروا منى ولعنونى . ومنذ سنوات طويلة ، وقد اشتعل الراس شيبا ، صار الناس يرون من حقهم احتقارى ولعنى . الناس الذين هم الشعب الذى عشت له ! ولكنى اتقبل هذا ، ولا احقد على احد ، وانا اعيش فى عزلة فرضتها على الكراهية والاحتقار . والآن وانا فى التسعين ، ها انذا اموت . فماذا اتيت تطلب منى ؟

فقال الأسقف : « بركاتك ! » .

وركع أمامه . ولما رفع الأسقف رأسه كان الميثاقى قد لفظ أنفاسه .

* * *

ورجع الأسقف إلى بيته غارقا فى أفكار لا علم لأحد بها . وقضى الليلة كلها فى الصلاة ، وفى اليوم التالى حاول بعض الفضوليين أن يحملوه على الكلام عن الميثاقى (ج) . فاكتفى برفع أصبعه إلى السماء .

وبدءا من هذا اليوم ضاعف حنانه وإخاءه للصــغار والتعساء والمرضى . وكانت كل إشارة — كسابق العهد — إلى ذلك « الشيخ الوغد (ج) » تجعله يغوص فى انشــغال بال غريب . ولا يستطيع أحد أن يجزم بأن مرور هذه النفس أمام نفسه ، وأن انعكاس هذا الضمير الكبير على ضميره التقى لم يكن له أثره فى اقتراب الأسقف من الكمال .

وطبيعى أن هذه « الزيارة الرعوية » كانت مثار لغط لدى الأوساط الفارغة :

— أكان فراش موت هذا المحتضر مكانا ملائما لائقــا بوقوف الأسقف عنده ! طبعــا لم يكن هنــاك مجال لتبشيره بالدين ، ولا ينتظر لمثله ارتداد عن كفره . وجميع الثوريين كفرة . فلماذا كان الذهاب إذن ؟ ماذا كان هناك يمكن أن يراه ؟ اللهم إلا حضور الشيطان ليسترد روحه ؟ !

وذات يوم وجهت إليه سيدة عجوز من العلية — تخال نفسها ذكية ساخرة — هذه الغمزة :

— يا سيدنا ! إن الناس يتساءلون متى تحصل نيافتك على « القلنسوة » الحمراء !

(والكردينال يلبس قبعة حمراء . والثوريون يلبسون قلنسوة حمراء) .

فأجابها الأسقف على الفور :

— ياله من لون فظيع . ولكن من حسن الحظ أن من يبغضونه فى « القلانس » يجلونه فى القبعات !

———

- ١١ -

تحديد واجب

يتعرض المرء للتردى فى الخطأ إذا ما استخلص مما تقدم ان سيدنا بينفينى كان « اسقفا فيلسوفا » او « كاهنا وطنيا » فإن لقاءه ، او لنقل احتكاكه بالميثاقى (ج) تركت فى نفســه بالأكثر نوعا من الدهشة جعله اشد رقة وعذوبة . وهــذا كل شىء .

ومع ان سيدنا بينفينى لم يكن رجل سياسة ، الا ان ها هنا مقام ذكر موجز لموقفه من احداث ذلك الحين ، هــذا على فرض انه فكر إطلاقا فى ان يكون له موقف !

لنعد إذن إلى الوراء بضع سنين .

بعد أن رقى سيدنا بفترة إلى كرسى الاسقفية ، جعله الإمبراطور « بارونا » ، مع نخبة اخرى من الاساقفة . وحدث بعدها إلقاء القبض على البابا فى ليلة ٥ ــ ٦ يوليو ١٨٠٩ ، وبهذه المناسبة استدعاه نابليون لحضور سنودس (مجمع) اساقفة فرنسا وإيطاليا بباريس . وانعقــد هــذا المجمع فى كاتدرائية نوتردام ، وعقد اول جلساته فى ١٥ يونيو ســنة ١٨١١ ، برئاسة غبطة الكاردينال فيش . وكان ميرييل من بين ٩٥ اسقفا حضروه . ولكنه لم يشهد إلا جلسة واحدة ، وثلاثة او اربعة مؤتمرات خاصة . ولما كان اسقفا ريفيا ، يعيش فى ابروشية جبلية ، فى احضان الطبيعة ، وعن كثب من

العراء ، لذا بدا عليه انه يجلب إلى جد هؤلاء السادة المرفهين بعض بروده ابروشيته . وسرعان ما عاد إلى (د) . ولما سئل عن سبب سرعة عودته ، اجاب : « كنت مصدر ضيق لهم . كانما آتيهم بالهواء الخارجى إلى قلب القاعة . فأحسوا انني بمثابة باب مفتوح فى زمهرير الشتاء ! » .

وفى مرة اخرى قال : « وماذا تنتظرون ؟ هؤلاء السادة امراء . وانا لست إلا اسقفا ريفيا ! » .

والواقع انه اثار السخط . ففى ذات مرة كان مدعوا عند احد زملائه بباريس ، فهاله البذخ فى الأثاث والرياش . وصاح مستنكرا : « فى الدنيا جياع كثيرون . وعراة كثيرون يشكون غائلة البرد ! ما اكثر الفقراء ! ما اكثرهم ! » .

ولنقل بهذه المناسبة إن كراهيته للترف لم تكن كراهية ذكية ، لأنها كانت تشمل فى طواياها كراهية الفن . ولكن الترف عند رجال الكنيسة ــ فيما عدا الاحتفالات الدينية ــ خطأ كبير ، لانه يكشف عن طبائع ليست رحيمة بفطرتها . والكائن المكتنز يوحى بالتناقض . فمن واجب الكاهن أن يتخذ مكانه مع الفقراء ، وفى صفوفهم ، كى يتسنى له ليل نهار ان يلمس آلامهم واحزانهم وجراحهم ، وعليه ان يشارك فى هذه التعاسة بشخصه . مثلما يكسو الغبار المسافر فى طريق المشقات ! امن الممكن أن نتصور من يعمل عن كثب من أتون من غير ان يشعر بلفح حرارته ؟ ومن غير أن يحترق بعض شعره ، وتسود أظافره ، ويتصبب عرقه ، ويعلو السناج محياه ؟ فأول دليل على الرحمة الحقيقية عند الكاهن ، وعند الأسقف بخاصة ، هو فقره شخصيا .

وهذا بالتاكيد ما كان يعتقده نيافة الأسقف « بيريبل بينفيني » ، ولكن ليس معنى هذا انه كان يدس نفسه فى الخلافات الفكرية فى عصره ، أو يخوض فى المناقشات اللاهوتية ، ولا يتعرض لما حدث فيه حل وسط بين الدولة والكنيسة . ولكن بما اننا نرسم صورة امينة للأسقف ، فمن واجبنا ان نذكر انه كان « ثلجيا » فيما يتعلق بنابليون فى ايام افول نجمه . فمنذ سنة ١٨١٣ صار يساند أو يصفق لكل المظاهرات المعادية له . ورفض ان يقابله عند مروره بمدينته فى طريق عودته من جزيرة إلبا ، ورفض التصريح بإقامة الصلوات العامة فى كنائس ابروشيته للامبراطور فى فترة حكم المائة يوم .

وكان للأسقف إلى جانب اخته الآنسة باتستين شقيقان احدهما جنرال والآخر محافظ . وكان كثيرا ما يكتب إليهما . واحيانا كان يشتد على الجنرال ، لأنه كان متوليا قيادة فى الجنوب ، ولما نزل نابليون على شاطىء (كان) ، تعقبه الجنرال على رأس ١٢٠٠ جندى ، بأسلوب من يريد تهيئة السبل له كى يفلت . اما مراسلاته لأخيه المحافظ السابق فظلت ودية . وكان هذا الأخ منذ تقاعده يعيش بباريس فى شارع كاسيت .

ونفهم من هذا ان سيدنا كانت له ايضا جوانبه الحزينة المريرة برغم اهتمامه العميق بالأمور الأبدية . ويقينا انه كان الاجدر بمثله الا تكون آراء سياسية . ولكننا لا نعنى بهذه الآراء السياسية تحريم الاهتمام بتقدم البشرية والإيمان بالوطن

والديمقراطية ، وهى الأمور التى صارت لان لباب كل فكر حر كريم العنصر . ولكننا نريد فقط ان نقول إن سيدنا الأسقف ما كان ينبغى له ان يكون متعصبا للملكية ، كى ينصرف بكليته إلى ما يعلو على الخلافات والشقاقات الضيقة المتعصبة العارضة ، ويتوجه بمجموع فكره إلى الأمور الثلاثة العظمى ، وهى الحقيقة والعدل والرحمة .

ومع اعترافنا ان الله لم يخلق سيدنا بينفينى لمهمة سياسية على الاطلاق ، إلا اننا نفهم ونعجب باحتجاجه باسم الحق والحرية ومعارضته الأدبية ومقاومته الخطرة والعادلة لنابليون فى ذروة استبداده . ولكن ما نعجب به من معاداة السلطان الصاعد ، لا ينصرف إلى الشماتة بالسلطان الآفل . فنحن لا نحب المعارك إلا ضد الأقوياء ، لأنها معارك محفوفة بالخطر بعكس المعارك ضد الساقطين . وعلى من لزم الصمت ايام مجد الطاغية ، ولم يوجه إليه أصبع اتهام ، ان يلزم الصمت أيضا عند سقوطه . فالعدو لأيام النصر هو وحده صاحب الحق الشرعى فى الادانة بعد الهزيمة .

ولكن فيما عدا هذا كان الأسقف عادلا وصالحا فى كل شىء ، وصادقا ، ومنصفا ، وذكيا ومتواضعا وأبيا ومحسنا . كان كاهنا ، وكان حكيما ، وكان إنسانا . بل انه حتى فى موقفه السياسى الذى انحينا عليه فيه باللائمة كان سمحا ومتسامحا . ومن آيات ذلك ان بواب مجلس المدينة كان قد عين هناك بأمر الإمبراطور ، وكان صف ضابط مسنا من الحرس القديم ، وحضر معركة استرلتز ، وبونابرتيا متعصبا . وندت منه اقوال

خطيرة بعد سقوط نابليون وعودة الملكية ، مما يصفه قانون تلك الأيام بانه « إثارة للشقاق الوطنى » . وكان يهزأ علنـــا من لويس الثامن عشر ويقول عنه : « ليعد بلحيته التى تشبه لحية التيس إلى بروسيا ! » .

وطبعا فصلوه من عمله ، وصار بلا مورد هو وزوجته واولاده ، فاســتدعاه الأســقف وانبه بلطف وعينـــه بوابا للكاتدرائية .

– ١٢ –

عزلة سيدنا بينقينى ومعتقداته

هناك دائما حول كل أسقف كوكبة من صغار القسوس، اشبه بالضباط الشبان الذين يحيطون بكل جنرال . وهؤلاء من سماهم احيانا القديس «فرنسوا دى سال» القسوس الأغرار. وهكذا دائما لكل صاحب منصب من اى نوع حاشية وبطانة وبلاط خاص، طالبا للمنافع وفرص الوصول والترقى. وهكذا كل مطران له أركان حربه . وكل أسقف له بعض النفوذ يحيط به جماعة من صغار الرهبان الشـــبان تحفظ النظـــام فى قصر الأسقف ، وتقف للحراسة حوله ، وتتسقط ابتسامة سيدنا الذى بيده مراتب الكهنوت فى ابروشيته .

ولم يكن سيدنا بينقينى بتواضعه وفقره الواضح من هذا القبيل ، وكان هذا واضحا من اختفاء هالة المتملقين من حوله . ولا سيما بعد دعوته من مجمع الأساقفة فى باريس ، وقد عرف الجميع انه لم يصادف لدى الكبار قبولا . وبذلك عاش فى عزلة تامة . وكان كهنته جميعا من المسنين الطيبين الذين لا طموح لهم . فلا سبيل إلى الترقى او التقدم فى ظل هذا الأسقف .

●

واما بخصـــوص عقيدته فلا يســـعنا إلا ان نقف موقف الاحترام . وضمير الرجل الصالح ينبغى أن يكون محل تصديق بمقتضى كلامه . ولكننا فى الوقت نفسه نستطيع ان نتصـــور الفضيلة تتفتح وتزدهر فى ظلال عقيدة مخالفة لعقيدتنا .

أما ماذا يعتمل فى نفسه عن هــذه المســالة او تلك من مسائل العقيدة ، فهذا شيء لا يمكن ان يعــرف إلا بعد نزول النفس إلى القبر ، لانها هناك فقط تنضو عنهــا كل أرديتها واثوابها . وكل ما تستطيع ان تقطع به الآن انه ما من معضلة من معضلات العقيدة وجدت حلها فى نفسه الطاهرة عن طريق الرياء . فلا يمكن ان يتطرق العفن إلى الألماس ! لقــد كان الأسقف بينفينى يؤمن على اقصى ما فى وسعه من الإيمان . فهو يؤمن بالأب السماوى ضابط الكل . وبهذا كان يصيح احيانا كثيرة ثم ينغمس فى اعمال الخير والبر بأقصى طاقته ، بما يكفى ضميره اليقظ ، فيقول له :

— انت هكذا مع الله !

وينبغى علينــا ان نذكر للأســقف ان محبته كان تفوق إيمانه ، وما كان إيمانه قليلا هينا ! ولذا كان الجادون المتزمتون من الناس يعيبون عليه إفراطه فى المحبة . وكذلك كان يعيبها عليه « العقلاء » و « المتزنون » و « اهل الوقار » ، وهى كلها تعبيرات عصرية يسترون بها انانيتهم المتحذلقة !

وماذا كان هذا الإفراط فى المحبة ؟

كان سماحة مطمئنة تتجاوز البشر ، وتشمل الحيوانات، بل والجمادات . فهو إنسان يعيش بدون زراية لأحد أو شيء ، فهو متســامح مع كل مخلوقــات الله . وكل شــخص — حتى الأفاضيل من الناس — فيه قسوة تصدر بلا روية قد يختص بها الحيوان . أما أسقف (د). فلم تكن فيه قط هذه القســوة ، التى تشاهد بصفة خاصة مع هذا فى بعض القسوس . اجل إنه لا يذهب إلى درجة البرهمية فى محبــة الحيوان ، ولكنه فيما يبدو تأمل كثيرا هذه الآية من سفر الجامعة :

— من ذا يعرف اين تذهب أرواح الحيوانات ؟

وقبح اشكال الحشرات لم يكن يزعجه او يثير استنكاره. بل يرق له ويتأثر به ، وكأنه يفتش وراء هذا المظهر القبيح او الشائه عن حكمــة خفيفة او علة او تفســير . وفى كثير من الأحيان كان يتوسل إلى الله ان يخفف قصاص المذنبين ، وكان يتأمل ما فى العالم من فوضى بلا غضب ، ويطلب من الله الرحمة والاصلاح . وهذه المشاعر كانت تحمله احيانــا على التفوه بأقوال غريبة . ومن ذلك انه كان ذات يوم فى حديقته . وهو يحسب نفسه بمفرده ، ولكن اخته كانت تسير خلفه من غير ان يراها . وفجأة وقف عن السير ، ونظــر إلى شيء ما فــوق الأرض ، وإذا به عنكبوت ضخم أسود كثيف الشــعر فظيع المنظر ، وسمعته اخته يقول :

— يا للحيوان المسكين ! ليس هذا ذنبه !

ولماذا لا تقال هذه التعبيرات الطفلية شبه الإلهية الدالة على الطيبة ؟ انها من قبيل الطفوليات ، ولكن هذه الطفوليات الجليلة كانت هى بعينهــا افكار وخواطر القديس فرانسوا الأسيسى ، ومرقص اوريليوس ، وقد حدث انه ذات يــوم التوت قدمه التواء شديدا ، وهو يتحاشى ان يدهم بها نملة !

وهكذا كان يعيش هذا الرجل الصالح . كان أحيانا ينام وهو فى الحديقة ، فيزيده ذلك جلالا . ولئن صدق ما قيل عن صدر حياته ، وكيف كان رجلا يفيض فحولة ، دافق الحيوية ، متقد العاطفة سريع الغضــب إلى حــد العنف ، فوداعته الحالية الشاملة لم تكن غريزة طبيعية فيه ، بل هى بالاكثر ثمرة

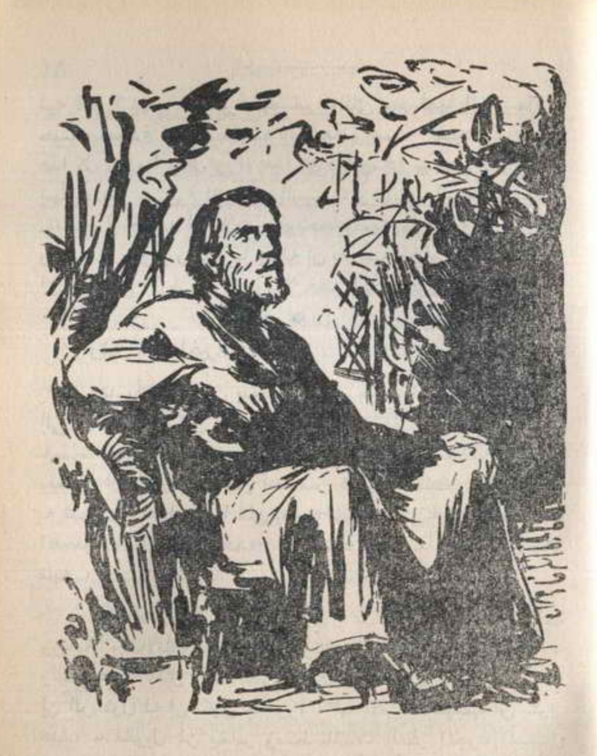
اقتناع عميق ترسب فى قلبه على امتداد حيـــاته ، ورسخ فى أعماقه فكرة بعد فكرة ، ففى الطباع ، كما فى الصخور ، يمكن أن توجد ثقوب صنعتها قطرات الماء . وهذه الحفر فى الصخر الصلد لا يمكن محوها ، وأشكالها لا تقبل الفناء .

وفى سنة ١٨١٥ بلغ سن الخامســـة والسبعين ، ولكنه كان يبدو وكأنه لم يتجاوز الستين . ولم يكن طويل القامة ، وكان على شىء من الســمنة ، وللقضاء عليهـــا كان يســير مسافات طويلة على قدميــه . وحين يمشى تكون خطـــواته ثابتة ، ولم يكن فيه انحناء كثير . ولسنا نستخلص من هذا شيئا ذا أهمية خاصة . لأن جريجوار السادس عشر وهو فى الثمانين من عمره كان منتصب القامة باسم الثغر ، ولكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يكون أسقفا سيئا ! وكان لسيدنا بينفينى ما يسميه الناس « رأسا جميلا » ، ولكن سماحة محياه كانت تنسيهم أنه جميل !

وعندما كان يتحدث بهذا المرح الطفـــولى الذى كان من سماته ، كان الناس يرتاحون إليه ويأنسون بقربه ، إذ يحســون أن البهجة تشع من كيانه كله . ولونه الأزهر الناضر ، وكل أسنانه البيضاء التى احتفظ بها كاملة وتفتر عنهـــا ابتسامته العذبة ، كانت تضفى عليه هذه السماحة وذلك اليسر الذى يجعل الناس تقول عن رجل : إنه طفل طيب ، وعن شيخ إنه رجل طيب ! وكان هذا ــ كما ذكرنا آنفا ــ هو الأثر التلقائى الذى تركه فى نابليون . فلأول وهلة يدرك من يراه أنه أمام رجل طيب فعلا . ولكنك إذا قضيت معه بضع ساعات تبدل

إحساسك ، وطغى على شعورك بطيبته ، شعورك بأنك أمام رجل مهيب . فله جبهة عريضة جليلة بما يكللها من شعر أبيض كالثلج ، وفى أوقات التأمل يشع من جبينه نور عجيب . ولكن هذه المهابة لا تناقض الطيبة بل تنضـــاف إليها وتتوجهـــا . وما أشبه ذلك الاحساس بما تشعر به حين ترى ملكا كريمـــا يبتسم ثم يفتح جناحيه ببطء من غير أن يكف عن الابتســـام : عندئذ تدرك أنك أمام إنسان قوى الروح ولكنه سمح متسامح ، له فكر بالغ القوة ولكنه بالغ العذوبة !

وكما رأينا ، كان كل يوم من أيام حياته حافلا بالصلاة ، وإقامة المراسم الدينية ، والصـــدقات ، وتعزيـــة المنكوبين ، وزراعة ركن من الأرض ، وواجبات الإخاء ، مع التقشف التام ، والضيافة ، وإنكـــار الذات ، والثقـــة ، والدرس ، والعمل الدائب . أجل كانت أيامه ملآنة حتى الحافة بالأفكار الطيبة والأقوال الطيبة والأعمال الطيبة . ولكنها لم تكن لتكمل على ما يهوى ويحب ، ولو أن الجو البارد أو المطر منعه من قضاء ساعة أو ساعتين فى حديقته الصغيرة بعد إيواء المرأتين إلى مخدعيهما . ويبدو أن هذا كان نوعا من الشعائر ــ يتهيأ به للنوم بالتأمل أمام منظر السماء فى الليل . وأحيانا ــ فى ساعة متأخرة من الليل ــ إن لم تكن العجـــوزان قد نامتا ، كانتا تسمعان خطاه البطيئة فى مماشى الحديقة . فهو هناك وحده مع ذاته ، وادعيا ، هادئا ، يتعبد ، وهو يقـــارن طمأنينة نفسه بطمأنينة الأثير ، وقد هزه فى دجى الليل مرأى المجرات والنجوم ، ومن ورائها أمجاد الله الخفية ، فيفتح نفسه للأفكار التى تتوافد عليها من المجهول .



وكان يجلس فوق اريكة خشـبية متكئة إلى عريشة عنب هرمة ، ويتطلع إلى النجوم ..

وفى هذه اللحظات يهب قلبه للساعة التى تمنح فيها الازاهير شذاها ، فيلوح فؤاده كالشعلة المتالقة فى ظلمة الليل الذى تزينه النجوم ، ويشع نورانية وسط نورانية الخليقة الكونية ، ولعله ما كان فى تلك اللحظات يستطيع ان يقول ماذا يشعر به وماذا يجول بفكره . وكل ما هناك انه يحس شيئا يطير منه ، وشيئا يتسلل إلى داخله . ويا له من تبادل تعجز عنه الأفهام بين غيابات الروح وغيابات الكون !

كان يفكر فى عظمة المثول بين يدى الله ، وفى الأبدية المقبلة ، وأسرارها الغريبة . وفى الأبدية الماضية ، واسرارها الأعجب ، وفى كل اللامتناهيات التى تغوص أمام عينيه فى كل اتجاه . ومن غير ان يحاول فهم ما لا سبيل إلى فهمه ، كان ينظر إليه . لم يكن يدرس الله ، بل كان مبهورا به . وكان يتأمل تلاقى هذه الذرات العجيبة التى تقدم لنا وجوه المادة ، وتخلق فرديات فى قلب الوحدة الشاملة ، وترسم نسبا فى الامتداد ، واللامعدود وسط اللامتناهى ، وبالضياء تجلو لنا هذا الجمال . وتلاقى هذه الذرات دائب العقد والحل . ومن ثم ما نسميه الحياة والموت !

وكان يجلس فوق اريكة خشبية متكئة إلى عريشة عنب هرمة ، ويتطلع إلى النجوم من بين تلك الأشجار الضاوية المثمرة . فهذه الحديقة الصغيرة المزدحمة بابنية قبيحة كانت عزيزة عليه جدا ، وكانت فى نظره أكثر من كافية ..

وماذا ينبغى لهذا الشيخ اكثر من هذا ، وهو يقسم وقت فراغه — وما اقله — بين زراعة البستان فى النهار ، والتأمل

فيه ليلا ؟ فهذه الحظيرة الصغيرة التى سـقفها السـماء ، حسبه لعبادة الله فى خليقته البديعة واعماله المجيدة . أليس هذا كل شيء ! وهل وراء هذا شيء ؟ وماذا يشتهى اكثر منه ؟ إنها حديقة صغيرة للنزهة والسير ، وهى فى الوقت نفسه منفسح لا حد له للتأملات . وتحت قدميه ما يمكنه أن يزرعه ويجنيه ، وفوق رأسه ما يمكنه أن يدرسه ويتأمل فيه ! بضعة ازاهير على الأرض ، ونجوم لا حصر لها فى عنان السماء !

●

وثمة كلمة اخيرة .

وقد يذهب الظن ببعض الناس — فى ضوء ما ذكرناه — إلى ان الأسقف كان ذا فلسفة خاصة ، على غرار ما يشهد عصرنا من فلسفات تنمو لدى أهل العزلة والاعتكاف والتأمل . وينبغى ان نقول إنه ما من احد ممن عرفوا الأسقف بينفيني ظن به شيئا من هذا . فما كان يضيء نفسه ليس عقله او فلسفته الذهنية ، بل قلبه وحده . وحكمته جمعا ، مصدرها انوار قلبه .

فهو ليس رجل مذهب فكرى ، بل رجل اعمال بر ومحبة ورحمة . فالأفكار المجردة تؤدى إلى الدوار الشطحات . وليس هناك دليل واحد على انه عامر بفكره فى هذه الظلمات . إن الرسول له ان يكون جسورا ، اما الأسقف فيجب ان يكون هيابا . فالويل لمن يغامر وسط ظلمات الفكر المجرد المستقل بنفسه !

إن عباقرة الإيمان يرفعون افكارهم إلى الله ، فتكون

صلاتهم مناقشة فكرية أحيانا . وتكون توسلاتهم اسئلة . وهذا هو الدين المباشر ، الحافل بالقلق والمسئولية . وقد يكون هناك أناس يرتفعون فوق المستوى العادى ويلمحون وراء الظواهر ذرى المنطق ، بحيث تحيط ابصارهم بآماد الجبل المترامى بغير حدود . هؤلاء قلة من العباقرة . ولكن أسقفنا لم يكن منهم . فهو يفرق فزعا من مهاوى الجنون التى يمكن ان يطل على شفاها امثال « سويد نبرج » و « بسكال » . وما من شك ان هذه الشطحات القوية لها منافعها المعنوية والخلقية ، وعن هذا الطريق يمكن الوصول إلى الكمال المثالى . اما هو فلم يكن من هؤلاء ، ولا يسلك دروبهم ، بل يسلك الدرب القصير ، أقصر الدروب واوثقها ، الا وهو الإنجيل .

لذا لم يكن يلقى اى ضوء مستقبلى على ظلمات الأحداث ، ولم يحاول قط أن يكثف اضواء الأشياء ليجعل منها شعلة . لم يكن فيه شيء من النبى ، ولا شيء من المجوسى . فهذه النفس المتواضعة كان لها هم واحد : الا وهو المحبة .

وممكن جدا أن يتسامى بصلاته إلى آفاق ومطامح فوق البشرية ، ولكنه لم يكن يسأل الله إلا المزيد من القدرة على المحبة . وكان يحنو على من يئن ويتوجع ، ويبدو له الكون كله كما لو كان مرضا هائلا . وأحيانا كان يشعر بالحمى تجتاح كل شيء ، فيحاول التخفيف من الآلام من غير أن يحاول الكشف عن اللغز . فأدواء العالم كانت تملأه بالحنان والرفق ، وكان كل اهتمامه منصرفا إلى معرفة خير الطرق للتسرية عن المنكوبين والحزانى . وكل ما فى الموجود فى نظره موضوع للعطفه والحدب والرحمة .

ولئن كان هناك من يشتغلون باستخراج الذهب ، فقد كان هو مشغولا ومشتغلا ليل نهار باستخراج الرحمة . وكانت التعاسة الكونية الشاملة منجمه الكبير . فكل مذهبه يتلخص فى هذه الآية :

« احبوا بعضكم بعضا » .

وذات يوم قال له ذلك الكونت عضو مجلس الشيوخ الذى يدعو نفسه فيلسوفا : « الا ترى هذا العالم ؟ الجميع فى حرب ضد الجميع . والأقوى هو الأذكى . وقولكم : « احبوا بعضكم بعضا » إن هو إلا حديث خرافة وسخف ! » . فأجابه الأسقف بدون ملاحاة او مجادلة : « إن كانت هذه خزعبلة ، فعلى الروح أن تنغلق داخلها كما تنغلق اللؤلؤة داخل صدفتها ! » .

وهكذا كان يفعل الأسقف . فهو حبيس الصدفة ، لانه كان لؤلؤة المحبة والرحمة ... فهو لا يناقش الغاز الوجود ، بل يشاهدها من الخارج ، ولا يسمح لها ببلبلة فكره !

الكتاب الثانى

العـــــثرة

- ١ -
مساء يوم انقضى فى السير

فى أوائل شهر اكتوبر سنة ١٨١٥ ، قبل غروب الشمس بحوالى ساعة ، دخل مدينة (د) الصغيرة رجل كان مسافرا على قدميه . ونظر السكان القليلون جدا الذين كانوا فى هذه اللحظة مطلين من نوافذهم او واقفين على عتبات دورهم إلى هذا المسافر بشىء من القلق . فمن العســير ان تلقى عــابر سبيل تدل مظاهره على بؤس اشد من بؤســـه . وكان رجلا متوسط القامة ، ربعة عريض الأكتاف قوى البنية ، فى عنفوان العمر . وكانت تغطى جانبا من وجهه قلنسوة ذات طنف امامى من الجلد ، ووجهـــه محترق بفعل الشمس والهــواء اللافح ويتصبب منه العرق . وقميصه المصـــنوع من قماش اصـــفر خشن مثبت حول العنق بهلب من الفضة يكشف عن صـــدره الكثيف الشعر . ويتدلى من عنقه رباط عنق تحول إلى حبـــل مفتول وسرواله من قماش قطنى أزرق ، رث وبال ، ابيض عند إحدى ركبتيه، وثقب عند ركبته الأخرى، وله سترة عتيقة رمادية مهلهلة . حيكت بالدوبارة عنـــد احد كوعيه بقطعة من قماش اخضر ، وفوق ظهره غرارة جندى شـــديد الامتلاء . محكمة الإغلاق والربط ، جديدة تماما ، وفى يده عكاز ضخم كثير العقد ، وقدماه بلا جورب ، فى حذاءين لهما مسامير من الحديد ، ورأسه مجزوز ولحيته طويلة .

وكان العـــرق . والحرارة ، والرحلة على الأقدام ، والتراب ، تضيف كلها جوا من القذارة المنفرة إلى هذا المظهر الرث . ومع ان شعره كان مجزوزا . إلا انه شائك ، لأنه كان قد بدا ينبت ، وواضح انه لم يعرف القص منذ امد طويل .

ولم يكن احد يعرفه ، فما هو إلا عابر ســـبيل . من اين اتى ؟ من الجنوب . وربما كان قادما من شاطىء البحر ، لأنه دخل مدينة (د) من عين الشارع الذى شهد قبل ذلك بسبعة اشـــهر مرور الإمبراطـــور نابليون ، وهو ذاهب من كان إلى باريس . ولا بد أن هذا الرجل ظل ماشيا طيلة نهاره ذاك ، فقد كان بادى التعب . وقد رآته نســـاء الحى القديم القائم اسفل المدينة يقف تحت اشجار شـــارع (جاسندى) ويشرب من الينبوع الذى فى نهـــاية المشى . ولا بد أنه كان عطشانا جدا ، لأن اطفالا رأوه — وهم يتبعونه — يقف مرة اخـــرى ويشرب بعد مسيرة مائتى خطوة من نبع فى ميدان الســـوق .

ولما وصل إلى ركن بشارع (بواشيفير) دار إلى اليسار واتجه صوب مقر عمـــدة المدينة فدخله ، ثم خرج بعـــد ربع ساعة . وكان شرطى جالسا قرب الباب على مقعد من الحجر، فخلع الرجل قلنسوته وحيا ذلك الشرطى باتضاع . ولم يرد الشرطى تحيته ، بل رمقه بنظرة يقظة ، وتبعه بنظراته برهة من الوقت ، ثم دخل مقر الحكومة .

وكان فى مدينة (د) فى ذلك الحين مطعم وخان يحمـــل لافتة (صليب كولبا) . وكان صاحب هذا الخان رجل يسمى

« جاك لابار » ، وهو رجل له اعتبــاره فى المدينة لقرابته من لابار آخر يملك فى مدينة جرينو بل خان (أولياء العهد الثلاثة) وكان قد خدم فى كتيبة المرشدين . وعنــدما نزل الإمبراطور إلى البر ، سرت إشاعة فى الإقليم عن خان أولياء العهد الثلاثة هذا ، وقيل إن الجنرال برتران نزل به عدة مرات متنكرا فى زى صاحب عربة نقل . فى شهر يناير ، وانه وزع اوســمة على الجنود وجنيهات ذهبية على اهل الطبقة الوسطى . والواقع ان الإمبراطور عنــد دخوله جرينوبل رفض النــزول فى قصر المحافظة ، وشكر العمدة قائلا له : « بل سأذهب للنزول عند رجل شهم أعرفه » .

وتوجه إلى خان اولياء العهد الثلاثة . وقد انعكست هذه المفخرة للمسيو لابار صاحب خان « أولياء العهد الثلاثة » على مبعــدة خمسة وعشرين فرسخا على قريبه لابار الآخر صاحب خان « صليب كولبا » ، فكان يقال عنه فى المدينة : « إنه ابن عم « لا بار » (جرنوبل) » .

واتجه الرجل صوب هذا الخان ، الذى كان افضل نزل ومطعم فى الناحية ، ودخل المطبخ الذى كان بابه مفتوحا على الشارع مباشرة ، فإذا جميع الأفران والمواقد مشتعلة ، ونار عظيمة تتأجج بمرح فى المدفأة . وكان رب الخان هو نفســه الطاهى يتنقل بين الأوانى منهمكا فى مراقبة عشاء فاخر يعد لحفنة من مدحرجى البراميل كان ضحكهم يدوى بصــخب فى القاعة المجاورة ، وكل من سافر فى هذه النواحى يعــرف ان هذه الفئة من احسن الناس بذخا فى طعامهم . لذا كان الطباخ

يطهو شواء شهيا من طيور واسماك كبيرة من صيد بحيرة الوز وبحيرة لوزيه .

ولما سمع صاحب الخان الباب يفتح ويدخل منه قــادم جديد ، قال من غير أن يلتفت أو يرفع عينيه عن افرانه :

— ماذا يريد السيد ؟

فقال الرجل :

— أن آكل وأنام .

فقال صاحب المنزل :

— لا شىء اسهل من هذا .

وفى هذه اللحظة ادار راسه ، وشمل هذا المسافر بنظرة خاطفة واردف :

— بشرط ان تدفع الثمن .

فاخرج المســافر كيس نقود من الجلد من جيب سترته وقال :

— معى نقود .

فقال الرجل :

— فى هذه الحالة . نحن فى خدمتك .

فوضع الرجل كيسه فى جيبه ، وانزل كيسه عن كتفه . فوضعه على الأرض قرب الباب ، واحتفظ بعصاه الغليظة فى يده وذهب فجلس فوق كرسى مطبخ منخفض قرب النــار ، لأن (د) تقع فى منطقة الجبال ، وامسيات اكتوبر باردة .

ومع هذا ظل صاحب النزل فى غدوه ورواحه يختلس النظر إلى المسافر .

وساله الرجل :

ــ هل سنتعشى قريبا ؟

فقال رب النزل :

ــ حالا .

وبينما كان القادم الجديد يستدفىء وظهره إلى صاحب النزل ، اخرج المسيو لابار المحترم قلم رصـاص من جيبه ، وقطع قصاصة من صحيفة قديمة كانت على إحـدى الموائد قرب النافذة ، وعلى الهامش الأبيض كتب بضع كلمات وطوى القصاصة من غير ان يقفلها واعطاها لطفل يبدو انه يعمل عنده صبيا فى المطبخ وخادما فى الوقت نفسه ، وهمس صاحب النزل بكلمة فى اذن المرمطون الصغير ، فأسرع هذا الطفل يجرى فى اتجاه مقر العمدة .

ولم يكن المسافر قد فطن إلى شىء من هـذا كله . ولم يلبث أن سال مرة اخرى :

ــ هل سنتعشى قريبا ؟

ــ حالا !

عاد الطفل ، أعطى الورقة لرب النزل الذى بسطها فى لهفة ، شان من ينتظر ردا ، وبدا عليه الاهتمام بما يقرأ ، ثم هز راسه وظل برهة يفكر ، واخيرا تقدم خطوة من المسافر الذى كان باديا عليه الاستغراق فى خواطر غير سعيدة ، وقال له :

ــ سيدى ! ليس فى استطاعتى استقبالك !

فنهض الرجل من مقعده بعض الشىء ، وقال :

ــ كيف اتخشى الا ادفع ؟ اتريد منى ان انقــدك الثمن مقدما ؟ معى نقود ، قلت لك .

ــ ليس الأمر هكذا .

ــ ما هو إذن ؟

ــ انت معك نقود .

فقال الرجل :

ــ اجل .

فقال رب النزل :

ــ انا ليس عندى حجرة .

فقال الرجل بهدوء :

ــ ضعنى فى الإسطبل .

ــ لا استطيع .

ــ لمــاذا ؟

ــ لأن الخيل تحتل المكان كله .

فعاد الرجل يقول :

ــ ليكن ! يكفينى ركن فى مخزن الحبــوب . حزمة من القش . سندبر هذا بعد العشاء .

ــ ولا استطيع ايضا ان اقدم لك العشاء !

فبدا هذا الاعلان الهادىء الحازم خطير للمسافر الغريب .

ــ عجبا ! ولكنى أكاد اموت جوعا . لقد مشيت على قدمى منذ طلوع الشمس . مشيت خمســة عشر فرسخا . ومستعد أن ادفع . وأريد أن آكل .

فقال رب النزل :

ــ ليس عندى شىء !

فانفجر الرجل ضــاحكا ، والتفت إلى المدفاة والأفران صائحا :

ــ لا شىء ؟ وهكذا كله ؟

ــ هذا كله محجوز .

ــ لمن ؟

ــ للسادة الذين بالداخل .

ــ كم عددهم ؟

ــ اثنا عشر .

ــ ولكن هذا طعام يكفى عشرين !

ــ لقد حجزوا كل شىء ودفعوا الثمن مقدما .

فعاد الرجل للجلوس ، قال من غير أن يرفع صوته :

ــ أنا فى الخان . وجائع . وسأبقى .

فمال رب الخان عندئذ فوق اذنه وقال له بلهجة جعلته يرتجف :

ــ اخرج من هنا !

كان المسافر منحنيا فى هذه اللحظة يدفع بكعب عصــاه الحديدى جمرات متناثرة إلى النار ، فالتفت بحدة ، ولما فتح فاه ليرد على صاحب الخان ، رمقه صاحب الخان بنظرة ثاقبة واردف بنفس الصوت الخفيض :

ــ اسمع ! لا داعى للكلام اكثر من هذا . اتحب ان اقول لك ما اسمك ؟ انك تدعى « جان فلجان » . فهل تريد الآن ان

اقول لك من انت ؟ عنــدما رايتك تدخــل ارتبت بالأمر ، وارسلت إلى مقر العمدة ، وهاك الرد . أتعرف القراءة ؟

ومد إلى الغريب الورقة مبســوطة ، تلك الورقة التى ذهبت من الخان إلى مقر العمدة وعادت من مقر العمدة إلى الخان ، والقى الرجل عليها نظرة . واستطرد رب الخان بعد صمت :

ــ من عادتى أن اكون مهذبا مع كل الناس . أخرج من هنا !

فخفض الرجل راسه ، وحمل كيسه الذى كان قد وضعه على الأرض ، وانصرف .

ومشى فى الشارع الكبير ، ومضى إلى الأمام حيثما اتفق وهو يرمق البيوت بنظرة رجل ذليل حزين ، ولم يلتفت وراءه لحظة واحدة ، ولو كان التفت لكان ابصر صــــاحب خــان « صليب كولبا » على عتبــة بابه ، ومن حوله جميع نزلائه ، وجميع عابرى الســبيل فى هــذا الشــارع ، يتكلمون بحدة ويشــيرون إليــه بأصابعهم . ولكان أدرك من نظرات الهلع والتوجس أن وصوله إلى المدينة سيكون حدث ذلك اليــوم الذى يدور على جميع الألسنة .

لم ير شيئا من هذا كله ، فالمهمومون من الناس لا يلتفتون وراءهم . ولكنهم موقنــون أن النحس يمشى فى ركابهم اينمــا حلوا .

وظل ماشيا على هذا النحو فترة من الوقت ، ســالكا الشوارع التى لا معرفة له بها . وقد نسى تعبه ، كما يحدث

فى حالات الهم واليأس . وفجأة احس لذعة الجوع . وها هو الليل يقترب . فتلفت حوله عسى ان يجد لنفسه مأوى او ملاذا .

إن الخان الراقى قد أغلق ابوابه فى وجهه ، فراح يفتش عن حانة متواضعة . ولمح ضوءا يلمع فى نهاية الشارع ، وغصنا من الصنوبر معلقا من ذراع حديدية ، فاتجه إليه . وكان بالفعل حانة ، وهى الحانة التى فى شارع (شاتو) .

ووقف المسافر لحظة ، ونظر من زجاج النافذة إلى داخل قاعة الحانة المنخفضة التى يضيئها مصباح فوق مائدة ، وبها نار عظيمة فى المدفأة . وهناك بضعة رجال يشربون الخمر ، ورب الحانة يستدفىء ، والنار تغلى فوقها قدر من الحديد الأبيض .

ولهذه الحانة — التى هى ايضا خان — بابان . احدهما مطل على الشارع ، والآخر يفضى إلى فناء صغير غاص بالسماد العفن .

ولم يجسر المسافر على الدخول من باب الشارع ، فتسلل إلى الفناء ، وتوقف قليلا ، ثم رفع اكرة الباب على استحياء ودفع الباب . فقال رب الحانة :

— من هناك ؟

— شخص يريد أن يتعشى وينام !

— هذا حسن . الناس هنا يتعشون وينامون .

فدخل ، والتفت إليه كل الجالسين للشراب ، وسقط نور المصباح على احد جنبيه ، واضاءت نار المدفأة جانبه

الآخر وتفحصته العيون برهة بينما هو ينزل كيسه عن كاهله . وقال رب الخان :

— هاك النار ، والعشاء ينضج فى القدر . اقترب واستدفىء يا رفيق .

فمشى وجلس قرب الموقد ، ومد إلى النار قدميه المنهكتين من التعب ، وكانت رائحة طيبة تفوح من القدر . وكل ما تسنى للرجال مشاهدته من تحت قلنسوته ذات الطنف هو علائم الصحة التى تمتزج بأمارات المعاناة .

إلا انه كان سحنة جانبية حازمة ، قوية ، تفيض اسى . فقد كان تركيبه الجسمى غريب التكوين ، فهو فى البداية يوحى بالتواضع ، ولكنه فى النهاية يدل على القسوة . وعيناه تتألقان تحت حاجبيه الكثين ، مثلما تأتلق النار تحت العوسج .

ولكن احد هؤلاء الرجال الجالسين كان صياد سمك وكان قبل دخوله الحانة فى شارع (شاتو) قد توجه لإيداع حصانه فى حظيرة لابار . وتشاء الصدفة أن يكون فى صباح هذا اليوم نفسه قد قابل هذا الرجل الغريب السيىء المنظر ماشيا بين براداس و ... اسكوبلون على ما اظن . ولما قابله هذا الرجل الهادى كان يبدو حينئذ مجهدا طلب منه أن يردفه على حصانه ، ولم يرد عليه صياد السمك إلا بالاسراع فى طريقه مبتعدا عنه . وهذا الصياد ايضا كان قبل نصف ساعة ضمن المجموعة التى احاطت بجاكان لابار ، وروى لهم بنفسه فى خان « صليب كولبا » مقابلته الصباحية مع ذلك المسافر الغريب ، واشار صياد السمك وهو فى مكانه إلى

صاحب الحـــانة ، فجاء إليه وتبادلا بضع كلمات بصــوت منخفض ، وكان الرجل قد استغرق فى خواطره .

واقبل رب الحانة إلى المدفاة ، ووضع يده فجـــاة على كتف الرجل وقال له :

— ستخرج من هنا !

فالتفت إليه الغريب وأجابه بعذوبة :

— آه ! هل عرفت ؟

— نعم !

— لقد طردت من الخان الآخر .

— ونحن نطردك من هنا ايضا .

— واين تريدنى أن اذهب ؟

— إلى مكان آخر ..

فتناول الرجل عصاه وكيسه وانصرف .

وعند خروجه وجــد غلمانا كانوا قد تبعوه من « صليب كولبا » ويبدو انهم كانوا فى انتظاره ، فرشــقوه بالحجارة ، فنكص على عقبيه فى غضب وهددهم بعصاه الغليظة ، فتفرق الصغار كسرب من العصافير .

ومر من أمام باب السجن ، وعلى الباب سلسلة متصلة بناقوس ، فرن هذا الناقوس ، وفتحت كوة فى الباب ، وقال الرجل وهو ينزع قلنسوته باحترام :

— يا سيدى البواب ! هلا فتحت لى الباب وآوتينى هذه الليلة ؟

فنكص على عقبيه فى غضب وهـــددهم بعصـــاه الغليظة ، فتفرق الصغار كسرب من العصافير ..

واجابه صوت :

— السجن ليس نزلا . دعهم يقبضـــوا عليـــك اولا ، وعندئذ ينتح لك هذا الباب !

واغلقت الكوة .

ودخل شارعا صغيرا ، فيه حدائق كثيرة ، وبعضها ليس مسورا إلا بحشـــائش وشجيرات ، فاضفى ذلك على الشارع الصغير بهجة . ومن بين هذه الحدائق والأســوار النباتية ابصر بيتا صغيرا من طابق واحد كانت نافذته مضيئة، فنظر من خلال زجاجهـــا مثلما فعل فى الحانة ، فاذا حجرة كبيرة مطلية بالجير، وبها فراش عليه مفرش من الحرير الهندى المطبوع ، وبندقية ذات فوهتين معلقة على الحائط، وفى الركن مهد ، وفى الوسط بضع مقاعد من الخشب ومنضـــدة عليهـــا الوان من الطعام . ومصباح من النحاس الأصفر يضىء المفرش الأبيض الغليظ ، وفوق المفرش إبريق من القصـــدير اللامع كالفضة ملآن بالنبيذ ، وبجواره وعاء الحساء البنى يتصاعد منه الدخان . وقد جلس إلى هذه المائدة رجل فى نحو الاربعين من عمره ، وجهـــه طلق مبتهج ، يلاعب طفلا صـــغيرا فوق ركبتيه . وبقربه امراة حديثة السن ترضع طفلا آخر . والأب كان يضحك ، والطفل كان يضحك والأم كانت تبتسم .

ولبث الغريب برهة كالحالم أمام هـــذا المشـــهد العذب الهادىء المهدىء . فماذا تراه كان يعتمل فى داخله ؟ هو وحده الذى يملك الإجابة عن هذا السؤال . ولعله ظن ان هذا البيت السعيد بيت مضـــياف ، وانه ها هنـــا حيث راى كل هـــذه السعادة ، لعله خليق ان يجد ايضا شيئا من الرحمة . .

وطرق زجاج النافذة طرقة خفيفة جدا . فلم تسمع .

وطرق مرة اخرى .

وسمع المراة تقول :

— يبدو لى — يا زوجى — أنى سمعت طرقا .

فأجابها الزوج :

— لا .

وطرق مرة ثالثة .

ونهض الزوج ، واخذ المصباح واتجه إلى الباب ففتحه .

وكان رجلا طويل القامة ، نصفه فلاح ، ونصفه صانع . فهو يلبس مرولة واسعة من الجلد ترتفع إلى كتفه الأيسر ، وتطل منها مطرقة صغيرة ومنديل أحمـــر ووعـــاء ذرور وكل ما يمكن للحزام ان يحمله عوضا عن الجيب ، ومال براســه إلى الخلف ، فكشف قميصه عن عنقه الذى يشبه عنق الثور ، ولكنه أبيض اللون . وله حاجبان كثيفان ، وسالفان غزيران اسودان ، ونصف وجهه الأسفل اشبه بخطم حيوان أو دابة، ولكنه مع هذا يبدو مسترخيا شأن الرجل المخلد للراحة فى بيته .

وقال له الغريب :

— عفول يا سيدى . أفى إمكانك — إذا دفعت المقابل — ان تقدم لى صفحة حساء وركنا ابيت فيه فى ذلك المخزن الذى اراه بالحديقة ؟ قل. امكن هذا . . . إذا دفعت الثمن ؟

فسأله رب الدار :

— من انت ؟

فأجابه الرجل :

— إنى قادم من بوى مواسون . وقد مشيت طول النهار . فقطعت اثنى عشر فرسخا . أممكن هذا الذى طلبته ؟ إذا دفعت ؟

فقال الفلاح :

— أنا لا أرفض إيواء شخص يدفع الأجر ، ولكن لماذا لا تذهب إلى الخان ؟

— ليس به مكان .

— هذا غير ممكن ! فليس اليوم يوم سوق ولا يوم مولد . اذهبت إلى لابار ؟

— نعم .

— ثم ماذا ؟

فأجابه المسافر فى حرج :

— لا أدرى . لقد أبى قبولى .

— هل ذهبت إلى الحانة فى شارع شافو ؟

فازداد حرج الغريب ، وغمغم :

— لم يقبلنى هو أيضا .

فاكتسى وجه الفلاح بسوء الظن ، وتفحص القادم الطارىء من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، وفجأة صاح بما يشبه الانتفاضة :

— العلك ذلك الرجل الذى ... ؟

والقى نظرة أخرى على الغريب ، وتراجع إلى الخلف ثلاث خطوات ، ووضع المصباح على المائدة ، وتناول بندقية من على الحائط .

وكانت المرأة قد نهضت عند سماع زوجها يسأله :

— العلك ذلك الرجل الذى ... ؟

واخذت طفليها بين ذراعيها واسرعت بالتوارى وراء زوجها ، وهى ترمق الغريب بفزع ، عارية النحر ، والارتياع يطل من عينيها ...

وحدث كل هذا فى زمن اقصر مما تتصور ، وبعد ان تفحص رب البيت الرجل الغريب كمن يتفحص حية رقطاء ، عاد إلى الباب ، وقال له :

— انصرف !

فقال الرجل :

— بحق الرحمة ، اعطنى جرعة ماء !

فقال الفلاح :

— بل طلقة بندقية !

ثم أغلق الباب بعنف ، وسمعه الرجل يغلق الباب من الداخل بمتراسين غليظين . وبعد لحظة أغلقت النافذة بالمصاريع الخشبية ، وسمع صوت قضبان حديدية توضع وراء المصاريع .

وواصل الليل سدوله ، وبدأت رياح الألب الباردة فى الهبوب . وفى ضوء النهار الآفل لمح الغريب فى إحدى الحدائق التى تحاذى الشارع كوخا صغيرا منخفضا خيل إليه انه مبنى من الطين الذى يكسوه العشب ، فتخطى الغريب حاجزا خشبيا والفى نفسه فى الحديقة . واقترب من الكوخ ، فإذا بابه

عبارة عن فتحة منخفضة جدا ، ويشبه إلى حد كبير تلك الأكواخ المرتجلة التى يقيمها عمال إصلاح الطرق على حوافيها ، فظن أنه بالفعل كوخ أحد هؤلاء العمال ، وكان يعانى من الم الجوع والم البرد القارص . وكان قد أذعن للجوع وسلم فيه أمره لله ، ولكن ها هو على الأقل ملاذ من برد الليل . وهذه الأكواخ لا يسكنها اصحابها فى الليل عادة ، بل يقيلون فيها فحسب ، فرقد على بطنه وزحف متسللا إلى الداخل ، فإذا داخله دافىء ، ووجد فيه فراشا جيدا من القش . وظل برهة مضطجعا فوق هذا الفراش ، لا يقوى على الحراك من شدة التعب . ثم شعر ان وجود كيسه فى ظهره يزعجه ، ففكر ان يتخذ منه وسادة ، وراح يفك احد سيوره الجلدية . وفى هذه اللحظة سمع زمجرة مرعبة ، فرفع عينيه وإذا رأس كلب ضخم يرتسم فى ظل فتحة الكوخ .

لقد كان وجار كلب !

وانقلب هو أيضا شرسا ، وتسلح بعصاه ، واتخذ من كيسه درعا ، وخرج من الوجار وقد زادت التمزقات فى ثيابه الرثة .

وخرج من الحديقة أيضا ، ولكن متقهقرا بظهره ، كى يبعد عنه أنياب الكلب ، وهو يناوره بعصاه فى مهارة فائقة .

وبعد ان اجتاز السياج بصعوبة إلى الشارع ، ألفى نفسه — وهو لا يكاد يصدق بالسلامة — وحيدا ، بلا مأوى ، ولا سقف ولا ملاذ ، وقد طرد حتى من ذلك الفراش من القش

وذلك الوجار الحقير ، وتهالك فوق حجر وجده هناك وهو يصيح فى غم :

— أنا اقل حظا فى الحياة من كلب !

وبعد أن استرد أنفاسه ، نهض واستأنف سيره ، وخرج من المدينة على امل أن يجد شجرة فى حقل يرتمى تحتها يحتمى بغصونها .

وظل سائرا على هذا النحو بعض الوقت ، ورأسه مطأطىء ، إلى أن وجد نفسه بعيدا عن كل مسكن من مساكن البشر ، وعندئذ رفع عينيه ونظر نظرة الباحث فيما حوله . فاذا هو فى حقل ، وامامه هضبة منخفضة مغطاة بالقش والحطب المتخلف عن الحصاد .

وكان الأفق من حوله حالك السواد ، لا من ظلام الليل فحسب . بل بفعل السحب التى أخذت تتراكم منخفضة جدا ، حتى كأنها ستلامس الهضبة ، وهى تملأ آفاق السماء جميعا . ولكن القمر كان وشيك الطلوع ، وينشر ضياء غسقيا جعله يرى تلك السحب كأنها قبة ضاربة إلى البياض ينسكب منها الضوء على أديم الأرض .

وهكذا بدت له الأرض أشد ضياء من السماء ، فأوقع ذلك فى نفسه الرهبة ، وارتسمت الهضبة على الأفق المظلم كالحة مخيفة . ولا شىء فى الحقل او على الهضبة اللهم إلا شجرة شوهاء ، معوجة على بعد خطوات قليلة من المسافر ، زادته شعورا بالوحشة لا بالأمان .

أحس أن الطبيعة تطالعه بوجه كالح طافح بالعداء ،

فوقف واجما بضع لحظات ثم استأنف سيره فعاد ادراجه من حيث أتى . وكانت أبواب المدينة قد اغلقت ، ذلك أن مدينة (د) كانت قد عانت الحصار فى زمن الحروب الدينية ، ولم تزل فى سنة ١٨١٥ محاطة بسور قديم ، به أبراج مربعـــة ، تم هدمها بعد ذلك . وتسلل من ثغرة فى الأسوار ، ودخل إلى المدينة .

وكانت الساعة تقارب الثامنة مساء ، ولما كان لا يعرف الشوارع ، فقد مضى فى سيره حيثما اتفق .

وهكذا وصل إلى مبنى المحافظة ، ثم إلى دير مدرسة اللاهوت الصغيرة ، وعند مروره على ميدان الكاتدرائية هز قبضة يده نحوها .

وفى ركن من هـــذا الميدان مطبعة ، وفى هـــذه المطبعة طبعت لأول مرة نداءات الإمبراطور والحرس الإمبراطورى إلى الجيش لينضم إليه عند حضوره من جزيرة إلبا ، وكان نابليون هو الذى أملاها .

ولمـــا وجد نفسه منهكا من السير ، ورأى الغريب أمامه مقعدا حجريا على باب المطبعة ، رقد مكوما فوقه . وفى هذه اللحظة خرجت سيدة عجوز من الكنيسة ورأت الرجل الممدد فى الظل ، فقالت له :

— ماذا تصنع هنا يا صاحبى ؟

فرد عليها بفظاظة وغضب :

— كما ترين ... رقدت لأنام !

وكانت هذه السيدة الطيبة هى الماركيزة. فقالت برفق:

— فوق هذا الحجر ؟

فقال الرجل :

— لى تسعة عشر عاما أرقد على حشية من الخشب . ولكن حشيتى هذه الليلة من الحجر !

— أكنت جنديا ؟

— نعم . جنديا ايتها المراة الطيبة .

— ولماذا لا تذهب إلى الخان ؟

— لأنه لا نقود معى .

فقالت الماركيزة :

— للأسف ليس فى كيسى إلا اربعة صلديات !

— هاته !

واخذ الرجل الصلديات الأربعة، واستطردت السيدة :

— إنها لن تكفيك اجرا للمبيت فى خان . ولكن هل جربت اماكن اخرى ؟ فمن المستحيل ان تقضى الليل هكذا . و لابد انك جوعان وتشعر بالبرد . ومن الممكن إيواؤك صدقة .

— لقد طرقت كل باب .

— وماذا حدث ؟

— طردونى من كل مكان .

فلمســـت السيدة الطيبة ذراع الرجل وأشـــارت له إلى بيت صغير فى الناحية الأخرى من الميدان ، بيت منخفض إلى جوار مقر الأسقفية ، وقالت :

— اطرقت كل الابواب ؟

— نعم .

— وهل طرقت هذا الباب ؟

— كلا !

— اطرقه !

- ٢ -
الحيطة والحكمـــة

وفى ذلك المساء نفسه ، بعد عودة نيافة أسقف (د) من نزهته فى المدينة ، ظل وقتا طويلا مغلقا عليه باب غرفته . كان مشغولا بعمل كبير عن « الواجبات » ، ومن أسف أن هذا العمل الكبير لم يتم . وقد استقصى فيه بكل عناية كل ما قاله الآباء والعلماء عن هذا الموضوع الخطير . وكان كتابه هـــذا مقسما إلى جزأين : أولهما عن واجبات الجميع أو الكافة ، وثانيهما عن واجبات كل واحد على حدة ، طبقا للطبقة التى ينتمى إليها .

وواجبات الكافة هى الواجبات العظمى . وهى أربعة . وقد دلنا عليها القديس متى الرسول : واجبات المرء نحـــو الله (متى ٦) وواجبات المرء نحو نفسه (متى ٥ : ٢٩ و ٣٠) وواجبات المرء نحو قريبه (متى ٧ : ١٢) وواجبات المرء نحو المخلوقات (متى ٦ : ٢٠ و ٢٥) .

أما الواجبات الأخرى فقد وجدها الأسقف مذكورة فى مواضع أخرى ، فواجبات الملوك والرعية واردة فى رسالة بولس إلى أهل رومية . وواجبات القضاة والزوجات والأمهات والشبان ذكرها القديس بطرس ، وواجبات الأزواج والآباء والأولاد والخدم فى رسالة بولس إلى أهل أفسس . وواجبات المؤمنين فى رسالته إلى العبرانيين . وواجبات العذارى فى

الرسالة إلى أهل كورنتوس . وألف الأسقف من كل هـــذه الوصايا مجموعة متناسقة أضنى نفسه فى سبكها وكان يريد تقديمها للنفوس المتعطشة للهداية .

وكان ما يزال يعمل فى الساعة الثامنة مساء ، منكبا على الكتابة فوق مربعات صغيرة من الورق ، وقد فتح كتابا كبيرا فوق ركبتيه ، عندما دخلت عليه مدام مجلوار جريا على عادتها لتأخذ صحاف الفضة من الصوان القريب من الفراش . وبعد برهة شعر الأسقف أن المائدة أعدت وأن أخته ربما كانت تنتظره الآن ، فأغلق الكتاب ، ونهض عن منضدته ودخـــل حجرة المائدة .

وكانت حجرة الطعام مستطيلة ذات مدفأة ، ولها باب يؤدى إلى الشارع ، ونافذة مطلة على الحديقة .

وكانت مدام مجلوار على وشك الفراغ فعلا من إعداد المائدة . وفى أثناء قيامها بالخدمة ، كانت تتحدث مع الآنسة باتستين .

وفوق المائدة كان المصباح مشتعلا ، والمائدة قريبة من المدفأة ، وفيها نار كبيرة متقدة .

وفى وسعنا أن نتخيل بسهولة هاتين المرأتين اللتين تجاوزت كل منهما الستين من عمرها . فمدام مجلوار قصيرة بدينة متدفقة الحيوية ، والآنسة باتستين دمثة رفيعة ، بل نحيلة ، وأطول قليلا من أخيها الأسقف ، وعليها ثوب من الحرير كان لونه هو الموضة فى سنة ١٨٠٦ ، عندما اشترته

من باريس ، وما زالت تستعمله فى سنة ١٨١٥ .. اما مدام
مجلوار فكانت تبدو مثل الفلاحة ، فى حين كانت تبدو الآنسة
باتستين سيدة . وترتدى مدام مجلوار فوق رأسها قلنسوة
بيضاء ، وتتدلى من عنقها سلسلة ذهبية ، كانت هى الحلية
النسائية الوحيدة فى هذا البيت . ويبدو الذكاء على هــذه
الخادمة مع حيوية وطيبة ، وشفتها العليا اغلظ من السفلى ،
مما اضفى عليها لونا من الجهامة . وحين يلزم سيدنا الصمت،
كانت مدام مجلوار تكلمه بحزم ومزيج من الاحترام والحرية ،
ولكن متى تكلم سيدنا سارعت إلى الطاعة السلبية شــأنها
شأن الآنسة شقيقته . أما الآنسة باتســتين فكانت لا تتكلم
بتاتا ، بل كانت تكتفى بالطاعة والاذعان والسعى فى مرضاته.
وحتى عندما كانت شابة لم تكن جميلة ، فلها عينان كبيرتان
زرقاوان وانف طويل محــدب ، إلا ان كل محيــاها ، بل كل
كيانها ، يوحى بالطيبة التى لا حد لها . وكانت مجبولة طيلة
حياتها على الوداعة . أما الإيمان ، والرحمة ، والرجاء ، فهى
فضائل ثلاثة تدفىء الروح ، وقد نمت لديها وارتفعت بوداعتها
الفطرية إلى مستوى القداسة . فالطبيعة جعلت منها شاة.
اما الدين فجعل منها ملكا كريما . يا للفتاة القديسة المسكينة !

وقد روت الآنسة باتستين مرارا كثيرة بعد ذلك ما حدث
تلك الليلة فى بيت الأسقف ، ولذا لم يزل كثيرون ممن يعيشون
حتى كتابة هذه السطور يذكرون اقل التفصيلات : ففى لحظة
دخول سيدنا الأسقف إلى قاعة الطعام ، كانت مدام مجلوار
تحدث الآنسة فى حرارة وحماسة . وكانت تحدثها فى موضوع
مألوف لها ، وتعود الأسقف سماعه منها ، وهو موضوع اكرة

باب دخول البيت . ويبدو أن مدام مجلوار كانت قد خرجت فى
المساء لشراء بعض لوازم العشاء ، فسمعت الناس يتحدثون
عن أمور معينة فى مواضع مختلفة . كانوا يتحدثون عن لص
قبيح السحنة ، عن متشرد مشبوه وصل إلى المدينة ، و لابد
انه موجود بها فى مكان ما ، ولذلك يخشى على حياة وامن من قد
يعودون لبيوتهم متأخرين فى هذه الليلة . وكانوا يقولون ايضا
إن الشرطة فى المدينة لا يركن إليها ، لأن سيادة العمدة وسيادة
المحافظ ليسا على وفاق ، وكل منهما يسعى للكيد للآخــر
بالتسبب فى حوادث مؤسفة . ولذا يقولون إن على النــاس
العقلاء ان يعتمدوا على انفسهم فى حراسة نفوسهم ونفائسهم،
ومن ثم ينبغى إغلاق الأبواب وإحكام الرتاج عليها !

وضغطت مدام مجلوار على هذه الكلمة الأخيرة ، ولكن
الأسقف كان قادما من غرفته حيث لا تدفئة ، لذا جلس أمام
المدفأة ليستدفىء، ثم استغرق تفكيره فى موضوع آخر، فلم يلق
باله إلى ما كانت تقوله مــدام مجلوار . فكررت كلامهــا .
وارادت الآنسة باتستين أن ترضى مدام مجلوار من غير ان تثير
استياء اخيها ، فقالت على استحياء : « أســمعت يا اخى
ما تقوله مدام مجلوار ؟ » .. فأجابها الأسقف : « ســمعت
طرفا منه » . ثم استدار بكرسيه ، ووضع يديه على ركبتيه
ورفع إلى الخادمة العجوز وجها ودودا دمثا ، اضاءته النار
من اسفل ، وسألها باسما : « لنر ما الخبر! ماذا حدث؟ انحن
حقا فى خطر داهم ؟ » . وعندئذ اعادت مــدام مجلوار على
سمعه كل القصة ، مع شىء قليل من المبالغة ، من غير ان
تشعر . قالت إن بوهيميا صعلوكا متشردا فيما يظهر يلوح

كالمتسول ، ولكنه خطر ، وفد الآن إلى المدينة . وذهب يطلب النزول فى خان لابار فلم يقبل ، وشوهد بعد ذلك فى شــارع جاسندى ، ويتجول فى الشوارع المتفرعة منه ، وهو يحمل كيسا ضخما على ظهره وله سحنة مروعة !.. فقال الاسقف: « حقا ! » . وقد شجع اهتمام الأسقف بالسؤال مدام مجلوار، وقد خطر لها ان الأسقف داخله القلق . فواصلت كلامهـا بلهجة المنتصرة : « اجل يا سيدنا ! الأمر هكذا . وسيحدث الليلة شر فى المدينة . الناس جميعا يقولون هذا . يضـاف إلى هذا ان الشرطة لا يركن إليها . ونحن نعيش فى إقليم جبلى ، ولا تضع الحكومة مصابيح إضاءة فى الشــوارع ! والناس يخرجون ليلا ، للذهاب إلى الأفران . ولذا فانا اقول، والآنسة ها هنا تقول مثل قولى .. فقاطعتها الأخت : « أنا لا اقول شيئا . ما يصنعه اخى فهو حسن ! » . واستطردت مدام مجلوار كأن هذه المقاطعة لم تحدث : « نحن نقول إن هذا البيت ليس مأمونا على الاطلاق . فإذا سمح ســيدنا ذهبت إلى « بولان ليزبوا » صانع الاقفال فجــاء وركب فى الباب رتاجاته ومفاتيحه القديمة ، وهى موجودة عندنا ، ولن يستغرق الأمر دقيقة . ويجب تركيب رتاجات قوية يا سيدنا وخصوصا هذه الليلة ، فالباب الذى تدار اكرته فيفتح لأى عابر سبيل فى غاية الخطورة .. وسيدنا من عادته ان يقول لكل طارق بلا تمييز « ادخل » . وفى جوف الليل لا حاجــة للداخل إلى استئذان . هذا فظيع ! » .

وفى هذه اللحظة سمعت على الباب طرقة عنيفة ، وقال الاسقف على الفور : — أدخل !

- ٣ -
بطولة الطاعة السلبية

وانفتح الباب .

انفتح بقوة ، على سعته ، كأنما دفعه احد بشدة وعزم.

ودخل رجل .

هذا الرجل نحن نعرفه من قبل : إنه المســافر الذى رأيناه منذ قليل يتجول بحثا عن مأوى .

دخل ، وخطا خطوة واحدة ثم وقف ، تاركا البــاب مفتوحا من خلفه . وكان كيسه فوق كتفه ، وعصاه الغليظة فى يده ، وتطل من عينيه نظرة جافية صلبة مجهدة وعنيفة فى آن واحد . وسقط فوقه الضوء المنبعث من نار المدفأة . فكان مرعبا حقا . كأنه شبح مخيف .

ولم تجد مدام مجلوار فى نفسها القوة على إطلاق صيحة ذعر ، فارتجفت وظلت فاغرة الفم . واستدارت الآنســة باتستين ولمحت الرجل الذى دخل ووقفت نصف وقفة من فرط دهشتها وارتياعها ، ثم حولت رأسها قليلا قليلا نحو المدفأة واخذت تنظر إلى اخيها ، وعندئذ استعاد محياها هدوءه العميق وطمانينته . وثبت الأسقف على الرجل نظرة هادئة . وعندما فتح فاه : ليسأل القادم ولا شك عن مراده، اتكأ الرجل بكلتا يديه على عصاه ، واجال بصره تباعا فى الشيخ والمراتين ، ومن غير ان يتريث إلى أن يتكلم الأسقف ، قال بصوت عال :

ــ إليك من انا ! اسمى « جان فلجان » JEAN VALJEAN وانا خارج من السجن فى السفن . وقد امضيت فى الليمان تسعة عشر عاما ، وقد اطلق سراحى منذ اربعة ايام ، وانا فى طريقى الآن إلى (بنيترلييه) ، فهى مقصدى . لى اربعة ايام وانا امشى من طولون . وقد قطعت اليوم اثنى عشر فرسخا سيرا على قدمى . وعندما وصلت إلى هذه الناحية هذا المساء توجهت إلى خان فطردونى بسبب جواز سفرى الأصفر اللون الذى ابرزته فى دار العمدة ، لأنه كان لابد من هذا . وذهبت إلى خان آخر فقيل لى : انصرف عنا ! وطرقت باب هذا وذاك ، ولكن احدا لم يقبلنى . بل قصدت السجن ، ولكن البواب لم يفتح لى . ودخلت فى وجار كلب فعضنى الكلب وطردنى . كأنما هو بشر ! حتى لكأنه كان يعرف من انا ، وخرجت إلى الحقول كى ابيت تحت النجوم الوامع ، فلم اجد فى السماء نجما واحدا ، وظننت ان السماء ستمطر ، وانه لا وجود لإله يمنع المطر من السقوط ، وعدت إلى المدينة وهناك وجدت مدخل باب فى الميدان ، وهناك اردت ان استلقى على مقعد طويل من الحجر ، ولكن امراة صالحة اشارت لى إلى بيتك وقالت لى : « اطرق هذا الباب ! » فطرقت . فاى مكان هذا ؟ اانتم خان ؟ ان معى نقودا ، معى رصيد اجرى . مائة وتسعة فرنكا و ١٥ صلديا كسبتها فى الليمان ، بعملى الشاق طيلة تسعة عشر عاما . سادفع الأجر . فكم يكلفنى هذا ؟ معى نقود . وانا مجهد جدا ، بعد السير اثنى عشر فرسخا على قدمى ، وجائع . فهل تريد منى ان ابقى ؟



انفتح الباب بقوة ، على سعته ، كأنما دفعه احد بشدة وعزم ، ودخل رجل..

فقال الأسقف : « مدام مجلوار . ضعى طبقا إضافيا على المائدة » .

فتقدم الرجل ثلاث خطوات من المصباح الذى كان فوق المائدة وقال كأنه لم يفهم ما قيل : « اسمع : ليس الأمر هكذا . هل سمعت ما قلت ؟ أنا قــادم من الســخرة فى التجــديف بالسفن . بحكم بالأشغال الشاقة . أنا قادم من التجديف فى سفن الأسطول » .

واستخرج من جيبه ورقة كبيرة صفراء بسطها وأردف : « هاك جواز سفرى . وهو أصفر كما ترى . وبنــاء عليه يطردوننى من كل مكان أذهب إليه . هل لك فى قراءته ؟ أنا أعرف القراءة ، تعلمتها فى الليمان . ففيه مدرسة لتعليم كل من يرغب من السجناء . اسمع ، هاك ما سجلوه على جواز سفرى : « جان فلجان . أشغال شاقة . أطلق سراحه . من مواليد . . . » هذا لا يهمك . . « قضى ١٩ عاما فى الليمان . خمس سنوات للسرقــة مع التحطيم . وأربع عشرة ســنة لمحاولة الهرب ٤ مرات . وهذا خطر جدا « هاك ! وقد طردنى لهذا السبب كل الناس . فهل تريد أنت استقبالى ؟ أهذا خان ؟ أتريد أن تقدم لى الطعام والمبيت ؟ أعندك اسطبل ؟ » .

فقال الأسقف : « مدام مجلوار . ضعى أغطية بيضاء على فراش الخلوة » .

ونحن قد شرحنا وأفضنا من قبل فى طبيعة الطاعة لدى هاتين المرأتين .

وخرجت مدام مجلوار لتنفيذ أوامره . والتفت الأسقف نحو الرجل : « اجلس ياسيدى واستدفىء . فنحن على وشك تناول العشاء بعد لحظة ، وسيتم إعــداد فراشــك وأنت تتعشى » .

وعندئذ فهم الرجل تماما . وارتسم الذهول على تعبير وجهه الذى كان حتى الآن قاسيا متجهما ، وخالط هذا الذهول شك وفرح ، فغدا منظره عجيبا . وراح يغمغم كالمخبول : « حقا ؟ ماذا ؟ أتستبقينى ؟ ألا تطــردنى ؟ خــريج ليمان ! وتنادينى قائلا يا سيدى؟ ولا تقول لى أخرج من هنا يا كلب ! كما يقولون لى فى كل مكان . كنت أعتقد أنك ستطردنى ، ولذا قلت لك على الفور من أنا ! ما أطيب المرأة الصالحة التى أرشدتنى إلى هنا ! سوف أتعشى ؟ ! وأنام فى فراش له حشايا وأغطية ! مثل الناس جميعا ؟ فراش ! لى ١٩ عاما لم أرقد على فراش ! أتريد حقــا أن أبقى ولا أنصرف ؟ أنتم ناس طيبون فضلاء ! ولكن معى نقودا . وسأدفع ! عفوك ياسيدى رب الخان ! ما اسمك ؟ سأدفع كل ما يطلب منى . أنت رجل شهم . أنت صاحب خان . أليس كذلك ؟

فقال الأسقف : « أنا كاهن ، يقيم هنا » .

فقال الرجل : « كاهن ! أنت كاهن شهم ! أنت إذن لا تطالبنى بنقود ؟ أنت الخورى ، أليس كذلك ؟ خورى هذه الكنيسة الكبيرة فى الميدان ؟ آه ! هذا صحيح ! يالى من غبى ! لم أفطن إلى غطاء رأسك » . . وكان قد وضع عنه وهو يتكلم كيسه وعصاه فى ركن ، وأعاد جواز مروره إلى جيبه ، وجلس .

ورمقته الآنسة باتستين فى عذوبة . واستطرد هو : « انت إنسان يا سيدى الخورى . فأنت لا تحتقرنى . ما أطيب أن يكون الكاهن طيبا ! انت إذن لست بحاجة إلى ان ادفع لك المقابل ؟ » .

فقال الأسقف : « كلا . احتفظ بنقودك . كم معك ؟ الم تقل لى ١٠٩ فرنكات ؟ » .

فأضاف الرجل : « و ١٥ صلديا » .

— ١٠٩ فرنكات و ١٥ صــلديا . وكم لبثت تعمل كى تكسبها ؟

— تسع عشرة سنة !

— تسع عشرة سنة ؟ !

قالها الأسقف بصوت عميق ! وواصل الرجل كلامه : « ولم تزل كل نقودى معى . فمنذ اربعة ايام لم انفق إلا ٢٥ صلديا كنت قد كسبتها نظير تفريغ بضع عــربات نقــل فى (جراس) . وما دمت قسا فسوف احكى لك . فقد كان لنا كاهن فى الليمان ، وذات يوم رأيت أسقفاً — ينادونه سيدنا — وهو أسقف الماجور فى مرسيليا . وهو الخورى الذى يرأس كل القسوس الآخرين . آه . انت تعرف هذا ، عفوك ! لقد اسأت القول ، ولكن هذا كان على مبعدة منى جدا ! فقد تلا القداس فى وسط الليمان ، على مذبح ، وكان فوق راسه شىء مدبب من الذهب ، كان يلمع فى الشمس الساطعة . وكنا نحن السجناء مصطفين على الجوانب الثــلاثة . وفى مواجهتنا المدافع ، وفتيل الاطلاق مشتعل ! ولم نكن نرى بوضوح .

وتكلم طويلا ، ولكنه كان بعيدا عنا جدا فلم نسمعه . وهاك هو الأسقف ! » .

وفيما كان الرجل يتكلم ، ذهب الأسقف فأغلق البــاب الذى كان لم يزل مفتوحا على سعته . وعادت مدام مجلوار تحمل أدوات طعام الشخص الطارىء فوضعتها على المائدة . وقال لها الأسقف عندئذ : « يا مدام مجلوار . ضعى هــذه الصحفة فى اقرب مكان إلى النار » .. ثم التفت إلى ضيفه وقال : « هواء الليل قاس فى الألب . لا بد انك تشعر بالبرد يا سيدى ؟ » .

وفى كل مرة كان يقول له فيها « يا سيدى » بصــوته الهادىء المهيب الودود غاية الود ، كان وجه الرجل يشرق . فما أطيب وقع كلمة « يا سيدى » على سمع خارج من الليمان . فما أشد ظمأ المهــانة إلى التقــدير والاحترام ! .. واردف الأسقف : « إن ضوء هذا المصــباح خــافت ، ففهمت مدام مجلوار مراده ، وذهبت فأحضرت من فوق رف مدفأة حجرة نوم سيدنا شمعدانى الفضة فوضعتها على المائدة مشتعلين . وقال الرجــل : « يا ســيادة القس ، أنت طيب . فأنت لا تزدرينى . بل تستقبلنى فى بيتك ، وتشعل لى شموعك . ومع هذا فأنا لم أكتم عنك من انا ومن اين أتيت وانى رجل تعس شقى ! » .. فلمس الأسقف يد الجالس بقربه فى عذوبة وقال : « كان فى وسعك الا تقول لى من انت . فليس ها هنا بيتى . بل بيت يســوع المسيح . وهذا الباب لا يسأل من يدخل منه هل له اسم ، بل يسأله هل له وجيعة ! أنت تعس يعانى . وانت جائع وظمآن . فمرحبا بك! ولا تشكرنى، ولا تقل لى انى

استقبلك فى بيتى ، فلا احد هنا فى بيته إلا من يحتـــاج إلى مأوى . ولذا اقول لك يا عابر السبيل انك هنا فى بيتك اكثر منى . وكل ما هو موجود هنا فهو لك . وما حاجتى إلى ان اعرف اسمك ؟ ثم من قبل أن تقوله لى . كان لك اسم كنت اعرفه ! » .

ففتح الرجل عينيه دهشة وقال : « حقا ؟ اكنت تعرف ما هو اسمى ؟ » . فأجابه الأسقف : « اجل ! كان اسمك (اخى!)» . فصاح الرجل: «اسمع يا سيدى القس ! لقد كنت جائعا جدا عندما دخلت إلى هنا ، ولكنك مفرط الطيبة حتى انى لم اعد أعرف ماذا بى. فقد انقضى شعورى بالجوع !» . . فنظر إليه الأسقف وقال : « هل تعذبت كثيرا ؟ » .

ــ اوه ! الخوذة الحمراء ! والقيد فى القدم ، ولوح خشبى لأنام عليه . والحر . والبرد . والعمــل . وطغمة السجناء . وضربات العصا . والاغلال المزدوجة لأتفه سبب. والزنزانة الانفرادية بسبب كلمة . وحتى وأنا مريض طريح الفراش ، فالقيد فى قدمى . ان الكلاب لأسعد حالا ! تسع عشرة سنة ! عمرى الآن ست واربعون سنة . وجواز مرورى الآن أصفر اللون . هذا هو حالى !

فقال الأسقف : « اجل ! انت خارج من مكان تعس . اسمع ! سيكون فرح فى السماء بوجه خاطىء تائب تبلله الدموع اكثر مما اعد للثوب الابيض الذى يرتديه مائة إنسان بار من اهل العدل والصلاح ! ولقد خرجت من ذلك المكان الأليم وانت تفيض بأفكار الحقد والغضب على البشر ، فأنت جدير بالشفقة . وإن خرجت منه بأفكار الرغبة فى المودة

والعذوبة والسلام ، فانت إذن أفضل من اى واحد منا ! » .

وكانت مدام مجلوار قد قدمت وجبة العشاء المعتـــادة المكونة من حساء مصنوع من الماء والزيت والخبز والملح ، وقليل من الدهن ، وقطعة من لحم الضان ، وبضع ثمرات من التين ، وقطعـــة من الجبن الطـــازج ورغيف كبير من دقيق الجودار . وأضافت من تلقاء نفسها إلى عشاء الأسقف المعتاد زجاجة من نبيذ موف المعتق .

وما إن رأى الأسقف المائدة حتى تهلل وجهه شأن من جبل على كرم الضيافة وقال بحيوية ، كعادته كما كان على مائدة عشائه ضيف ، واجلس الرجل إلى يمينه : « هيا إلى الطعام ! » .. وجلست الآنسة باتستين فى هدوئها الوادع المعتاد عن يساره . وتلا الأسقف صــلاة البركة ، ثم قـــدم الحساء بنفسه كعادته . وشرع الرجل يأكل بنهم . وفجأة قال الأسقف : « ولكن يبدو لى أن شيئا ينقص هذه المائدة !» .

وبالفعل كانت مدام مجلوار لم تضع الصحاف الفضية الخالصة التى كان وضعها أشبه بالشعائر الضرورية على مائدة الأسقف . وكان من عادات الدار عندما يكون هناك على مائدة الأسقف أحد ، أن توضع الصحاف الست كاملة ، فى استعراض احتفالى برىء. فكأن هذه العادة ضرب من مظاهر الترف الطفليـــة فى ذلك البيت الوديع الصـــارم الذى ارتفع بالفاقة إلى مستوى المهانة والكرامة .

وفهمت مدام مجلوار الملاحظة ، فخرجت من غير أن تقول كلمة واحدة ، وبعد لحظة كانت الصحاف قد اكتملت فوق المفرش ، تلمع فى ضوء الشمعدانين !!

- ٤ -

تفصيلات عن مصانع الجبن فى (بنترلييه)
PONTARLIER

والآن . لكى نقدم فكرة عما حدث على هذه المـائدة ، فليس لدينا خير من نشر فقرة من خطاب للآنسة باتستين إلى « مدام دى بواشيفرون » ، فهى تورد فى هذه الفقرة الحديث الذى جرى بين ذلك الخارج من الليمان وبين الأسقف بدقـة سـاذجة :

« لم يلق هذا الرجل باله إلى أحد ، بل كان يأكل بضراوة من يتضور جوعا .

إلا أنه بعد العشاء قال : « سيدى كاهن الرب . كل هذا أفضل وأطيب مما أستحق ، ولكنى أجـد لزاما على أن أقول أن مدحرجى البراميل الذين أبوا أن يجعلونى آكل معهم، كان طعامهم أشهى وأفضل من طعامك ! » .

« وفيما بينى وبينك ، صدمتنى ملاحظته هذه ، وأجابه أخى : « ذلك أنهم يتعبون فى عملهم أكثر مما أتعب أنا » . فأجابه الرجل : « لا . بل لأن نقودهم أكثر من نقودك . فأنت فقير فيما أرى . بل لست أظنك خوريا . بل قسـيس من مرتبة أدنى . أليس كذلك ؟ آه ! لو كان الله عادلا حقا لجعل منك خوريا » . فقال أخى : « بل الله أكثر من عادل » . وبعد لحظة أردف : « يا مسـيو جـان فلجان . أذاهب أنت إلى (بنترلييه) ؟ » .

— بمقتضى خط السير الإجبارى .

« وأظن أنه هكذا قال ، ثم استطرد : « ويجب أن أكون على الطريق غدا مع طلوع النهار . إذ لا بد من السير الجاد ، ولئن كانت الليالى باردة . فالنهار حار » .

« فقال أخى : « أنت ذاهب هناك إلى إقليم حسن . فبقيام الثورة دمرت أسرتى وخربت وأفلست، وقد التجأت أولا إلى « فرانش كونتيه » وعشت هناك من عمل يدى . وكانت إرادتى طيبة ، فوجدت هناك ما يشغلنى ، فليس على المرء إلا أن يختار . فهناك مصانع ورق ، ومصانع براميل ودنان ، ومصانع تقطير للخمر ، ومعاصر زيوت ، ومصانع ساعات كبيرة ، ومصانع فولاذ ، ومصانع نحاس ، وعشرون مصنعا على الأقل للحديد ، منها أربعة فى (لود) وفى (شـاتيون) و (أودنكور) و (بير) ، وكلها مصانع ضخمة » .

« ولا أظننى أخطأت فى سرد الأسماء التى ذكرها أخى ، ثم قطع كلامه ووجه لى الكلام قائلا : « أختى العزيزة . أليس لنا أقارب فى ذلك الإقليم ؟ » .

« فأجبته : « كان لنا هناك أقارب . من بينهم المسيو دى ليسنيه الذى كان قائد البوابات فى (بنترلبيه) ، فى العهد البائد » . فقال أخى : « نعم . ولكن فى سنة ١٧٩٣ لم يعد لنا أقارب ، لم يعد للمرء إلا ذراعاه ، ولذا أكببت على العمل بيدى . ويوجد فى إقليم (بنترلييه) حيث تزمع الذهاب يا مسيو فلجان صناعة من نوع خاص ، بديعة جدا يا أختى . إنها مصانع الجبن » . ثم انبرى أخى يحدث ذلك الرجل وهو يأكل

ويشرح له بالتفصيل صناعة الجبن فى بنترلييه . وأنها على نوعين : الاهراء الضخمة التى يملكها الأغنياء ، وفيها ما بين أربعين وخمسين بقرة ، تنتج فى الصيف ما بين سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف قرص من الجبن . وهناك مصانع بالمشاركة يملكها الفقراء ، فمن عادة فلاحى الجبل الأوسط أن يضعوا أبقارهم معا ويتقاسموا الناتج . وينتجون على حسابهم جبنا يسمونه « جريران » . وتتلقى مصانع الجريران لبن الشركاء ثلاث مرات فى اليوم . ويبدأ العمل فى مصانع الجبن حوالى آخر شهر ابريل ، وفى نصف يونيو يقود الرعاة أبقارهم إلى الجبل .

« وسرت الحيوية فى الرجل وهو يأكل ، وجعله اخى يشرب نبيذ موف الجيد الذى لا يشربه هو شخصيا ، لأنه يقول إنه نبيذ غالى الثمن . وذكـــر له أخى كل التفصـــيلات بتلك البشاشة السمحة التى تعهدينها فيه ، وهو يمزج حديثـــه بكلمات لطيفة . وعاد يحدثه عن جبن الجريران وحياة صناعه الطيبة كأنه كان يأمل أن يفهم ذلك الرجل ، من غير ان يسدى له النصح بصورة مباشرة وقاسية ، ان ذلك العمل سيكون ملاذا له . ولكن لفت نظرى شىء . فذلك الرجل كان كمـــا ذكرت لك ، ومع هذا لاحظت أن اخى طوال العشاء ، وطوال السهرة — فيما عدا كلمة عابرة ذكر له فيهـــا اسم يســـوع المسيح عندما دخل من الباب — لم يقل له عبارة واحدة تذكره بأى نوع من الناس هو ، ولا اى كلمة تشعره بحقيقة وضـــع اخى . وكان يبدو لى انها مناسبة طيبة لإلقاء عظة . ولكى يترك الأسقف فى خريج الليمـــان بصـــمته . ولعل غيره كان

ينتهزها فرصة كى يغذى روح الرجل كما يغذى جسده ، وكى يوجه إليه شيئا من التوبيخ الممزوج بالنصـــح والحث على محاسن الأخلاق وحسن السير والسلوك مستقبلا . ولكن اخى لم يسأله ولو عن موطنه الأصلى ، ولا عن قصته ، لأن قصته تضمن خطيئته والذنب الذى اقترفه ، والظاهر ان اخى تعمد تحاشى كل ما يذكره به . بل إنه عندما حدث الرجل عن الجبلين من أهل بنترلييه وقال عنهم : «ان العمل عندهم لطيف قريب من السماء . وهم سعداء لأنهم ابرياء ! » .. عنـــدئذ سكت اخى لحظة ، خشية أن يكون فى هذا تعريض به يثير استياءه . واننى إذ أفكر فى هذا ادرك ما كان يدور فى خاطر اخى وفؤاده . لقد كان يظن ان هذا الرجـــل الذى يســـمى « جان فلجان » لا يبرح فكره ما ارتكبه وما قاساه بسببه ، وأن من الخير تلهيته عنه ، وان يجعله يشعر ، ولو للحظـــة قصيرة ، أنه مثل سائر الناس . ولذا عامله معاملة عـــادية جدا . أليس هذا مفهوما ساميا للرحمة والصدقة ! أليس فى هذا عنصر إنجيلى ملائكى ، بتلك الرقة واللباقة ، التى جعلته يتحاشى الوعظ والتلميح إلى النصائح الخلقية ؟ أليست افضل رحمة بمن لديه موضع الم أن نحاذر من لمسه ؟ هذا ما بدا لى انه كان يجول بفكر اخى وسريرته ، ولكنى اقول هـــذا من عندى ، وباجتهادى فى فهمـــه ، أما هو فلم يشر إلى شىء من هذا ، حتى ولا لى . بل كان طيلة الوقت كالعهد به تماما فى كل امسية . وقـــد تعشى مع جان فلجـــان بنفس الروح ونفس الأسلوب الذى يتبعه عندما يتعشى مع أرقى من يجلسون إلى مائدته ، مأمورا كان الضيف أو خوريا بارز المكانة .

« وقرب الختام ، وفيما نحن ناكل التين ، طرق الباب . وكانت القادمة الأم جيربو وطفلها بين ذراعيها . وقبل اخى الطفل على جبينه واقترض منى خمسة عشر صلديا كانت فى جيبى لكى يعطيها للأم . اما الرجل فى هذه الأثناء فلم يلتفت لشىء . ولم يعد يتكلم بل كان بادى التعب ، وانصرفت الأم جيربو المسكينة ، وتلا اخى صلاة الشكر ، ثم التفت نحو ذلك الرجل وقال له : « لابد انك بحاجة إلى الرقاد » .

« وكانت مدام مجلوار قد رفعت الصحاف والادوات بسرعة . وفهمت انا اننا ينبغى أن ننسحب لنترك الرجل لينام، وصعدنا نحن الاثنتان إلى الطابق الأول . ولكنى سرعان ما ارسلت مدام مجلوار لتحمل إلى فراش الرجل جلد عنزة من الغابة السوداء كان فى حجرتى ، لأن الليل قارص البرد . ومن اسف ان ذلك الجلد قديم جدا ونحل شعره كله تقريبا . وكان اخى قد اشتراه وهو فى المانيا من (توتلنجن) قرب منابع الدانوب ، هو والسكين الصغير ذو المقبض العاجى الذى استخدمه على المائدة .

« وصعدت مدام مجلوار عائدة على الفور تقريبا ، وشرعنا نصلى فى صالونى الذى ننشر فيه الغسيل لانه خال من الأثاث ، ثم دخلت كل واحدة منا حجرتها ، من غير أن نتبادل اى حديث ».

— ٥ —

طمأنينة

وبعد أن القى سيدنا تحية المساء على اخته ، تناول من فوق المائدة احد الشمعدانين المصنوعين من الفضة الخالصة وسلم الآخر لضيفه وقال له : « سيدى . سأرشدك إلى حجرتك » .

وتبعه الرجل . وكما لاحظنا مما سبق ، كان المسكن مقسما بحيث انك كى تذهب إلى المصلى ، حيث الخلوة . او لكى تخرج منه ، لا بد أن تمر من حجرة نوم الأسقف . وفى الوقت الذى كان يجتاز فيه هذه الحجرة كانت مدام مجلوار تضع الفضيات فى الخزانة التى كانت عند راس فراش الاسقف . وكان هذا آخر عمل تقوم به كل مساء قبل أن تمضى إلى حجرتها لتنام .

وارشد الأسقف ضيفه إلى سريره فى الخلوة ، وهو سرير ابيض ناضر ، ووضع الرجل الشمعدان فوق المنضدة الصغيرة . وقال له الأسقف : « هيا ! طابت ليلتك ! وغدا صباحا قبل الرحيل ستشرب فنجانا من لبن بقرتينا ، ساخنا طازجا » .

فقال الرجل : « شكرا لك يا سيدى القس » .

وما كاد يتفوه بهذه الكلمات الناطقة بالسلام ، حتى بدرت منه ، بلا تمهيد ، حركة غريبة كان من الممكن أن ترتاع لها السيدتان الصالحتان لو انهما رأتاها . وانه ليصعب علينا اليوم أن نتخيل ما كان يدور بخلده فى تلك اللحظة . اكان يريد

ان ينذر ، ام يتوعد ؟ ام كان منقادا لغريزة تدفعه قهريا وإن كانت غامضة عليه ؟ لقد استدار فجاة إلى الشيخ ، وعقد ذراعيه ، وثبت على مضيفه نظرة ضارية ، وصاح بصوت اجش : « آه ! اراك تقيمنى فى بيتك بالقرب منك إلى هذا الحد الغريب ! » . وتوقف عن الكلام ثم اردف بضحكة فيها شيء وحشى : « هل فكرت جيدا ؟ من ادراك انى لم اقتل ؟ » .

فأجابه الأسقف : « هذا أمر يخص الله وحده ! ».

ثم قال بجد ووقار ، وهو يحرك شفتيه شأن من يصلى او يحدث نفسه ، ورفع أصبعى يده اليمنى وبارك الرجل الذى لم ينحن ، ومن غير ان يدير راسه ، او يلتفت وراءه ، دخل إلى حجرته .

وكانت العادة عندما ينزل احد ليبيت فى الخلوة أن يسدل ستار من القطن بحيث يخفى المذبح فى المصلى. وركع الأسقف عندما مر امام هذا الستار وتلا صلاة قصيرة . وفى اللحظة التالية كان فى حديقته ، يمشى ويحلم ، ويتأمل ، وهو منصرف بروحه وفكره جميعا إلى هذه الأشياء العظيمة الغامضة التى يكشفها الله فى الليل للعيون التى تظل مفتوحة .

اما الرجل فكان متعبا حقا ، حتى أنه لم يستفد من هذه الأغطية ناصعة البياض . بل نفخ شمعته كما يفعل السجناء ، واستلقى بكامل ملابسه على الفراش ، واستغرق فى نوم عميق من فوره .

ودقت ساعة الكاتدرائية منتصف الليل بينما الأسقف يعود إلى حجرته من حديقته .

وبعد بضع دقائق . كان الكل نياما فى البيت الصغير .

- ٦ -

جـــان فلجـــان

وحوالى منتصف الليل ، استيقظ جان فلجان .

وكان جان فلجان من اسرة فلاحين فقيرة فى « لابرى » LA BRIE . ولم يتعلم القراءة فى طفولته . ولما بلغ سن الرجـــال احترف تقليم الأشجار وتذكيرها فى فافرول . وكانت أمه تسـمى « جان ماتيبه » (متى) ، وابوه يسـمى « جان فلجان » .

وكان جان فلجان ذا طبع ميال للتفكر ، من غير كآبة ، وهذا من سمات الطبائع العاطفية . ولكنه فى جملته كان كثير الشرود ولا يلفت الأنظار ، فى الظاهر على الأقل . وكان قد فقد فى سن صغيرة جدا أباه وأمه . وكانت وفاة امه بحمى النفاس التى لم تجد العناية والتمريض الكافيين . اما ابوه ، الذى كان يقلم الأشجار ايضا ، فمات قتيلا . سقط من فوق شجرة عالية فدق عنقه . فلم يبق له من احد فى الدنيا غير اخته الأكبر منه، وهى ارملة لها سبعة اطفال بين بنين وبنات. وكانت هذه الأخت هى التى ربت جان فلجان . وفى حياة زوجها هى التى آوته وأطعمته . ثم مات الزوج . وكان اكبر الأبناء السبعة فى الثامنة من عمره ، اما الأصغر فعمره عام واحد . وكان جان فلجان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، فحل محل ابيه ، وعال اخته التى كفلته آنفا . وتم

هذا ببساطة ، لأنه الواجب ، وإن كان بشىء من الجهامة من جانب جان فلجان .

وهكذا انقضى شبابه فى عمل شاق هزيل الأجر . ولم يعرف له اهل الناحية « صاحبة » شأن الفتيان من لداته . فلم يكن لديه وقت للوقوع فى الغرام .

وفى المساء كان يعود إلى البيت مجهدا ، فيتناول عشاءه من غير أن يتفوه بكلمة واحدة . وكانت اخته « الأم جـــان » تغافله وهو يأكل وتأخذ من صحفته افضل ما فى الوجبـــة ، وقطعة اللحم الوحيدة ، وشريحة الشـــحم ، وقلب الكرنبة، لتعطيه لأحد اطفالها . ويظل هو مكبا على المنضدة يأكل فى صمت ، وراسه يكاد يلامس الحساء ، وشعره الطويل يكاد يسقط فى صحفته ويغطى عينيه ، فكأنه لا يرى شيئا ممـــا يحدث ويترك اخته تصنع ما تشاء .

الجانب الآخر من الحارة ، فلاحة تسمى مارى كلود . وكان

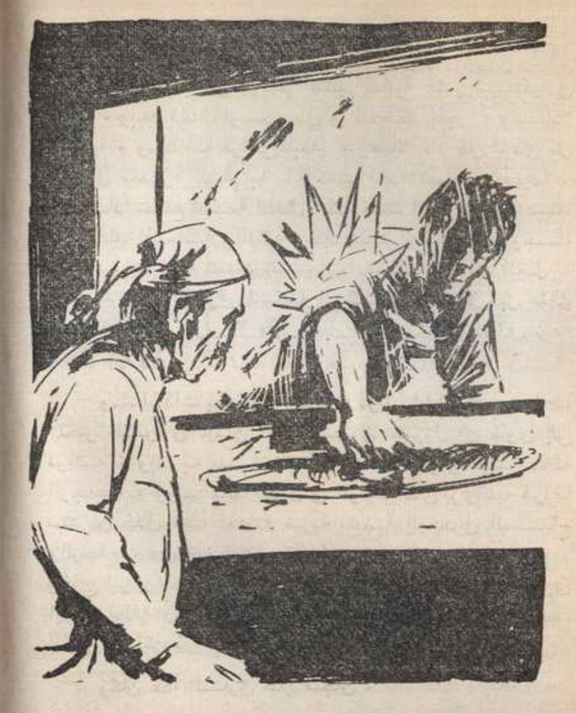
وكانت فى فافيرول ، غير بعيد من كوخ فلجـــان ، فى اطفال فلجان الجائعين فى معظم الأحوال يذهبون احيـــانا ليقترضوا باسم امهم كوزا من اللبن من مارى كلود، ويشربونه خلف سياج او فى احد اركان الحارة ، وهم يتخاطفون الإناء فى لهوجة ، حتى ان البنات الصغيرات كن يسكبن بعضه على مراولهن . ولو عرفت الأم بما حدث لعاقبتهم عقابا شديدا على هذا النهب والسلب ، ولكن جان فلجان كان يعرف ، ويزمجر ، ولكنه يـــدفع الثمن من وراء ظهـــر الأم ، ويفلت الصغار من العقاب .

وكان كسبه فى موسم التقليم ثمانية عشر صـــلديا فى اليوم ، وبعد ذلك الموسم يعمل فى الحصاد بأجر ، وعـــاملا زراعيا ، ومساعدا لراعى ابقار ، وعتالا .. كان يؤدى كل عمل فى مقدوره القيام به . وكانت اخته تعمل من جهتها . ولكن ماذا تصنع لسبعة اطفال ! لذا كانت الأسرة قطيعا شقيا تخيم عليه التعاسة والفاقة وتكاد تخمد انفاســـه . وجـــاء الشتاء ذات سنة شديد القسوة ، فتعطل جان عن العمل . ولم يعد لدى الأسرة المسكينة الجائعة خبز — لا خبز هناكِ على الاطلاق . حرفيا لا على سبيل المجاز وهناك افواه سبعة اطفال جياع !

ومساء ذات يوم احد ، قرر « موبير ايزابو » صـــاحب المخبز الكائن فى ميدان الكنيســـة فى فافرول ان يأوى إلى فراشه ، وإذا به يسمع ضربة عنيفـــة على واجهـــة محله الزجاجية . ووثب قائما ليصل فى الوقت الذى يرى فيه ذراعا تمتد من خلال ثقب احدثته ضربة بقبضة اليـــد فى الســـياج والزجاج . وفى قبضة هذه الذراع رغيف تهم بالانطلاق به . وخرج ايزابو مهرولا ، وهرب السارق بأقصى سرعته ، وجرى ايزابو خلفه وقبض عليه . وكان السارق قد رمى الرغيف الكبير . ولكن ذراعه لم يزل يسيل منه الدم .

وكان هذا السارق جان فلجان .

حدث هذا سنة ١٧٩٥ ، واقتيد جان فلجان امام محاكم ذلك الزمن بتهمة « السرقة مع التحطم ليلا من بيت مأهول » . ووجدوا عنده بندقية ، كان يستخدمها احيانا للصيد المختلس



ووثب قائما ليصـــل فى الوقت الذى يرى فيه ذراعـــا تمتد من خـــلال ثقب احدثتـــه ضربة بقبضـــة اليد فى السياج والزجاج. وفى قبضة هذه الذراع رغيف تهم بالانطلاق به..

من الغابات . وكان الصياد خلسة ، شأنه شأن المهرب ، يعد كأنه قاطع الطريق . ولكن ذلك النوع من المجرمين كان مختلفا فى نظر القانون عن قتلة المدن . فالصياد خلسة يعيش فى الغابة ، والمهرب يعيش فى الجبل أو فى البحر ، اما المدن فتخلق الرجال المتوحشين المتعفنين . فالغابة والجبل والبحر تربى فى الرجال الضراوة من غير ان تقتل فيهم الإنسانية .

وكانت نصوص القانون قاطعة ، فادين جان فلجان وحكم عليه بقضاء خمس سنوات من الأشغال الشاقة ، فى التجديف بسفن ذلك الحين .

وفى ٢٢ من ابريل سنة ١٧٩٦ انطلق المنادون فى باريس يعلنون انتصار « مونتنوت » الذى احرزه القائد العام لجيوش إيطاليا ، الذى تسميه رسالة الديركتـــوار (الإدارة) إلى مجلس الخمسمائة فى ٢ من فلورال من السنة الرابعة للثورة « الجنرال بونا بارته » . وفى ذلك اليوم نفسه أعدت سلسلة كبيرة من الحديد فى « بيستر » . وكان جان فلجان احد الذين شد وثاقهم بهذه السلسلة .

وبواب السجن الذى يبلغ عمره الآن حوالى تســعين سنة لم يزل يذكر جيدا ذلك التعس الذى قيد بالسلسلة عند اقصى الجناح الشمالى للفناء . وكان جالسا على الأرض مثل جميع الآخرين ، وبدا عليه انه لم يفهم شيئا من وضعه ، اللهم الا انه فظيع رهيب . ومن الجائز ان افكارا بالغة التطرف خامرته وسط الأفكار التى تلاخمت فى راس هـــذا الرجـــل الجاهل . وفيما كانوا « يبرشمون » بضربات المطارق العنيفة خلف راسه مسمار قيده الحديدى ، كانت دموعه تنهمر ،

وخنقته عبراته فعاقته عن الكلام . وكل ما استطاع ان يقوله بين وقت وآخر ، فى نشيج متقطع :

ـ كنت اقلم الأشجار فى فافرول .

ثم رفع ـ وهو ينشج ـ يده اليمنى وخفضها على مراحل تدريجيـــة ســـبع مرات كانه يمس بها سبعة رءوس غير متساوية ، على التوالى ، ومن هذه الاشارة فهم من راوه ان ما فعله ـ ايا كان ـ إنما كان من اجل غذاء وكساء سبعة اطفال .

* * *

ورحلوه إلى ميناء طولون . فوصل إليها بعد سفر طال سبعة وعشرين يوما ـ على عربة مكشوفة من عربات النقل ، والقيد الحديدى حول عنقه . وفى طولون البسوه الخـــوذة الحمراء . واختفى كل ما كانت له صلة بما يعهده من حياته ، حتى اسمه ! فهو لم يعد يدعى جان فلجان ، بل رقم ٢٤٦٠١

وماذا كان من أمر الأخت ؟ وماذا كان من أمر الأطفال السبعة ؟ ومن ذا يعنى نفسه بهذا ؟ وماذا عسى ان يكون مصير حفنة من اوراق شجرة فتية مقطوعة ؟

انها دائما نفس القصة !

هذه المخلوقات الحية المسكينة . مخلوقات الله ، التى لم يعد لها سند ولا عائل ، ولا مرشد ولا ملاذ ، تتشتت حيثما اتفق . من يدرى ؟ فكل واحد منهم يمضى فى اتجاه ، ربما ، ويطويهم الضباب الكثيف البارد الذى يبتلع المصائر الشاردة ، فذلك ما يحدث لكل الرءوس المنكودة التى تضل طريقها فى مسالك النوع البشرى بلا سند .

لقد غادروا الإقليم وبرج ناقوس كنيستهم الذى كان رمز قريتهم نسيهم . بل إن جان فلجان نفسه بعد ان قضى بضع سنوات فى الليمان نسيهم ايضا . ففى الموضع الذى كانت به فى قلبه طعنة ، صارت الآن ندبة . وهذا كل شىء .

وفى طولون ، هل سمع مرة واحدة كلمة عن اخته ؟ اظن ان ذلك كان فى اواخر السنة الرابعة من اسره ، ولست ادرى كيف اتصل به هذا الحديث . ويبدو ان شخصا كان يعرفهم فى الاقليم فيما مضى راى الأخت . كانت فى باريس . تسكن فى شارع فقير قرب « سان سبليس » هو شارع جندر . ولم يكن قد بقى معها إلا طفل واحد ، صبى صغير هو اصـــغر ذريتها . واين ذهب الستة الباقون ؟ لعلها هى نفسها لم تكن تدرى . ففى كل صباح كانت تذهب إلى مطبعة فى شارع سابو رقم ٣ حيث كانت تعمل فى طى الملازم وتغليفها . ولا بد لها ان تكون هناك فى السادسة صباحا ، اى قبل بزوغ النهار فى فصل الشتاء . وكانت فى دار الطباعة مدرسة ، فكانت تأخذ ابنها الصغير ، ابن السابعة ، إلى تلك المدرسة . ولكنها تدخل إلى المطبعة فى السادسة ، والمدرسة لا تفتح بابها قبل السابعة، فكان لا بد للطفل ان يظل فى الفناء حتى السابعة، اى ساعة كاملة ، وهى فى الشتاء ساعة من الليل والهواء العاصف . ولم يقبلوا ان يدخل الطفل المطبعة ، لانه ـ فيما زعموا ـ يعطل سير العمل . فكان العمال وهم فى طريقهم إلى المطبعة فى الصباح يرون هذا الصغير المسكين جالسا على الطوار ، يغالب النوم ، بل كثيرا ما كان ينام مكوما فـــوق سلته . وعندما كانت السماء تمطر ، كانت امراة فقيرة هى

البوابة تأخذها الرحمة به فتدخله إلى ماواها الذى لم يكن به إلا مقعدان من الخشب وفراش من القش ودولاب لغزل الكتان، فكان الصغير ينام فى ركن ، محتضنا القطة كما يستمد منها بعض الدفء . وفى الساعة السابعة تفتح المدرسة ابوابها ، فيدخلها .

هذا ما قيل لجان فلجان ، فكأنما ومض البرق فى ظلمات حياته ، او كأنما انفتحت نافذة فجاة واطلعت على مصير هذه الكائنات التى كان يحبها ، ثم اقفلت ثانية . ولم يسمع بعد ذلك شيئا عنهم . ولم يصله قط شىء منهم. ولم يرهم بعدها ابدا ، ولم يلتق بهم . وبعد نهاية هذه القصة المؤلمة لن يعثر لهم على اثر .

وقرب نهاية هذه السنة الرابعة ، وقعت حادثة هرب جان فلجان . وساعده رفاقه ، على نحو ما يحدث هذا فى ذلك المكان الفظيع . وهرب ، وظل يضرب على غير هدى يومين طليقا وسط الحقول ، هذا إذا سمينا المطارد طليقا ! فهو يتلفت حوله مروعا فى كل لحظة ، ويرتجف عند سماع اى صوت ، لأنه يخاف كل شىء ، ومن كل دخان يتصاعد ، او إنسان يمر به ، بل ومن نباح الكلاب . ومن ركض الحصان ، ومن دقات الساعة . يخشى النهار لأنه وقت الرؤية ، ويخشى الليل لأنه وقت استحالة الرؤية . يخاف الطريق ، والدرب ، والدغل ، ولا يعرف جفناه الكرى !

وفى مساء اليوم الثانى قبضوا عليه . ولم يكن اكل ولا نام منذ ست وثلاثين ساعة . وحكمت عليه المحكمة البحرية بسبب

هذا الجرم بامتداد سجنه ثلاث سنوات ، لتصير العقوبة ثمانى سنوات .

وفى السنة السادسة حاول الهرب للمرة الثانية ، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ محاولته ، فقد افتقدوه عند التمام ، فأطلقوا مدفع الانذار ، وفى الليل وجدوه مختبئا تحت هيكل سفينة قيد البناء — وقاوم الحراس الذين قبضوا عليه — آه ! تمرد ومقاومة إذن ! وهو جرم ينص القانون الجنائى على أن عقوبته خمس سنوات ، منها سنتان فى القيد المضاعف ، فصارت جملة مدة عقوبته ثلاث عشرة سنة .

وفى السنة العاشرة حانت له فرصة ، فانتهزها ايضا ، ولم يكن حظه هذه المرة افضل . وعوقب بثلاث سنوات على هذه المحاولة . فصارت الجملة ست عشرة سنة . واخيرا ، فى السنة الثالثة عشر حاول للمرة الأخيرة ولم يفلح إلا فى الاختفاءأربع ساعات ثم قبضوا عليه، ودفع ثمن هذه الساعات الأربع ثلاث سنوات فصارت الجملة تسع عشرة سنة . وفى اكتوبر سنة ١٨١٥ اطلق سراحه ، وكان قد دخل الليمان فى سنة ١٧٩٦ لكسر لوح زجاجى والاستيلاء على رغيف خبز .

جان فلجان سرق رغيفا . وهناك إحصائية إنجليزية تقول إن اربع سرقات من كل خمس سرقات تحدث فى لندن ، سببها الجوع !

وكان جان فلجان قد دخل الليمان باكيا مرتجفا ، ولكنه خرج منه جامد الحس . كان قد دخله يائسا ، ولكنه خرج منه مغموما حانقا مكفهرا .

فما الذى خامر تلك النفس ؟

- ٧ -

فى أغوار اليأس

فلنحاول ان نقوله :

ينبغى على المجتمع ان ينظر إلى هذه الأمور ، بما انه هو الذى يصنعها .

لقد كان الرجل كما قلنا جاهلا ، ولكنه لم يكن معتوها . فالنور الطبيعى كان متقدا فى داخله . وزاد الشقاء ، الذى له ضياءه ايضا ، ذلك النور القليل الذى كان فى ذلك الفكر . وتحت وقع العصا ، وتحت قيود الأغلال ، وفى النزانة ، وتحت نير التعب ، وقسوة شمس الليمان ، وعلى الواح فراش المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، انطوى هذا الرجل على سريرته وراح يفكر .

ونصب من نفسه محكمة .

وبدأ محاكمة نفسه .

فاعترف بانه ليس بريئا عوقب ظلما . واعترف على نفسه بانه ارتكب فعلة نكراء تستحق الملام ، وانهم ربما ما كانوا ليضنوا عليه بهذا الخبز لو انه طلبه او استجداه ، وانه فى هذه الحالة كان خيرا له ان ينتظره، اما من يد الصدقة، او ثمرة عمل . وانه ليس سببا كافيا للسرقة لا مندوحة له ان يقول :

— وهل يملك الجائع ان ينتظر ؟

فمن المعروف اولا انه من النادر ان يموت احد جوعا . بالمعنى الحرفى للكلمة، ثم إن الإنسان، لحسن الحظ او لسوئه — مجبول بحيث يمكنه ان يتحمل كثيرا وطويلا انواع العذاب الجسدية والمعنوية ، من غير ان يموت . لذا كان ينبغى ان يصبر ، وان ذلك كان خيرا حتى لأولئك الصغار المساكين ، وان ما اقدم عليه كان عملا طائشا احمق ، فما اشد حماقة ان يأخذ هو الفرد التعس الهزيل بخناق المجتمع كله وان يتصور إمكان الخلاص من الشقاء عن طريق السرقة ، فذلك على كل حال كان بابا سيئا للخروج من ربقة البؤس ، كى يجد نفسه إنما دخل من باب العار . وقصارى الأمر ايقن انه اخطأ .

ثم تساءل :

اهو وحده الوحيد الذى ارتكب خطأ فى هذه القصة التعسة المضنية ؟ تساءل اولا : اليس شيئا خطيرا أن يفقد ، وهو العامل ، كل وسيلة العمل . والا يجد ، وهو الكادح المجد ، لقمة الخبز ، وتساءل بعد هذا اليس العقاب الذى قوبلت به فعلته التى اعترف بها بالغة القسوة ؟ او ليس هناك جور من جانب القانون فى عقوبته هذه اكثر من جور المذنب نفسه بإقدامه على الجرم ؟ او ليس هناك فرط رجحان فى إحدى كفتى ميزان العدالة ، وهى كفة الكفارة التى قوبلت بها هذه الفعلة ؟ او ليس فى فرط العقوبة ما يمحو الزلة نفسها ويقلب الوضع ، فاذا المتجاوز ليس هو المحكوم عليه بل كل هذا القمع يحول المذنب إلى ضحية ، والمدين إلى دائن ؟ ويجعل الحق والقانون الطبيعى بيد من قيل إنه انتهك القانون؟

أو ليست هـــذه العقوبـــة ، التى تعقدت بامتدادات متوالية لمحاولات الهرب المتكررة قـــد افضت إلى صيرورتها عدوانا من الأقوى على الأضعف ، وجريمة للمجتمع ضد الفـــرد ، وهى جريمة تتجدد فى كل يوم ، جريمة دامت تسعة عشر عاما ..

وتساءل افى مقدور المجتمع الإنسانى ان يمتلك الحق فى ان يفرض المعاناة بالتســـاوى على اعضـــائه ، تارة بجوره الخارق للمعقول ، وطورا بخلو عدالته من الرحمة ، وان يوقع فردا من افراده بين شقى الرحى ، بين التفريط والإفراط ، بين التفريط فى كفالة عمل له يعيش منه وبين الافراط فى عقابه ؟

اليس ظلمـــا فادحا ان يعامل المجتمع على هـــذا النحو اعضاءه الذين غبنوا اعظم الغبن فى توزيع طيبات الحياة التى تغدقها الصدفة او تمنعها ، مع انهم أجدر الناس برعايته ؟

وما إن طرح هذه الأسئلة واصدر حكمه فيها حتى حاكم المجتمع بناء على هذا وادانه .

ادانه وحكم عليه بالكراهية .

وجعله مسئولا عن كل ما يقاسيه ، وقال لنفســـه إنه قد لا يتردد يوما ما فى استئدائه الحساب ، وصارح نفسه بانه لا توازن البتة بين الضرر الذى احدثـــه ، وبين الضرر الذى حدث له . وانتهى رايه إلى ان عقوبتـــه لم تكن فى الحقيقـــة ظلما ، بل هى يقينا خـــرق للتناسب العـــادل ، وعدوان على الإنصاف .

إن الغضب يمكن ان يكون مخبـــولا ولا معقولا . فمن الجائز ان يستثار المرء ويسخط ويغضـــب وهو مخطىء ،

ولكنه لا يشعر بالاستنكار إلا إذا كان فى اعماقه يشعر بانه على حق من وجـــه معين . ولذا كان جـــان فلجان يشـــعر بالاستنكار .

ثم إن المجتمع البشرى لم يسبب له إلا الشر ، ولم ير منه قط إلا ذلك الوجه الكالح الكاشر ، الذى يســـميه العدالة ، ويريه لمن يقرر ابتلاءهم . فالناس لم يمسوه إلا بقصد الإساءة إليه ومهانته ، وكل صلة له بهم كانت ضربة انزلوها به . ولم يحدث قط منذ طفولته ، ومنذ فقد أمه ، ومنذ افترق عن اخته . ان التقى بكلمة مودة او نظرة عطف وتعاطف . ومن معاناة إلى معاناة وصل رويدا رويدا إلى ذلك الاقتناع بأن الحياة حرب ، وانه هو المهزوم وحده فى هذه الحرب . وليس لديه من سلاح إلا الحقد وما يضطرم بين جنبيـــه من كراهية . ولذا قرر ان يشحذها فى الليمان كى يأخذها معه عندما يغادره .

* * *

وكانت فى الليمان مدرسة للسجناء يشرف عليها « الفرير » من الرهبان ، ومعلموها شبه جهلاء ، يعلمون فيها الضرورى جدا من القراءة والكتابة والحساب لمن لديه الرغبة فى التعلم من اولئك السجناء . وذهب إلى هذه المدرسة وهو فى الأربعين من عمره ، وتعلم القراءة والكتابة والحساب وشعر وهو يقوى ذكاءه انه ايضا يقوى حقده وكراهيته . ففى بعض الأحيان يكون التعليم والتنوير إضافة واداة ماضـــية للشر فى النفوس المعتمة بالبغضاء .

ومن المحزن ان نقـــول هـــذا : فبعـــد ان حكم على المجتمع بأنه هو الذى تسبب فى تعاسته وما يعانيه من شقاء ،

حكم أيضا على العناية الإلهية بانها هى التى خلقت المجتمع وصنعته على عينها ، ولذا ادان هذه العناية ايضا !

وهكذا ، على مــدى تســعة عشر عامــا من العذاب والعبودية ، جعلت هذه النفس تعلو وتهبط فى آن واحــد ، يدخلها النور من جانب . وتدخلها الظلمات من الجانب الآخر.

ونحن قــد راينا آنفا ان جان فلجان لم يكن ذا طبيعــة سيئة ،وانه كان ما يزال طيبا عندما دخل الليمان . وفى الليمان ادان المجتمع وشعر بانه غدا شريرا ، وادان العناية وشعر بانه امسى كافرا .

وها هنا من العسير الا نتأمل برهة ونتمعن .

امن الممكن ان تنقلب الطبيعــة البشرية راســا على عقب انقلابا كليا ؟ أمن الممكن أن يتحول الإنسان الذى خلقه الله طيبا فيصير شريرا بفعل الإنسان وتأثيره ؟ أمن الممكن ان تتغير النفس البشرية من النقيض إلى النقيض بفعل القدر ؛ فتصبح شريرة إذا كان القدر شريرا؟ امن الممكن ان يتشوه القلب وينطوى على القبح والعاهات والعلل التى لا شفاء منها تحت ضغط شقاء جائر ، كمــا يتشــوه العمود الفقرى تحت عبء باهظ ؟ اليس فى كل نفس بشريــة ، والم يكن فى نفس جان فلجان بخاصة ومضــة أو شرارة اولى وعنصر إلهى لا يمكن افساده فى هذه الدنيا ، لأنه خالد فى الحياة الأخــرى ، ويمكن تنميته وإذكاؤه وإيقاده كى يتألق ويشــع بكل بهائه ، ولا يمكن للشر ان يخمده ابدا ؟

هــذه اسئلة خطيرة وغامضــة ، ولعل علماء وظائف

الأعضاء يجيبون عن السؤال الأخير منها بكلمة لا ، وبلا تردد، لو انهم رأوا فى ليمان طولون ، فى ســاعات الراحة التى كانت لدى جان فلجان ساعات شرود وتأمل ــ وقــد جلس معقود الذراعين فوق عارضة رافعة ، وقد دس طرف قيده فى جيبه ، وراح فى بحران من خواطره ، كظيما ، متجهما ، ساكتا ، طريد القوانين التى تتجهم البشر وتعاملهم بقســوة وحقد ، وطريد المدنية فهو ينظر إلى السماء بصرامة وقسوة كالعداء .

يقينا ــ ولســنا نريــد التمويه ــ جدير بعالم وظائف الأعضــاء ان يرى فى هذا بؤسا لا ســبيل إلى علاجه ، ولعله كان خليقا ان يعذر هذا المريض الذى أمرضه واقع حال القانون، ولكنه ما كان ليحاول علاجــه ، بل يشيح بوجهه عن هــذه الكهوف والمغاور التى لمحها فى اغوار هذه النفس ، وهو حقيق ان يصنع ما صنعه دانتى من قبل عند باب الجحيم، حين كتب عليه :

ــ ايها الداخلون ودعوا آمالكم !

اجل ، إنه كان حقيقا ان يمحو من هذه الحياة تلك الكلمة التى خطتها يد الله على جبين كل إنســان ، كلمــة الأمل ، والرجاء !

ولكن هل كانت حالة النفس التى حاولنا تحليلها هنــا واضحة على هذا النحو لجان فلجان ، وضوحها الذى حاولناه لمن يطالعون سطورنا ؟

هل كان جان فلجان يرى بكل وضوح وتميز كل عناصر بؤسه المعنوى بعد تكونها ، وهل تبينها وهى قيــد التكوين ؟ وهل فطن هذا الرجل الفظ الجاهل غير المثقف كل الفطنة إلى

تعاقب الأفكار التى صعد درجاتها أو هبطها إلى حضيض تلك الجوانب الكالحة المعتمــة التى ظلت ســنوات طويلة الأفق الداخلى لنفسه وسريرته ؟ وهل له وعى بكل ما كان يعتمل فيه وكل ما يموج فى أغواره ؟

لسنا نجسر على الجزم بهــذا ، بل إننا لا نظنه حدث. لقد كانت فى جان فلجان جهالة بالغة الجسامة ، لذا ظل الكثير من جوانب نفسه غامضا عليه حتى بعد كل هذا الشقاء . حتى انه فى بعض الأحيان لم يكن يدرى بالضبط ما يكابده ويشعر به . لقد كان جان فلجان فى الظلمات ، ويعانى من الظلمات وفى جوفها ، ويغلى بالكراهية وهو فيهــا ، فهو يتخبط فى هــذه الظلمات ، ويعسعس فيها كالأعمى ، وكالحالم . وكل ما هناك انه فى فتــرات متبــاعدة كان يتلقى فجــأة من ذاته ومن الخــارج هزة غضب ، وفورة إضافية من العذاب والفناء ، كأنها وميض برق سريع شاحب ينير له جميع جنبات نفسه ، فتتراءى أمام عينيه على حين غرة ، وفى كل مكان مما حوله ، من خلفه ومن قدامه ، فى ضوء فظيع كل المهاوى الرهيبة وكل توقعات قدره الكالحة .

ومتى انقضى هذا البرق الخاطف ، تخيم الظلمــة من جديد ، فأين يلقى نفسه ؟ انه لم يعد يدرى !

إن الآلام التى من هذا القبيل ، التى يسيطر عليها ما لا قبل للمرء به أداة جبارة لتحويل الإنسان إلى حيوان مفترس ، بنوع من المسخ الرهيب. وكانت محاولات جان فلجان المتكررة للهرب ، فى عناء مشوب بالغباء ، كافية لإثبات هــذا العمل

العجيب الذى يمارسه القانون على النفس البشرية . فجــان فلجان كان حريا أن يكرر هذه المحاولات المطبقة الحماقة والتى لا جدوى منها كلما سنحت له فرصة ، من غير أن يفكر لحظة واحدة فى النتيجة أو يعتبــر بالخبرات التى تمت له من قبل . كان يفلت من سجنه بتهور كتهور الذئب الذى وجد قفصــه مفتوحا . وكانت الغريزة تقول له :

ـ اهرب ! انج بنفسك !

وكان العقل خليقا أن يقول له :

ـ ابق حيث أنت !

ولكن أمام إغــراء بهــذه القوة ، كان العقل يتلاشى ، فلا تبقى إلا الغريزة . فإذا بالحيوان وحده هو الذى يتصرف . وعندما يقبض عليه ، كانت ألوان القسوة التى يصبونها عليه لا تأثير لها إلا زيادة ترويعه .

وثمة تفصــيل لا ينبغى أن نغفله . وهو أن جان فلجان كان ذا قوة بدنية خارقــة لا تقاربهــا قوة أى نزيل من نزلاء الليمان . ففى كل الأعمال الشــاقة المجهدة التى يعيا بهــا سواه ، كانت قوة جان فلجان تعادل قوة أقــوى أربعة من زملائه مجتمعين . فكان أحيانا يرفع فوق ظهره أثقالا هائلة ، ويغنى فى ذلك عن تلك الآلة التى يسمونها « العفريتة » .

وكانت مرونة جسمه تتجاوز قوة بدنه وعضلاته وعظامه. فبعض نزلاء الليمــان الذين تحــول سجنهم إلى مؤبــد بكثرة محاولات الهرب ، جعلوا من قدراتهم البدنية وبراعتهم فيهــا

فنا وعلما . إنه علم العضلات . وكان السجناء يمارسون هذا الفن ويتبحرون فيه كل يوم ، وهم الذين يحسدون الذباب والعصافير على ما تنعم به من حرية. فتسلق عمود، والعثور على تكئات فى أجسام تبدو ملساء ، كانت لعبة جان فلجان المفضلة. ومتى رأى جدارا له زاوية مستقيمة ملساء،استطاع بتوتر ظهره وقوة كعبيه وكوعيه أن يتسلقه ، إلى الطابق الثالث ، بل إنه كان فى بعض الأحيان يتسلقه إلى سطح الليمان .

وكان قليل الكلام ، ولا يضحك ابدا ، بل كان لا بد من انفعال خارق كى ينتزع منه ، مرة أو مرتين فى السنة ، ضحكة السجين الكالحة التى كأنها صدى ضحكة ابليس . وكل من يراه يخيل إليه انه ينظر دواما إلى شىء رهيب .

كان دائما مستغرقا فى خواطره المظلمة .

لقد كان يشعر شعورا غامضا من خلال إدراكاته المريضة وذكائه المكبل وطبيعته الناقصة ، بأن قدرا رهيبا يجثم فوق صدره . وكلما رفع ناظريه لم ير قبه السماء ، بل رأى برعب مشوب بالغضب عبئا يتراكم فوقه ويعلو طبقة فوق طبقة ، من ركام اشياء وقوانين وتحيزات وتحامل ، واشخاص واحداث ، لا يدرك مداها ، ويبهظه حملها ، ويردعه منظرها ، وما هو إلا بناء ذلك الهرم الذى ندعوه المدنية !

وفى هذا الركام الهائل كان يميزها هنا وها هناك وسط هذه الأخلاط الشائهة المائجة . عن كثب منه أحيانا ، وعلى

مبعدة منه احيانا أخرى ، هضابا لا يمكن الارتقاء إليها ، ويلمح فى جنباتها حارسا فى يده عصاه ، أو شرطيا يحمل سيفه ، .. وغير بعيد منهما يلمح المطران بتاجه الذهبى المدبب ، على مستوى مرتفع ، تلمع فوقه اشعة الشمس . وفوق هذا المستوى الرفيع يرى أفقا يقف فيه الإمبراطور متوجا يبهر الأنظار ! ويخيل إليه ان هذا القبيل من الرؤى الفخمة لا يضىء ظلمات وجوده ، بل يجعله اشد قتامة ووحشة !

اجل . إن كل هذا الخليط الهائل من القوانين، والأهواء والتحيزات والأحداث والناس ، والأشياء ، يغدو ويروح من فوقه ، طبقا للحركة المعقدة الغامضة التى طبع الله عليها المدنية ! المدنية التى تسحقه وتمشى فوقه فى طمأنينة ووقار كلهما قسوة لا ترحم ، وعدم مبالاة به وبأمثاله من أصحاب النفوس التى سقطت فى الحضيض الأسفل من سوء الطالع والشقاء ، فهم بشر مساكين ضائعون فى أعماق المهاوى التى لم يعد أحد ينظر إلى اغوارها ، انهم منكودون من ضحايا القانون يشعرون بأنه يجثم دائما بكل ثقله الرهيب فوق رءوسهم ، ممثلا للمجتمع البشرى بفظاعة لا يتصورها من لا يرزح تحته ، ولكنها مروعة لمن فى القاع ...

فى هذا الوضع كان كل تفكير جان فلجان ، وماذا عسى ان تكون خواطره ؟

لو كانت لحبة القمح تحت حجر الطاحون افكار وخواطر ، فلا بد أن تكون بلا مراء صنو ما جال بخاطر جان فلجان .

فجميع الاشياء والوقائع الحافلة بتهاويل الأشباح ، وكل التهاويل الحافلة بالوقائع ، خلقت لديه عالما داخليا يكاد يكون المستحيل التعبير عنه .

وفى بعض الأحيان ، وسط عمله فى الليمان كان يتوقف ، ويأخذ فى التفكير ، ويثور عقله الذى غدا انضج من ذى قبل ، واشد بلبلة فى آن واحد . فكل ما حدث له كان يبدو لذهنه غير معقول . وكل ما كان يحدق به بدا له مستحيلا ، فكان يقــول لنفسه :

— إنه حلم .

ويرمق الحارس الواقف على بعد خطوات معدودة منه ، فيبدو له هــذا الحارس شـبحا . وفجــاة يضربه الحارس بعصاه !

لقد كانت الطبيعة المرئية لا تكاد توجد بالنســبة له . بل يكاد يكون ضربا من الصدق ان نقوله إنه لم يكن — لــدى جان فلجان — وجــود لا للشــمس ، ولا للأيام الجميلة فى الصيف ، ولا سماء متألقة ، ولا فجر ناضر فى ابريل . ولست ادرى اى نهار من التنهدات كان يضىء غياهب نفسه فى العادة .

ولكى نلخص ، فى الختام ، ما يمكن تلخيصــه وترجمته إلى نتائج إيجابية من بين كل ما اشرنا إليه ، سنكتفى بالقول أن جان فلجان مقلم الأشجار المسالم فى فافرول ، تحول إلى مذنب نزيل الليمان تسـعة عشر عاما ، واشــتغل بالتجديف الشاق فى سفن الدولة بطولون ، فصار قادرا بفضل التشكيل

الذى صبه عليه الليمان على ضربين من الأعمــال السيئة ، اولهما الفعل السيىء السريع بلا تفكير ولا روية، وبكل الطيش والاندفاع ، وبوحى الغريزة وحدها ، كأنه ثأره من الشر الذى عاناه وكابده. وثانيهما الفعل السيىء الخطير الجدى عن روية مبعثها الأفكار الخاطئة التى يثيرها مثل هذا الشقاء ، وكانت تدبيراته تمر فى ثلاث مراحل متعاقبة لا تعرفها إلا جبلة معينة . وهذه المراحل هى التفكير والارادة والعناد . وكانت دوافعه هى الاستنكار المعتاد ، ومرارة النفس ، والاحساس العميق بالمظالم التى عاناها ، وهو رد فعل يوجهه ولو ضد الصالحين والأبرياء والعادلين ، إن كان لهم وجود . فنقطة البداية مثل نقطة الوصول فى جميع افكاره هى كراهية القانون البشرى ، تلك الكراهية التى ما لم يتوقف نموها بحادث من صنع العناية، تصبح فى وقت معين كراهيــة للمجتمع ، ثم كراهيــة للنــوع البشرى ، ثم كراهية للخليقة ، وتترجم إلى رغبــة غامضــة متواصلة وحشية فى الأذى ؛ أذى اى إنســان ، او اى كائن حى كيفما كان. لذا لم يكن بلا سبب أن جواز مرور جان فلجان وصفه بأنه « رجل بالغ الخطورة » .

وبمرور الســنين جفت هذه النفس ، وتزايد جفافهــا ، ببطء ، ولكن بحسم . وصــار جاف القلب ، جــاف العين . فعندما بارح الليمان كانت له تسع عشرة سنة لم يذرف دمعة واحدة .

- ٨ -

الموجـــة والظـــل

رجل سقط فى البحر !

وما اهمية هذا ! السفينة لا تقف ، والريح تهب ، وهذه السفينة لها مسار لا بد لها من مواصلته . وهكذا تمضى فيه بلا توقف !

ويختفى الرجل ، ثم يعود للظهور . يغوص ويطفو على السطح ، ويصرخ ، ويمد ذراعيه ، ولا من سميع ولا مجيب . فالسفينة تواجه إعصارا ، وهى منهكة فى المناورة ، والبحارة والركاب لا يرون الرجل المغمور ، وراسه التعس ليس سوى نقطة وسط امواج اليم المصطخبة .

ويطلق صيحات اليأس فى الأعماق ، والسفينة تغـدو شبحا بشراعها على حافة الأفق ، ويمضى بعيدا عنه . ويرمقه فى فزع وهو يبتعد ، ويوغل فى البعد ، ويتناقص كلما ابتعد . لقد كان هناك منذ قليل ، وكان من بين البحارة ، وكان يروح ويغدو فوق الجسر مع الآخرين ، وكان له نصـــيبه مثلهم من التنفس والشمس . كان كائنا حيا . وماذا حدث الآن ! لقـد انزلق ، فسقط فى اليم ، وانتهى كل شىء .

إنه فى جوف اليم الضارى . ولم يعد تحت قدميه إلا الفرار والانهيار . والامواج المتلاطمة تحيط به من كل صوب ، تدفعها الريح الهادرة ، ودوامات الأعماق تحمله وتحيط براســـه .

وحشود من الأمواج تبصق عليه ، وفجوات غامضة تفغرفاها لتبتلعه. وفى كل مرة يغوص فيها يرى مهاوى حائلة بالظلمات، ونباتات فظيعة مجهولة تمســك به وتقيد قدميه ، والأمواج تتقاذفه فيما بينها ، ويشرب المرارة ، ويستميت المحيط الجبان كى يغرقه ، ويتضاعف ذعره واحتضاره .

ولكنه مع هذا كله يناضل .

ويحـاول ان يحمى نفســه ويدافع عنهـا ، وان يقف ويتماسك ، ويبذل جهده ، ويسبح . وتنفد قواه المنهارة امام تلك القوة التى لا تنفد .

اين السفينة إذن ؟ انها هناك ! لا تكاد ترى فى ظلمـات الأفق .

وتهبالعواصف ، وتتكالب حوله حشود الزبد ، ويرفع عينيه ولا يرى إلا جهامة الأمواج . ويشهد فى ارتياع وحشية البحر ، ويسمع اصواتا غريبة كانهـا قادمة من وراء الارض ومن حيث لا يدرى .

فى الأمواج طيور ، كما ان فى السماء ملائكة تعلو فوق الشقاء البشرى . ولكن ماذا يملكون له ؟

انها تطير وتحلق وتسبح وتغنى . اما هو فيشهق !

ويحس انه حبيس هذينالللامتناهيين : المحيط والسماء . احدهما قبر والآخر كفن !

ويهبط الليل . لقد مضت عليه ساعات وهو يسبح ، وقد وصلت قواه إلى نهايتها وخارت ، وقد انمحت تلك السـفينة التى كان فوقها أناس من البشر ، وصار وحيدا فى تلك الهاوية المظلمة ، ويحس من تحته وحوش المجهول ، وينادى :

لئن لم يعد هناك بشر ، فأين الله ؟

وينادى ، ثم ينادى . وما من مجيب .

لا احد على صفحة الأفق ، ولا احد فى السماء !

ويتوسل إلى الامتداد ، إلى الموج ، إلى الصخر . والكل اصم . ويتوسل إلى العاصـفة ، والعاصـفة التى لا ترحم لا يطيع إلا اللامتناهى !

ومن حوله العتمة ، والضباب ، والوحدة ، والاصطخاب العاصف الذى لا وعى له، وتلاطم المياه الشرسة . وفى حناياه الفزع والاعياء . ومن تحته السقوط . لا موطىء لقدمه . ويفكر فى مغامرات الجثة فى الظلمة غير المحدودة . ويشله البرد ، ويداه تنبسطان وتنقبضان ، فلا تطبقان إلا على العدم . رياح وامواج ودوامات ونجوم لا جدوى منها ! ما العمل ؟ ويترك اليائس نفسه للمقادير . ومن ينال منه الإعياء يختار الموت ، ويترك نفسه بلا عنان ، ويتهاوى فى اعماق اليم الكاشر .

يا مسيرة النوع البشرى ! يا ضيعة البشر والنفوس فى هذه المسيرة ! يا للمحيط الذى يسقط فيه من يقع تحت طائلة القانون ! لا مكان ها هنا لمغيث أو معين ! إنه الموت المعنوى !

اما البحر فهو ليل المجتمع الذى لا يرحم الذى تلقى فيه العقوبة بمنكوبيها . البحر هو البؤس المترامى . والنفس المهزومة فى هذه الهاوية قد تتحول إلى جثة . فمن ذا يبعثها من الموت ؟

- ٩ -

مظالم جديدة

عندما حانت ساعة الخروج من الليمان ، وسمع جان فلجان باذنيه تلك الكلمة الغريبة (*)

— انت حر !

لم يكد يصدق اذنيه ، وخال ما سمعه غير معقول واخترقه فجاة شعاع ضوء قوى ، شاع نور من انوار الأحياء الحقيقيين . بيد ان هذا الشعاع لم يلبث ان شحب ، فقد كان جان فلجان فى البداية مبهورا بفكرة الحرية ، فآمن بانه سيعيش حياة جديدة . ولكنه سرعان ما راى ما تعنيه حرية مصحوبة بجواز مرور اصفر .

ومن حول هذا الجواز تجمعت مرارات كثيرة . لقد كان يحسب ان رصيد اجره ، اثناء إقامته فى الليمان، لا بد ان يصل إلى مائة وواحد وسبعين فرنكا ، ومن العدل أن نقول إنه نسى ان يدخل فى حساباته الراحات الإجبارية فى أيام الآحاد والأعياد ، وقد تجمع هذا على مدى تسعة عشر عاما فانتقص منه نحو اربعة وعشرين فرنكا . ومهما يكن من شىء فقد انتقصت هذه المبالغ ايضا بخصومات مختلفة فصارت الحصيلة الفعلية مائة وتسعة فرنكات وخمسة عشر صلديا ، نقدوه إياها عند خروجه .

ولم يفهم شيئا من هذه الحسبة واعتقد انه مغبون ، بل لنقل إنهم سرقوه !

وفى غداة يوم إطلاق سراحه ، وصل فى جراس إلى باب مصنع لتقطير زهور البرتقال ، حيث راى رجالا يفرغون بالات . وعرض خدماته . ولما كان العمل كثيرا والوقت ضيق، قبلوا هذه الخدمات ، وشرع فى العمل ، وكان ذكيا قويا ماهرا ، وبذل خير ما فى وسعه ، وبدا رب العمل راضيا عنه . وفيما هو يعمل مر شرطى . ولمحه الشرطى وطلب إليه ان يريه اوراقه . فكان لا بد من إبراز جواز مروره الأصفر . وبعد ذلك استأنف جان فلجان عمله . وكان قبل ذلك بقليل قد سال احد العمال كم يتقاضى عن هذا العمل فى اليوم ، فقال له :

— ثلاثين صلديا .

وجاء المساء . ولما كان مضطرا للرحيل فى اليوم التالى صباحا ، فقد تقدم من رب العمل وهو صاحب معمل التقطير ورجاه ان يؤدى إليه اجره ، ولم ينطق رب العمل بكلمة بل نقده خمسة عشر صلديا ، فطالبه بالباقى ، فاجابه :

— هذا حسبك !

فالح فى الطلب ، عندئذ نظر الرجل إلى ما بين عينى جان فلجان وقال له :

— يا خريج السجن !

وعندئذ شعر مرة اخرى بانه سرق .

إن المجتمع ، او الدولة ، سرقته بإنقاص مجموع اجره سرقة فاضحة . وها قد حل دور الفرد كى يسرقه على نطاق اقل ...

إن إطلاق السراح ليس هو الخلاص إذن . فالمرء يخرج من الليمان . ولكنه لا يتخلص من الادانة !

وهذا ما حدث له فى جراس . ونحن نعرف كيف كان استقباله فى (د) .

— ١٠ —
واســـتيقظ الرجــل

وفيما كانت ساعة الكاتدرائية تدق الثانيــة صباحا ، استيقظ جان فلجان .

وكان ما ايقظه هو وثارة الفراش الذى ينام فيه . فهو منذ عشرين سنة تقريبا لم ينم فى فراش ، ومع انه لم يكن تجرد من ثيابه ، إلا ان هذا الاحساس كان من الجدة بحيث نغص عليه نومه .

وكان قد نام اكثر من اربع ساعات ، محت تعبه ، وكان متعودا على عدم الركون طويلا إلى الراحة . وفتح عينيه ، ونظر برهة فى الظلمة من حوله ، ثم اغلقهما ليعاود النوم . وعندما تكون إحساسات متباينة قد كدرت النهار ، وتكون امور كثيرة قد شغلت البال ينام المرء ، ولكنه متى استيقظ لا يعاود النوم . فالنوم يأتى فى البداية بسهولة، ولكنه لا يعود بمثل هذه السهولة . وهذا ما حدث لجــان فلجــان . فلم يستطع ان يعاود النوم وشرع يفكر .

وكان فى لحظة من تلك اللحظات التى تضطرب فيهــا الافكار التى تجول بالخاطر ، فراحت افكاره تروح وتغدو غامضة فى مخه . وطغت ذكرياته القديمة مختلطة بذكرياته الجديدة ، وتضخمت بصورة تتجاوز كل حد ، ثم اختفت فجاة كما ابتلعتها مياه موحلة . راودته افكار كثيرة ، ولكن فكرة

منها ظلت تلح عليه وتطرد ما عداها . كانت تتراءى له صورة الصحاف الفضية الست والملعقة الفضية الكبيرة التى كانت مدام مجلوار قد وضعتها على المائدة .

لقد استولت هذه الصحاف الست على لبه ايما استيلاء، انها هناك . على بعد خطوات منه . ففى اللحظة التى خطا فيها مجتازا الحجرة المجاورة ليدخل إلى الحجرة التى هو فيها الآن ، كانت الخادمة العجوز تضعها فى خزانة صغيرة عند رأس فراش الأسقف . لقد لاحظ تلك الخزانة جيدا . إنها على اليمين ، عند الدخول من قاعة المائدة . والصحاف من الفضة الخالصة المصبوبة صبا ، ومن الفضــــة القديمــة ، وتساوى هى والملعقة الكبيرة مائتى فرنك على الأقــل .. اى ضعف ما كسبه فى تسعة عشر عاما . وإن كان من الممكن ان يكون ما كسبه اكثر بكثير لو لم تسرقه الإدارة !

وظل فكره يتأرجح ساعة كاملة فى ذبذبات لا تخلو من صراع . ودقت الساعة الثالثة، ففتح عينيه، وجلس فى مكانه ومد ذراعه وتحسس كيسه الذى كان قد القاه فى ركن الخلوة، ثم انزل ساقيه ووضع قدميه على الأرض ، وإذا به يلقى نفسه جالسا فى فراشه .

وظل برهة شاردا فى ذلك الوضع الذى كان خليقا ان يفزع من يراه فى الظلام ، مستيقظا وحده فى بيت كل من فيه نيام وفجاة انحنى وخلع حذاءه ووضعه على الحصير بلطف قرب الفراش ، وعــاد إلى جلســته وشروده وهو جامــد لا يتحرك .

ووسط هذا التأمل الموحش ، كانت الأفكار التى ذكرناها تموج بلا توقف فى مخه : داخلة ، خارجـــة ، ثم داخلة مـــرة اخرى ، وتشغل تفكيره كله ، ثم فكر ايضا ، من غير ان يدرى لماذا ، بعناد آلى يمليه الشرود ، فى زميل له عرفه فى الليمان ، اسمه « بريفيه » ، ولم يكن يمسك سرواله إلا ناحية واحدة من حمالة مصنوعة من القطن ، وكانت صورة هذه الحمالة الغريبة الشكل تعاود تفكيره بلا انقطاع .

وظل فى هذه الجلسة ، وكان خليقا ان يظل فيها إلى ما لا نهاية . او إلى مطلع النهار ، لولا ان ساعة الكاتدرائية دقت دقة واحدة ، إعلانا للربع او للنصف . فكأنما قالت له هذه الدقة :

— هلم بنا !

فنهض واقفا ، وتردد لحظة ، واصغى . كل شىء كان صامتا فى ارجاء البيت ، وعنـــدئذ مشى مبـــاشرة وبخطوات صغيرة نحو النافذة ، فنظر من زجاجها . ولم يكن الليل حالك الظلمة ، بل كان القمر بدرا مكتملا تجرى من فوقه ســـحب كبيرة تدفعها الرياح ، فيحدث تراوح بين الظلمة والضوء فى الخارج ، فثمة غياهب تعقبها اضواء . اما فى الداخل فيسود نوع من العتمة كالغسق ، وهو غسق كاف لكى يتلمس المرء خطواته فى تقطع بتأثير لحظات الاظلام فى الخـــارج بســـبب السحب ، فما اشبه هذا بذلك الضوء الخافت الذى يتحدد من كوة فى مغارة ، وفى خارجها اناس يغدون ويروحون .

ولما وصل جان فلجان إلى الكهف فحصها ، فوجدها

خالية من القضبان ، وتطل على الحديقة . وهى غير مغلقة — على عادة هذا الإقليم — إلا بخابور صغير . ففتحها ، ولكن دخول هواء بارد شديد منها فجاة جعله يغلقها فى الحال . وتطلع إلى الحديقة بنظرة يقظة ، تدرس اكثر مما تنظر . وكانت الحديقة مسيجة بسور ابيض منخفض ، يسهل تسلقه. ومن وراء السور لاحظ رءوس اشجار متساوية الابعاد ، مما يدل على ان هذا السور يفصل الحديقة عن شارع او حارة تحف بجانبيها الأشجار .

وما إن القى هذه النظرة حتى بدرت منه حركة تدل على العزم، ومشى إلى خلوته ، وتناول كيسه ففتحه ، وفتش فيه واخرج منه شيئا وضعه على فراشه ، ووضع حذاءه فى احد جيوبه الكبيرة ، ثم اغلق كل شىء وحمل الكيس على كتفه ، ولبس قلنسوته وجذب طنفها على عينيه ، وتناول عصـــاه فذهب ووضعه عند ركن النافذة ، ثم عاد إلى الفراش وامسك فى عزم بالشىء الذى كان قد وضعه هناك ، وهذا الشىء اشبه بقضيب قصير من الحديد ، واحد طرفيه مدبب كالحربة .

وكان من الصعب ان نميز فى الظلام لأى غرض تصلح هذه القطعة من الحديد . العلها عتلة ؟ العلها هراوة ؟

اما فى ضوء النهار فكان من الممكن ان ندرك انها ليست إلا شمعدانا يستخدم يومئذ فى المناجم . وكانوا يستخدمون نزلاء الليمان احيانا فى استخراج الملح الصخرى من التـــلال العالية التى تحيط بطولون ، لذا لم يكن من النادر ان توجد تحت تصرفهم أدوات تعدين . وشمعدانات المعدنين من الحديد

المصبوب ، وينتهى طرفها السفلى بسن كانوا يغرسونه فى الصخر .

وتناول جان فلجان الشمعدان بيمناه ، وكتم تنفســه ، وخافت من خطواته ، واتجه إلى باب الحجرة المجاورة ، وهى حجرة الأسقف كما نعلم . ولما وصل إلى ذلك الباب وجــده مواربا ، لأن الأسقف لم يكن يغلقه ابدا .



وتناول جان فلجان الشمعدان بيمناه ، وكتم تنفســه ، وخافت من خطواته ، واتجه إلى باب الحجرة المجاورة ..

- ١١ -
وماذا صنع ؟

واصغى جان فلجان . لا صوت .

ودفع الباب .

دفعه بطرف اصبعه ، بخفة ، اشبه بخفة مختلسة قلقة مصدرها قطة تريد الدخول .

واستجاب الباب للضغط ، وتحرك حركة صامتة لا تكاد ترى وسعت الانفراج بعض الشيء .

وانتظر لحظة . ثم دفع الباب مرة ثانية ، بمزيد من الجراة .

وواصل الباب انقياده للضغط فى صمت . وصارت فرجته الآن من الاتساع بحيث تسمح بالدخول . ولكن كانت قرب الباب منضدة صغيرة تصنع مع الباب زاوية تعوق الدخول .

وفطن جان فلجان لهذه الصعوبة ، ولابد باى شكل من توسيع الفتحة .

وجمع شتات نفسه ، ودفع الباب مرة ثالثة ، اقوى من المرتين السابقتين . وفى هذه المرة سمع خرير خافت من مفصلة سيئة التزييت دوى فى هذه العتمة كأنه صرخة جشاء متطاولة !

وارتجف جان فلجان ، لأن صوت هذه المفصلة رن فى أذنيه رنة رهيبة مجلجلة وكأنه ناقور يوم الحساب الأخير !

وفى تجسيمات هذه التهاويل فى اللحظة الأولى ، خيل إليه أن هذه المفصلة تحركت وصارت لها حياة رهيبة ، بل إنها نبحت كالكلب لتنبيه جميع الناس وإيقاظ النائمين .

ووقف جامدا فى مكانه يرتجف ، وهبط من وقوفه على أصابع قدميه واستقر على عقبيه ، وسمع عروقه تنبض فى صدغيه كمطارق الحدادين ، وخيل إليه ان انفاسه تخرج من صدره فى ضجيج كضجيج الريح التى تخرج من مغارة . وتراءى له من المستحيل الا تكون ضجة هذه المفصلة الفظيعة لم تهز البيت كله كالزلزال ، وأن الباب الذى دفعه أطلق صيحة النذير مدوية . وان الشيخ النائم سيهب من نومه ، وان المرأتين العجوزين ستملآن الدنيا صراخا ، فيأتى الناس للغوث من كل فج . وأنه قد مضى ربع الساعة ستكون المدينة كلها قد انبرت له ، ويكون الشرطة قاموا على قدم وساق . وظل برهة يظن نفسه قد ضاع .

وظل حيث هو ، جامدا متحجرا كأنه تمثال من الملح ، لا يجسر على الاتيان بحركة . ومرت بضع دقائق ، والباب مفتوح على سعته . فغامر بالنظر داخل الحجرة ، فاذا كل شيء كما هو لم يتحرك من مكانه . وأصاخ السمع . لا شيء يتحرك فى البيت كله . فصوت المفصلة لم يوقظ احدا .

وهكذا مر هذا الخطر الأول ، ولكن كان هناك صراع مائج فى داخله . ومع هذا لم يتراجع . بل إنه حينما ظن انه ضاع لم يتراجع . ولم يعد يفكر فى شيء اللهم إلا الفراغ مما انتواه بسرعة . فخطا خطوة ودخل الحجرة .

وكانت هذه الحجرة غارقة فى هدوء تام . ويميز المرء فيها هنا وهناك أشكالا غامضة . وفى ضوء النهار كانت ترى على المنضدة اوراق مهوشة ، ومجلدات كبيرة ، ومجلدات اخرى مكدسة فوق كرسى منخفض ، وعلى كرسى ذى ذراعين ملابس ملقاة . وهناك مركع للصلاة ، وهناك ايضا اركان مظلمة واماكن خالية ضاربة للبياض . وتقدم جان فلجان بحذر وهو يتحاشى الاصطدام بالأثاث . وسمع فى صدر الحجرة تنفس الأسقف النائم يتصاعد هادئا منتظما .

ووقف فجاة . وكان قريبا من الفراش . فقد وصل إليه بأسرع مما كان يظن .

وفى بعض الأحيان تخلط الطبيعة تأثيراتها ومناظرها

بأفعالنا فى ضرب من القصد الغامض الذكى ، كأنها تريد منا ان نتروى ونفكر ، فمنذ حوالى نصف الساعة كانت سحابة كبيرة تغطى السماء . وفى لحظة وقوف جان فلجان أمام الفراش ، تمزقت هذه السحابة ، كأنما حدث هذا عمدا ، وهبط شعاع من نور البدر من خلال النافذة فأضاء فجأة وجه الأسقف الشاحب . فاذا به نائم فى هدوء وطمانينة . وهو مكتس تقريبا بسبب شدة البرد فى ليالى اداني الألب ، بثوب من الصوف البنى يغطى ذراعيه حتى المعصمين . وكان رأسه مستلقيا على الوسادة فى وضع المستسلم للراحة ، وقد تدلت من الفراش يده المزدانة بخاتم الأسقفية ، والتى كثيرا ما تساقطت منها وانهمرت اعمال قدسية خيرة كثيرة ، ووجهه كله يشع منه تعبير غامض عن الرضا والرجاء والغبطة ، متهللا بما هو اكثر نورانية من الابتسام . وعلى جبينه ضياء لا نرى مصدره. فنفس الأبرار تتراءى لها فى المنام سماوات لا يسبر لها غور .

وكانت هذه السماء منعكسة على الأسقف .

وهو فى نفس الوقت شفافية إنسانية ، لأن هذه السماء كانت بداخله . هذه السماء كانت هى ضميره .

وفى اللحظة التى انضاف فيها نور القمر إلى تلك النورانية الداخلية ، بدا الأسقف النائم وكأنه صورة للمجد ، ظلت مغلفة بغلالة لطيفة من الضياء الخافت . كأن هذا

القمر فى صفحة السماء ، وهذه الطبيعة الفانية ، وهذه الحديقة التى لا صوت فيها ، وهذا البيت الساكن المطمئن ، وهذه الساعة ، بل اللحظة ، وهذا السكون ، قد اضفت جميعها المهابة والجلال على سكينة نوم ذلك الشيخ ، واحاطت بهالة من الجلالة الوادعة هذا الشعر الأبيض وهاتين العينين المقفلتين ، وهذا الشكل الذى كله رجاء وثقة ، وهذا الرأس الأشيب ، وهذا النوم الذى يشبه نوم الأطفال .

كأنما كانت هناك قدسية إلهية فى ذلك الرجل الجليل عن غير وعى منه .

اما جان فلجان فكان فى الظل ، وشمعدانه الحديدى فى يده ، واقفا بلا حراك ، متوجسا من منظر هذا الشيخ النورانى . فهو لم ير فى حياته كلها قط شيئا كهذا ، فأفزعته كل هذه الثقة . فعالم المعنويات ليس فيه منظر اهول ولا اعظم من هذا : منظر ضمير مضطرب قلق ، على وشك الاقدام على فعلة خبيثة ، وأمامه رجل بار ينام نوم الصالحين.

فهذا النوم ، وهذه العزلة ، إلى جوار رجل مثله ، فيهما شىء رائع مهيب كان يحسه، إحساسا غامضا، ولكنه مهيمن .

وما من احد كان يستطيع ان يقول ماذا كان يدور فى حنايا صدره ، حتى ولا هو نفسه ! ولكى ندرك ما هو يجب ان نتخيل ابشع العنف فى حضرة أعذب العذوبة. ولذا لم يظهر

على وجهه شىء واضح مؤكد ، بل لا شىء سوى الدهشة الزائغة .

كان ينظر إلى الأسقف النائم ، ولا شىء عدا هذا . أما ماذا كانت أفكاره ؟ فهذا شىء من المستحيل حدسه . ولكن المقطوع به انه تأثر واضطرب . ولكن ماذا كانت طبيعة هذا الانفعال ؟

لم تفارق نظرته عين الشيخ المقفلة . وكل ما ارتسم على مسلكه هو التردد ، فكأنه حائر بين هاويتين : تلك التى يضيع فيها المرء ، وتلك التى فيها يكون خلاصه . فهو متردد بين تحطيم هذه الجمجمة أو تقبيل تلك اليد !

وبعد بضع لحظات ، ارتفعت ذراعه اليسرى إلى جبينه وخلع قلنسوته ، ثم هوت ذراعه بمثل هذا البطء . واستغرق جان فلجان فى تأمله وقلنسوته فى يده اليسرى ، وشمعدانه فى يمناه ، وشعره مشوش فوق رأسه .

وظل الأسقف نائما فى هدوء تحت هذه النظرة المروعة .

وكشف شعاع القمر — فى شىء من الغموض — عن الصليب القائم فوق رف المدفأة ، وكأن المسيح فاتح ذراعيه لكليهما : للأسقف واللص ، يقدم البركة للأول ، والمغفرة للآخر .

وفجأة لبس جان فلجان قلنسوته وسار بسرعــة على محاذاة الفراش من غير ان ينظر إلى الأسقف ، متجها مباشرة إلى الصوان الذى لمحه عند راس الفراش . ورفع الشمعدان فى يمناه كانما ليغتصب القفل ، ولكن المفتاح كان فيه ، ففتحه . وكان اول ما رآه السلة التى بها الأدوات الفضية ، فاخذها واجتاز الحجرة بخطى واســعة بدون حــذر ، ولا اهتمــام بالضجة ، ووصل إلى الباب ، ودخل المصلى ، ففتح النافذة ، وتناول عصاه ، وتسلقها واخرج رجليه ، ووضع الفضيات فى كيسه ، والقى بالسلة ، واجتاز الحديقــة ، وقفــز فوق السور المنخفض كالنمر ، ولاذ بالفرار .

- ١٢ -

الأســــقف يعمل

وفى الصباح التالى ، مع بزوغ الشمس . كان سيدنا يتمشى فى حديقته ، عندما جرت مدام مجلوار صوبه وهى فى غاية الاضطراب وصاحت :

ــ يا سيدنا ! يا سيدنا ! أتعرف عظمتك اين ســلة الفضيات ؟

فقال الأسقف :

ــ نعــم .

فقالت :

ــ ليكن اسم الله مباركا ! فقد كنت لا ادرى ماذا جرى لهــا .

وكان الأسقف قد التقط منذ قليل تلك السلة من حوض للزهور ، فقدمها إلى مدام مجلوار .

ــ هذه هى .

فقالت :

ــ ولكنها خاوية ! ليس بداخلها شىء ؟ واين الفضيات ؟

فقال الأسقف :

ـــ آه ! اما يقلق بالك هو الفضيات ؟ لست أعرف اين هى !

ـــ رباه ! انها سرقت ! سرقها الرجل الذى جاءنا مساء امس !

وفى غمضة عين ، جرت العجوز اليقظة ، مدام مجلوار ، إلى المصلى ودخلت الخلوة ثم عادت إلى الأسقف . وكان الأسقف منحنيا يتفحص وهو يتنهـــد نابتة كانت الســـلة قد سحقتها وهى تسقط فى حوض الزهور ، وانتصب على صوت صياح مدام مجلوار .

ـــ سيدنا ! لقد رحل الرجل ، وسرقت الفضيات !

وفيما هى تقول ذلك وقع بصرها على موضع من السور به آثار تسلق ، وصاحت :

ـــ انظر ! انه هرب من هذا المكان ، ووثب إلى حارة « كوشنفيليه » ! للفظاعة ! لقد سرق فضياتنا !

وظل الأسقف صامتا لحظة ، ثم رفع بصره فى جد وقال لمدام مجلوار بعذوبة :

ـــ وهل كانت هذه الفضيات لنا ؟

ووقفت مدام مجلوار مذهولة . وساد صمت آخـــر ثم استطرد الأسقف :

ـــ يا مدام مجلوار ! لقد اخطأت بالاحتفاظ بهذه الفضيات منذ مدة طويلة . انها من حق الفقراء . ومن كان هذا الرجل ؟ إنه رجل فقير قطعا !

ـــ فليرحمنا المسيح ! انا لست حزينة لأجلى ولا لاجل الآنسة . فالأمر لدينا ســـيان . بل من اجل ســـيدنا . ففى اى شىء عساه يأكل الآن ؟

فنظر إليها الأسقف فى دهشة وقال :

ـــ آه ! الا توجد صحاف من القصدير ؟

فهزت مدام مجلوار كتفيها وقالت :

ـــ للقصدير رائحة .

ـــ لنأكل فى صحاف من الحديد إذن !

فلوت مدام مجلوار وجهها باشمئزاز وقالت :

ـــ للحديد طعم .

فقال الأسقف :

ـــ فى صحاف من الخشب إذن !

وبعد لحظات ، كان يفطر على نفس تلك المائدة التى جلس إليها جان فلجان بالأمس مساء . وفيمـا كان سـيدنا يتناول إفطاره قال بمرح لأخته التى لم تتكلم ، ولمدام مجلوار التى كانت تدمدم بصوت كظيم إنه لا حاجة إلى ملعقـة أو شوكة ، ولو من الخشب ، لغمس قطعة من الخبز فى فنجان من اللبن . وقالت مدام مجلوار لنفسها وهى تغدو وتروح للخدمة :

ـ هذه عاقبة من يستقبل رجلا مجهـولا على هـذه الصورة ! ويسكنه بقربه ! وانه لمن حسن الطالع انه اكتفى بالسرقة ! يا إلهى ! إنى لأرتعد عندما أفكر فى هذا !

وفيما كان الأخ والأخت بسبيل القيام من المائدة ، طرق الباب . فقال الأسقف :

ـ ادخل !

وانفتح الباب ، وبدت على عتبته مجموعة غريبة عنيفة المظهر . كان ثلاثة رجال يمسكون بخناق رابع . وكان الثلاثة من الشرطة ، اما الرابع فكان جان فلجان ... وكان ضابط شرطة بقرب الباب ، ويبدو انه قائد الثلة ، فدخل واقترب من الأسقف وأدى له التحية العسكرية ، وقال :

ـ يا سيدنا !

وما إن سمع جان فلجان المكتئب المرتبك هذه الكلمة حتى رفع رأسه مأخوذا وغمغم :

ـ سيدنا ! انه ليس القس إذن !

فصاح به شرطى :

ـ اخرس ! هذا سيدنا الاسقف !

ولكن سيدنا اقترب منه بأسرع ما تسعفه سنه المتقدمة وصاح بجان فلجان :

ـ آه ! اهذا انت ! أنا مسرور برؤياك ! ولكنى كنت قد أعطيتك الشمعدانين ايضا ، فهما من الفضة مثل بقية أدوات المائدة ويمكنك بيعهما بمائتى فرنك . فلماذا لم تأخذهما مع بقية اشيائك ؟

وفتح جان فلجان عينيه على سعتهما ونظر إلى الأسقف الموقر بتعبير تعجز كل السنة البشر عن الإفصاح عنـه . وقال ضابط الشرطة :

ـ فما قاله هذا الرجل حق إذن ! لقد قابلناه ، وكانت تبدو عليه النية فى الرحيل ، فقبضنا عليه لنستجلى أمره ، فاذا معه هذه الفضيات .

وقاطعه الأسقف باسما :

— وقال لكم ان رجلا مسنا طيبا من الكهنة أعطاه إياها بعد ان قضى عنده ليلته ؟ فهمت ! فجئتم به إلى هنا . فى الامر سوء تفاهم .. ولبس !

فقال الضابط :

— فى وسعنا اذن أن نتركه ينصرف ؟

فقال الأسقف :

— بلا شك !

فخلى الشرطة سبيل جان فلجان الذى تراجع وقال بصوت مضعضع كمن يتكلم فى حلم :

— اصحيح انهم يطلقون سراحى ؟

فقال شرطى :

— نعم . ألم تفهم ؟

وقال الأسقف :

— يا صديقى . وقبل أن ترحل هاك شمعدانان . خذهما معك !

واتجه إلى المدفأة فاخذ شمعدانى الفضة وحملهما إلى جان فلجان . وكانت المرأتان تنظران ولا تتكلمان . بل ومن غير ان تبدر منهما حركة او نظرة يمكن ان تزعج الاسقف .

وجعلت أوصال جان فلجان كلها ترتجف وتناول الشمعدانين بحركة آلية وهو ذاهل . وقال الأسقف :

— والآن امض بسلام ! وبهذه المناسبة ، إن اردت العودة فلا داعى للدخول من الحديقة يا صديقى . ففى وسعك دائما الدخول والخروج من باب الشارع . فهو لا يغلق إلا بالأكرة فى الليل والنهار !

ثم التفت إلى الشرطة وقال لهم :

— وانتم ايها السادة ، فى وسعكم الانصراف !

فابتعد الشرطيون . وبدا على جان فلجان كما لو كان سيغمى عليه ، فاقترب منه الأسقف وقال بصوت خفيض :

— لا تنس . لا تنس ابدا انك وعدتنى باستخدام هذه الفضة فى الحياة الشريفة بأمانة !

ووقف جان فلجان مبهوتا ، فهو لا يذكر أنه وعد بشىء ، وكان الأسقف قد ضغط على هذه الكلمات وهو ينطقها . واستطرد فى جد ومهابة قائلا :

— جان فلجان يا أخى ! انك لم تعد منتميا للشر ، بل للخير . فما اشتريته منك هو روحك . كى أخلصها من الافكار السوداء ومن روح الهلاك ، واعطيها للرب !

- ١٣ -

جــرفيه الصـــغير

وخرج جان فلجان من المدينة كالهارب . واخذ يمشى بكل سرعة فى الحقول، سالكا الطرق والدروب التى تصادفه، من غير ان يفطن إلى انه يرتد فى كل مرة من حيث اتى . وظل يطوف على هذا النحو طيلة الصباح ، من غير أن يأكل ، ومن غير ان يحس بالجوع . فهو نهب حشـــد من الاحســـاسات الجديدة : شعر بنوع من الغضب ، من غير ان يدرى ضـــد من غضبه هذا . ولم يستطع أن يقول هل ما احســه كان تاثرا ام كان مهانة . وخامره فى لحظات حنان غريب ظل يقـــاومه بالصلابة التى تكونت لديه فى عشرين عاما . وارهقته هـــذا الحال . وشاهد فى قلق كيف اهتز فيه ذلك الهدوء المخيف الذى رسبه فيه الاحساس بالظلم الذى فرض عليه الشقاء . وتساءل ماذا عسى ان يحل محل هذا . وفى بعض الأحيان كان يتمنى لو ظل فعلا فى السجن مع الشرطة ، والا تكون اموره قد جـــرت على هـــذا النحـــو ، لان ذلك كان ادعى لتقليل اضطرابه .

ومع أن الموسم كان متقدما جدا ، إلا انه كانت هنـــا

وهناك بين الأسيجة والأعشاب بعض أزاهير متخلفة كانت رائحتها العطرة وهو مار بها تذكره بطفولته . وكانت هـــذه الذكريات لا تحتمل قسوتها ، فقد مضت عليها مدة طويلة لم تعاوده فيها . وظلت أفكار كثيرة لا يمكنه تبينها تموج فى خاطره طيلة ذلك النهار .

ولما جنحت الشمس للغروب ، وطال على الأرض ظل اصغر حصاة ، كان جان فلجان جالسا خلف دغل فى سهل مترام مقفر تماما . وليس أمامه فى الأفق إلا جبال الألب . ولا اثر ولو لبرج ناقوس قرية صغيرة بعيدة . ولعل جان فلجان كان على مسافة ثلاثة فراسخ من مدينة (د) . ودرب يشق السهل يمر على بعد خطوات من الدغل . وفيما هو غارق فى تأملاته التى لم تكن لتقلل من هول منظر اسماله وسحنته فى عين كل من يقع بصره عليه ، سمع صوتا مرحا ، فالتفت وراى على ذلك الدرب غلاما من أبناء الجبال فى ساقوا ، فى نحـــو العاشرة من عمره ، يغنى ، وطنبوره مشدود إلى جنبه . وهو صبى من أولئك الأطفـــال اللطـــاف المرحين الذين يطوفون الأقاليم ، وثقوب سراويلهم الرثة تطل منها ركبهم . وبينما هو سائر يغنى ، كان يتوقف أحيانا ويلهو بقذف قطع نقود صغيرة كانت فى يده وتلقفها . ولعلها كانت ثروته كلها . ومن بين هذه النقود قطعة ذات اربعين صلديا .

ووقف الطفل إلى جانب الأجمة من غير ان يرى جان فلجان ، وقذف حفنة الصلديات التى كان حتى تلك اللحظة قد افلح فى تلقفها كاملة على ظهر كفه الصغيرة . إلا ان قطعة الاربعين صلديا افلتت منه هذه المرة وتدحرجت نحو الأجمة إلى ان بلغت موضع جان فلجان . ووضع جان فلجان قدمه فوقها ..

ولكن الطفل كان قد تعقب قطعة النقود ببصره ورآها. ولم يدهش ، بل سار نحو الرجل الغريب مباشرة .

وكان ذلك المكان مقفرا تماما وموحشا ، فلا احد على امتداد البصر على الدرب أو فى السهل . ولا يسمع إلا صوت سرب عصافير تعبر السماء على ارتفاع شاهق . وأدار الطفل ظهره للشمس التى القت أشعتها الذهبية فى شعره الأصفر ، واضفت توهجا دمويا على سحنة جان فلجان انوحشية . وقال الصغير بكل ثقة الطفولة وبراءتها وجهلها :

— سيدى ! قطعة نقودى ؟

فقال له جان فلجان :

— ما اسمك ؟

— جرفيه الصغير يا سيدى .

— انصرف ! ابتعد !



إلا أن قطعة الأربعين صلديا أفلتت منه هذه المرة وتدحرجت نحـو الأجمـة إلى أن بلغت موضـع جان فلجان . ووضع جان فلجان قدمه فوقها ..

فعاد الطفل يقول :

— سيدى ! اعد إلى نقودى .

فطأطأ جان فلجان رأسه ولم يجبه ، وعاد الطفل يقول:

— قطعتى يا سيدى !

وظلت عين جان فلجان مثبتة فى الأرض ، وصاح الطفل:

— قطعتى ! قطعتى البيضاء ! فضتى !

وبدا كأن جان فلجان لم يسمع ، وامسك الطفل بخناقه وهزه ، وبذل فى نفس الوقت كل جهده لكى يزحزح الحذاء الغليظ ذا المسامير الموضوع فوق كنزه ، وهو يصيح :

— اريد قطعتى ! قطعتى ذات الاربعين صلديا !

وبكى الطفل . فرفع جان فلجان رأسه وهو لم يزل جالسا ، وفى عينيه اضطراب ، ورمق الطفل فى دهشة ، ثم مد يده إلى عصاه وصاح بصوت رهيب :

— من هذا ؟

فاجابه الطفل :

— انا يا سيدى ! جرفيه الصغير ! انا ! انا ! انا ! رد إلى الاربعين صلديا من فضلك ! ارفع قدمك يا سيدى من فضلك!

ثم استشاط غضبه رغم ضآلته وقال كالمتوعد :

— ارفع قدمك ! هلا رفعت قدمك ؟ وبعد !

فاجابه جان فلجان وهو ينهض واقفا فجأة وقدمه ما تزال فوق قطعة النقود ، قائلا :

— أهذا انت لم تزل هنا ؟ انج بنفسك !

ونظر إليه الطفل مذعورا ، ثم اخذ ينتفض من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، وبعد لحظات ذهول فر هاربا بكل قوته من غير أن يجسر على النظر خلفه أو إطلاق صرخة . ولكنه فقد القدرة على مواصلة الجرى بعد خمسين خطوة فتوقف ، وسمعه جان فلجان — وهو شارد الذهن — ينتحب. وبعد بضع لحظات كان الطفل قد اختفى . وكانت الشمس قد غربت ، وانتشرت الظلال حول جان فلجان . ولم يكن قد اكل شيئا طول النهار . ولعله كان محموما .

وكان قد ظل واقفا ، ولم يغير وضعه منذ فرار الطفل ، وكان تنفسه يرفع صدره فى فترات طويلة غير متساوية . ونظره مثبت على مسافة عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة أمامه ، وبدا كمن يتفحص ببصره كسرة من الخزف الأزرق ساقطة وسط العشب . وفجاة انتفض ، وقد شعر ببرودة المساء .

وثبت قلنسوته فــوق جبينه ، واخــذ يســوى ويزر سترته ، وخطا خطوة وانحنى ليتناول من فوق الأرض عصاه. وفى هذه اللحظة لمح قطعة الأربعين صلديا التى كانت قدمه قد غرستها إلى منتصفها فى الأرض ، وهى تلمع بين الحصى ، فكانما اصابته صدمة كهربية . وقال لنفسه من بين اسنانه :

ــ ما هذا ؟

وتراجع ثلاث خطوات ثم وقف ، من غير أن يتمكن من نزع بصره من هذه النقطة التى كانت قدمه تشغلها منذ لحظة ، كانما هذا الشىء الذى يلمع هناك عين مفتوحة مثبتة عليه .

وبعد بضع دقائق اندفع نحو القطعة الفضية كمن وقع تحت سيطرة قوة قاهرة ، وأمسك بها ، وانتصب واقفا ، وراح يمد بصره فى السهل المنبسط أمامه ، وهو يجيل عينيه فى كل مواضع الأفق ، وهو واقف يرتجف كحيوان متوحش مذعور يلتمس لنفسه ملاذا . فلم ير شــيئا . فالليــل كان يخيم ، والسهل تسوده البرودة والغموض ، والضباب البنفسجى يتصاعد فى الغسق .

قال : « آه ! » ثم مضى يمشى بسرعة فى اتجاه معين ، من الناحية التى كان الطفل قد اختفى فيها . وبعد نحو ثلاثين خطوة وقف ، ونظر فلم ير شيئا . وعندئذ صاح بكل قوته :

ــ جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير !

وصمت وانتظر ، فلم يسمع جوابا .

كان الريف مقفرا كالحا قابضا ، يكتنفه الامتــداد . فلا شىء حوله سوى ظل يضل فيه بصره وسكون مطبق يضيع فيه صوته . وهبت ريح ثلجية اضفت على الأشياء من حوله حياة فاجعة . والشجيرات تهز اذرعها الصغيرة الهزيلة فى غضب لا يصدق ، فكانما تتوعد احدا وتتعقبه .

وواصل السير ، ثم انشأ يجرى ، وبين الفينة والفينة كان يقف ويصرخ فى تلك العزلة بصوت مخيف مكروب معا :

ــ جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير !

ويقينا لو كان الطفل سمعه لخاف وتحاشى إظهار نفسه. ولكن الطفل كان ولا شك قد ابتعد كثيرا .

والتقى بكاهن راكب حصانا ، فاتجه إليه وساله :

ــ سيدى القس . ارايت طفلا يمر بك ؟

فقال الكاهن :

ــ لا .

ــ طفل اسمه جرفيه الصغير ؟

ــ لم ار احدا .

فأخرج قطعتين من ذات الخمســة فرنكات واعطاهما القس وهو يقول :

ـ إليك هذه النقود لفقرائك يا سيدى القس . انــه يا سيدى القس فى نحو العاشرة من عمره ومعه طنبور . كان ماشيا . أحد هؤلاء الجبليين الصغار من اهل السافوا .

ـ انا لم اره .

ـ جرفيه الصغير ؟ اليس من اهل هذه القرى هنــا ؟ افى مقدورك أن تدلنى عليه ؟

ـ إن كان كما تصفه يا صديقى فهــو طفــل غريب . وامثاله يمرون بالاقليم ولا يعرفهم احد .

فتناول جان فلجان من كيسه قطعتين أخريين من ذات الخمسة فرنكات أعطاهما القس وهو يقول :

ـ وهذا ايضا لفقرائك !

ثم اضاف فى ذهول :

ـ سيدى القس ! اجعلهم يقبضون على . فأنا لص !

فهز القس جواده بقدميه ولاذ بالفرار مرتاعا . وشرع جان فلجان فى الركض فى نفس اتجاهه السابق . واستمر فى هذا مسافة طويلة ، وهو ينظر وينــادى ويصرخ ، ولكنه لم يقابل بعد ذلك احدا . ومرتين او ثلاث مرات جرى فى الوادى نحو شىء بدا له انه شخص راقد او جالس القرفصاء ، فاذا بها

عوسج أو صخور ناتئة . واخيرا توقف عند مكان تتقاطع فيه ثلاثة دروب . وكان القمر قد طلع ، فاجال بصره بعيدا ونادى مرة اخيرة :

ـ جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير !

فضاع صوته وسط الضباب ، من غير ان يثير صدى . وغمغم ثانية بصوت مضعضع ضعيف :

ـ جرفيه الصغير ! جرفيه الصغير !

فكان هذا آخر جهده ، وكأنما تجسم وقر ضميره عبئا ناءت به قدماه ، فتهالك خائر القــوى فوق صــخرة كبيرة ، وقبضتاه فى شعره ، ووجهه فى ركبتيه وصاح :

ـ أنا شقى ! أنا منكود ! أنا بائس !

وعندئذ انفطر قلبه ، وشرع يبكى . فكانت هذه اول مرة يبكى فيها منذ تسعة عشر عاما .

وكان جان فلجان عند خروجه من بيت الأسقف عاجزا عن إدراك ما يدور فى أعمــاقه . وكان يقــاوم تأثير الانجيل الملائكى واقوال الشيخ العذبة الرقيقة ، حين قال له :

ـ لقد وعدتنى أن تكون إنسانا شريفا أمينا ! فأنا قــد اشتريت روحك ، واستلها من روح الشر وأقدمها إلى الرب !

وكانت هذه العبارة تعاود خاطره بلا انقطاع . فكان يقابل هذه السماحة السماوية بالكبرياء ، التى هى فينا بمثابة قلعة الشر . لأنه أحس أن مغفرة ذلك القس كانت أكبر هجمة اهتز لها كيانه . وأن صلابته ستكون نهائية لو انه قاوم هذه الشفقة . وانه إذا اذعن لها فعليه أن ينزل عن كل كراهية ملأت بها نفسه أفعال الآخرين طوال السنين . ولكن هـذه الكراهية كانت تطيب له . ولكنه هذه المرة إما أن ينهزم أو يهزم ، ولن الصراع الرهيب ، صراع الجبابرة ، الحاسم قد نشب بين ضراوته وشره وبين طيبة هذا الرجل .

وفى هـذه الخـواطر المحتدمـة مضى جان فلجـان كالسكران .. لكن اكان يبدو له وهو يهيم على هذا النحو ، زائغ البصر ، ما يمكن ان تتمخض عنه الأحداث التى مر بهـا فى مدينة (د) ؟ اكان يعقل ذلك الطنين الغامض الذى يدور فى نفسه فى لحظات معينة من حياته ؟ إن صوتا كان يهمس فى اذنه انه مر بالساعة الحاسمة من مصيره ، وانه لا مفر له إما ان يغدو افضل الناس او شرهم ، فلا وسط هناك . فاما ان يرقى إلى ما فوق مستوى الأسقف أو يهبط إلى درك دون حضيض نزلاء الليمان. وأن عليه إذا اراد أن يكون صالحا أن يغدو ملكا كريما . اما إذا اراد ان يظل شريرا فعليه ان ينقلب وحشا كاسرا .

وها هنا ايضا ينبغى ان نتســاءل تلك الأســئلة التى سألناها من قبل : اكان فى فـكره ظل من كل تلك الأسـئلة الحاسمة ؟ اكان يدركها ؟ ان الشقاء كما قلنا مدرسة الذكاء . ولكن من المشكوك فيه ان جان فلجان كان يميز شيئا من هذا كله ، فهو لم يكن يدركها بوضوح ، وكل ما هناك ان تلاطمها فى نفسه كان يشـيع فيها الاضـطراب الذى لا سبيل إلى الاحاطة به أو وصفه . فعند خروجه من ذلك المكان الشديد الظلمة الذى يدعونه الليمان آذاه الأسقف بما صبه فجاة على باصرتيه من وهج الضوء الساطع ، وهو الذى لم تتعود عيناه عشرين سنة أو زهاءها إلا الظلمات الحالكة . فكأنما هو بومة لا ترى إلا فى الديجور الدامس طلعت عليها الشـمس فجاة ، فانبهر بصره وزاغ واعمته أنوار الفضيلة !

ولكنه ايقن بشىء واحد ، وهو انه لم يعد ذلك الإنسان الذى كان من قبل . وان كل شىء فيه قد تغير ، وانه لم يعـد فى استطاعته ان يفرض ان الأسقف لم يكلمه ، ولم يلمسه .

وكان فى ذلك الوضع النفسى عندما مر به جرفيه الصغير وسرق منه الأربعين صلديا . لماذا ؟ انه ما كان يقينا ليستطيع تفسير هذه الفعلة . اكانت جهـدا اخيرا من جـانب افكاره الشريرة التى خرج بها من الليمان ، للدفاع عن نفسها ضـد صوت الفضيلة ؟ لنقل بصراحة انه لم يكن هو نفسه الإنسان

الذى صنع هذا ، بل الحيوان الذى بداخله ، مدفوعا بعاداته الغرزية ، فوضع قدمه بغباء فوق هذه القطعة الفضية ، فى حين كان ذكاؤه يتخبط فى حبائل الغريزة ولا يستطيع فكاكا لبرهة طويلة . فلم تحرر ذكاؤه وتبين ما صنعه الحيوان ارتاع جان فلجان واطلق صيحة ذعر . وتلك ظاهرة غريبة لم تكن ممكنة إلا فى مثل حالته هذه ، فهو بسرقة هذه النقود من ذلك الطفل اقترف فعلة لم يعد كفؤا لها الآن !

ومهما يكن من شىء ، فان هذه الفعلة السيئة الأخيرة كان لها عليه تأثير حاسم . فقد مرقت وسط فوضى مشاعره المتناقضة وبددتها ، بحيث فصلت بين الظلمات والنــور ، وفعلت فى نفسه كفعــل بعض العــوامل الكيميائية فى بعض الاخلاط ، فتنفصل بعضها عن بعض ، بتنشيط احد عناصرها وإبطال سائر العناصر المضادة له .

وفى بادىء الأمر ، وقبل أن يتبين ما فى نفسه ويفكر فيه ، حاول كالمخبول الشارد ان يعثر على الطفل ليرد إليه نقوده ، ولما ايقن ان ذلك مستحيل ولا جدوى منه ، وقف يائسا . وفى اللحظة التى صاح فيها :

— انا شقى ! انا بائس !

ادرك اى إنسان هو ، وصار منفصلا عن ذاتــه حتى اوشك ان يظن انه شبح ، وان امامه الآن بلحمــه ودمــه ،

وعصاه فى يده ، وسترته على حقويه ، وعلى ظهره كيسه المكتظ بالمسروقات ، ووجهه عابس كاشر ، ورأســه يموج بالنيات الفظيعة ، يقف المدعو جان فلجان .

إن فرط الشقاء — كما قلنا — جعــل منه صــاحب استبصار على نحو ما . وما خيل إليه كان رؤيا . فراى فعلا جان فلجان امامه بوجهه المروع . وكان على وشك ان يسأل من عساه ان يكون هذا الرجل ، وداخلته منه روعة الفزع .

كان مخه فى حالة ثوران عنيف مع جمود تام فى الوقت نفسه ، وتلك لحظة تكثر فيها الأخيلة العميقة التى تستوعب الواقع لشدة عمقها . فلا يرى المرء عندئذ الأشياء التى امامه ، بل يرى ما فى سريرته وكأنه صار خارجها باديا لعيانه.

وهكذا راح يتأمل نفسه وجها لوجه . وفى الوقت نفسه تراءى له ضياء ساطع ظنه فى بادىء الأمر شعلة . ولما انعم النظر فى هذا الضوء الذى بدا لوعيه وضميره ، تبين ان له صورة بشرية . وان هذه الشعلة هى الأسقف .

وراح ضميره يتمعن فى هذين الرجلين الواقفين امامه : الأسقف وجان فلجان . وما كان أحوجه إلى الأول كى يذيب الثانى ويبدده . ومع استغراقه فى هذه الرؤى اخذت صورة الأسقف تكبر وتتضخم حتى ملأت عليه آفاق نظره ، وتضاءل جان فلجـــان حتى امحى ! وحلت لحظـــة لم يعد فيهــا جان

فلجان إلا ظلا حائلا ، وفجأة تلاشى هـــذا الظل وبقى الأسقف وحده . وملأ كل نفس هذا البائس بنور رائع .

وظل جان فلجان يبكى وقتا طويلا. بكى بدموع سخينة ، بنحيب ونشيج ، فى ضعف دونه ضعف امرأة ، وبفزع دونه فزع طفل .

وكلما بكى زاد الضياء فى مخه ، وهو ضياء خارق بديع ورهيب فى آن واحد . وعادت إليه صور حياته الماضية كلها ، وزلته الأولى ، وكفارته الطويلة ، وتوحش مظهره ، وتصلب سريرته ، وإطلاق سراحه الذى صاحبته بهجة الشروع فى الانتقام ، وما حدث له عنـــد الأسقف ، وفعلته الأخيرة وهى سرقة الأربعين صلديا من طفل ، وهى جريمة تجاوزته نكرا ونذالة كل حد لأنها جاءت بعد صفح الأسقف عنه . كل هذا تراى له بوضوح لم يتسن له من قبل ، فراى حياته فظيعة ، وراى روحه مخيفة شائهة . ومع هذا كان هناك ضياء صاف جميل يشرق على هـــذه الحياة وهـــذه الروح ، فكأنما يرى الشيطان فى أضواء الفردوس !

كم ساعة ظل يبكى هكذا ؟ وماذا صنع بعـــد أن بكى ؟ أين ذهب ؟ هـــذا ما لم يعرفه أحـــد قط . ولكن تأكد فقط أن سائق العربة التى كانت فى ذلك الحين تقوم بالخدمة على خط جرينوبل وكانتتصل إلى (د) . حوالى الساعة الثالثة صباحا ، أبصر وهو يجتاز شارع الأسقفية رجلا راكعا على الطوار فى وضع الصلاة ، فى الظل . أمام باب سيدنا بينفينى .

الكتاب الثالث

فى سنة ١٨١٧

الفصل الأول

عام ١٨١٧

سنة ١٨١٧ هى السنة التى اطلق عليها لويس الثامن عشر – برصانة ملكية لم تخل من زهو وكبرياء – السنة الثانية والعشرين من حكمه. وكنت ترى فيها حوانيت باعة الباروكات وقد طليت باللون الأزرق الذى تزينه ازهار الزنبق ، تيمنا بعودة الطائر الملكى . وفى ذلك الحين كنت ترى الكونت لينش LYNCH يحتل مقعد الصدارة كل يوم احد فى كنيسة سان جرمان دى بريه St. GERMAIN-DES-PRES فى كسوة تشريفة كبراء فرنسا ، بوشاحه الأحمر ، وانفه الطويل ، ووقار محيا رجل قام بعمل له دوى . وهذا العمل المدوى الذى قام به الكونت لينش هو هذا : أنه عندما كان عمدة بوردو BORDEAUX فى ١٢ مارس ١٨١٤ بادر بتسليم المدينة إلى الدوق دانجوليم Duc D'ANGOULEME ومن ثم حصل على رتبة كبير من كبراء فرنسا .

وفى سنة ١٨١٧ كان الجيش الفرنسى يلبس البياض على الطريقة النمسوية ، وكانت الآلايات تحمل أسماء المقاطعات بدلا من الأرقام . وكان نابليون منفيا فى سانت هيلانة SAINTE-HELENE ، ولما كانت الحكومة البريطانية ترفض السماح له بقماش من الصوف الأخضر ، لذا كان يقلب بدله القديمة .

وفى سنة ١٨١٧ كان بليجرينى PELLEGRINI يغنى ، وكانت الآنسة بيجوتينى BIGOTTINI ترقص ، وكان يوجد فى فرنسا بروسيون كثيرون ، وكان المسيو ديلالو DELALO شخصية بارزة . وثبتت الملكية الشرعية اقدامها بأن قطعت معصم ثم راس بلنييه PLEIGNIER وكاربونو CARBONNEAU وتوليرون TOLLERON وكان الأمير تاليران TALLEYRAND كبير الأمناء «والأبيه لوى» ABBE LOUIS وزير المـالية ، وكانا يتبادلان النظرات ويضحكان . فكلاهما كانا فى ١٤ يوليو سـنة ١٧٩٠ قد اقامـا قداس الاتحـاد فى ميـدان مارس CHAMP-DE-MARS وقد قدم تاليران هـذا القداس بصفته اسقفا ، ولوى بصفته شماسا . وفى سنة ١٨١٧ كنت ترى فى ميدان مارس هذا اسطوانات ضخمة من الخشـب ، يغمرها ماء المطر وتتعفن وسط العشب ، وقد طليت باللـون الأزرق وعليها آثار نسور نصل تذهيبها . وكانت هذه هى الاعمدة التى ارتفعت فوقها منصـة الإمبراطور قبل عامين فى حقل مايـو CHAMP DE MAI ، ولكنها كانت قد اسودت هنا وهناك بنيران أوقدها للتدفئة جنود النمسا المعسكرون قرب جرو كايو GROS-CAILLOU . وقـد اختفت ثلاثة من هذه الأعمـدة وصارت حطبا لهذه النيران واستدفأ بها الجنود ذوى الأيدى الضخمة .

وفى سنة ١٨١٧ كانت مثار اهتمام باريس جريمة دوتان DAUTUN الذى كان قد القى راس اخيه فى حوض سوق الأزهار . كما كانت وزارة البحرية مشغولة بانقطاع اخبـار

الفرقاطة لا مديز LA MEDUSE . وكان الكولونيـل سيلف SELVES قد توجه إلى مصر لكى يغدو بعد ذلك سليمان باشا الفرنساوى . وقصر تيرم THERMES فى شارع هارب HARPE صار ورشـة صانع دنان . وكانت لا تزال ترى على شرفـة فى برج قصر آل كلونى CLUNY الحجيرة التى كانت مرصدا لمسييه MESSIER فلكى البحرية الفرنسية فى عهد لويس السادس عشر . وكان العمال فى اللوفر يكشطون الحرف «ن» . وجسر أوسترلتز AUSTERLITZ تغير اسمه وصار جسر حديقة الملك . وحديقة الملك هذه هو الاسم الجديد لحديقة النباتات ! وشطب المعهد الفرنسى L'INSTITUT من قائمـة اعضائه الأكاديمى نابليون بونابرت . وصدر أمر ملكى بإنشاء مدرسة البحريـة فى انجوليم ANGOULEME ، لانه بما ان الدوق دانجوليم صار الأميرال الأكبر ، فلا بد لمدينة انجوليم ان تصبح – بقدرة قادر – ميناء بحريا ، وإلا تأذت السلطة الملكية !

وفى هذه السنة تم تزويج اميرة من صـقلية إلى الدوق دى بيرى DE BERRYO . وكانت قد مضت سنة على وفاة مدام دى ستايل STAEL . والصحف الكبرى صارت صغيرة . وصغر حجمها ولكن زادت حريتهـا . وهى حريـة الـكتاب المأجورين فى الصحف لسب المنفيين سـنة ١٨١٥ السياسيين وتشويه سمعتهم ، وعلى راسهم دافيد وارنو ARNAULT وكارنو CARNOT . واما سولت SOULT فلم يفز فى اى معركة ، واما نابليون فكان بلا عبقرية . وكان معروفا ان من

النادر ان يصل اى خطـــابات بالبريد إلى شخص منفى ، لأن الشرطة كانت تتكفل بحجزها . وقد اجمع الكل على ان عهد الثورات قد ختم إلى الأبد بتولى لويس الثـــامن عشر عرش فرنســا الذى فسخ وابطل كل ما صنعه نابليون ، وقلب القيم العسكرية والادبية حســـب اهواء الملكية فى كل المجـــالات . وصار اى تعريض — ولو بالنكتة — بالملكية يعاقب بصرامـــة بالغة .

وفى هذه السنة ايضا ابتدع اربعة شبان باريسيين ملهاة فذة .

الفصل الثانى

رباعى مزدوج

كان هؤلاء الباريسيون الاربعـــة ، احـــدهم من تولوز TOULOUSE والآخر من ليموج LIMOGES والثالث من كاهـــور CAHORS والرابع من منتوبان MONTAUBAN . ولكنهم كانوا طلبة علم فى باريس . ولذا قيل إنهم باريسيون .

وكان هؤلاء الشبان بلا وزن ولا اهمية ، فقد راى العالم هذا النوع من الشخصيات العادية . فهم عينات لا تتميز بشىء ، فلا هم طيبون ولا هم اشرار . ولا هم علماء ولا هم جهلاء ، ولا هم عباقرة ولا هم بلهاء . وجمالهم هو جمال هذا الربيع من العمر الذى هو سن العشرين . وكانت موضة الشبـــاب تقليد الإنجليز واهل الشـــمال . فمنـــذ قليل انتصر ولنجتن WELLINGTON فى ووترلو !

وكانت اســـماء هـــؤلاء الاربعـــة : فليكس تولومييس FELIX THOLOMYES من تولوز ولستوليه LISTOLIER من كاهور وفـــامى FAMEUIL من ليموج وبلاشـــفيل BLACHEVELLE من منتوبان . وطبعا كان لكل واحد منهم عشيقته . فبلاشفيل كان يحب فافوريت FAVOURITE ، وقد اتخذت هذا الاسم لأنها كانت قد ذهبت فترة إلى إنجلترا .

ولستولييه كان يعبد داليا DAHLIA التى اتخذت لها اسم هــذه الزهـــرة اسما مســـتعارا ، وفـــامى كان يهيم بزيفين ZEPHINE هو اختصـــار جوزيفين . وتولومييس كـــانت عشيقته فانتين FANTINE الملقبة بالشقراء ، لأن شعرها كان بلون الشمس .

وكانت فافوريت وداليـــا وزيفين وفانتين اربع فتيـــات رائعـــات معطرات مشرقـــات ، ولكن لم تزل فيهن بقيـــة من السمات التى تدل على اصلهن العمالى ، فهن حديثات عهـــد بترك الإبرة وانهماكهن فى حياة الحب ، ولذا بقيت على محياهن تلك الطمانينة الخاصة التى تقترن بحياة الجد فى العمل ، ولم تزل فى نفوسهن زهرة الامانة التى لا تبذل فى المراة بعد زلتها الأولى . وكانت من بين الفتيات الأربع واحـــدة كانت تسمى الصغيرة ، لأنها كانت اصغرهن واخرى تسمى العجوز ، لأنها كبراهن . وهذه الكبرى كان عمرها ثلاث وعشرون ســـنة ! وكانت الثلاثة الكبريات اكثرهن تجربـــة ، فهن غير مباليـــات ومندفعات وشغوفات بضجيج الحياة اكثر من فانتين الشقراء، التى كانت هذه اول مغامرة لها . اما داليا وزيفين ، وفافوريت على الخصوص فلم تكن هذه اول علاقـــة غراميـــة لهن . بل سبقت لهن وقائع كثيرة ، مع انهن لم يزلن فى بدايـــة روايتهن العاطفية . ولكن العاشق الذى قد يكون اســـمه اودولف فى الفصل الاول من هـــذه الرواية . يصبح اســـمه الفونس فى فصلها الثانى ، وجوستاف فى فصلها الثالث . والفقر والغنج مشيران سيئان للفتاة ، وبنات الشعب الجميلات لهن دائما

هذان المشيران اللذان لا يكفان عن الهمس فى الأذنين ، كل منهما من جهته . والنفوس التى لا حارس يصونها من الزلل تصغى للوسوسة وتنقاد لها ، ومن ثم ما يتردين فيـــه من عثرات ، وما يرمين به من الأحجار ،وما يتهمن به من انحلال، ويقال لهن كلام كثير رائع عن الســـلوك الذى لا غبار عليه والشرف المصون . وأحر قلباه ! وماذا تصنع الفتـــاة الغريرة الجميلة إذا عضها الجوع بنابه ؟

ولما كانت فافوريت قد زارت إنجلترا ، لذا كانت موضع إعجاب زيفين وداليا . فهى منذ وقت مبكر جدا صار لها مسكن خاص . وكان والدها استاذا مسنا للرياضيات فيه شراســـة ومحب للزهو والمبالغة ، ولم يتزوج قط ، وظل رغم تقدمه فى السن ماجنا خليعا . وقد حدث لهذا الاستاذ وهو شـــاب ان راى ذات يوم ثوب خادمة يتعلق بســـياج مدفاة فيكشف عن المستور من مفاتنها ، فوقع فى غرام هذه المفاتن ، وكانت ثمرة هـــذا الهوى النزق فافوريت. وكانت تقابل بين الحين والحين اباها الذى كان يحييها . وذات يوم دخلت عليها فى مسكنها امراة عجوز وقالت لها :

ــ الا تعرفيننى يا آنسة ؟

ــ لا .

ــ انا امك !

ثم فتحت العجـــوز البوفيـــه ، وشربت واكلت ، واتت بحشية كانت تملكها واستقرت لديها . وكانت هذه الأم كثيرة التذمر ولكنها لا تكلم فافوريت ابدا، وتظل ساعات متواصلة من

غير ان تقول شيئا ، إلا انها كانت تفطر وتتغذى وتتعشى كأنها اربعة اشخاص ، وتنزل لتتسامر مع البواب وتغتاب ابنتهـا عنده !

اما ما جمع بين داليا ولستوليبيه ، وآخرين من قبله ، واغراها بالكسل والبطالة فكان ما تتمتع به من اظـافر وردية جميلة . فكيف تهين هذه الانامل بالعمل ؟ ومن تريد ان تحافظ على عفتها ينبغى الا تبقى على جمال يديها . . .

اما زيفين فقـد اقتنصـت قلب فامى بطريقتها المتمردة والمعابثة معا ، وهى تقول :

ـ نعم يا سيدى !

وكان الشبان الأربعة زملاء . وكانت الفتيـات الأربع صديقات وصواحب . فمثل هذه الغراميات تقترن بها دائمـا مثل هذه الصداقات .

والحكمة والفلسفة شيئان مختلفان . وما يثبت ذلك اننا ـ مع تحفظاتنا على مثل هـذه العلاقات غير الشرعيـة ـ نستطيع أن نقول عن فافوريت وزيفين وداليا إنهن فيلسوفات، اما فانتين ففتاة حكيمة .

انقول إنها حكيمة عاقلة ؟ وتولومييس ؟ سليمان الحكيم ربما افتى بان الحب جزء من الحكمة . وبحسبنا ان نقول إن حب فانتين كان اول حب لها . كان حبهـا الوحيد . كان حبا مخلصا . وكانت الوحيدة من بين الأربع التى لا برفع الكلفة معها إلا واحد فقط .

كانت فانتين من تلك الكائنات التى ينجبها صميم الشعب. فقد خرجت من جوف احلك ظلمات المجتمع . وقد ولدت فى بلدة « م » . من اى ابوين ؟ من يدرى ؟ فلم يعرف احد قط اما لها ولا ابا . وسميت فانتين . لماذا فاقتين ؟ لا احد يدرى . ولكن ما من احد عرف لها اسما سوى هذا الاسم . وكانت طفولتها فى عهد الإدارة الثلاثية، فلم يكن يذكر للمولود اسم عائلى. ولم تكن لها عائلة . وليس لها اسم عماد. فلم يكن للكنيسة فى ذلك العهد وجود ، ولم تكن قد عادت بعد لممارسـة نشاطهـا . فاطلق عليها اول اسم خطر لأول عابر سبيل ان يناديهـا به وهى طفلة تجرى حافية القدمين فى الطريق . وهكذا هبط عليها اسمها كما كان يهبط عليهـا ماء المطر من السماء . وعرفهـا الكافة باسم الصغيرة فانتين . ولم يكن احد يعرف عنها شيئا اكثر من هذا . وقد اتت هذه المخلوقة إلى الحياة هكذا عفوا . وفى سن العاشرة غادرت فانتين البلدة وذهبت لتعمل خـادمة عند فلاحين فى الضواحى . وفى سن الخامسـة عشرة جاءت إلى باريس لتبحث عن رزقهـا . وكانت فانتين جميلة وظلت نقية طاهرة اطول مدة استطاعتها . وهى شقراء جميلة لهـا اسنان جميلة . وكانت بائنتهـا من الذهب واللآلىء . ولكن ذهبها كان فوق راسها ، ولآلئها كانت فى فمها .

وعملت لتعيش . وايضا كى تعيش ـ فللقلب جوعـه الخاص به ايضا ـ عشقت .

عشقت تولومييس .

وكانت هذه العلاقة بالنسبة له نزوة ، وبالنسبة لهـا

غراما مشبوبا ـ وقد شهدت شوارع الحى اللاتينى التى تموج
بالطلاب الغوانى بداية هذا الحلم . وكم من مرة راغت فانتين
فى أزقة تل البنثيون ـ حيث تنعقد مغامرات كثيرة وتنفك ـ من
تولومييس ، ولكن بحيث تلتقى به ثانيـــة . فهناك طريقـة
للتجنب تشبه التصدى . واخيرا تم اللقاء الشاعرى .

وكان بلاشفيل ولستولييه وفامى مجموعة متلازمة على
راسها تولومييس . فقد كان هو العقل المفكر الذكى المتوثب .
فهو نموذج الطالب العتيق المتقدم نوعا فى السن . وكان غنيا ،
يبلغ دخله السنوى اربعة آلاف فرنك ، وذلك شىء جسيم فوق
جبل ســانت جنيفييف . ومن حيث الشـكل كان تولومييس
متغضن الوجه ، فقد بعض اسنانه ، وقد بدا الصلع يدب إليه،
إلا انه لم يكن يبالى او يأسى على هـــذا ، مع انه كان يعانى
ضعفا فى الجهاز الهضمى وإحدى عينيه ينسكب منها الدمع على
الدوام . ولكن بقدر انطفاء شبابه ، اتقد مرحه ومجونه ، فكان
مجونه بديلا له عن الأسنان ، وكان مرحه بديلا له عن الشعر ،
وكانت سخريته عوضا له عن الصحة ، وكانت عينيه الباكية
لا تكف عن الضحك ! وكانت ملابسه غير مهندمة ، ولكنها من
اثمن الأنواع ، وفى عروته دائما زهرة يانعة . فكأنما شـــبابه
المدبر جيش ينسحب بتعبئة ونظـــام وروح معنويـــة عالية ،
وضحكات جنوده تدوى كأهازيج النصر ! وقد الف لمسرح
الفودفيل مسرحية رفضت . وكان بين الحين والحين ينظم
اشعارا ليست ذات مستوى . إلا انه كان فكريا يشك فى كل
شىء باستعلاء ، وهذا نوع من القوة فى نظر الضعفاء . وبما
انه كان ساخرا واصلع ، لذا صار الزعيم .

وذات يوم انتحى تولومييس جانبـا بالثلاثة الآخرين ،
وقال لهم :

ـ قريبا ستمضى سنة على مطالبة فانتين وداليا وزيفين
وفافوريت لنا بأن نقدم لهن مفاجأة . وقـــد وعدناهن بذلك .
وهن لا يكففن عن تذكيرنا بالوعد ، ولا سيما أنا . وكما كانت
النساء العجائز فى نابولى يصرخن بالقديس « يناير » : اصنع
معجزة ! اصنع معجزتك! » كذلك تقول حسناواتنا لى دائما :
« متى يا تومولييس تلد مفاجأتك ؟ » . . . وفى الوقت نفســه
يكتب اهلنا إلينا كى نعـــود إليهم . وتحت هذا الضغط من
الجانبين شعرت أن الوقت قد حان . فلنتشاور فى الامر .

وعندئذ خفض تومولييس صوته وقال شيئا غامضــا
بمرح شديد ، ثم قهقه الشبان الأربعة معا ، وصاح بلاشفيل :

ـ يا لها من فكرة !

وبدت لهم فى الطريق حانة ملآنة بالدخان ، فدخلوها ،
وفى ظلالها المعتمة تمت مشاورات مؤتمرهم .

وكانت ثمرة هذه المعميات رحلة متعة وقصف تمت يوم
الأحد التالى ، دعا إليها الشبان الأربعة الفتيات الأربع .

الفصل الثالث

أربعة لأربعة

اقد « الازواج » الاربعة فى ذلك اليوم على كل ما يخطر بالعقل من اللهو المنطلق فى حقول الريف بالقرب من باريس . وكان يوما حارا من ايام الصيف فى بداية العطلة الدراسية ، لا تلبد سماءه السحب . وفى اليوم الســـابق كتبت فافوريت — وهى الوحيدة التى تعرف الكتابة — رسالة إلى تومولييس باسم الفتيات الاربع ، قالت فيها « الخير فى البكور » ، ولذا نهضوا من نومهم فى الخامسة صباحا ، ثم ذهبوا إلى سان كلو SAINT-CLOUD ، ونظروا هنــاك إلى الشلال الذى كان جافا ، وتصايحوا :

— لا بد ان منظره كان بديعا حين كان فيه ماء !

ثم تناولوا الافطـــار فى مطعم « الراس الاسود » ، ثم جروا فى الحقول والمراعى ، فقد كانت هـــذه المنطقة يومئـــذ خلوية ، وقطفوا الازهار من المروج ، واشتروا نايات من نيى NEUILLY واكلوا تفاحا اشتروه من البائعات الجائلات ، وكانت سـعادتهم على اتمها .

وكانت الفتيات الاربع يصخبن ويثرثرن كانهن حيوانات ضارية اطلقت من اقفاصها . فكان لهن زئاط جنـــونى . وكن احيانا يوجهن ضربات مزاح إلى عشاقهن، فكانما هن مخمورات

برحيق الحياة فى صدر الصباح ! ويا لتلك السنوات البله من صدر الشباب ! وانت ايها القارىء كائنـــا من كنت اتذكر من ايامك شبابا كهذه الأيام خلعت فيها العذار ؟ اتذكر سيرك بين الآجام ، وانت تزيح الأغصان كرامة للراس الجميل المحبوب الذى يسير وراءك ؟ هل انزلقت وانت تضحك فوق منحـــدر بللته مياه المطر مع امراة تتعلق بيدك وتصيح متذمرة :

— حسرتى على حذائى الجديد ! فى اى حال اصبح !

ولكن لنقل منذ الآن ان المطر لم يهطل فى ذلك اليوم على تلك الجماعة الطـــروب ، وإن كانت فافوريت قالت بلهجـــة العليمة ببواطن الطبيعة :

— ارى البزاقات تتمشى فى الدروب . وهذه علامة على قرب سقوط المطر !

وكانت الفتيات الأربع كلهن فاتنات ، وقد زادهن الحبور والزياط فتنة . وفى ذلك اليوم كان شاعر تقليدى مسن مشهور يومئذ هو الشيفالييه دى لابويس DE LABOUISSE يتنزه تحت أشجار الكستناء فى ســـان كلو ، ورآهن وهن يخطرن امامه برشـاقة فقال :

— فيهن واحدة اكثر مما ينبغى .

ويعنى بذلك الاشـــارة إلى عـــرائس الفن الثـلاث المشهورات فى الأساطير . وكانت فافوريت . صاحبة بلاشفيل ابنة الثالثة والعشرين — كبراهن — قـــد جرت امامهن تحت

الاغصان الخضر ، ووثبت فوق المساقى وتسلقت شجيرات الدغل ، وتزعمت المرح كأنها حيوان مفترس فتى . أما زيفين وداليا فكانتا لا تفترقان، وبين جماليهما تكامل . وكان تلازمهما من قبيل الدل اكثر مما هو بحكم الصـــداقة . وكانتا تتخذان اوضاعا على الطراز الإنجليزى الذى شاع بين الغوانى. وكان هناك نقاش محتدم بين لستولييه وفامى حـــول أساتذتهم ، وراحا يشرحان لفانتين الجـــادة الفرق بين المســـيو دلفنكور DELVINCOURT والمسيو بلوندو BLONDEAU .

اما بلاشفيل فكأنما خلقه الله خصيصـــا لكى يحمل على ذراعه يوم الأحد شال فافوريت .

وفى المؤخرة اقبل تولومييس ، الذى كان يتزعم المجموعة ويسيطر عليها . اجل إنه كان شديد المرح ولكنك كنت تلمس فيه السيطرة . فتحت غلالة مرحه ومجونه تربض دكتاتورية. وكان ملبسه الأساسى بنطلونا له ساقا فيل ، وفى يده عصا من الخيزران الثمين ثمنها مائتا فرنك . ولما كان رجلا يبيح لنفسه كل شىء ويدللهـــا ، لذا كان فى فمه شىء غـــريب يومئذ هو السيجار . ولم يكن يحترم شـــيئا أو يقدس قيمـــة . وينفث الدخان من فمه بلا انقطـــاع . اما الآخرون فكانوا يرمقـــونه باعجاب وإجلال ويقولون :

ــ ما اروع تولومييس ! يا لبنطلونه ! يا لحيويته !

اما فانتين فكانت روح الفرح ، واســـنانها البديعة قد حباها الله ولا شك بمهمة فى هذه الدنيا ، هى الضحك ! وكانت

تحمل فى يدها قبعة صغيرة من القش ، اكثر مما تضعها فوق راسها ، تتدلى منها ضفائر بيضاء . وشعرها الأشقر الغزير يتطاير ويتماوج ، فكان لا بد لها من ضمه بين حين وحين ولم شعثه ، فكأنما هو شعر غلاطية الأسطورية وهى تفر هاربة تحت اشجار الصفصاف . وكانت شفتاها الورديتان تتمتمان باغنية خافتة ، وشكلها العـــام كالبرعم الذى يدعو الناظرين للاجتراء كأنما فى فمها الجميل نداء خفى للاغراء . ولها اهداب طويلة وطفاء تلقى ظلالا على خديها . وثيابها توحى بالخفـــة والرشاقة ، كأنما هى تغريدة طيور متوهجة الريش ، ولكن فى احتشام يوحى بالاحترام .

اما الثلاث الأخريات فكن اقل منهـــا حياء ، ولذا كانت اثوابهن اكثر فتحات بحجـــة حـــر الصيف . وقبعاتهن مغطاة بالأزاهير . وكان الفرق بينهن وبين فانتين واضحا . ففانتين جميلة إذا نظرت إليها من امام ، رقيقة إذا نظرت إليها من احد جانبيها ، وعيناها لونهما أزرق عميق ، وقدماها صغيرتان ، والمعصم والكاحل مدملجان . ولشدة بياضها ورقة بشرتهـــا كنت ترى هنا وهناك شعيرات عروقها الزرقـــاء ، وخداها فيهما نضارة الطفولة ، وعنقها قوى . وقامتها كأنما صاغها مثال ، فى جاذبية ورقة . وهكذا كانت فانتين ، متى رأيتهـــا رسم لك خيالك تحت ثيابها تمثالا ، وفى هـــذا التمثال البديع روح ...

كانت فانتين جميلة من غير ان تشعر بجمالها . وخبراء الجمال الذين يحبون ان يقيسوا كل جمال يرونه بمثلهم الأعلى

كانوا خليقين ان يروا فى هذه العاملة الصغيرة ، تحت شفافية الرشاقة الباريسية كل الوسامة الكلاسيكية المقدسة . فهذه الفتاة المجهولة الأصل كانت تنبىء عن عراقة كعراقة الخيول الاصيلة ، وكانت جميلة قالبا وإيقاعا . اما القالب فهو هــذا الشكل المثالى المتناسق . واما الإيقاع فهو الحركة الهفهافة الرفافة .

ولقد قلنــا آنفــا إن فانتين كانت روح المــرح والفرح والبهجة . ومن الحق ان نقول ايضا انها كانت الحياء . فمن يرقبها عن كثب ويدرسها بإمعان ، كان حريا ان يلمس فيهــا من خــلال خمر الشــباب وخمر الربيع وخمر الحب والهيام تعبيرا قاهرا طاغيا عن التحفظ والحياء والتواضع . فقد ظلت وسط هذا الزياط تبدى شيئا من الدهشة . وهــذه الدهشة الطاهرة هى الســمة التى تميز بسيشيه PSYCHEE (اى النفس) عن فينوس . وكانت اصابع فانتين طويلة بيضــاء رقيقة كأنها اصابع كاهنة قديمة تحرك رماد النار المقدســة بدبوس من الذهب . ومع انها لم تكن تضن بشىء على تولومييس او تمنع عنه شىء ــ وهذا واضح لذى عينين ــ إلا ان وجهها وهى ساكنة فيه امارات العذرية ، وكان لون من الوقار الجاد الذى يوشك ان يكون صارما يعتريها فى ساعات معينة فجاة . فيؤثر فى نفس من يراها نضوب المرح على حين غرة دفعة واحدة ، لتحل محله الجهامة ، من غير ان تتوسطهما فتــرة انشراح . وكانت هــذه الصرامة تشــبه احيانــا تعالى ربة اسطورية . ويبدو عندئذ التوازن الفذ بين جبينها وانفهــا

وذقنها ، وهو توازن متميز تمامــا عن توازن التناسب الذى ينجم عنه تناسق الوجه . وفى المســافة التى تفصــل قاعدة الأنف عن الشفة العليا كان هنــاك خط لا تكاد تراه العين ، يزيدها فتنة ، لانه العلاقة الخفية للطهــر . فلئن كان الحب زلة ، فقد كانت فانتين هى البريئة الطاهرة التى تطفو فوق سطح هذه الزلة .



وتنهال عليهن القبلات بلا تمييز من كل الشبان . فيما عدا فانتين التى بقيت متحصنة داخل مقاومتها العنيدة ..

الفصل الرابع

تولومييس فى قمة البهجة حتى أنه تغنى بأغنية اسبانية

وكان ذلك النهار كله من اوله إلى آخره نسيجا ممتدا من الفجر . فكأن الطبيعة كلها فى يوم عطلة ، فهى ضاحكة ، ومروج سان كلو كلها معطرة ، ونسمات السين تحرك اوراق الأشجار ، والأغصان تلوح وتتهادى مع الريح ، والنحل ينهب الياسمين ويسلبه رحيقه ، وقافلة من الفراشات تتهافت على الأزهار والنباتات . وكان فى حديقة الملك الباهرة قطيع من الأفاقين ، هى العصافير .

وجعل « الأزواج » الأربعة يمرحون كالمجانين بين الشمس والحقول والأزهار والأشجار والأطيار . وفى هذا الفردوس راحت الفتيات يتحدثن ، ويغنين ، ويرقصن ، ويجرين ، ويطاردن الفراشات ويقطفن الأزاهير ، ويبللن جواربهن المطرزة بين الأعشاب الطويلة ، وهن كالمجنونات من المرح والفرح ، وتنهال عليهن القبلات بلا تمييز من كل الشبان . فيما عدا فانتين التى بقيت متحصنة داخل مقاومتها العنيدة الحالمة ، لأنها كانت عاشقة — وقالت لها فافوريت :

— انت دائما تبدين جادة .

وهذه هى الأفراح ، وكان مرور هؤلاء الأزواج السعداء نداء عميقا موجها إلى الحياة وإلى الطبيعة ، يستخرج من

الجميع الملاطفة والمداعبة والنور . فقد كانت ــ فيما يقال ــ هناك جنية صنعت المروج والأشــجار خصيصا للعاشقين ، ومن ثم حب العشاق للخلوات والمروج ، وهرب التلاميذ من المدارس إليها . وسيظل الحال هكذا ما بقيت هناك مدارس وحقول وادغال . ومن ثم شهرة الربيع المحبب إلى المفكرين . فالشرى ومن رزقه الكفاف ، والدوق والعامى، ورجال القصور واهل المدن ، كلهم رعايا هــذه الاعيــاد الطبيعية . فالكل يضحكون ويلعبون ، وفى الهواء صفاء كصفاء الألوهة . الا ما ابهى الحب وما اقدره على تغيير الناس! فاذا الكتبة والموثقون آلهة ! والصرخــات الصــغيرة والتعقب بين الأعشــاب ، واقتناص الخصور التى تصهرها الأذرع العاشقة ، والكلمات المتطايرة كالتغريد ، وحبات الكرز التى تنتقل او تنتزع من فم إلى فم ــ كل هذا يتلألأ وسط هــذا المهرجان السماوى ! والحسناوات يتركن انفسهن نهبــا للهائمين بهن ، والجميع يعتقدون ان هــذا لن ينتهى ابدا . والفلاسفة والشــعراء والرسامون ينظرون إلى هذه النشــوات ولا يعرفون مــاذا يصنعون بها او يفهمون منها . ولكنها تبهرهم .

وبعد الإفطــار ذهب الأزواج الاربعــة ليروا فيما كان يسمى يومئذ مربع الملك شجرة جلبت حديثا من الهند، لا نتذكر الآن اسمها ، وكانت هذه الشجرة تجتذب فى تلك الأيــام كل اهل باريس لمشاهدتها فى سان كلو . وهذه الشجرة تتفرع فوق ساقها فروع كثيرة رفيعة كالخيوط لا يحصيها العــد ، وتغطى هذه الغصون التى لا اوراق لهــا ملايين الأزهــار

البيضــاء ، فكان الشــجرة تاج من الشعر الغزير المغطى بالأزاهير ، ومن حولها دائما جمع غفير ينظر إليها ويعجب بها.

ولما فرغوا من مشاهدة الشجرة ، صاح تولومييس :

ــ انا ادعوكم لركوب الحمير على نفقتى .

ولما يتم الاتفاق على الاجر مع مكارى ، ركبــوا الحمير على طريق فانفر VANVRES وايسى . ISAY وفى إيسى وجدوا الحديقة الكبيرة التى صارت الآن ملكية عامة ، وكانت فى ذلك العهد مملوكة لصانع الذخيرة بورجان BOURGUIN . مفتوحة على مصراعيها ، فدخلوها وجاســوا بين اركانهــا العجيبة ، وزاروا حجرة المرايا الشهيرة ، ثم ذهبوا إلى تلك الحبال المعلقة بين فروع اشجار الكستناء ، فصارت تستخدم ارجوحات للاطفال . ولكنها اليوم صارت ارجوحات للغوانى الاربع ، وكان واحد من الشبان يؤرجح صاحبته على التوالى وهن يضحكن من قلوبهن . وترتفع مع ضحكاتهن ذيولهن فى الهواء. وانتشى تولومييس التولوزى بهذا المنظر، واهل تولوز فيهم دماء اسبانية ومدينة تولوز ابنة عم تولوزا TOLOSA الاسبانية ، فاستخف الطرب تولومييس وغنى اغنية اسبانية قديمة اسمها جاليجا GALLEGA . لعل الشاعر الأسبانى القديم استلهمها من حسناء كانت تتارجح بكل قوتها على حبل معلق بين شجرتين فى مروج الاندلس .

ولم ترفض ركــوب الأرجوحــة إلا فانتين ، التى قالت بضيق واضح :

ـ انا لا احب هذه الالاعيب ...

وترجل الثمانية عن الحمير وتركوها للمكارى ، وحظوا بمتعة من نوع جديد، فعبروا السين فى قارب. ونزلوا فى باسى PASSY ومشوا سيرا على الأقدام إلى حانة الإتوال . وهناك تذكروا انهم ظلوا وقوفا على اقدامهم منذ الخامسة صباحا . وعلقت فافوريت على ذلك بقولها :

ـ ولكن لا محل للتعب فى يوم الأحـــد . فالتعب لا يعمل يوم الاحد !

وفى نحو الســـاعة الثالثة مضى الجميع يجرون أقدامهم إلى الجبال الروسية ، وهى صرح غريب الشكل كان يحتل فى ذلك الحين مرتفعات بوجون BEAUJON وتشاهد تموجاته المتعرجة من فوق اشجار الشانزليزيه .

وبين الحين والحين كانت فافوريت تصيح :

ـ واين المفاجاة ؟ اريد المفاجاة .

فيجيبها تولومييس :

ـ صبرا . صبرا .

الفصل الخامس

عند بمبردا

وبعد الفراغ من الطواف بالجبال الروسية ، بدا التفكير فى الغداء. وقصد الثمانى السعيد إلى حانة بمبردا BOMBARDA ، وهى ملحق اقامه هذا المطعم المشهور فى الشانزليزيه ، وكانت لافتته ترى فى شارع ريفولى بجوار ممر ديلورم DELORME.

وفى حجرة كبيرة ولكنها قبيحة ، بهـــا فى الصـــدر خلوة وفراش (ونظرا لازدحام الحانة فى يوم الأحد لم يكن للثمانى به من قبول هذا المكان) ولهـــا نافذتان يمكن منهمـــا ، من وراء اشجار الداردار ، رؤية الضفة والنهر ، وشـــعاع شمس اكتـــوبر يداعب هاتين النافذتين ، وبالحجرة مائدتان فـــوق إحداهما ، جبل من باقات الأزهار وقبعات الرجال والنساء . وإلى المائدة الأخرى جلس الثمانى حول زحـــام من الأطبـــاق والأكواب والزجاجات ، وقدور الجعة التى تزاحمها قوارير النبيذ . وامكن تدبير شىء من النظام فوق المائدة ، مع شىء من الفوضى من تحتها . وكما قال موليير :

« كانت لهم تحت المـــائدة ضجة » .

« كضجة النرد من تزاحم الأقدام وتراكبها ! » .

وهكذا انتهت فى الرابعة والنصف مساء تلك الرحلة التى بدات فى الخلاء فى الخامسة صباحا . ومع جنـــوح الشمس

للمغيب ، اخذت الشهية الجائعة تخمد بالوان الطعام والشراب .

وكانت الشانزليزيه مغمورة بالشمس ومزدحمة بالناس ، كأنها كتلة من الضياء والغبار ، وهما العنصران اللذان يتكون منهما المجد ، وجياد مارلى MARLY ، من الرخام الصاهل ، كأنها تتواثب وسط سحابة من الذهب . والعربات التى تجرها الخيول المطهمة تروح وتغدو ، وكتيبة من جنود الحرس يتقدمها نافخ البوق تهبط إلى هناك من شارع نيى NEUILLY ، والعلم الأبيض الذى صبغته الشمس الغاربة بلون وردى خفيف يرفرف فوق قبة التويلرى TUILERIE . وميدان الكونكورد الذى صار اسمه مرة اخرى ميدان لويس الخامس عشر غاص بالمتنزهين المنشرحين . وكثيرون من الناس كانوا يحملون زهرة زنبق من الفضة معلقة فى شريط ابيض من الحرير المموج الذى لم يكن قد اختفى بعد فى سنة ١٨١٧ تمام الاختفاء من الصدور . وهنا وهناك كانت الفتيات الصغيرات يتراقصن فى حلقات وسط الناس وهن يصفقن بايديهن ويتغنين باغنية كانت شائعة يومئذ تنديدا بحكم المائة يوم .

وكان كثير من العمال فى ثياب يوم الاحد يلبسون زهرة الزنبق مثل ابناء الطبقة الوسطى . ويمرحون فى المنازه ويركبون الاحصنة الخشبية التى تدور بهم وهم يضحكون ، وكثيرون غيرهم يشربون ، وبعض صبيان المطابع يرتدون على رءوسهم قلانس من الورق وتعلو ضحكاتهم . فالجميع كانوا مشرقين . فقد كانت هذه الفترة فترة سلم لا خلاف عليه وتسودها طمأنينة

ملكية . وعن هذه الفترة كتب مدير الشرطة انجليس ANGLES إلى الملك تقريرا بشأن ضواحى باريس العمالية ختمه بهذه السطور :

— وإذا نظرنا إلى جميع الاعتبارات يا مولاى تبين لنا انه لا خوف من جهة هؤلاء الناس . فهم غير مكترثين ووادعون مثل القطط . ولئن كانت جماهير الغوغاء فى الأقاليم مشاغبة ، فما هكذا جماهير غوغاء باريس . فكلهم من صغار الناس وقصار القامة ، بحيث يبلغ حجم اى واحد من جنود مولاى حجم اثنين منهم . فلا خوف إطلاقا من جهة جماهير باريس . ومن الملاحظ ايضا ان القامات قصرت عموما فى هذه الجماهير منذ خمسين سنة . وسكان ضواحى باريس اقصر قامة مما كانوا قبل الثورة . فلا خوف من هذا الجمهور ، فهم ليسوا مصدر خطر . فما هم إلا سوقة طيبون !

ويعتقد مديرو الشرطة أن القط لا يمكن ان يتحول إلى اسد . ولكن هذا يمكن أن يحدث ، بل وحدث فعلا . وهذه هى معجزة شعب باريس . ولقد كان القط — الذى يزدريه الكونت انجليس بهذه الصورة — معبودا قديما للقدماء ، وكانوا يرون فيه رمز الحرية . وفى مقابل تمثال مينرفا فى بيريه PIREE كان يوجد تمثال هائل من البرنز لقط فى ميدان عام بكورنثوس. ولكن شرطة الملكية العائدة إلى فرنسا كانت ترى شعب باريس بمنظار جميل . ولكنه ليس من السوقة الطيبين على الاطلاق . فالباريسى بالقياس إلى الفرنسى بمثابة الأثينى بالقياس إلى اليونانى . وما من احد ينام اعمق من نوم الباريسى ، ولا احد اكثر منه خفة ولا اميل للدعة والكسل ،

ولا احد يباريه فى النسيان . ولكن حذار من الاعتماد الأعمى على هذه المظاهر ، فهو مسرف فى عـدم المبالاة ، ولكن متى تبين له هدف مجيد ، غلت مراجل غضبه . وإن اتيحت له الحراب صنع بها العاشر من أغسطس ، وإذا اتيحت له البنادق صنع بها استرلتز . فهو الذى ارتكز عليه نابليون ، واعتمد عليه دانتون . وإذا تعرض الوطن للخطـر تدافع إلى الانخراط فى الجيش . وإذا تعرضـت الحرية للخطـر راح يخلع بـلاط الشوارع ويقيم المتاريس . فاحذروه ! لأن قميصه يتحـول فجاة إلى ثوب عسكرى ، وشعره يتحول عندما يغضب إلى اشواك . وهذا العامل القزم يتحول فى سـاعة الخطر إلى عملاق ، وتتحول انفاسه الوادعة إلى عاصفة هوجاء ، فترى هذه الصدور العجفاء تطلق رياحا تكفى لزلزلة ثنايا جبـال الألب . وبفضل هـذا العامل الباريسى سـاكن الضواحى امتزجت الثورة بالجيش وتمكنت من اكتساح اوربـا . ولئن تغنى فهذه متعته وفرحـه . ولكن قس اغانيه إلى طبيعتـه الجياشـة تر عجبا ! واطلب إليـه ان ينشد المارسييز ، تره يحرر العالم من الطغاة !

اما وقد سجلنا هذا التعليق على تقرير الكونت انجليس، فهيا بنا نعد إلى اصحابنا الثمانية ، وقد اوشـك الغداء على الانتهاء

الفصلُ السادس

وهو فصل يسوده الهيام حتى العبادة

احاديث المـائدة واحاديث الغرام . كل منهما امور غير ملموسة . فأحاديث الحب سحب ،واحاديث المائدة دخان . .

وكان فامى ودااليا يدندنان . وتومولييس يشرب، وزيفين تضحك ، وفانتين تبتسم . ولســتوليبه كان ينفخ فى نفير من الخشب اشتراه فى سان كلو . وفافوريت كانت ترمق لاشفيل برقة وتقول بهيام :

ــ بلاشفيل ! انا اعبدك !

جر هذا القول بلاشفيل إلى سؤال :

ــ وماذا ترينك صانعة يا فافوريت لو كففت عن حبك ؟

فصاحت فافوريت (ومعناها بالإنجليزية المفضـلة او المحظية) :

ــ انا ؟ لا تقل هذا ، ولو على سبيل الضحك ! لو كففت عن حبى قفزت وراءك ، وخمشتك وقذفتك بالماء ، وجعلتهم يقبضون عليك !

فابتسم لاشفيل فى زهو شهوانى لهذا التملق لغروره . واستطردت فافوريت :

— اجل ! اصرخ واستدعى الحرس ليقبضـــوا عليك ! لن اتوانى عن شىء ايها الخسيس !

وانتشى بلاشفيل بهذه العبارات ، واضطجع فى كرسيه واغمض عينيه بكبرياء .

وقالت داليا لفافوريت — وهى تأكل — وسط هــذه الضجة :

— اتعبدينه إذن جدا ، صاحبك هذا بلاشفيل !

فقالت فافوريت همسا ايضا وهى تتناول شوكتها :

— انا ؟ امقته ! فهو بخيل . واحب شابا يافعا يسكن فى مواجهة شقتى . فهو شاب لطيف جدا . اتعرفين ؟ ان سيماه تدل على انه يصلح ممثلا . وما ان يعود إلى البيت حتى تقول امه : « رباه ! لا سبيل لى الآن إلى الراحة والهدوء . ها هو قد شرع فى الصياح ! انك تصدع راسى ! » ذلك انه يطوف ارجاء البيت ومخازن الغلال والمئونة ، وهو يرفع عقيرته إلى اعلى مستوى بالغناء، حتى ان الجميع يسمعونه أسفل البيت، ويتقاضى هذا اليافع اجرا قدره عشرون صلديا فى اليـــوم من مكتب موثق ينسخ له العرائض . وهو ابن مغن قديم . آه ! كم هو لطيف ! وهو يحبنى حب العبادة حتى انه لما رآنى ذات يوم اعد عجينة لصنع لقمة القاضى قال لى « ياآنسة ! اصنعى يوما ما من قفازك زلابية وسآكلها ! » وهذا كلام لا يقول مثله إلا فنان ! آه ! كم هو لطيف ! وانـــا فى طريقى إلى الخبل بحب

هذا اليافع . ولكنى مع هذا اقول لبلاشفيل إنى احبــه حب العبادة ، وهذا كذب طبعا ! كم أنا كذابة !

وسكتت فافوريت برهة ثم أدرفت :

— داليا . أنا حزينة ! فالمطر لم ينقطع طول الشتاء ، والهواء يضايقنى . وبلاشفيل بخيل جدا . والخضراوات فى هذا الموسم الحار المطر قليلة ،ولا نعثر على البازلاء الخضراء إلا بصعوبة ، فلا ندرى ماذا نأكل . وأعانى من الكآبة كمــا يقول الإنجليز . والزبد غال جدا ! ثم انظرى حولك ! إننـــا نتغدى فى مكان به خلوة وفراش . وهذا كاف لإثارة تقززى من الحياة .

الفصل السابع

حكمة تولومييس

وفيما كان البعض يغنون ، والآخرون يتحدثون بصخب فى آن واحد، حتى تحول كل شىء إلى ضجة، تدخل تومولييس صائحا :

ــ لا يجوز ان نتحدث هكذا بطريقة عفوية وبهذه السرعة المفرطة . ولنتأمل فيما نقول إن اردنا ان نكون باهرين . ذلك ان الارتجال المسرف يفرغ الفكر فى بلاهة . الا ترون ان الجعة التى تسـيل لا يتجمع لها ابــدا زبد ؟ لا داعى للعجلة أيها السادة ، ولنمزج الشبع بالمهابة والجلال . ولنــأكل بأناة ، فالبطء زينة المآدب . ولنتمهل . وانظروا إلى الربيع ، كم هو متمهل . اما الاسراع فإنه يفسد اشجار الخــوخ واشــجار المشمش . والانكباب على الأكل يقتل الرشاقة ويقضى على بهجة الغداء الجيد ، لا تسرعوا يا سادة . وجريمــون دى لارينيير GRIMON DE LA REYNIERE يتفق فى هذا مع تاليران !

فثارت عاصفة من التذمر بين الجماعة . وقال بلاشفيل:

ــ تولومييس ! دعنا فى هدوء !

وصاح فامى :

ــ فليسقط الطاغية !

وصاح لستولييه هازلا :

ــ بمبروا . بمبانس ! بمباش !

وعاد فامى يقول :

ــ اليوم الأحد . . يوم عطلة !

وقال لستولييه :

ــ نحن ما زلنا فى حالة صحو . لم نسكر بعد !

وقال بلاشفيل :

ــ انظر كم انا هادىء !

وصاح تومولييس :

ــ اصغوا لى . لا بد من حدود لكل شىء . حتى للغداء! فالبطنة تحمل فى طياتها عقاب الشره . وعسر الهضم عقوبة إلهية للمعدة التى تسىء انتهاز الفــرص . وكل شــهوة من شهواتنا ، حتى شهوة الحب ، لها أيضا معدتها التى ينبغى الا نملأها حتى تكتظ . ولا بد أن نكتب فى الوقت المناسب كلمة النهاية ، ونحكم الرتاج على شهواتنا الجشعة . فالحكيم هو الذى يعرف متى يكف نفســـه عن الاســترسال فى الوقت المناسب . ولتكن لكم فى ثقة ، فقد درست القانون ، كمــا تقول ذلك امتحاناتى وتشهد به . وقد أعددت رســالة عن وسائل التعذيب فى عهد اباطرة الرومان لكى احصــل على الدكتوراه . ولكن حصولى على هذا اللقب لا يدل بالضرورة ــ كما هو معهود فى معظم اصحاب هذا اللقب ــ على انى ابله ! فاصغوا لكلامى وانا اوصيكم بالاعتدال فى رغباتكم . فانا اقول الحق وانصحكم بما فيه خيركم . وطوبى لمن استطاع

عندما تحين الساعة ان يقدم على عمل بطولى ، ويتنحى مثلما تنحى سيلا SYLLA او اوريجين ORIGENE .

وكانت فافوريت تصغى لهذا الكلام بانتباه عميق ، فقالت :

— طُوبى ! يالها من كلمة جميلة ! انا احب هذه الكلمة . وهى كلمة فصيحة تقابلها فى لغتنا العادية كلمة سعيد PROSPER ...

واستطرد توموليبس :

— يا صحابى ! اتريدون الا تخشوا وخز الشهوة وان تهجروا فراش العرس وتتحدوا الحب ؟ ما من شىء اسهل من هذا . هاكم وصفة الطبيب الخبير : الليمونادة ، والانهماك فى الرياضة والمشى ، والعمل الشاق ، ولو بجر الأحجار ودحرجتها . ولا تناموا . اسهروا ! وعيشوا على تغذية كطعام النساك ، وجوعوا ، وخذوا حمامات باردة .

فقال لستوليبه :

— هذا فظيع ! النساء افضل !

فقال توموليبس :

— المراة ! حذار من المراة ! يا سوء مصير من يسلم نفسه لقلب المراة المتقلب ! فالمراة غادرة ملتوية ! وهى إنما تكره الحية بدافع الغيرة المهنية! فالحية هى الحانوت المواجه!

فصاح بلاشفيل :

— توموليبس ! انت سكران !

فقال توموليبس :

— لا تقل هذا !

فقال بلاشفيل :

— إذن كن مرحا .

فأجابه توموليبس :

— وهو كذلك ! موافق !

ونهض فملأ كأسه ورفعه وانشأ يقول :

— عاش القيصر الذى كان عظيما ، وكان حذاؤه اعظم منه ! وانتن أيتها السيدات ! إليكن نصيحة صديق : اخلطنها بين الجيران، إن حلا لكن هذا . فمزية الحب هى هذا الخلط ، وهذا الخطأ . ولم يخلق الحب للجد والجهامة كأنه خادمة إنجليزية . بل خلق الحب كى يهزل ويخطىء بمرح! ولئن قيل ان الخطأ سمة البشر، فانا اقول إن الخطأ سمة العشق والهوى! آه يا سيداتى! انى أعبدكن جميعا. أوه يازيفين! ياجوزيفين! كم تكونين فاتنة حين لا تتجهمين . ولك وجه جميل لولا انهم جلسوا فوقه سهوا فتفرطح . اما فافوريت ! فهى اشبه بالحوريات وعرائس الفنون ! وذات يوم عندما كان بلاشفيل يجتاز جدول شارع جيران بواسو راى فتاة حسناء ذات جورب ابيض تكشف عن ساقيها لتجتاز الجدول ، فاعجبه هذا الاستهلال ، ووقع بلاشفيل صريع الحب . وكان من احبها هى فافوريت . يا فافوريت ! ان لك شفتين أيونيتين (من ايونيا ببلاد اليونان) . وكان هناك رسام اغريقى اسمه ايفوريون EUPHORION لقبوه باسم رسام الشفاه . وهذا

الرسام الإغريقي وحده هو الجدير برسم ثغرك ! اسمعى ! لم تكن قبلك فتاة جديرة باسم فافوريت (المحظية) .

فانت الجديرة بأن تتلقى التفاحة مثل ڤينوس ، او بأكلها مثل حواء . فالجمال يبدأ بك . وقد ذكرت الآن حواء ، وانت التى خلقتها او تجسدينها . فانت تستحقين براءة اختراع المراة الجميلة . ولكن علينا الا ننخدع بالأسماء ، لانها قد تخطىء . فانا اسمى فليكس (السعيد) ولست سعيدا . فالأسماء تكذب . وعلينا الا نتقبل مغمضى الأعين ما تدل عليه . ومن الخطا ان نكتب إلى ليبج للحصول على فلين ، او إلى بو PAU للحصول على قفازات . اما انت يا آنسة داليا ، فلو كنت مكانك لجعلت اسمى روزا (وردة) . فينبغى أن تكون الزهرة ذات عبير ، وان تكون المراة ذات ذكاء لماح . اما فانتين فلا اقول عنها شيئا ، فهى حالمة دائمة التفكر وحساسة . إنها شبح يتخذ شكل حورية وله خفر راهبة ، وليس مكانها بين الغوانى ، لانها تعيش على الأحلام والأوهام ، وتغنى ، وتصلى ، وتنظر إلى زرقة السماء من غير أن تدرى ماذا ترى ولا ماذا تصنع ، وفيما هى تحرق فى السماء تجوس خلال حديقة هجرتها الطيور والعصافير . يا فانتين ، الا فاعلمى اننى — انا توموليبس ! — لست إلا وهما . ولكنها لا تسمعنى ، ابنة الأوهام الشقراء هذه . ومع هذا فكل ما فيها نضرة ، ونكهة ، وشباب وعذوبة صباح مشرق ! يافانتين ! ايتها الفتاة التى كانت تستحق ان تسمى مرجريت او لؤلؤة ، انت ابنة من اجمل بنات المشرق ! ايتها السيدات ! إليكن نصيحة اخرى ، لا تتزوجن ابدا . فالزواج طعم ،إما ان

ينجح او يفشل . فاحذرن هذه المجازفة . ولكن ماذا عساى كنت اقول ؟ إنى استودع اقوالى أدراج الرياح ! فالفتيات مخبولات لا شفاء لهن من جنون الزواج . وكل ما نستطيع ان نقوله نحن الحكماء لن يمنع من يحبكن الصدارات الصوفية من ان يحلمن بأزواج اثرياء يملكون تلال الألماس . ليكن . ولكن اسمعن نصحى على الأقل . إنكن تاكلن السكريات بإفراط . وليس فى النساء من عيب مثل قرقشة السكر . ايها الجنس القارض ! إن الأسنان الصغيرة الجميلة تعبد هذا السكر ، والسكر نوع من الملح ، والأملاح كلها مجففة . والسكر اشد تجفيفا ، ويمتص من العروق الدماء ، فيتخثر الدم ، ثم يتصلب . ويدب السل إلى الرئتين ، ويتلوه الموت . ولهذا يقترن مرض السكر بالسل . فلا تقرشن السكر لتطول اعماركن! واتحول الآن إلى الرجال: قوموا ايها السادة بغارات، وليسلب كل منكم حبيبة الآخر بلا ندم ! فالحب لا يعرف الصداقة . فحيثما توجد فتاة حسناء ، فالعداوة بابها مفتوح . ولا هدنة هناك ، بل حرب حتى النهاية ! فالمراة الجميلة دائما غنيمة حرب . المراة الجميلة فعل فاضح ! وكل حروب التاريخ انتهت برقصات . والمراة من حق الرجل . فروميلوس ROMULUS خطف السابينيات ، وغليوم خطف السكسونيات ، وقيصر خطف الرومانيات . والرجل الذى لا حبيبة له يحلق كالنسر فوق حبيبات سواه . اما انا فالقى إلى جميع الأرامل المنكودى الحظ كلمة بونابرت لجيش إيطاليا : « ايها الجنود ! انتم يعوزكم كل شىء ! والعدو عنده كل شىء ! » .

وتوقف توموليبس عن الكلام ، فقال بلاشفيل :

ــ خذ نفسا يا توموليبس !

وفى الوقت نفسه كان بلاشفيل ــ مستعينا بلستوليبه وفامى ــ يتغنى بأغنية شائعة بين صفوف العمال خالية من المعنى ، وتتجمع الفاظها المتناغمة حيثما اتفق ، كأنمـــا هى وسوسة الرياح ، وخطرات الغلايين المشتعلة ، ومثلها أيضا تتبخر فى الهواء . فكان ذلك الهراء هو تعليقهم على خطبة توموليبس . ولكن ذلك لم يوقف توموليبس عن تدفقـــه فى الارتجال الخطابى ، بل انتهز الفرصة كى يفرغ قدحه ثم يملأه، وشرع يتكلم من جديد :

ــ فلتسقط الحكمة ! انسوا ما قلته لكم ! وها انا اشرب نخب الخفة والطيش ! فلنكن جميعا طائشين ! ولنكمل محاضرة القانون بجنون الطعام ! وليكن قانون جستنيان هو الذكر ، ولتكن المعدة هى الأنثى ! ولنستمتع بالبهجة حتى الأعماق ! إن العالم الماسة كبيرة ، وانا سعيد . والعصـــافير كما اراها مدهشة ! وكل شىء جميل ، والعيد فى كل مكان ! وروحى ترفرف وتحلق فوق الغابات العذراء وفوق السفانا ! كل شىء جميل ! وها هو الذباب يطن فى شعاع الشمس . قبلينى يا فانتين !

واخطأ ، فقبل فافوريت !

الفصل الثامن

مقتل حصان

وصاحت زيفين :

ــ الطعـــام عند ايدون EDON افضل مما عنـــد بمبردا .

فقال بلاشفيل :

ــ وانا افضل بمبردا على ايدون . لأنه اكثر رفاهة وفخامة ، والترف هنا آسيوى . انظرى القاعة السفلى ! ان على جدرانها مرايا .

فقال فافوريت :

ــ ولكنى اشد اهتماما بما يوجد فى طبقى !

ولكن بلاشفيل الح قائلا :

ــ انظرى إلى السكاكين . مقابضها عند بمبردا من الفضة ، اما عند ايدون فمقابضها من العظم . والفضة اقيم من العظم .

فقال توموليبس :

ــ إلا عند من لهم ذقون من الفضة .

وكان فى تلك اللحظة يرنو إلى قبة الانفـــاليد ، التى تشاهد من نوافذ بمبردا . وساد صمت ، وصاح فامى :

— يا تومولييس . منذ قليل نشبت مناقشة بينى وبين لستوليبه .

فقال تومولييس :

— المناقشة حسنة . ولكن المشاحنة احسن !

— كنا نتناقش فى الفلسفة .

— ليكن !

— ايهما تفضل : ديكرت ام اسبينوزا ؟

وشرب تومولييس قدحه وقال :

— الذى يهمنى هو الحيــاة . والحيــاة لا تنتهى على الارض ، ما دمنا نستطيع التخريف . وانا اقدم الاجلال إلى الآلهة الخالدة . والإنسان يكذب ، ولكنه يضحك . ويثبت ولكنه يشك . وغير المتوقع يخرج من جوف القياس . وهــذا جميل . ولم يزل فى الدنيا اناس يعرفون كيف يفتحون بكل مرح وكيف يغلقون صندوق المفاجئات التى تخبئها المفارقة . وهذا الذى تشربنه الآن ايتها السيدات وانتن هادئات البــال وادعات هو نبيذ ماديرا ، الذى تنبت كرومه وتعصر على الجبال التى ترتفع عن سطح البحر بمقدار ١١٧ قامة ! فخذن حذركن وانتن تشربنه ! فان هــذا الارتفــاع يدير الرءوس ! والمسيو بمبردا الكريم البارع يقدم لكن هــذه القامات المــائة وسبع عشرة مقابل اربع فرنكات وخمسين صلديا .

فقاطعه فامى من جديد :

— يا تومولييس ! آراؤك قانون . فاى هذين المؤلفين هو المفضل لديك .

فاندفع تومولييس فى حديث طويل مستفيض عن انواع الخمور وطرق صنعها عند قدماء الإغريق وقدماء المصريين ! ومن الصعب كف تومولييس عن الاسترسال فى الكلام متى اندفع فيه . وما كان ليتوقف لولا أن حصانا سقط على الأرض فوق رصيف السين امام النافذة فى تلك اللحظة . وكان هــذا الحصان فرسا تجر عربة نقل ثقيلة . وأمام بمبردا ارهقها العبء فأبت ان تتحرك . وتجمع الناس . وما كاد الحوذى الفظ يثور كأنما لحقته إهانة امام الجمع المحتشــد ويسـب الفرس وينهال عليها بالسوط حتى خرت الدابة على الأرض ولم تنهض . والتفت أصحاب تومولييس إلى هذا المشهد الحزين ، وتنهدت فانتين وقالت :

— يا للحصان المسكين !

وصاحت داليا :

— ها هى فانتين شرعت ترثى لحال الخيول ! وهل يكترث احد لمثل هذه الدابة ؟

وفى هذه اللحظة عقدت فافوريت ذراعيها فوق صدرها ومالت براسها للخلف ونظرت إلى تومولييس بإمعان وقالت له:

— والآن ! ماذا عن المفاجأة ؟

فاجابها تومولييس :

— بالضبط ! حان الوقت ! ايها السادة ! لقد حانت ساعةالمفاجأة لهذه السيدات. انتظرننا لحظة ايتها السيدات.

وقال بلاشفيل :

— المفاجأة تبدا بقبلة !

فقال توموليس :

ــ على الجبين !

وفعلا طبع كل منهم قبلة على جبين عشيقته ، ثم اتجه الشبان الأربعة فى صف واحد متلاحق إلى الباب ، وقد وضع كل منهم سبابته فوق فمه .

وصفقت فافوريت بيديها طربا لخروجهم وقالت :

ــ هذا شىء مسل وممتع ، منذ الآن !

وتمتمت فانتين :

ــ لا تطيلوا الغياب . فنحن فى انتظاركم !



وكان هذا الحصان فرسـا تجر عربة نقـل ثقيلة . وأمام بمبردا أرهقها العبء فأبت أن تتحـرك ..

الفصل التاسع

ختام مرح ليوم مرح

وما إن بقيت الفتيات الأربع وحدهن ، حتى اتكأت كل اثنتين منهن على حافة إحدى النافذتين ، ورحن يثرثرن معـا ويتناقلن الحديث من بروز نافذة إلى بروز النافذة الأخرى .

ورأين الشبان يخرجون من حـانة بمبردا متشـابكى الأذرع ، والتفتوا إلى الوراء ولوحوا لهن ضاحكين ، ثم اختفوا وسط زحام يوم الأحد الذى يغمر كل أسبوع الشانزيليزيه . وصاحت فانتين :

ــ لا تطيلوا الغياب !

وقالت زيفين :

ــ ترى ماذا سيحضرون لنا ؟

فقالت داليا :

ــ لا بد انه سيكون شيئا جميلا .

وقالت فافوريت :

ــ اما انا فأريد ان يكون ما يحضرونه مصـنوعا من الذهب .

ثم شغلن بالحركة على شاطىء الماء الذى كان يبدو لهن من بين اغصان الأشجار الكبيرة ، ووجـدن فى ذلك تسـلية

كبيرة . فقد كانت هذه ساعة رحيل عربات البريد وعربات المسافرين . فكل سفريات الجنوب والغرب تقريبا كانت تمر فى ذلك الحين بالشانزيليزيه ، ومعظم هـذه العـربات تمر بالأرصفة المجاورة للسين وتخرج من ممر باسى . وما بين دقيقة وأخرى كانت مركبة ضخمة مطلية باللونين الأصـفر والأسود تمر مثقلة بالركاب والحقائب ، وتطل من نوافذها عشرات الرءوس ، وتعلو لها ضجة كبيرة ، وتشق طريقهـا تحت النافذتين بين زحام الناس ، ومن عجلاتها يتطاير الشرر وسط سحب الغبار الذى تثيره العجلات وسنابك الخيل . فكانت هذه الجلبة الزائلة والمناظر المتغيرة تفرح الفتيـات وتثير مرحهن وتسليهن .

وحدث ذات مرة ان وقفت إحدى هـذه العربات التى تتضح بصعوبة من بين اشجار الدردار لحظة تحت أنظارهن ، ثم انطلقت بسرعة . فادهش ذلك فانتين وقالت :

ــ هذا غريب ! كنت اظن عربات السفر لا تتوقف فى طريقها ابدا .

فهزت فافوريت كتفيها وقالت :

ــ فانتين هذه امرها غريب ! فهى تندهش من ابسـط الأشياء . لنفرض انى مسافر ، وقلت لسـائق الحـافلة : « سأسبقك وتقف لأخذى من فوق الرصيف اثناء مرورك » . وتمر الحافلة وترانى واقفة فتقف وتأخذنى . هذا شىء يحدث كل يوم . انت لا تعرفين الحياة يا عزيزتى !

ومضى وقت على هـذه الوتيرة . وفجاة ندت عن فافوريت حركة كحركة من يصحو من نومه وقالت :

— وبعد ؟ اين المفاجاة التى وعدونا بها ؟

فقالت داليا :

— اى والله . على فكرة ! اين المفاجاة الشهيرة ؟

وقالت فانتين :

— لقد أطالوا الغياب !

وبينما كانت فانتين تتم تنهدها ، دخل الساقى الذى كان قد قدم الغداء ، وقد أمسك فى يده شيئا ما يشبه الخطاب . فسألته فافوريت :

— ما هــذا ؟

فأجابها الساقى :

— هذه ورقة تركها أولئك السادة للسيدات .

— ولمــاذا لم تحضرها على الفور ؟

فقال الساقى :

— لأن هؤلاء السادة طلبوا بإلحاح عدم تسليمها إلا بعد مضى ساعة !

فاختطفت فافوريت الورقة من يدى الساقى . فاذا بها فعلا رسالة ، وصاحت :

— عجبا ! ليس بها عنوان ، ولكن هذا هو المكتوب على المظروف :

هذه هى المفاجاة !

وبسرعة فضت المظروف وقرات (فهى الوحيدة التى تعرف القراءة) :

يا حبيباتنا :

« اعلمن ان لنا أهــلا ووالدين . وإن كنتن لا تعرفن

الكثير عن معنى الوالدين . فهما ما يسمى فى القانون المدنى الصريح الآباء والأمهات. وهؤلاء الأشخاص يئنون ويتوجعون. هؤلاء المسنون ينادوننا كى نعود إليهم ، ويسمــوننا الأبناء الضالين . ويتمنون عودتنا ، ويعدوننا عند عودتنا بأن يذبحوا لنا العجول المسمنة . وعلينا طاعتهم لأننا أبناء بررة . ففى اللحظة التى تطالعن فيها هذه السطور تكون خمسة جياد قوية تجر عربتنا متجهة بنا إلى آبائنا وأمهاتنا فنحن إذن قد قررنا الرحيل . بل نحن فى هذه اللحظة قد رحلنا . فحافلة تولوز تبعدنا الآن عن شفا الهاوية . وهذه الهاوية هى أنتن ! يافاتناتنا الصغيرات ! وبذلك نعــود إلى أحضــان المجتمع والواجب والنظام ، بسرعة معدلها ثلاثة فراسخ فى الساعة. فمن مصلحة الوطن ان نترك المجون ونصبح — مثل النــاس جميعا — محافظين ، وارباب عائلات ، ومستشارين محليين وموظفين عموميين . فعليكن ان تحترمن سلوكنا هذا ، لأننــا انكرنا ذواتنا وضــحينا بلذاتنا فى ســبيل الواجب القومى . وابكيننا قليلا ، ثم استبدلن بنــا غيرنا بسرعــة . وإذا مزق قلوبكن هذا الخطاب ، مزقنه !

« لقد اسعدتننا قرابة عامين ، ونحن أيضا أسعدناكن. فلا تحقدن علينا .

التوقيع

بلاشفيل

فامى

لستولييه

فيلكس تولومييس

حاشية : ثمن الفداء تم تسديده » .

ومـا إن فرغت فافوريت من التـلاوة ، حتى تبـادلت الفتيات الأربع النظرات . وكانت فافوريت أول من قطعت هذا الصمت ، صائحة :

ــ آه ! انها على كل حال ملهاة حسنة !

وقالت زيفين :

ــ هذا شيء مضحك للغاية !

وعادت فافوريت تقول :

ــ لا بد ان بلاشفيل هو صاحب هذه الفكرة . وهـذا يجعلنى اهيم به حبا . فما إن رحل حتى احببتـه ! وهذه هى الحكاية !

فقالت داليا :

ــ لا . هذه فكرة تومولييس . فذلك واضح تماما .

فقالت فافوريت :

ــ فى هذه الحالة الموت لبلاشفيل ، وليعش تولومييس!

وهتفت داليا وزيفين :

ــ عاش تولومييس !

ثم انفجرت الثـلاثة ضـاحكات . وضـحكت فانتين كالأخريات . .

وبعد ساعة ، عندما عادت إلى حجرتها ، بكت . فقد كان هذا حبها الأول ، كما قلنا آنفا ، وكانت قد منحت نفسها لتولومييس كما لو كان زوجا . وكان للفتاة المسكينة طفلة .

الكتاب الرابع

الثقة تفضى إلى التســـليم

الفصل الأول

أم تلتقى بأم أخــرى

كان فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فى «فرمى» FARMEIL بالقــرب من باريس مطعم حقير لم يعـــد له فى الوقت الحاضر وجود، وكان يدير هذا المطعم الحقير زوجان هم آل تردييـــه THENARDIER . وكان هذا المطعم الحقير يطل على حارة بولانجيه (الخباز) BOULANGER . وكانت تعلو بابه لافتة مثبتة بمسامير فى الحائط . وفوق هذه اللافتة — وهى فى الحقيقة لوح من الخشب — رسم يشبه رجلا يحمل على ظهره رجلا آخر ، وهذا الرجل المحمول على كتفيه علامات رتبة الجنرال المذهبة التى تشبه الفرشـــاة ، ترصعها نجوم فضية ، وبقع حمراء ترمز إلى الدم ، أما سائر اللوحة فهو دخان لعله يمثل موقعة حربية . وتحت هـــذه اللوحة عبارة بالخط الكبير : إلى جاويش (رقيب) ووترلو .

وما من شىء يثير الدهشة فى وقوف عربة ذات صندوق او عربة نقل على باب مطعم . ولكن لا شك فى ان العربة ، او على الأصح البقية الباقية من العـــربة التى كانت تســـد الشارع أمام هذا المطعم الحقير المسمى « جاويش ووترلو » ذات مساء فى ربيع ســـــنة ١٨١٨ كانت جـــديرة بلفت نظر اى رسام يمر من هناك .

فقد كانت هذه العربة او حطامها عبارة عن مقدمة إحدى تلك العربات التى تستخدم للنقل الثقيل فى اقاليم الغابات ، وتستخدم فى نقل جذوع الأشجار . ولهذه المقدمة مقعد محطم، وعجلتان هائلتان ، ويكاد من يراها يحسبها بالأرجح عـــربة مدفع جبار ، وقد غطى كل جزء فيها بالوحل الجاف الذى صار لونه ضاربا إلى الصفرة . ومن فوق المقعد المحطم تتـــدلى سلسلة هائلة من الحديد جديرة ان تكون قيـــدا لجوليـــات الجبار . وكان هومير خليقا ان يقيد بها بوليفيم POLYPHEME اما شكسبير فكان خليقا ان يقيد بها كليبان CALIBAN .

وكان وسط السلسلة الهائلة المزدوجة يتدلى من المقعد بالقرب من الأرض ، وعلى هذه الثنية ، كأنما هى أرجوحة جلست فى ذلك المساء بنتان صغيرتان ، إحداهما عمرها نحو العامين والنصف ، وعمر الأخرى سنة ونصف ، وقد رقدت الصغرى بين ذراعى الكبرى . وهناك منديل كبير يربطهما معا فوق السلسلة بحيث لا يمكن أن تسقطا ...

وكانت الطفلتان نظيفتى الملبس فى عناية واضحة ، فكأنهما وردتان ، وعيونهما لامعة ، وخدودهما ناضرة ضاحكة، ووجهاهما عموما فتنة للناظرين . وكان شـــعر إحـــداهما كستنائيا ، وشعر الأخرى بنيا . وكانت بالقـــرب من المكان ايكة تنفح عبيرها وينتشى به المارة فيحسبونه يفوح من هاتين الطفلتين اليانعتين النظيفتين وسط الركام والأقذار . وكان بطن ابنة العام والنصف عاريا للأنظار فى براءة الطفولة التى لم تتعلم بعد معنى الحياء . وكان الاثنتين من تحت هذه العربة

القبيحة القذرة الوحشية جالستان فى فوهة مغارة موحشة رهيبة . وعلى قيد خطوات منهما كانت أمهما جالسة على عتبة المطعم . وهى تؤرجح الطفلتين بهز السلسلة ، عن طريق خيط غليظ ربطته بها ، وهى ترقبهما بعينين فيهما شراسة المرأة السوقية ممتزجة بحنان الأمومة . ومع كل اهتزازة كانت حلقات السلسلة الضخمة الصدئة يصدر عنها صوت صرير حاد أشبه بصرخة غضب ، فكانت الطفلتان تطربان له جدا . والشمس الغاربة تشارك فى هذا المرح . ولم يكن شىء أفتن للألباب من هذه الصدفة التى جعلت من سلسلة من اغلال العمالقة الأسطوريين ارجوحة طفلتين فى جمال الملائكة .

وكانت الام وهى تؤرجح الصغيرتين تغنى لهما بصوت نشاز اغنية كانت شائعة فى ذلك الحين .

« لا بد من هذا . قال المقاتل .. » :

وكانت اغنيتها وتأمل الطفلتين يمنعانها من سماع او رؤية ما يدور فى الشارع . ولكن شخصا كان قد اقترب منها وهى تبدأ المقطع الأول من اغنيتها ، وعلى حين غرة منها سمعت صوتا قريبا جدا من اذنها يقول :

— ما اجمل طفلتيك يا سيدتى !

فأجابتها الام متممة مطلع الأغنية :

« للحسناء الرقيقة الحنون ايموجين IMOGINE » .

ثم استدارت نحوها . فاذا أمامها امرأة ، على بعد

خطوات منها . وكان مع هذه المرأة ايضا طفلة تحملها بين ذراعيها . وتحمل ايضا حقيبة تبدو ثقيلة جدا .

وكانت طفلة هذه المرأة من ابدع الكائنات التى يمكن ان تقع عليها العين. كانت طفلة يتراوح عمرها بين سنتين وثلاث سنوات . وكان من الممكن ان تلعب مع الطفلتين الأخريين وتباريهما فى الحسن . وثيابها من النسيج الرقيق الفاخر ، وعلى رأسها قلنسوة مزينة بشرائط . وذيل ثوبها المرفوع يكشف عن فخذين بيضاوين لحيمين. وبشرتها وردية تنبىء عن تمام الصحة والعافية . وخداها تفاحتان تغريان المرء بالقضم! ولا يمكن الحكم على عينيها إلا بانهما حتما واسعتان جدا واهدابهما رائعة . فقد كانت نائمة .

كانت الطفلة نائمة نوم الطمانينة المطلقة التى تعرفها هذه السن . فذراعا الأم مهاد الأمان والحنان ، وفى أحضان الأم ينام الأطفال بعمق .

اما الام فكان مظهرها مختلفا عن مظهر الطفلة . وكان مرآها ينبىء عن الفقر والحزن . فهى مرتدية بزة عاملة فى المدينة تصبو إلى أن ترتد فلاحة . وكانت شابة . أتراها كانت جميلة ؟ ربما ! ولكنها فى هذه البزة لم يكن جمالها باديا للعيان. وشعرها — الذى ظهرت منه خصلة شقراء — يبدو انه غزير جدا ، ولكنه كان متواريا بصرامة تحت طاقية قبيحة الشكل ، ضيقة ، ومعقودة تحت ذقنها . والضحك يبرز جمال الأسنان إن كانت هذه الأسنان جميلة ، ولكن فمها كان مطبقا ، ولا يفتر عن ضحك او ابتسام. وعيناها يبدو انهما لم يرقأ لهما دمع منذ

زمن طويل جدا . وكانت شاحبة البشرة ، يبدو عليها الاعياء ، بل كانت مريضة بعض الشيء . تنظر إلى ابنتها النائمة فى احضانها تلك النظرة الخاصة التى ترنو بها الأم التى اطعمت طفلها . وكان منديل أزرق كبير كالذى يتمخط فيه المرضى قد طوى وتدلى لكى يحجب قدها فلا تبدو قسماته . ويداها مسفوعتان وتعلوهما اثار تدل على الافراط فى استخدام الابرة ، وثوبها عبارة عن سترة بنية اللون من الصوف الخشن ، وتحتها ثوب من القطن ، وفى قدميها حذاء ضخم غليظ . وكانت هذه هى فانتين !

اجل هذه فانتين ، وإن كان من العسير التعرف عليها . ولكنك إذا ما تفحصتها عن كثب وجدت آثار جمالها ، ولكن تجعيدة حزينة ، كانما هى شروع فى سخرية ، كانت تغضن خدها الأيمن . اما زينتها التى كانت مزيجا من الموسلين والعمامات الأنيقة والقبعات وقد نسقت كلها لتنبىء عن المرح والشباب ، وكانما تنبعث من حركاتها الرشيقة موسيقى للعيون ، ومن اعطافها واردانها يفوح عبير الشباب كأنه الليلك .. كل هذا تبخر وتلاشى ، كما يتلاشى الصقيع اللامع الذى يحسبه المرء عند بزوغ النهار الماسات ، فاذا به متى اشتدت الحرارة يذوب ، ويبقى الغصن من تحته عاريا اسود اجرد .

وكانت قد مرت شهور عشرة منذ حدوث تلك « الملهاة المتقنة الصنع » .

فما الذى جرى فى هذه الشهور العشرة ؟ هذا شىء نستطيع ان نحدسه .

بعد الهجر حلت الضائقة . وغابت تماما عن انظار فانتين فى الحال فافوريت وزيفين وداليا . فانقطاع الصلة مع الرجال ، قد قطع أيضا الصلة بين النساء . بحيث كن يدهشن لو قيل لهن بعد خمسة عشر يوما إنهن كن صديقات . فالصداقة بينهن لم يعد لوجودها سبب ، وقد استنفدت غرضها . وبقيت فانتين وحيدة ، وبعد رحيل والد طفلتها — ومثل هذه القطيعة لا يمكن للأسف الشديد أن تتجدد بعدها العلاقة ! — الفت نفسها معزولة عن الناس تماما ، وقد قلت لديها عادة العمل ، وحلت محلها الرغبة فى المتعة . وقد استدرجتها علاقتها بتومولييس إلى ازدراء الحرفة الحقيرة التى كانت تعرفها. ولم يعد لها أى مورد. وكانت لا تكاد تعرف القراءة . اما الكتابة فلا معرفة لها بها اصلا . وكل ما هناك انهم علموها فى طفولتها كيف توقع باسمها . وذهبت إلى كاتب عمومى وجعلته يسطر لها رسالة إلى تومولييس ، ثم أعقبتها برسالة اخرى ، ثم بثالثة . ولم يتكرم تومولييس بالرد على اى منها . وذات يوم سمعت فانتين فضوليات يقلن وهن ينظرن إلى ابنتها :

— وهل ياخذ احد مثيلات هذه الطفلة ماخذ الجد ؟ انهن لا يقابلن إلا بهز الأكتاف !

وعندئذ تذكرت تومولييس وكيف كان يهز كتفيه استهانة بابنته ، ولم يكن ياخذها ابدا ماخذ الجد . وامتلأ قلبها بغضا وضغينة على هذا الرجل . ولكن ماذا عساها تصنع ؟ انها لم تعد تعرف إلى من تتوجه . لقد ارتكبت خطا ، ولكن اعماق طبيعتها كانت كلها حياء وفضيلة . وشعرت شعورا غامضا

بانها على اعتاب التردى فى الفاقة ، بل وما هو اسوا من الفاقة ، وكان لا بد لها من الشجاعة ، وقد تصلبت . وراودتها فكرة العودة إلى مسقط راسها فى بلدة « م » . فلعل أحدا هنـــاك يتعرف عليها او يتذكرها ويتيح لها عملا . هذا ممكن . ولكن لا بد لها قبل هذا من إخفاء خطيئتها . وادركت ان ذلك معناه ان تتكبد آلام فراق ثان اقسى على نفسها من الفراق الأول . وانقبض قلبها ، ولكنها اتخذت قرارها . فقد كان لدى فانتين — كما سنرى — ما يمكن ان نسميه شجاعة الحياة . وكانت من قبل قد تخلت عن زخارف زينتها وابهتها ، ولبست القماش الخشن ، واعادت تفصيل كل ما كان لديها من ملابس حريرية وبهارج واشرطة ومخرمات وصنعت منها ثيابا لابنتهـــا التى كانت البهجة والزهو الوحيدين الباقيان لها . كانت تقدسها. وباعت كل ما كان لديها وحصلت من ذلك على مائتى فرنك . دفعت منها ديونها الصغيرة ، ولم يتبق لها إلا حوالى ثمانين فرنكا . وفى سن الثانية والعشرين ، ذات صباح جميل يوم من ايام الربيع غادرت باريس ، حاملة طفلتها على ظهرها . ولو رآهما احد وهما تمران به لأخذته بهما الشفقة . فهذه المراة ليس لها فى الدنيا إلا هذه الطفلة ، وهذه الطفلة ليس لها فى الدنيا إلا هـذه الأم . وارضعت فانتين ابنتهــا ، فاتعب ذلك صدرها ، وجعلت تسعل قليلا .

ولن تتاح لنا بعد الآن فرصـــة للحديث عن المســيو توموليبيس ، وبحسبنا ان نقول إنه بعد هذا التاريخ بعشرين عاما — تحت حكم لوى فيليب LOUIS-PHILIPPE صار موثقا كبيرا فى الأقاليم، ذا نفوذ وثروة، وناخبا حكيما ومحلفا فى

المحكمة بالغ القسوة ، وإن كان قد ظل اخا ملذات وشهوات .

وحوالى منتصف النهار ، بعد ان كانت تبحث عن الراحة قد استقلت بين وقت وآخر عربات عامة كانت يومئذ تستخدم فى ارباض باريس لقاء اربع صولديات للفرسخ الواحد ، الفت فانتين نفسها فى مونفرمى MONTFERMEIL فى حارة بولنجيه (الخباز) .

وفيما هى مارة امام مطعم ونزل تنردييه ، بهرها منظـــر الطفلتين المتأرجحتين على تلك السلسلة ، ووقفت تنظر إلى هذا المشهد البهيج . فحتى للبؤساء توجد مشاهد ساحرة . وكانت هاتان الطفلتان مشهدا ساحرا لهذه الأم .

وراحت ترمقهما وقد تحركت مشاعرها . فرؤية الملائكة إيذان بوجود الفردوس . وخالت انها رات مكتوبا فوق هــذا النزل عبارة : «هنا» التى خطتها يد العناية الإلهية . فلا شك عندها فى ان هاتين الصغيرتين كانتا سعيدتين . وراحت تنظر إليهما باعجاب ، وقد جاشت نفسها بالحنـــان ، ولما رات الأم تلتقط انفاسها فيما بين بيتين من الأغنية لم تتمالك نفسها من ان تقول لها الكلمة التى ذكرناها آنفا :

— ما اجمل طفلتيك هاتين يا سيدتى !

واشــد الناس شراســة تلين عريكتهم إذا ما داعبت ولاطفت صغارهم .

ورفعت الأم راسها وشكرتها ، واجلست عابرة السبيل

هذه على دكة الباب ، اما هى فكانت جالسة فــوق العتبة . وتجاذبت المراتان الحديث .

قالت أم الطفلتين :

ــ اسمى مدام تنردييه . وانا وزوجى ندير هذا النزل .

ثم واصلت أغنيتها ، فقالت من بين أسنانها :

« لا بد من هذا ، فانا فارس »

« ولذا فانى راحلٌ إلى فلسطين »

وكانت مدام تنردييه هذه امراة صهباء ، طويلة ، لحيمة ، عريضة العظام . فهى نموذج امراة الجندى . ومن العجيب انها كانت مدمنة قراءة اقاصيص شعبية . وهذا نوع طبيعى من القراءة لصاحبة مطعم حقير ، يترك فى نفسها انطباعاته . وكانت ما تزال شــابة ، لم تكد تبلغ الثلاثين . ولو ان هذه المراة المقعية انتصبت واقفة ، لكانت قامتها العملاقة وقوتها البادية التى تشبه قامة المصارعين المتجولين ، خليقة ان تروع مسافرتنا المسكينة وتقلق طمانينتها وتســلبها الثقة ، فتتبخر الأحداث التى سوف نرويها ها هنا . ولكن القدر تغير اتجاهه بحكم الصدفة التى شاءت لهذه المراة ان تكون الآن جالســة لا واقفة .

وروت المسافرة التعسة قصتها ، بشىء من التحوير .

قالت انها كانت عاملة ، وإن زوجها مات عنها ، وإنهــا لم تجد لها عملا فى باريس ، ولذا فهى ذاهبة للبحث عن عمل فى مكان آخر ، فى إقليمها الأصلى . وقالت ايضا انها غادرت باريس هذا الصباح ، سيرا على الاقدام ، ولأنها تحمل طفلتها



وراحت ترمقهما وقد تحركت مشاعرها .
فرؤية الملائكة ايذان بوجود الفردوس ..

شعرت بالتعب ، وقــابلت العربــة الذاهبــة إلى فلمومبل VILLEMOMBLE فركبتها وجاءت من فيلمومبل إلى مونفرمى سيرا على قدميها ، وأن الصغيرة مشت قليــلا ، ولكن ليس لمسافة طويلة ، فهى صغيرة جدا ، ولذا اضطرت لحملهــا ، وها هى الجوهرة الجميلة نائمة .

ولما قالت هــذه الكلمة طبعت على وجه الصغيرة قبلة حارة ايقظتها . ففتحت الطفلة عينيها ، فاذا عينان واسعتان زرقاوان مثل عينى الأم . ولكن إلام كانت تنظر ؟ لا شىء ، وكل شىء ! بتلك النظرة الجادة ، التى قد تكون صــارمة احيانا ، التى يتميز بها الأطفال الصغار ، وهى سر من أسرار براءتهم المضــيئة امام غسق فضــائلنا . حتى لكأن هؤلاء الأطفــال الصغار يشعرون بأنهم ملائكة أطهار وبأننا بشر . . ثم اخذت الطفلة تضحك ، ومع ان امها حاولت استبقاءها إلا انها نزلت إلى الأرض مدفوعة بطاقة الكائن الصغير الجارفة التى ترغب فى الجرى . وفجاة لمحت الطفلتين على ارجوحتهما ، فوقفت مبهوتة ، واخرجت لسانها . وهى عندها علامة إعجاب .

واسرعت الأم تنردييه تفك رباط طفلتيها ، وانزلتهما من الأرجوحة وقالت :

— العبن انتن الثلاثة .

وفى هذه المرحلة من العمر يحدث التقارب على الفور ، فبعد دقيقة واحدة كانت الطفلتان تنردييه تلعبــان مع القادمة الجديدة ، وتتســابق ثلاثتهن فى إحــداث ثقــوب فى الأرض باصابعهن الرخصة فى استمتاع عظيم . وكانت هــذه القادمة

الجديدة عظيمة المرح ، وطيبة الأم متجلية فى بهجة الطفلة . ووجدت على الأرض قطعــة صغيرة من الخشب فاتخذتهــا جاروفا حفرت به حفرة تتسع لذبابة !

وواصلت المراتان تجاذب الحديث :

— ما اسم صغيرتك ؟

— كوزيت COSETTE .

وكان هذا الاسم تحويرا للتدليل لاسمها الأصــلى وهو إيفرازى EUPHRASIE ولكن ذلك الاسم لم يكن يروق الأم ، لذا اطلقت عليها اسم كوزيت ، بحذاقة ولباقة بنات الشعب وذوقهن حين يحــولن اسم جوزيفــا JOSEFA إلى بيبيتــا PEPITA وفرنسواز إلى سييت SILLETTE بل انى اعرف جدة حورت اسم حفيدهــا من تيودور THEODORE بقدرة قادر إلى نيون GNON !

— وكم عمرها ؟

— فى عامها الثالث .

— مثل عمر ابنتى الكبرى .

وفى هذه الأثناء كانت الصغيرات الثلاث متجمعــات فى اوضاع تدل على القلق العميق والغبطة فى الوقت نفسه ، فقد حدث شىء خارق : برزت من جوف الأرض دودة غليظــة من دود الطين ، فخفن ، ولكنهن كن فى حالة نشوة فى الوقت نفسه .

وتلامست جباههن المشرقــة ، لكأنهن ثلاثة رءوس من حولها هالة . وصاحت الأم تنردييه حين رات هذا المنظر :

— الأطفال سرعان ما يتعارفون ! ها هن يكاد يقسم من يراهن انهن ثلاث اخوات !

فكانت هذه الكلمة الشرارة التى لعل الأم الأخرى كانت تنتظرها ، فتناولت يد مدام تنردييه ، وحدقت فى وجهها بنظرة متوسلة وقالت :

— هل لك ان تحتفظى لى بابنتى ؟

فندت عن مدام تنردييه حركة تنبىء عن الدهشة من غير ان تعنى قبولا او رفضا .

وواصلت ام كوزيت كلامها :

— المسألة كما ترين انى لا استطيع ان آخذ معى ابنتى إلى بلدى . فالعمل لا يسمح بهذا . والمرأة التى لديها طفل لا تجد من يلحقها بعمل . والناس غريبو الأطوار فى ذلك الإقليم . والله الكريم العليم هو الذى جعلنى امر الآن امام نزلك هذا . ولما رايتك وابنتيك بكل هذا الجمال والنظافة والنعمة ، اضطربت نفسى . وقلت فى سريرتى : ها هى ذى ام طيبة صالحة ! والأمر كما قلت انت : سيكن ثلاث اخوات . ثم اننى لن البث طويلا حتى اعود . فهلا احتفظت لى بابنتى ؟

فقالت مدام تنردييه :

— سنرى ... ونتدبر الأمر ، إن كان ممكنا .

— سأعطيك ستة فرنكات فى الشهر .

وعندئذ صاح صوت رجل من داخل المطعم الحقير :

— لا اقل من سبعة فرنكات . وستة اشهر تدفع مقدما .

وقالت مدام تنردييه :

— ستة فى سبعة تساوى اثنين واربعين .

فقالت الأم :

— سأدفعها !

فقال صوت الرجل :

— وخمسة عشر فرنكا للمصروفات والنفقات المبدئية .

وقالت زوجته :

— المجموع سبعة وخمسون فرنكا .

وراحت تدندن من جديد :

« شىء لابد منه . قال المحارب .. »

وقالت الأم :

— سأدفعها الآن ، معى ثمانون فرنكا . وسيبقى لى ما يكفينى للذهاب إلى بلدى . وسأذهب سيرا على القدمين.. وهناك سأكسب مالا ، ومتى توفر لى منه شىء عدت لآخذ حبيبتى .

فقال صوت الرجل من الداخل :

— هل للصغيرة ما يكفى من الثياب والحوائج ؟

وقالت مدام تنردييه :

— هذا زوجى .

— طبعا لديها جهاز كامل، هذه اللؤلؤة العزيزة المسكينة. لقد ادركت منذ البداية انه زوجك . وجهازها هذا من احسن ما يكون . جهاز غير معقول ، كل شىء فيه بالدستة ، واثوابها من الحرير مثل بنات الطبقة الراقية . وجهازها هنا فى حقيبتى.

فقال صوت الرجل :

— يجب تسليمه !

فقالت الأم :

ــ طبعا سأسلمه ! أتظنان أنى يمكن أن أترك ابنتى مارية ؟

فظهر وجه رب المطعم عند الباب ، وقال :

ــ هذا حسن !

وتمت الصفقة . وقضت الأم الليلة فى النزل ، وسلمت نقودها ، وتركت طفلتها ، وعقدت رباط حقيبتها التى كانت منتفخة بجهاز الصغيرة وصارت الآن شبه خاوية ، ورحلت منذ الصباح الباكر ، وفى نيتها أن تعود سريعا . ومثل هذا الفراق يتم بسرعة ، ولكنه محفوف دائما بالأسى واليأس .

وقابلت إحدى جارات آل تنردييه تلك الأم وهى راحلة ، وعادت تقول :

ــ لقد رأيت امرأة تبكى فى الشارع ، فتمزق لها قلبى .

ولما رحلت والدة كوزيت قال الرجل لامرأته :

ــ هذا المبلغ سيفى بالكمبيالة المستحقة غدا وقيمتها ١١٠ فرنكات . فقد كانت تنقصنى خمسون فرنكا . أتدرين أن المحضر كان سيحضر غدا ؟ لقد صنعت معجزة أنت والطفلتان ...

فقالت المرأة

ــ من غير قصد ...

الفصل الثانى

صورة تخطيطية لشخصيتين مشبوهتين

لقد كانت الفأرة المقتنصة هزيلة جدا ، ولكن القط ابتهج بحصوله ولو على فأرة هزيلة .

ومن هما الزوجان تنردييه ؟

لنقل الآن عنهما كلمة وجيزة ، ثم نتم الصورة فيما بعد .

فهذان الشخصان ينتميان إلى تلك الفئة الهجين التى تتكون من أناس أجلاف ارتقوا ومن أناس أذكياء انحدروا . فهى فئة تكاد تكون طبقة تقع فى المنطقة الوسطى بين الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا ، وتجتمع لها مساوىء ورذائل هذه الطبقة وتلك معا ، من غير أن تكون لها شهامة العامل أو الصانع ولا أمانه البرجوازى .

كانت طبيعتهما من تلك الطبائع القزمة ، التى إذا اتقدت غرائزها غدت مخلوقات متوحشة مسعورة . ففى تلك المرأة فظاظة وحشية ، وفى ذلك الرجل خسة ونذالة . وكلاهما كانا يجدان لذة فى التوغل فى الشر ، ويحسبان ذلك سبيل التقدم ، ففى الناس أنماط بشرية لا تطيق النور ، وتتقهقر دوما نحو دياجير الظلمات ، وينكصون على أعقابهم وهم يخالون أنهم ماضون إلى الأمام قدما . ويستخدمون ما يتجمع لهم من الخبرات فى زيادة تشويه نفوسهم ، وصبغ ضمائرهم

بمزيد من السواد . وكان هذا الرجل وكانت هــذه المرأة من ذلك القبيل من النفوس الممسوخة .

وكان الرجل تنردييه على الخصــوص محيرا لعلماء الفراسة . ومن الرجــال من يكفى ان يقع بصرك عليهم لأول وهلة كى تتوجس منهم شرا وتنفر منهم ، لأن المرء يشعر انهم ينضحون بالظلمة من كيانهم كله . فهم مصدر قلق إذا غابوا ، ومصدر خطر إذا حضروا . ففيهم عنصر مجهول . ولا يستطيع المرء ان يضمن ماذا فعلـوا سابقا ولا ما عســاهم يفعلــون غدا . وما يبدو فى نظراتهم من العتمة يفضــح سرائرهم . ويكفى ان يسمعهم المــرء يقولون كلمة او ان يراهم يومئون بإشارة حتى يحس ان فى اعماقهم اسرارا خفية تكتنف ماضيهم وتحف بمستقبلهم .

وتنردييه هذا كان جنديا فيما مضى، ويقول إنه كان رقيبا (جاويشــا) . ولعله خاض معارك حملة سنة ١٨١٥ ، ولعله ايضــا أبــدى فيهــا شــجاعة وبســالة ، فيما يبــدو . وسنرى فيما بعد ماذا كان من أمره فيها ، ولافتة حانته كانت إشارة إلى موقف من مواقفه فى الحرب ، وهو الذى رسمها ، لأنه كان يعرف طرفا من كل صنعة ، ولكن بلا إتقان .

وكانت هذه هى الفترة التى شاعت فيها حكاية كلاسيكية عن فتاة كان اسمها كليلى CLELIE ثم صار اسمها لودويسكا LODOISKA ولكنها من اصل نبيل ، إلا أنهــا انحدرت إلى مستوى الســوقة رويدا رويدا ، فانحدرت وبعــد ان كانت

الآنسة دى سكيديرى SCUDERY صــارت مــدام بورنون ــ ملارم BOURNON-MALARM ، ومن مدام دى لافاييت LAFAYETTE صـــــارت مـــــدام برتلمى آدو BARTHELAMY-HADOT . وهذه القصـــة الشــعبية الهبت مشـــاعر البوابات العاشـــقات فى باريس ، بل واجتاحت ضواحيها وارباضها ايضا . وكانت مدام تنردييه من الذكاء بحيث تقرا هذا النوع من الكتب . وكانت غذاء روحها . وفى بحارها اغرقت ما كان لهــا من عقل ، وقد اضفى هــذا عليها منذ يفاعتها ، بل وبعد ذلك ايضا بقليل سيما الشرود فى الفكر بالقياس إلى زوجها الذى كان وغدا فيــه لؤم ومكر ، ووبشــا وصل فى تعليمه إلى المرحلة الأولية ، فهو فظ غليظ وداهية خبيث فى الوقت نفسه، وفيه مع هذا نوع من العاطفية المبتذلة نماها بقراءة مبتذلة ، وفيما يتصل بكل امور الجنس ــ كما كان يقول ــ كان مغوارا فيه بهيمية سافرة غير مشوبة. وكانت زوجته أصغر منه بنحو اثنى عشر عاما أو خمسة عشر عاما وعندما بدات بوادر الشيب تدب إلى شعرها ، تقلصت شاعريتها أو رومانسيتها السوقية ، وزادت نزعة الشر لديها وقد تذوقت من قبل تلك الأقاصيص البلهاء . والقراءات المبتذلة لا تترك قارئها بلا عقاب ، لأنها تشوه نفسيته . ومن آثار هذه القراءات ما اختارته لبنتيها من الأسماء . فالكبرى اسمها إيونين EPONINE والصغرى المسكينة كان لا بد لهــا ان تحمل اسم جلنار GULNARE ، ولولا لطف القدر لأوحت إلى امها قراءة قصة لديكراى ــ ديمينيل DUCRAY-DUMINIL أن تسميها ازلما AZELMA !

ولكن ليس كل ما يتعلق بأسماء هـذه الفترة مضحكا ، وهى فترة تستحق أن تسمى فترة فوضى أسماء العماد . فإلى جانب التأثير العاطفى الشعبى ، لتلك الأقاصيص المبتذلة ، كان هناك أيضا اعراض الظواهر الاجتماعية . فلا غرابـة فى أن نجد اليوم صبيا يرعى الأبقـار او صبيى كلاف اسمه رنير ARTHUR او الفريد ، او الفونس. وأن نرى فيكونتا — إن كان قد بقى فيكونتات فى زماننا — اسمه توما او بيير أو جاك . وهذا خلط يطلق أسـماء النبـلاء على ابناء العامة ، ويلصق أسماء الريفيين بابناء الطبقة العليا . وهـذا كله من تأثير المساواة . فرياح المبادىء الجديدة قد هبت فى هذا المجال كما هبت على كل مكان وكل شىء . ووراء هذا كله لا يوجد إلا سبب واحد عظيم وعميق ، وهذا السـبب هو الثـورة الفرنسية .

الفصل الثالث

القبـــرة

لا يكفى ان يكون المرء شريرا كى يزدهر . فالمطعم الحقير كانت حالته سيئة وتجارته خاسرة .

وبفضل السبعة والخمسين فرنكا التى دفعتها المسافرة ، تمكن تنردييه من تجنب الإفلاس والوفـاء بديونه الممهورة بتوقيعه . ولكن فى الشهر التالى إحتاجوا ايضـا إلى نقود . فحملت المرأة « جهـاز » كوزيت إلى باريس ورهنته فى مكتب الرهون مقابل مبلغ ستين فرنكا . وبمجرد إنفاق هـذا المبلغ كان الزوجان تنردييه قد اعتادا الا يريا فى البنت الصـغيرة إلا طفلة يحتفظان بها على سبيل الصـدقة ، وعاملاها على هذا الأساس . ولما لم يعد هناك جهاز ثياب كوزيت ، فقـد البساها الثياب القديمة التى رثت على جسـدى طفلتيهما ، فغدت اسمالا بالية . وكان طعـام هـذه الصغيرة من بقايا طعام رواد المطعم ، فهو طعام أفضل قليلا مما ياكله الكلب ، واسوا قليلا مما ياكله القط . وكانت كوزيت تاكل مع الكلب والقط تحت المائدة من صحفة من الخشب مماثلة لصحفتيهما .

اما امها — فانتين — فانها ، كما سنرى فيمـا بعـد ، استقرت فى مدينة « م » (مسقط رأسها) . وكانت تكتب ، أو بالأصح تستكتب كل شهر الكاتب العمومى رسالة تسأل فيها

عن اخبار طفلتها . وكان آل تنردييه يردون عليها دائما بأن كوزيت فى أحسن حال .

ولما انتهت الشهور الستة أرسلت الام سبعة فرنكات لنفقات الشهر السابع ، واستمرت على هذا الحال محافظة بدقة على إرسال النقود شهرا وراء شهر . ولم تكد السنة تنقضى حتى قال تنردييه فى تذمر وجشع :

— ما هـذا الذى ترسله إلينا ؟ اتظنهـا نعمة جزيلة فرنكاتها السبعة هذه ؟ ما تظننا نصنع بها ؟

وكتب إلى فانتين يطالب بوجوب زيادة النفقة الشهرية إلى اثنى عشر فرنكا . ولما كانت رسائله قد ادخلت فى روع الأم ان ابنتها بخير حال وأحسن مآل وتعيش سعيدة منعمة ، تحاملت على نفسها وارسلت الفرنكات الاثنى عشر .

وبعض الطبائع لا تستطيع أن تحب من جانب من غير أن تكره من جانب آخر . فالأم تنردييه كانت تحب ابنتيها هى حبا شديدا ، مما جعلها تمقت الطفلة الغريبة . ومن المحزن أن نتصور كيف يمكن لحب الأمومة ـ عند هذه الأم ومثيلاتها ـ أن تكون له جوانب شريرة . فمهما كان الموضع الذى تحتله كوزيت فى بيتها ضئيلا ، فهى تراه منتزعا من ابنتيهـا ، حتى أنها كانت تحس كأن هذه الصغيرة تنتقص من الهواء الذى تتنفسه ابنتاها . فتلك المرأة — مثل كثيرات على شاكلتها — كانت لديهـا كميـة محددة من الملاطفات وكميـة محددة من الضربات واللعنات ، عليهـا أن تنفقهـا فى كل يوم . فلو لم

تكن لديها كوزيت المسكينة الغريبـة لكانت ابنتاها — رغم ما تكنه لهما من حب العبـادة — هما اللتان تنصب عليهمـا النعمة والنقمة معا . ولكن وجود هذه الغريبة أفادهما لأنها اختصت من دونهما بالضربـات واللعنات ، فلم يبق للأختين من لدن أمهما إلا الملاطفة والمداعبة والتدليل. فلم تكن كوزيت تأتى بحركة إلا وانصبت على رأسـها عاصفة من العقوبات العنيفة التى لا تستحقها. فالمخلوقة الصغيرة الضعيفة العذبة المعذبة لم تكن تدرى شيئا عن العالم ولا عن الله ، ولكنهـا تجد نفسها دوما فريسة عقاب أو تقريع أو سـباب ، وهى ترى إلى جانبها كائنين صغيرين مثلها تعيشان باستمرار فى شعاع من الفجر وردى اللون !

كانت مدام تنردييه شريرة مع كوزيت . وكذلك صارت ابنتاها إيونين وازلما شريرتين ايضا مع كوزيت . فالأطفال فى هذه السن لا يكونون إلا نسخا طبق الأصـل من الأم ، ولكن فى حجم مصغر ، وهذا كل الفرق .

ومضى عام ، ثم عام آخر . . .

وكان القول يتردد على الألسنة فى القرية :

— آل تنردييه هؤلاء قوم فيهم شهامة وأريحية . فهم ليسـوا اغنياء ، إلا انهم يربون طفلة فقيرة هجرتها امهـا وتركتها عندهم !

فقد كانوا يحسبون كوزيت صارت نسيا منسيا عنـد امها .

ومع هذا كان تنرديبه قد عرف — لا ندرى من أى مصدر غامض — أن الطفلة ربما كانت غير شرعية ، وأن الأم لهذا السبب لا تستطيع الاعتراف بها . ولذا رفع الإتاوة إلى خمسة عشر فرنكا ، وقال فى تبرير ذلك إن الصغيرة « كبرت » وصارت وجبتها أكبر من ذى قبل ، وهدد بطردها أو إرسالها إليها . وأخذ يصيح :

— يجب ألا تثير غضبى ، وإلا ألقيت إليها بطفلتها كالقنبلة وسط ستار التكتم الذى تحيط به نفسها هناك . لا بد لى من « علاوة » .

وأخذت الأم تدفع الخمسة عشر فرنكا كل شهر .

وسنة فى إثر سنة كانت البنت تكبر ، وتكبر معها تعاستها أيضا .

وكانت كوزيت فى السنتين الأوليين كبش (أو نعجة) الفداء للشقيقتين فى كل أنواع العذاب والجوع والمذلة ، ولكنها ما إن كبرت قليلا ، أى ناهزت السنوات الخمس من عمرها ، حتى صارت خادمة المحل .

وقد يقول القارىء إن هذه السن غير معقولة للخدمة . وهذا للأسف صحيح ! ولكن الشقاء الاجتماعى يبدأ فى كل سن . ألم نقرأ منذ قليل عن قضية المدعو ديمولار DUMOLLARD الذى تربى يتيما وصار قاطع طريق ، وتقول الوثائق الرسمية إنه منذ الخامسة من عمره « كان وحيدا فى هذا العالم تماما وعمل لكى يعيش ، وسرق » .

كانت كوزيت فى هذه السن الغضة تكلف بقضاء الحاجات من الخارج ، وكنس الحجرات ، والفناء ، والشارع ، وغسل الأوانى ، بل وحمل بعض الأثقال . وكان الزوجان تنرديبه يظنان أن لهما الحق كل الحق فى هذا ما دامت الأم لم تزل مقيمة فى « م » ، وبدأت تقصر فى دفع الإتاوة أحيانا ، وكان هذا التقصير يطول أحيانا بضعة شهور .

ولو أن هذه الأم عادت إلى مونفرمى بعد تلك السنوات الثلاث ، لما تسنى لها أن تعرف ابنتها . فكوزيت التى كانت آية فى الجمال والنضرة عند قدومها إلى هذه الدار ، صارت الآن هزيلة شاحبة . وعليها دائما سيما القلق ، مما جعل الزوجين تنرديبه يقولان عنها إنها ماكرة لئيمة !

وكان الجور قد جعلها شكسة ، وكانت التعاسة والمسغبة قد جعلتاها قبيحة . فلم يبق لها من آيات جمالها السابق إلا عيناها الجميلتان ، اللتان صارتا مؤلمتين ، لأن اتساعهما بهذه الصورة يتيح للناظر إليهما أن يطالع فيهما كمية أكبر من الحزن ...

وكان شيئا يدعو للأسى ويثير النفس أن ترى فى الشتاء هذه الطفلة المسكينة ، التى لم تتم بعد عامها السادس ، ترتجف تحت أسمالها العتيقة البالية من التيل الحافل بالثقوب ، وهى منصرفة إلى كنس الشارع قبل بزوغ النهار بمكنسة ضخمة فى يديها الصغيرتين الحمراوين ، ودمعة تترقرق فى عينيها الواسعتين .

وفى تلك القرية كانــوا يســمونها القبــرة . فالعامة مولعون بالصور والتشبيهات ، لذا أطلق الناس عليها هــذا الاسم ، فهذه المسكينة الهزيلة لم يكن حجمها أكبر من حجم عصفور ، وهى ترتجف متداعية مرتعشة الاوصال ، وتنهض مبكرة كل صباح قبل ســائر من فى الدار ، بل قبل كل من فى القرية ، ويراها الناس دائما فى الشارع أو فى الحقول قبــل الفجر . أفلا تستحق إذن اسم القبرة ؟

وكل ما هناك ان قبرتنا المســكينة لم تكن تغرد أبدا .



كانت كوزيت فى هذه السن الغضة تكلف بقضاء الحاجات من الخارج ، وكنس الحجرات ، والفناء ، والشارع ..

الكتاب الخامس

الانحـــــدار

الفصل الأول

قصة تقدم فى صناعة الخرز الأسود

وهذه الأم التى قال عنها أهالى مونفرمى إنها — فيمـا يبدو — هجرت بنتها الطفلة وتخلت عنها ، ماذا جرى لها ؟ واين هى ؟ وماذا كانت تصنع ؟

بعد أن تركت كوزيت الصغيرة وديعة بالأجر لدى آل تنردييه . واصلت طريقها ووصلت إلى مدينة « م » (مسقط راسها القديم) .

وكان هذا — كما ذكرنا — فى سنة ١٨١٨

وكانت فانتين قد غادرت إقليمها منذ اثنى عشر عاما ، تغيرت فيها مدينة « م » من وجوه كثيرة . فبينما كانت فانتين تنحدر وتهبط درجات التعاسة بعيدا عنها ، كانت المدينـة مسقط راسها تزدهر وتكبر .

ومنذ عامين حدث فيها حدث صناعى فذ ؛ يعـد علامة بارزة فى حياة بلدان الأقاليم الصغيرة .

ولما كان هــذا الحدث هاما ، لذا نحب أن نتعرض له بالتفصيل ، كى نبرز اهميته فى قصتنا . فمنذ أزمان لا تعيها الذاكرة كانت بلدة « م » هــذه متخصصــة فى صناعة تقليد الخرز الاسود الذى كانت المانيا مشهورة به . وظلت هــذه

الصناعة الصغيرة خاملة بسبب غـلاء ثمن المواد الأولية ، غلاء ينعكس على بخس أجور اليد العاملة فيها . وفى وقت عودة فانتين إلى « م » تم تحـول غير منتظر فى إنتاج هـذه « المواد السوداء » . ففى أواخر سنة ١٨١٥ جاء للاقامة فى المدينـة رجل غـريب مجهول ، وعنت له فكرة اسـتخدام الجمالكة بدلا من الراتنج فى صنع اسـاور الخرز الاسـود بصفة خاصة ، وما إليها من حلى النساء الرخيصة المصنوعة من هذا النوع من الخرز ، فكان ذلك نقطـة تحول باهرة فى هذه الصناعة المحلية الخاملة ، لأن هذا الابتكار خفض ثمن المواد الأولية كثيرا جدا ، مما اتاح قبل كل شيء رفع اجـور العاملات والعاملين فيها . وفى هذا مصلحة عامة للسكان . كما اتاح تحسين الصـناعة نفسها ، وفى هـذا مصـلحة للمستهلكين ، وسمح للمنتج ببيع سلعته المحسنة بثمن ارخص فى الوقت الذى تضاعف فيه ربحه ثلاث مـرات ودفع به إلى ذرى الثراء بخطى واسعة .

وهكذا نتجت عن هذه الفكرة الواحدة الصائبة ثلاث نتائج جزيلة النفع .

وفى اقل من ثلاث سنوات صار صاحب هذا الابتكار رجلا ثريا . وهـذا حسن . واصبح كل المحيطين به ارغد عيشا ، وهذا احسن ! وكان غريبا عن الإقليم (المحافظة) ولم يكن احد يعرف شيئا عن اصله . ولم يكن احد يعرف الكثير عن بداياته فى الحياة .

وتردد على الالسـنة انه جاء إلى المدينـة ومعه مبلغ

ضئيل جدا من المال ، بضع مئـات قليلة من الفرنكات على الأكثر . وقد وظف هذا الرأسمال الضـئيل فى خدمة وتنفيذ فكرة بارعـة مبتكرة ، ورعاهـا بالمثابرة والروية وحسن التدبير ، وهكذا استخرج من ثمراتهـا ثروته وثروة هـذه البلدة كلها .

فعند وصوله إلى « م » لم يكن يملك إلا ما عليـه من ثياب ، وسـحنة عامل ، وكذلك لغته ولهجته وطريقته فى التعامل . ويبدو انه فى نفس يوم وصوله إلى « م » فى هدوء غير ملحوظ ، قرب حلول الليل فى شهر ديسمبر ، وكيسـه فوق ظهره وعصاه الغليظة المعقدة كالهراوة فى يده ، شب حريق كبير فى دار كبيرة للمسـاكن الحكومية ، فاذا بهـذا الرجل يلقى بنفسه وسط النيران ويعرض حياته للخطر لينقذ طفلين اتضح أنهما طفلا رئيس الشرطة . وترتب على هـذا العمل البطولى الباهر ان احدا لم يفـكر من أولى الأمر ان يسأله عن جواز مروره . ومنذ ذلك اليوم عرف الجميع اسمه. كان اسمه « الاب مادلين » ! MADELEINE .

الفصل الثانى

مادلين

كان رجلا فى نحو الخمسين من عمره ، يبدو عليه انشغال البال ، وتبدو عليه الطيبة . هذا كل ما أمكن قوله عنه .

وبفضل التحسينات السريعة فى هذه الصناعة التى أجاد مادلين ابتكارها ، صارت مدينة « م » مركزا هاما للأعمال . فاسبانيا التى تستهلك كمية هائلة من الخرز الأسود ، صارت تشترى كل عام منها مقادير هائلة . وصارت مدينة « م » من هذه الناحية التجارية تكاد تنافس لندن وبرلين، وكانت أرباح الأب مادلين من الضخامة بحيث إنه منذ السنة الثانية استطاع أن يشيد مصنعا كبيرا فيه ورشتان كبيرتان . إحداها للرجال والأخرى للنساء . وكل من شعر الجوع ما عليه إلا أنه يتوجه إلى هناك ، واثقا بانه سيجد حتما الخبز والعمل . وكان الأب مادلين يطلب من الرجال الارادة الطيبة ، ومن النساء حسن السير والسلوك ، ويطلب من الجميع الأمانة . وكان قد قسم الورش للفصل بين الجنسين ولكى يحافظ على رزانة النساء والفتيات من نزغات الطيش من مخالطة الرجال . وكان فى هذه الجزئية لا يعرف الهوادة . ولعل هذه المسألة هى التى لم يكن يتساهل فيها . وقد زاد من تشدده فى ذلك أن مدينة « م » بها معسكر للقوات المسلحة ، ولذا كانت فرص الفساد والفسوق فيها كثيرة . ومن هذه الجهة كان قدوم الأب مادلين

إلى المدينة خيرا وبركة ، وكأنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ أهلها من الفاقة وسوء الحال واللذين كانت المدينة ترزح تحتهما سنين طويلة ، وهما معوان على التبذل والفساد . أما وقد تحسنت الأحوال ، ولم يعد أحد يشكو الحاجة ، فقد صينت الأعراض وبدأت المدينة تعيش حياة العمل السوية ، التى تدور فيها الدماء فى الكيان الاجتماعى دورة صحيحة تقضى على الوهن والعلل . فقد اختفت البطالة والعوز . فلم يعد هناك جيب مهما كان مغمورا لا تجد فيها شيئا من النقود ، ولا مسكنا مهما كان فقيرا لا تجد فيه شيئا من البهجة .

كان الأب مادلين يستخدم الجميع ، ولم يكن يشترط عليهم جميعا إلا شرطا واحدا :

ــ كن رجلا شريفا ! كونى فتاة شريفة !

وكما قلنا آنفا ، وسط هذا النشاط الذى كان هو سببه ومحركه ، تراكمت ثروة الأب مادلين . ولكن ــ وهذا شىء جد غريب فى رجل تجارة بسيط ــ لم يكن يبدو عليه أن هذا كان همه الأكبر . بل كان يبدو عليه أنه شديد الاهتمام بالآخرين ، قليل الاهتمام بنفسه . وفى سنة ١٨٢٠ كان المعروف عنه أنه يملك ستمائة وثلاثين ألف فرنك مودعة باسمه لدى لافيت LAFFITTE . ولكنه قبل أن يحتجز لنفسه هذه الستمائة وثلاثين ألفا من الفرنكات كان قد أنفق أكثر من مليون لإصلاح المدينة وتحسين حال الفقراء .

ولما وجد المستشفى قليل المعدات ، جهزه وأمده بعشرة أسرة جديدة . وكانت « م » مقسمة إلى مدينة عليا وأخرى

دنيا ، والمدينة الدنيا حيث كان يقيم لم تكن فيها إلا مدرسة واحدة ، عبارة عن كوخ تعس متداعى البنيان ، فشيد مدرستين ، إحداهما للبنات والأخرى للبنين . وخصص من جيبه الخاص للمعلمين اللذين يقومان بالتدريس فيهما ضعف مرتبهما الرسمى الهزيل . وذات يوم قال لشخص ابدى دهشته لذلك :

— ان اول واهم موظفين فى الدولة هما المرضع ومعلم المدرسة !

كما انشأ على نفقته الخاصة ملجأ ، وهذا شىء يكاد يكون غير مسبوق يومئذ فى فرنسا ، وانشأ صندوقا لإعانة العمال المسنين والعجزة .

ولما كان مصنعه مركزا لحى جديد كان فيه عدد كبير من الأسر المحتاجة التى سرعان ما تكاثرت من حوله ، لذا انشأ صيدلية مجانية ايضا .

وفى الأيام الأولى من بداية نشاطه هناك ، قال الناس:

— هذا شخص يريد ان يثرى .

ولما راوه يثرى البلد قبل ان يثرى هو ، قالوا :

— هذا رجل طموح !

وخالط هذا الظن لديهم ظن آخر بانه رجل متدين ، ولا سيما انه كان يمارس طقوس الدين وشعائره فى حدود معينة . وذلك كان شيئا يراه الناس فى ذلك الحين امرا مرغوبا فيه . فقد كان يذهب كل يوم احد لحضور القداس فى

الساعة السابعة . ولكن نائب تلك الدائرة ، الذى كان يتشمم المنافسة حيثما كانت بدأ ينظر إلى هذا التدين بعين القلق والارتياب. وكان هذا النائب عضوا فى الهيئة التشريعية فى عهد الإمبراطورية ، وكان يرى فى التدين مثل راى ولى نعمته الذى كان قسيسا قبل الثورة ثم صار فى عهدها مشهورا باسم فوشيه ، FOUCHE وتقلد رئاسة الشرطة ووزارة الداخلية على ايام الإمبراطور وصار اسمه دوق اوترانت OTRANTE ولذا كان فى خلواته مع خاصته يسخر من فكرة الله . فلما راى صاحب المصنع الثرى يذهب فى السابعة من صباح يوم الأحد إلى الكنيسة لسماع القداس الإلهى ، توسم فيه منافسا محتملا ، وقرر ان يتفوق عليه هذا المضمار ، فاتخذ له « قس اعتراف » من الجزويت ، وصار يحضر القداس الكبير وقداس المساء ايضا ! فالطموح فى تلك العهد كان يتجلى فى السباق نحو برج الكنيسة ! وقد استفاد الفقراء من هذه المنافسة وهذا الفزع اكثر مما استفاد الرب ، لأن النائب انشأ فى المستشفى ايضا سريرين باسمه ، بالإضافة إلى العشرة التى سبقه إلى إنشائها مادلين ، فصار المجموع اثنى عشر سريرا مجانيا .

ولكن فى سنة ١٨١٩ انتشرت الشائعة ذات صباح فى المدينة أن المحافظ بناء على الخدمات التى اداها المسيو مادلين للإقليم ، قد التمس من جلالة الملك تعيينه عمدة للمدينة . فتلقف من ظنوا به انه طموح هذه الشائعة وتصايحوا :

— ارايتم ؟ او لم نقل لكم ؟

ولم تكن هذه الشائعة بلا اساس ، فبعد بضعة ايام

نشرت صحيفة المونيتير MONITEUR نبأ هــذا التعيين . ولكن فى اليوم التالى رفضه الأب مادلين !

وفى نفس هذه السنة ١٨١٩ ظهرت الطريقــة الجديدة التى ابتكرها مادلين فى المعرض الصناعى ، وبناء على تقرير لجنة التحكيم انعم جــلالة الملك على المخترع بوســـام فيلق الشرف من طبقة فارس . وعندئذ تصايح هؤلاء :

ــ هذا هو الوسام الذى كان يصبو إليه !

ولكن الأب مادلين رفض الوسام ايضا !

وقال الناس ان هــذا الرجل لغــز غامض . وقــال الحاسدون :

ــ إنه على كل حال رجل مغامر !

وواضـــح ان الإقليم كان مدينا له بالشىء الكثير ، وان الفقراء كانوا مدينين له بكل شىء . وكان نفعه عميما بحيث انتهى بالناس الأمر إلى احترامه وإجلاله . وكان دمثا فانتهى بهم الحال إلى حبه . وكان عماله على الخصوص يحبونه حب العبادة ، فى وقار وتوقير .

ولما تأكد للناس ثراءه ، صار « اقطاب المجتمع الراقى » يحيونه ، وصار اهل المدينة يقولون عنه « المسيو مادلين » ، لا « الأب مادلين » . اما العمال والأطفال فاستمروا يلقبونه « الأب مادلين » ولا يعدلون بهذا اللقب شيئا . وكان هــو يبتسم لسماع ذلك قرير العين .

ولما ارتفع نجمه انهمرت عليه الدعوات إلى الحفــلات والصالونات التى كانت فى البداية موصدة الأبــواب فى وجه الصانع ، انفتحت ابوابها على مصراعيها للمليونير ! وعبثـا تقربوا منه ، لانه رفض جميع هذه الدعوات .

ولم تجد السنة السوء تعليلا لموقفه ، فقالوا :

ــ هذا رجل جاهل لم ينل حظا من التعليم أو التربيــة الحسنة ، ولا يدرى احــد من اين جاء . وهو يعلم انه لن يحسن السلوك فى الأوساط الراقية . وليس من الثابت انه يعرف القراءة ...

ولما راوه يربح الأموال الطائلة . كانوا قد قالوا عنه :

ــ هذا طبيعى . إن هو إلا تاجر !

ولما راوه ينفق أمواله وينذرها فى اعمال الخير ، كانوا قد قالوا :

ــ إن هذا إلا طموح !

ولما راوه يرفض المناصب والأوسمه ، كانوا قد قالوا :

ــ إن هو إلا مغامر أفاق !

ولما راوه يرفض ارتياد المجتمع الراقى ، قالوا :

ــ إن هو إلا جلف !

وفى سنة ١٨٢٠ ، بعد وصوله إلى مدينة « م » ، كانت خدماته العامة قد غدت باهرة مجلجلة الدوى ، واجمعت رغبة

الناس على اختلافهم على تزكيته ، بحيث عينـــه جلالة الملك عمدة للمدينة مرة أخرى . ورفض ايضا . ولكن محافظ الإقليم أصر فى هذه المرة على مقاومة رفضـــه ، وجاء كل الأعيـــان والوجهاء يرجونه ان يقبل المسئولية الجديدة . بل إن أفراد الشعب صـــاروا يلقونه فى عرض الطـــريق ويلحـــون عليه ويتوسلون إليه . وامام هذا الالحاح الشـــديد لم يجد بدا من القبول فى النهاية .

ولوحظ ان ما حفـــزه إلى الرضـــوخ كان على الأخص تبكيت وجهته إليـــه امراة عجوز من نساء عامة الشـــعب ، صاحت به فى غضب من فوق عتبة بابها وهو مار به :

— العمدة الصالح نافع للناس . فكيف يجوز لإنســـان صالح ان ينكص امام خير ونفع يمكن ان يؤديهما للناس ؟

وكانت هذه هى المرحلة الثالثة فى مراقى صـــعوده . فصار الأب مادلين المسيو مادلين ، والمســـيو مادلين صـــار سيادة العمدة !

الفصل الثالث

مبالغ مودعة عند لافيت

وفيما عدا هـــذا ظل بسيطا فى كل شيء كما كان فى اول يوم . وكان شعره اشيب ، وعيناه جادتين ، وبشرته مسفوعة كالعمال ، ووجهه متفكر كالفلاســـفة . وكان يلبس فى العادة قبعة عريضة الطنف ، وبدلة ردنجوت من الصوف الغليظ مزررة حتى العنق . ويمارس عمله كعمدة ، ولكن فيمـــا عدا هذا كان يعيش وحيدا فى عزلة . فهو لا يتحدث إلا مع قلة من الناس . ويتجنب المجاملات ، ويحيى الناس تحيـــة جانبية ، ويبتسم ليتحاشى الكلام ، ويجود بماله ليتحاشى الابتسام . وكانت النساء تقلن عنه :

— يا له من دب طيب !

ولذته الوحيدة التنزه سيرا على الأقدام فى الحقول .

وكان يتناول وجبات طعامه دائما بمفرده ، وأمامه كتاب مفتوح يقرأ فيه . فلديه مكتبة حسنة . يحب الكتب ، لأن الكتب أصدقاء باردون مأمونون . ومع توفر وقت الفراغ لديه بعـــد ان أثرى ، بدا واضحا أنه استغله لتثقيف فكره . ومنذ حـــل بمدينة «م» لوحظ عليه ان لغته تزايد رقيها وتهذيبها وصقلها ، فصارت الفاظه عذبة منتقاة .

ومن عادته ان يحمل فى نزهاته الخلوية بندقية ، ولكنه

قلما كان يستخدمها . وإذا حدث منه هذا مصادفة كان تصويبه دقيقا مفزعا . ولم يقتل قط حيوانـا لا اذى منـــه ، ولا طائرا صغيرا .

ومع أنه لم يعد شابا ، إلا أنه تروى اقاصيص عن قوته الخارقة . وكان يمد يد المساعدة البدنية لمن يراه بحاجة إلى هــذا ، مثل إقامة حصـــان وقع على الأرض ، أو دفع عجلة مغروسة فى الطين ، أو إيقاف ثور هائج بالقبض على قرنيه .

وكان على الدوام يخرج ملىء الجيوب بقطع العملة ، ويعود دائما خالى الوفاض . وعندما يمر فى قرية كان الأطفال شبه العراة يجرون خلفه بفرح ويلتفون حــوله كأنهم سحابة من صغار البعوض .

والاعتقاد السائد ـ تخمينا ـ أنه عاش حياته قبل قدومه للمدينة بين الحقول ، فقد كان عليمـــا بأسرار شتى نافعة فى الزراعة كان يعلمها للفلاحين . ولا سيما فيما يتعلق بالقضاء على الحشائش الطفيلية التى تضر بمحصـــول القمح ، وفيما يتعلق بحماية الدواجن من القوارض ، وما أشبه هذا .

وكان الأطفال يحبونه أيضا لأنه كان يعرف كيف يصنع لعبا صغيرة من القش .

وعندما كان يرى باب إحدى الكنائس وعليـه شـــارة سوداء يدخل للعزاء . ويبحث عن أنباء الجنازات ليشـــارك فيها ، مثلما يبحث الآخرون عن حفـــلات العرس أو العماد . فالترمل والتعاسة كانا يجتذبانه لشدة عذوبة روحه ، لذا كان



وكان الأطفال يحبونه ايضا لأنه كان يعرف كيف يصنع لعبا صـــغيرة من القش ..

بخالط الأصدقاء المحزونين ومن يلبسون الحداد ، والأسر التى تلبس السواد ، والكهنة الملتفين حول تابوت . وكان يألف مطالعة المزامير التى تتحدث عن رؤى العالم الآخـر . وكان يصغى دائما وعينه مرفوعة صوب السماء فى خشـوع وشعور بالالهـام لكل ما يتعلق باسرار اللامتناهى ، ولتلك الأصـوات الحزينـة التى تترنم باهازيج وتراتيل على حافة هاوية الموت الغامضة .

كانت اعماله الخيرية كثيرة جدا ، يقوم بها متخفيا مثلما يتخفى من يصنع الشر ، وكان يتسلل خلسة فى الليل إلى البيوت ، ويصعد السلالم خلسة ايضا ، ويعود الساكن الفقير إلى بيته بعد ذلك بأخرة من الليل فيجد باب مسكنه مفتوحا ، وقد يجده مغتصبا احيانا ، ويصيح مستنجدا بالناس لأن لصـا قد دخل المسكن فى غيابه . حتى إذا ما دخل كان أول ما يقع عليه نظره قطعة من النقود الذهبيـة فوق منضدة أو ما إليها ، فيعـرف الجميع ان اللص الذى حضر إنما هو الأب مادلين !

كان دمثا وحزينا . فكان العامة يقولون :

ـــ هذا رجل غنى لا يبدو عليه الكبر او الزهو . هـذا رجل سعيد لا يبدو عليه الرضا !

وكان بعضهم يزعمون انه شخصية غامضة ويؤكدون انه ما من احد يدخل حجرته الخاصة ، وهى « قلاية » أشبه بالزنزانة بل انها اشبه بصومعة ناسك . وشـاع هذا القول على السنة الناس ، حتى أن بعض السـيدات الشـابات الأنيقات من مجتمع مدينة « م » جئن إليه ذات يوم وسألنه :

ـــ يا سيادة العمدة . أرنا حجرتك الخاصة . لانه قيل لنا أنها مغارة !

فابتسم ، وقادهن على الفور إلى هـذه « المغارة » ، فكان ذلك عقابا فوريا لهن على فضولهن . فهى حجرة مؤثثة اثاثا محترما بقطع من خشـب الأكاجـو ، ولكنه اثاث قبيح الشكل ككل أثاث مصنوع من هـذا النـوع من الخشـب . والجدران مغطاة بالورق . ولم يلاحظن فيها شيئا يلفت الأنظار اللهم إلا شمعدانين من طراز عتيق موضوعين فوق المدفأة ، ويبدو عليهمـا انهما مصنوعان من الفضـة ، لأنهمـا كانا مدموغين . وهى ملاحظة تنم على الذكاء فى المدن الصغيرة .

ومع هذا لم يكف الناس عن ترديد انها حجرة لا يدخلها احد ، وأنها مغارة ناسك ، أشبه بالجحر او المقبرة .

وكان الناس يتهامسـون ايضا بأنه يملك مبالغ « طائلة » مودعة لدى لافيت ، وأنها تحت طلبه فى أى لحظـة ، بحيث يستطيع المسيو مادلين ـــ كما قيل ـــ أن يحضر ذات صـباح إلى « لافيت » فيوقع إيصالا ويحمل مليونيه أو ملايينه الثلاثة وينصرف فى مدى عشر دقائق . وفى الواقع كانت هذه الملايين الثلاثة لا تزيد فى الحقيقة ـــ كما ذكرنـا آنفا ـــ على ستمائة وثلاثين او أربعين الف فرنك .

الفصل الرابع

المسيو مادلين يرتدى الحداد

فى مستهل سنة ١٨٢١ نشرت الصحف نبأ وفاة المسيو ميرييل ، اسقف « د » الملقب بسـيدنا بينفينى ، وكيف انه انتقل إلى الأمجاد السماوية بكل قداسة وهو فى سن الثانية والثمانين .

ونضيف هنـا تفصيلات اغفلتهـا الصحف ، وهى ان اسقف « د » عنـدما توفى كان قد اصيب بالعمى منـذ بضع سنين . وكانت اخته بجواره .

ونقول هنا بهذه المناسبة إن إصابة المرء بالعمى وحظوته بالحب يعدان من مصادر السعادة فى هذه الدنيا التى لا وجود فيها للكمال . فان تكون دائما إلى جوار المرء زوجـة او ابنة او اخت ، تجدها كلما احتجت إليها ، فهى هناك لانك بحاجة إليها ، ولانها هى ايضـا بحـاجة إليك ولا يمكن ان تستغنى عنك ، وتقوم لك بكل ما هو ضرورى لك ، وتقيس إعزازها لك بمقدار وجودها إلى جوارك ، فتقول فى نفسك :

ــ ما دامت تخصنى بكل وقتها ، فكل قلبها إذن مملوك لى .

لانك ترى فكرها بدلا من رؤية وجهها، وتتلمس باصابعك إخلاصها وسط دياجير هذا العالم ، وتسـمع حفيف ثوبهـا

وكأنه رفرفة اجنحة الملائكة . وكلما سمعت وقع خطاها وهى مقبلة او مدبرة ، او سمعت صـوتها وهى تتـكلم أو تغنىَ ، احسست انك موضوع هـذه الخطى ومحور هـذه الاقوال والنغمات . فتشعر عندئذ انك فى منتهى القوة مع انك فى منتهى العجز ، وانك وسط الظـلام الذى يحيط بك من كل جانب تحولت إلى نجم ساطع الضياء يدور فى فلكه هذا الملك الكريم. وما اقل مناعم الحياة التى تضارع هـذا الشـعور بالغبطة والهناء. لأنه شعور بانك محبوب لذاتك، لا لما يمكن ان تؤديه. وإنك محبوب رغم كل شىء ، بل ورغم إرادتك . وهذه نعمة كبرى لا يعرفها إلا الأعمى المحبوب . فكل خدمة تؤدى له فى محنته هذه فكأنها لمسة مداعبة او ملاطفة . فهل يعوزه بعـد ذلك شىء ؟ كلا ! فما فقـد النور من ملك الحب . واى حب ؟ حب كله فضل وفضيلة . ولا وجود للعمى حيث يوجد اليقين . فالروح تتلمس فى الظلام روحا اخرى وتجدها . وهذه الروح الأخرى الأمينة روح المراة . وإذا يد تسندك . إنها يد هـذه المراة . وإذا فم يلثم جبينك . إنه ثغـرها . وتحس تنفسـا بقربك . انه تنفسـها ! يا لها من سعادة ! وفى هذه النشـوة الروحية يتفتح القلب كما تتفتح زهرة سماوية ! وكل انـوار الدنيا لن تعدل عندئذ هذه الظلمة التى كلها إشراق علوى ! فهو ليس وحده ، بل معه دائمـا هـذا الملك الطاهر . وإذا ابتعدت فلكى تعود ، تتلاشى كالحلم وتعود للظهور كالواقع . فاذا احس دفئا يقترب منه ، عرف انها هى . وتشيع الفرحة فى النفس وتمتلىء الدنيا المظلمة بانوار الانس والأمان . لان هذه المراة الملك صارت عوضا عن فـراغ العالم ودياجيره .

ولئن لم ير شيئا ، فهو يلمس روح الرحمـــة والحب ، وليس كاللمس يقين يغنى عن العيان الذى قد يخدع . وهـــذا هو الفردوس الذى لا يتجلى إلا فى الظلام . وفى هذا الفردوس عاش سيدنا بينفينى ، ومنه انتقل إلى الفردوس العلوى .

وكانت صحيفة «م» المحلية قد نشرت نبأ وفاة الأسقف ، فظهر المسيو مادلين فى اليوم التالى وقد وضع شارة سوداء على قبعته .

ولاحظ الناس هـــذا الحداد ، وبدأت الثرثرة . وانتهت إلى أن صلة قرابة لابد أنها تربط المســـيو مادلين بالأسقف . فالقى هذا بعض الضوء على اصل المســـيو مادلين . وقالت سيدات الصالونات :

— إنه يلبس الحداد على نيافة أسقف « د » !

فرفع هذا من قدر المسيو مادلين رفعة عظيمة ، وصار له فجأة اعتبار كبير فى مجتمع « م » من أبناء الطبقة النبيلة . وفكر ما يقابل فى « م » حى سان جرمان فى باريس . فى رفع الحظر عن المسيو مادلين ، ما دام قد بات محتمـــلا أنه يمت بصلة قربى إلى أمير من أمراء الكنيسة . ولاحظ المسيو مادلين انه صـــار يتلقى تحيات أشـــد حرارة وحفاوة من العجائز ، وابتسامات اشد إشراقا من الشابات . وذات مســـاء قالت عميدة هذه النخبة الممتازة من نساء العلية ، مدفوعة بالفضول وبحقوق التقدم فى السن :

— يا سيادة العمدة . انت لا شـــك ابن عم للمرحوم أسقف « د » .

فأجابها :

— لا يا سيدتى !

فقالت السيدة بدهشة :

— ولكنك تلبس عليه الحداد . . .

فقال :

— ذلك اننى فى شبابى كنت خادما فى اسرته !

ولاحظ الناس ايضا شيئا آخر ، انه كلما مر فتى من اهالى جبال سافوا بالمدينة من الفتيان الذين يجوبون الإقليم لتنظيف المداخن ، كان سيادة العمدة يستدعيه ، ويسأله عن اسمه ، ويعطيه نقودا . وكان الفتيان يتناقلون هذا ، فصار عدد اكبر من فتيانهم يتوافدون على المدينة .

الفصل الخامس

وميض غامض على الأفق

رويدا رويدا ، وبمـرور الوقت تلاشـت كل أنـواع المعارضة . وفى البداية كان هناك ضد المسيو مادلين نوع من القانون يتصدى دائمـا لكل من يرتفع ذكره ويصـعد مراقى النجاح ، فى صورة أحقاد وتنديدات ، ثم تحولت التنديدات إلى مناوشـات ، لم تلبث أن خفتت فصـارت لونـا من التلميح والتعريض ، ثم تلاشى هذا ايضا ، وصار احترامه تاما لدى الجميع ، بكل مودة قلبية . حتى إذ حلت سنة ١٨٢١ صارت كلمـة سيادة العمدة فى « م » تقال بنفس لهجة التوقير التى كان يقال بها « نيافة الأسقف » أو « سـيدنا الأسقف » فى « د » فى سنة ١٨١٥ . وصـار الناس يتوافدون من مسيرة عشرة فراسـخ لاستشارة المسـيو مادلين . وكان يفض الخلافات ويسوى المنازعات ، ويصالح الأعداء ، ويحول دون رفع الدعاوى القضائية . لأن الكل كانوا يرتضونه قاضـيا يحكم بينهم بقانونه الخاص حسبما يتراءى له . حتى لكأن روحه ينطوى على كتاب القانون الطبيعى . فكان هذا النوع من الإجلال يسرى بالعدوى بين الناس حتى شمل الإقليم كله فى ست سنوات أو سبع . . .

وكان فىّ المدينة ، بل وفى الدائرة كلهـا رجل واحد لم تنتقل إليه هذه العدوى ، ومهما فعل المسيو مادلين ظل هذا

الرجل متمردا ، كأنمـا أوتى غريزة غامضـة توقظ سريرته وتحفزها ضد المسيو مادلين وتسىء به الظن .

ويبدو فعـلا ان لـدى بعض الناس غريزة حيوانية او بهيمية حقيقية لا يمكن لأحـد ان يتدخل فى نشاطهـا الأعمى المحـايد ، ولا يمكن ترويضها ، وتسـيطر على صـاحبها سيطرة تامة ، شـأن كل غريزة لدى الحيـوان . وهى التى تخلق لدى صاحبها شعور التعاطف أو النفور التلقائى ، وهى التى تفرق بين طبيعة واخرى، ولا تخطىء ولا تخدع ولا تنخدع ابدا . وهى ذات مضاء لا يعرف الهوادة او التردد ، وتتمتع بوضوح من نوع غامض ، ولا تصغى ابدا لصوت العقل ولا لما قد يشير به الذكاء . فهى اشبه بغريزة الكلاب ، ولا سـيما كلاب الصيد ، وتجعل من صاحبها ككلب الصيد فعلا . . وتنبه صاحبها لخصمه الطبيعى مثلما تنبه الغريزة الكلب إلى وجود قط بالقرب منه ، ولو كان متواريا عن النظـر . فاذا بالرجل الكلب يشعر بالعداوة والتنمر للرجـل القط . وإذا بالرجـل الثعلب يشعر بوجود الرجل الأسد !

وفى كثير من الأحيان ، عندما كان المسيو مادلين يمـر بشارع ، فى هدوء ودود تحف به بركات الجميع ودعواتهم ، كان يتفق أن يلتفت وراءه فجـأة رجل طويل القامة يرتدى ردنجوتا رماديا بلون الحديد ، وفى يده عصا غليظـة ، وعلى راسه قبعـة ساقطة على عينيـه ، ويتعقبه بنظراته إلى أن يختفى عن الأنظار ، وقد عقد ذراعيه على صدره ، ويهز راسه ببطء ، ويرفع شفته العليا وقد زمت إليها الشفة السفلى إلى أن تلامسا أنفه . وهى تمعيجة لملامح السحنة كأنها تقول :

— ولكن من عساه يكون هذا الرجل ؟ أنا متأكــد أننى رأيته فى مكان ما . ولكنى على كل حال لست الغر الذى ينخدع به !

وهذا الشخص الجاد العابس عبوســا يكاد أن يكون توعدا ، كان من النوع الذى ما إن تقع عليه العين حتى يشغل البال .

كان اسمه جافير JAVERT وكان من هيئة الشرطة .

وكان يشغل فى مدينة « م » منصــبا اليما ولكنه نافعا ، وهو منصب المفتش . ولم يكن معاصرا لبداية المسيو مادلين فى مدينة « م » . وكان جافير مدينا للمنصب الذى يشــغله لرعاية وحماية المسيو شابوييه CHABOUILLET ، السكرتير الخاص لوزير الدولة الكونت انجليس ، الذى كان يومئذ مدير الشرطة فى باريس . وعندما وصل جافير لتولى منصبه فى «م» كان صاحب المصنع قد جمع ثروته وانتهى الأمر ، وكان الأب مادلين قد صار المسيو مادلين .

ولبعض ضباط الشرطة سحنة خاصــة بهم ، تتعقد سيماها بما يمتزج فيها من خساسة وســلطة . وكان لجافير هذه السحنة ، ولكن بدون الخساسة .

وفى اعتقــادنا أنه لو كانت الأرواح مما تراه الأعين ، لرأينا بوضوح تام ذلك الشىء الغريب الذى يعزوه كل فرد من أفراد النوع البشرى إلى أفراد المملكة الحيوانية . وأمكننا أن نتعرف فى سهولة ويسر على تلك الحقيقة التى يلمحها المفكر .

وهى أن جميع مراتب الحيوانات بدءا بالمحارة وانتهاء بالنسر ، وبدءا بالخنزير وانتهاء بالنمر ، موجودة فى الإنســان ، وأن طبيعة أحد هذه الحيوانات موجودة فى فرد من بنى الإنسان . وفى بعض الأحيان توجد فى الفــرد من البشر طبائع عدد من هذه الحيوانات فى آن واحد .

فالحيوانات ليست شيئا آخر سوى صــور فضــائلنا ورذائلنا غادية رائحته أمام أعيننا ، وكأنها الأشباح المرئية لنفوسنا وأرواحنا . والله يرينا إياها كى يجعلنا نفكر ونتدبر . ولما لم تكن الحيوانات إلا ظــلالا ، لذا لم يجعلهــا الله قابلة للتهذيب والتثقيف بمعنى الكلمة . وما الجدوى ؟ أما أرواحنا فحقائق ولها غاية خاصة بهــا ، لذا وهبهــا الله الذكاء ، أى القدرة على التعلم والتثقف . فالتربية الاجتماعيــة الجيــدة يمكنها دائما أن تستخرج من النفس البشريــة — أيا كانت — ما تنطوى عليه من نفع .

وهذا الكلام ينصب — طبعا — على الحياة الأرضــية المحدودة الظاهرة للعيان ، فلا يمتد إلى الموضــوع الأعوص من هــذا ، وهو موضــوع الشخصــية السابقة أو اللاحقة للكائنات فهى ليست خاضعة لأحكام البشر . والذات المرئية الظاهرة لا تبيح للمفكر بأى حــال أن ينكر وجــود الذات الكامنة . أما وقد ذكرنا هذا الاحتراز ، فلنمض فى سياق كلامنا قدما .

ومتى اتفقنا على أن كل إنسان نوعا من أنواع الحيوان التى تعيش على الأرض ، سهل علينا أن نقول ماذا كان نوع ضابط الأمن جافير .

إن بعض الفلاحين يعتقدون ان كل بطن تلدها الذئبة يكون من افرادها كلب وان الذئبة الأم تقتله بمجرد ولادته ، وإلا التهم ابناءها الآخرين متى كبر .

فلو أعطيت وجها بشريا لهذا الكلب المولود من ذئبة ، لكان هو جافير ! ...

وجافير ولد فى السجن ، وضعته أمه العرافة التى تتكهن بالغيب عن طريق أوراق اللعب . اما زوجها فكان محكوما عليه بالأشغال الشاقة . وشب وهو يعتقد انه منبوذ من المجتمع ، وانه لا سبيل له إلى العودة لأحضان هذا المجتمع ابدا . ولاحظ ان المجتمع المحترم ينفى من حظيرته فئتين من الناس : من يعتدون عليه ، ومن يقومون على حراسته . فلم يكن له إذن خيار إلا بين هاتين الفئتين . وفى الوقت نفسه كان يحس فى نفسه نواة دفينة فى اغوارها من الصرامة والانتظام والامانة ، مقرونة بمقت لا يمكن التعبير عنه لتلك السلالة البوهيمية التى انحدر منها . فدخل خدمة الشرطة . ونجح فيها . وفى سن الأربعين غدا مفتشا فى مدينة « م » .

وكان قد عمل فى شبابه بسجون الجنوب .

ويجب قبل ان نمضى فى قصتنا ان نتفق على معنى كلمة « الوجه البشرى » الذى عزوناه منذ قليل إلى جافير .

كان وجه جافير البشرى عبارة عن انف افطس بمنخرين غائرين ترتفع صوبهما على خديه سالفتان ضخمتان من الشعر . وكان الناظر إليه يشعر لأول وهلة بعدم ارتياح متى

وقع نظره على هاتين الغابتين وهذين الكهفين . وعندما كان جافير يضحك ، وهذا أمر نادر ورهيب ، كانت شفتاه النحيلتان تتباعدان ، فلا تظهر من بينهما أسنانه فحسب ، بل لثته ايضا ، وتتكون اخاديد عميقة وحشية حول انفه كالتى ترى حول خطم الحيوان المفترس الضارى . اما جافير الجاد فله وجه كلب . اما حينما يضحك ، فوجهه وجه نمر . وجبهته ضيقة ، ويافوخه صغير ، وفكاه كبيران . وشعره يغطى جبهته ويهتدل على حاجبيه ، وبين عينيه خط غائر دائم الظهور كانه كوكب الغضب ، ونظرته قاتمة ، وفمه مزموم مخيف ، وفى سحنته كلها سيطرة امر ونهى وحشية .

وهذا الرجل مركب من شعورين بسيطين وطيبين نسبيا ، ولكنه يجعلهما سيئين بالمبالغة التى يمارسهما بها . وهذان الشعوران هما احترام السلطة وكراهية التمرد . وفى نظره لم تكن السرقة ، ولم يكن القتل إلا صورتين من صور التمرد . وكان يحيط بهالة من الإيمان الأعمى والعميق معا كل من له وظيفة فى الدولة ، بدءا بالوزير الأول وانتهاء بخفراء الحقول . ويغمر بالازدراء والنفور والتقزز كل من تخطى مرة واحدة العتبة القانونية للشر . كان إطلاقيا فى احكامه ولا يعرف فيها هوادة ولا استثناء . فهو من ناحية يقول :

ـ إن الموظف لا يمكن ان يخطىء . والقاضى ورجل القانون دائما على حق .

ومن ناحية اخرى يقول :

ــ هؤلاء الناس هالكون هلاكا لا رجعة فيه . ولا يمكن ان يأتى منهم خير .

فكان يشارك بكل جوارحه راى المتشددين الذين يعزون إلى القانون البشرى قدرة لا حد لها على دفع الأبالسة وفرزهم ليكونوا إلى الأبد فى قـــاع المجتمع . وكان فى الوقت نفســه رواقيا ، جادا ، صارما ، زاهدا . وكان حالما حزينا متواضعا ومتعاليا فى آن واحد شـــأن كل المتعصبين . ونظرته كانت اشبه بالمثقاب، فهى باردة نفاذة . وكانت حياته كلها فى هاتين الكلمتين : السهر والمراقبة . وادخل سياسة الخط المستقيم فى اشد امور الدنيا التواء . فهو واع بجدواه ونفعه للمجتمع وبقداســـة مهمتـــه الرسـمية . وكان جاسوســـا يقدس الجاسوسية ويمارسها كما يمارس الكاهن واجباته . وويل لمن يقع تحت يده ! فهو خليق ان يقبض على ابيه إن هرب من الليمان ، وان يبلغ عن امه إن خرقت اهون اللـــوائح . وكان حريا ان يقدم على هذا بذلك الارتيـــاح الداخلى الذى توفره الفضيلة لمن يمارسونها بإيمان . اضف إلى هذا انه كان يعيش حياة حرمان وعزلة وانكار ذات وعفة ، وليست له اى ملهاة او تسلية . فهو الواجب الصارم ، وهو الشرطة ، على نحو ما كان يفهم الإسبرطيون اسبرطة وينمتون إليها . فامانته بلا حدود ، وفيها ضراوة .

فكل شخصية جافير كانت تعبر عن الرجل الذى يرقب وهو متوار متربص . ولم يكن احد يرى جبينه المتوارى تحت

قبعته ، او يرى عينيه المتواريتين تحت حاجبيه ، او يرى ذقنه الغائص فى رباط عنقه ، او يديه المدسوستين فى كميـــه ، او عصاه التى كان يحملهـــا تحت ردنجوتـــه . ولكن متى حانت الفرصة الملائمة ، رايت على حين غرة جبينـــا بارز العظام ضيق المســاحة ، ونظرة قاسية وذقنا متوعدا ، ويدين كبيرتين وعصا رهيبة ، وكانما هى قد برزت من كل هـــذه الظـــلال الخفية .

وفى لحظات فراغه ، وهى جد قليلة ، كان على كراهته للكتب يقرا ، ولذا لم يكن اميا تماما . وكان هذا باديا فى شىء من الطنطنة فى كلامه .

ولم تكن له اى رذيلة ، كمـــا قلنـــا ، ولكن عندما كان يرضى عن نفسه ، كان يسمح لها بمضغة طباق . وكانت هذه همزة الوصل بينه وبين البشرية .

ومن اليسير ان ندرك بلا مشقة ان جافير كان مصـــدر فزع لتلك الفئة التى تنعتها الإحصاءات السنوية لوزارة العدل بانها فئة المشبوهين . فالتفوه باسم جافير كان كافيا للياذهم بالفـــرار ، اما رؤيـــة وجه جافير فكانت تجعلهم يتسمرون جامدين كالتماثيل فى مواضعهم .

وهكذا كان هذا الرجل المروع .

وكان جافير كانه عين مثبتـــة على المسـيو مادلين . لا تفوتها منه حركة او سكنة . عين ملئها الريب والظنون . وانتهى الأمر بالمسيو مادلين إلى التنبه لهـــذا كله ، ولكنـــه

تظاهر بأنه لا يعنى فى نظره كثيرا ولا قليـــلا . بل ولم يوجه بصدده سؤالا واحدا إلى جافير ، ولم يكن يتعمـــد لقاءه ، أو يتحاشاه ، وتحمل — من غير أن يبدو عليه التنبه للأمر — تلك النظرة الثقيلة . وكان يعامل جافير كما يعامل كل الناس بيسر وطيبة .

ومن بضع كلمات افلتت من جافير فطن السامع أنه بحث سرا ، مدفوعا بذلك الفضـــول الذى مبعثه الغريزة والإرادة معا ، عن كل الآثار السـابقة التى يمكن أن يكون الأب مادلين قد خلفها وراءه فى أماكن أخرى قبل قدومه إلى مدينة « م » . ويبدو أنه كان يعرف ، وكان يقول أحيانا بعبارات مستورة ، إن بعضـــهم قام بتحريات وجمع معلومات فى إقليم معين عن عائلة معينة اختفت من الوجود . ووصل ذات مرة إلى حد القول ، وهو يحدث نفسه :

— اعتقد أننى ضيقت عليه الخناق !

ثم ظل ثلاثة أيام غارقا فى التفكير . ويبـــدو أن الخيط الذى خاله بين يـــديه تمـــاما قـــد انقطع . وفى هذا ما يكفى لتصحيح بعض الصفات المطلقـــة التى نعتنا بهـــا الغريزة الحيوانية ، عندما قلنا إنها لا تخطىء . فالحق أنه ما من شىء فى حياة البشر جدير بهذا الوصف . جل من لا يخطىء . فكل ما تملكه الغريزة من قدرة أحيـــانا هو التنبـــه والاضطراب ، ولكنها قد تدرك هدفها وتصل إليه ، وقد تتنكب الطريق كمـــا يفقد كلب الصيد رائحة الطريدة . ولولا هذا لكانت الغريزة

أرقى من العقل ، أو الذكاء . ولكانت البهائم أكثر استنارة من الإنسان .

ومن ثم نقول إن غريزة جافير اهتزت واضطربت لمـــا واجهت كل هـــذا الهدوء والثبات الطبيعيين لدى المســـيو مادلين . ولكن ذات يوم يبدو أن مسلكه الغريب ترك انطباعا خاصا لدى المسيو مادلين . وكانت هذه هى مناسبة ذلك .

الفصل السادس

الأب فوشليفان FAUCHELEVENT

كان المســيو مادلين مارا ذات صــباح فى حارة غير مرصوفة فى مدينة « م » ، عندما سمع ضجة ورأى جمعا من الناس على مبعدة فاتجه صوبه . فاذا رجل مسن اسمه الأب فوشليفان قد سقط لتوه تحت عربـــة نقله التى خــر حصانها صريعا .

وفوشليفان هذا كان من الاعداء القلائل الذين ما زالوا يحقدون على المسيو مادلين فى ذلك العهد . فعندما وصــل مادلين إلى هذا الإقليم كان فوشليفان كاتبا عموميا ســابقا ومزارعا شبه متعلم ، يمارس تجارة بدأت تتجه نحو الكساد . ورأى فوشليفان هذا العامل البسيط يثرى ، فى حين كان — وهو « المعلم » المحترم — يهوى إلى الإفلاس . فملأه هذا حسدا وغيرة ، وصنع غاية ما أمكنه فى كل مناسبة للاضرار بمادلين . ثم أعلن إفلاسه ، ولم يبق لديه من حطام الدنيا إلا حصان وعربة نقل ، وليست له أسرة ولا أبناء ، فاضطر أن يعمل حوذى نقل كى يعيش .

وانكسر فخذا الحصان فلم يستطع النهوض، أما الشيخ فكان محشورا بين العجلات ، وجاءت سقطته بحيث صارت العربة بثقلها كله جاثمة فوق صدره . وكانت العربة محملة بأشياء ثقيلة ، لذا كان الأب فوشـــليفان (ومعنـــاه « قبض

الريح ») يصرخ ويطلق شهقات مؤلمة للغاية . وحاول الناس إخراجه ولكن ذهبت محاولاتهم أدراج الرياح . وكان اى جهد فوضوى ، واى عون طائش خائب ، واى هزة خاطئة يمكن ان تقضى على الشيخ القضاء الاخير . وكان من المستحيل تخليصه إلا برفع العربة من اسفلها . وكان جافير قد جاء فى لحظة وقوع الحادث ، وبعث فى طلب رافعة معينة يسمونها « العفريتة » .

واقبل المسيو مادلين ، فأفسح له الناس فى احترام . وصرخ فوشليفان :

— أغيثونى ! من الشهم الذى ينقذ شيخا فانيا ؟

والتفت المسيو مادلين إلى الحاضرين وسألهم :

— الديكم عفريتة ؟ (آلة رفع الأثقال) .

فقال فلاح :

— لقد أرسلوا فى طلبها .

— وكم من الوقت يلزم لحضورها ؟

— لقد ذهب الرسل إلى اقرب موضع به ورشة . ولكن لا بد على الأقل من انقضاء ربع ساعة .

فصاح مادلين :

— ربع ساعة ؟

وكان المطر قد انهمر فى الليلة السابقة ، والارض زلقة ، وعربة النقل تغوص فى الأرض كل لحظة وتهصر صدر الشيخ بمزيد من القوة ، فمن الجلى أن اضلاعه ستتحطم قدر انقضاء خمس دقائق . ولذا قال مادلين للفلاحين الذين ينظرون :



وكان المطر قد انهمر فى الليلة السابقة ، والأرض زلقة ، وعربة النقل تغوص فى الأرض كل لحظة وتهصر صدر الشيخ بمزيد من القوة ..

ـ مستحيل أن ننتظر ربع ساعة !

ـ هذا ما لا بد منه !

ـ وعندئذ يكون قد فات الأوان ! الا ترون ان العربة تغوص ؟

ـ اللعنة !

فاستطرد مادلين :

ـ اسمعوا ! لم يزل هنـــاك تحت العربة مكان يكفى لتسلل رجل كى يرفعها بظهره . نصف دقيقة فقط تكفى عندئذ لجر الرجل المسكين من تحتها . فهل بينكم احد لديه ما يكفى من قوة الحقوين والكليتين والقلب ؟ إنى أقدم لمن يفعل هذا خمسة جنيهات ذهبية !

ولم يتحرك من بين الجمع احد . فقال مادلين :

ـ عشرة جنيهات !

فغض الواقفون ابصارهم ، وغمغم أحدهم :

ـ لا بد أن يكون من يتصدى لهذا خارق القوة . ثم انه سيتعرض للانسحاق !

فقال مادلين :

ـ هيا ! عشرين جنيها !

وساد نفس الصمت . ثم قال أحدهم :

ـ ليست الإرادة الطيبة ما ينقصهم !

فالتفت مادلين ، وعرف فى المتكلم جافير . ولم يكن قد لمحه عند قدومه . واردف جافير :

— ما ينقصهم هو القوة . فلا بد ان يكون رجلا ذا قوة رهيبة من يستطيع رفع عربة كهذه فوق ظهره !

ثم ثبت نظره فى المسيو مادلين وواصل كلامه وهو يضغط على كل كلمة يتفوه بها :

— يا مسيو مادلين ، انا لم اعرف قط اللهم إلا رجلا واحدا يستطيع ان يصنع ما تطلبه الآن .

وارتجف مادلين .

واردف جافير فى عدم مبالاة . ولكن من غير ان يحول عينيه عن مادلين :

— إنه احد نزلاء الليمان !

فقال مادلين :

— آه !

— ليمان طولون .

— فاكفهر وجه مادلين ...

ولكن العربة واصلت غوصها ببطء . والأب فوشليفان يشهق ويصرخ :

— إنى اختنق ! اضلاعى تتحطم ! عفريتة ! اى شىء ! آه !

ونظر مادلين حوله وقال :

— الا يوجد إذن احد يريد ان يكسب عشرين جنيها وينقذ حياة هذا الشيخ المسكين ؟

ولم يتحرك احد من الحاضرين . فقال جافير :

— انا لم اعرف إلا رجلا واحدا يمكن ان يقوم بعمل العفريتة ! إنه ذلك المحكوم عليه !

وصاح الشيخ :

— ها هى تحطمنى !

فرفع مادلين راسه . والتقت عيناه بعينى صقر . هما عينا جافير المثبتتان عليه ، ثم نظر إلى الفلاحين الجامدين فى اماكنهم وابتسم باسى . ثم من غير ان يقول شيئا ركع على ركبتيه ، وقبل ان تخرج صيحة الدهشة من افواه الجمع المحتشد كان قد دخل تحت العربة .

وانقضت لحظة انتظار ران فيها الصمت . وراوا مادلين يزحف على بطنه تحت هذا الثقل الباهظ ، ويحاول مرتين عبثا تقريب كوعيه من ركبتيه وصاح الناس :

— مسيو مادلين ! اخرج من هناك !

وقال له الشيخ فوشليفان نفسه .

— اخرج يا مسيو مادلين ! انا مقضى على بالهلاك ، فلا تهلك انت نفسك ايضا !

ولم يجب مادلين . ولهث الحاضرون . وكانت العجلات قد ازدادت غوصا ، فصار مستحيلا على مادلين ان يخرج إن اراد من تحت العربة .

وفجاة رأى الناس الكتلة الهائلة تهتز ، والعربة ترتفع ببطء ، وخرج نصف العجلات من الحفر ، وسمعوا صــوتا مخنوقا يصيح :

ـ اسرعوا ! ساعدونى !

وكان هذا صوت المسيو مادلين وهو يبذل آخر جهده . فسارعوا ، وقد شحذ تفانى رجل واحد شــجاعة الباقين جميعا . ورفع عشرون ذراعا العربة . وانقذ فوشليفان .

وخرج مسيو مادلين شاحب اللون ، يتصبب عرقا ، وقد تمزقت ثيابه وتلطخت بالوحل . وبكى الجميع ، وقبل الشيخ ركبتيه وهو يلهج بالدعاء له . أما هــو فكانت على محياه أمارات عذاب سعيد وسماوى ، وثبت نظره الهادىء على وجه جافير ، الذى لم يتحول نظره عنه .

الفصل السابع

فوشليفان يصبح بستانيا فى باريس

كان فوشليفان قد رضد ركبته عند سقوطه ، فأمر الأب مادلين بنقله إلى مستوصف كان قد انشأه لعماله فى نفس مبنى مصنعه ، وتشرف على هذا المستوصف راهبتان من أخوات الرحمة . وفى اليوم التالى وجد الشيخ ورقة نقد من ذات الألف فرنك فوق المنضدة بجوار سريره ، ومعها هذه الكلمة بخط الأب مادلين :

ـ لقد اشتريت منك عربتك وحصانك !

أما العربة فكانت محطمة . وأما الحصان فكان ميتا !

وشفى فوشليفان، ولكن بقيت ركبته ملتوية. واستطاع المسيو مادلين بتزكية من الراهبتين ومن خورى الكنيسة أن يعين الرجل بستانيا فى دير للراهبات بحى سانت أنطوان بباريس .

وبعد فترة وجيزة عين المسيو مادلين عمدة . وعندما رأى جافير لأول مرة المسيو مادلين لابسا الوشاح الذى يخوله السلطة الكاملة على المدينة ، احس تلك الرجفة التى يحسها كلب شم رائحة ذئب تحت ثياب سيده . ومنذ هذه اللحظة صار جافير يتجنبه ما استطاع . وإذا اقتضت واجبات الخدمة وحتمت وجوده مع سيادة العمدة ، كان يخاطبه باحترام عميق جــدا .

وكان هذا الازدهار الذى أضفاه على مدينة « م » الأب مادلين له إلى جانب المظاهر المرئية التى أشرنا إليها ، مظاهر أخرى غير مرئية لم تكن أقل أهمية من الأولى . فعندما يعانى السكان ، وتقل فرص العمل ، وتكسد التجارة ، ويمتنع الممول عن دفع الضريبة بسبب الضنك ويتجاوز المهلة المسموح بها ، تنفق الدولة أموالا كثيرة لإجراءات الحجز والتحصيل بالإكراه . أما عندما يكثر العمل ، ويصير الإقليم فى بحبوحة من العيش والثراء ، تسدد الضرائب بيسر ، ولا تتكلف الدولة إلا القليل . ففى وسعنا أن نقول إن الثراء العام والفقر العام لهما ترمومتر لا يخطىء ، هو مقدار نفقات تحصيل الضرائب . وفى السنوات السبع الأخيرة بمدينة « م » انخفضت نفقات تحصيل الضرائب بمقدار الثلاثة أرباع فى المنطقة كلها ، لذا كانت هذه الدائرة مضرب المثل بين دوائر فرنسا على لسان المسيو فيليل VILLELE الذى كان وزير المالية حينئذ .

وهكذا كان حال الإقليم . عندما عادت إليه فانتين . ولم يكن هناك أحد يتذكرها . ومن حسن حظها أن باب مصنع المسيو مادلين كان أشبه بوجه صديق . فتقدمت إلى المصنع وقبلت للعمل فى ورشة النساء . وكانت المهنة جديدة تماما على فانتين ، فلم تتمكن من البراعة فيها ، وبالتالى لم تستطع أن تكسب من يوم العمل شيئا كثيرا . ولكن هذا القليل على كل حال كان كافيا . وحلت بهذا مشكلتها ، وصارت تكسب معاشها .

الفصل الثامن

مدام فكتيرنيان VICTURNIEN

تنفق ثلاثين فرنكا فى سبيل الأخلاق

ولما رأت فانتين أنها بدأت تعيش ، غمرتها لحظة فرح . فأى نعمة من السماء هبطت عليها إذ تعيش بشرف من كد عملها ! وعادت إليها لذة العمل وتذوقه الحقيقى ، فاشترت مرآة ، واستمتعت بالنظر فيها إلى شبابها وإلى شعرها الجميل وأسنانها البديعة ، ونسيت أشياء كثيرة ، ولم تعد تفكر إلا فى كوزيت ، وفى المستقبل الممكن ، وكادت تشعر بالسعادة التامة . واستأجرت حجرة صغيرة وأثثتها بالدين اعتمادا على دخلها من عملها مستقبلا ، وهى بقية من عاداتها القديمة الفوضوية .

ولما كانت لا تستطيع أن تقول إنها متزوجة ، لذا حرصت — كما ألمعنا آنفا — على ألا تجرى ذكر ابنتها على لسانها .

وفى هذه الفترة الأولى . كما رأينا ، كانت تؤدى ما عليها لآل تنرديية بانتظام . ولما كانت لا تعرف من الكتابة إلا التوقيع باسمها ، لذا كانت مضطرة للاستعانة بكاتب عمومى . وكانت تكتب فى أوقات كثيرة ، فلاحظ الناس ذلك عليها ، وبدا التهامس فى ورشة النساء بأن « فانتين تكتب خطابات » وبأنها « تبدو متزينة » .

وليس هناك اشد إصرارا على مراقبة حـركات المرء وسكناته ممن لا ينظر إليهم . لماذا هذا السيد لا يأتى ابدا إلا إلى السمراء ؟ ولماذا لا يعلق هـذا السـيد مفتاحه على المسمار يوم الخميس ؟ ولماذا يسلك دائما فى مساره الشوارع الصغيرة ؟ ولماذا تنزل هذه السيدة دائما من عربتها المكتراة قبل موضع بيتها ؟ ولماذا ترسل فى شراء دفتر ورق الخطابات من محل آخر مع ان محلها مكتظ بهذه الدفاتر ؟ الخ الخ الخ .. فهناك كائنات من البشر مستعدون فى سبيل حل هذه الألغاز — التى لا شأن لهم بها — ان ينفقوا من المال ويبذلوا من الجهد اضعاف ما ينفقونه ويبذلونه فى أعمال الخير . ويفعلون هذا طواعية ، بحثا عن اللذة ، ومن غير ان يكون لفضولهم ثمرة اللهم إلا إشباع الفضول . فهم يتعقبون هذا او هـذه اياما متوالية بطولها ، ويتربصون او يرصدون الحراس عند اركان الشوارع ، وتحت تجويفات الابواب ، ليلا ، فى البرد وتحت المطر ، ويقدمون الرشاوى للرسل والمندوبين . ويقدمون الخمر للحوذية والخدم والحجاب ، ويشترون ذمة خادمة او وصيفة او بواب . ولماذا هذا كله ؟ للا شىء ! لمجرد شهوة الرؤية وسعار المعرفة والنفاذ من الحجب .. وكثيرا ما يترتب على هتك هذه الأستار وفضح هـذه الأسرار مصـائب ، ومبارزات ، وإفلاس ، وتدمير بيوت وتحطيم كيان . ولكن هذه الكوارث الجسام تملأ جـوانح مكتشـفى تلك الأسرار بالحبور ، مع انه لا مصلحة لهم فى هذا إلا إشباع الغـريزة الخاصة بهم . وانه لأمر يثير الأسى والأسف .

ومن النـاس من فيهم نزوع إلى الشر غير مدفوعين

إلا بالرغبة فى الكلام . فأحاديثهم فى الصالونات ، وثرثرتهم فى حجرات الانتظار ، اشبه بتلك المـداخن التى تسـتهلك الخشب بسرعة ، فلا بد لها من كميات كبيرة من الوقـود . وهذا الوقود ، هو الخوض فى سيرة الناس ، ولو كانوا من الأقربين .

وهكذا راحوا يرقبون فانتين .

وفضـلا عن هذا كان الكثيرات غيورات من شـعرها الأشقر الغزير واسنانها البيضاء .

ورصـدن عن يقين انها — وهى فى الورشـة بين الأخريات — كثيرا ما كانت تستدير مشيحة عنهن كى تمسح دمعة . وتلك كانت اللحظات التى تفكر فيها فى طفلتها ، ولعلها ايضا كانت تفكر فى الوقت نفسه فى الرجل الذى كانت تحبه .

وإنه لجهد جهيد مضن ان نقطع علائق الماضى المحزنة..

ورصد زميلاتها ايضا انها كانت تكتب الرسائل مرتين فى الشهر على الأقل، وتوجه رسائلها دائما إلى نفس العنوان، وكانت هى التى تدفع رسوم إرسالها بنفسها فى مكتب البريد. وتمكنت الزميلات البارعات من الحصول على هذا العنوان :

— المسيو تنردييه ، صاحب نزل فى مونفرمى ...

وفى الحانة امكن حمل الكاتب العمومى — بعد ان اطبق عليه السكر — على ان يثرثر ، فهو رجل متقدم فى السن ، محب للشراب ، ولكنه لم يكن يملك ان يملأ جوفه بالنبيذ الأحمر

إلا إذا افرغ ما فى جوفه من أسرار الناس . وقصارى القول ان المهتمين بالأمر عرفوا ان لفانتين طفلة .

وقامت امراة فضولية بالرحلة إلى مونفرمى على نفقتها الخاصة . وهناك تحدثت إلى آل تنردييــه ، وقالت عنـد عودتها :

ـ لقد انفقت خمسة وثلاثين فـرنكا . ولكن قلبى استراح ! فقد رايت الطفلة !

وكانت هذه الفضولية تدعى مدام فكتيرنيان ، وهى حامية حمى الفضيلة فى الدنيا كلها ! وعمرها ست وخمسون سنة ، وتجمع بين قناعين احدهما قناع القبح والدمامة والآخر قناع الشيخوخة . صوتها كصوت الماعز ، وذهنها كذهن التيس فى الانشغال بالنزوات ! وقد تدهش إن علمت ان هذه العجوز كانت شابة فى يوم من الأيام . وفى أوج شبابها ، سنة ١٧٩٣ تزوجت من راهب فر من الدير وانضم إلى اليعقوبيين . وكانت عجفاء ، حادة الملامح والطبع كانما هى حيوان شوكى ، وتكاد تكون ايضا حيوانا ساما ، ثم مات عنها زوجها الراهب الذى سامها العذاب وتركها ارملة . وعند عودة الملكية إلى فرنسا انقلبت من ثورية إلى متعصبة دينية ، وبلغ من مبالغتها فى هذا التعصب ان القسوس اغتفروا لها زواجها من راهب . وكان لها عقار ملأت الدنيا ضجة وطنينا عندما وهبته لمؤسسة دينية . وصارت موضع الرعاية والتكريم فى اسقفية اراس ARRAS . وهذه هى مـدام فكتيرنيان التى سـافرت إلى مونفرى وعادت تعلن على رءوس الأشهاد :

ـ لقد رايت الطفلة بعينى راسى !

وقد استغرق هذا كله وقتا ، فكان قد انقضى عام على عمل فانتين فى المصنع ، عندما سلمتها ذات صباح المشرفة على الورشة خمسين فرنكا من طرف سيادة العمدة وقالت لها إنها لم تعد عاملة فى هذه الورشة ، وطلبت إليها باسـم سيادة العمدة ان تبادر بمغادرة الإقليم .

وكان هذا فى نفس الشهر الذى طلب فيه آل تنردييه زيادة الإتاوة إلى خمسة عشر فرنكا ، بعد ان زيدت من قبل بإلحاح منهما إلى اثنى عشر فرنكا .

واسقط فى يد فانتين ، فهى لا تستطيع مغادرة الإقليم ، لانها مدينة بايجار حجرتها وبثمن الأثاث ولم تكف الخمسون فرنكا للوفاء بديونها هذه . وغمغمت ببضع كلمات توسل ، ولكن المشرفة قالت لها إن عليها ان تخرج فورا من الورشة . ثم إن فانتين لم تكن إلا عاملة غير بارعة ، فخرجت من الورشة تتعثر فى الخزى والقنوط وعادت إلى حجرتها . لقد عـرف الكافة إذن بأمر خطيئتها !

ولم تجد فى نفسها القدرة على ان تقول كلمة واحدة . ونصحها بعض الناس بالتوجه لمقابلة سيادة العمدة ، ولكنها لم تجسر . فالعمدة اعطاها خمسين فرنكا ، لانه رجل طيب ، وطردها من العمل لانه رجل عادل وبار . فاذعنت لهذا القرار .

الفصل التاسع

نجاح مدام فكتيرنيان

لقد افلحت ارملة الراهب إذن فى شىء ما !

ولكن المسيو مادلين لم يكن قد عرف شيئا عن هذا كله. فما حدث كان من نوع ذلك التوافق بين الأحداث التى تمتلىء به الحياة . فقد كان من عادة المسيو مادلين الا يدخل ابدا تقريبا إلى ورشة أو « عنبر » النساء .

وكان قد وضع على راس هذه الورشة عانســـا كان القس قد اشار عليه بها ، وكانت له ثقة تامة فى هذه المشرفة، وهى شخصية محترمة حقا ، وحازمة ومنصفة ونزيهة تفيض بالرحمة التى تتمثل فى العطاء ، ولكنها لم تؤت ذلك اللون من الرحمة الذى يقوم على الفهــم وعلى المغفــرة والصــفح والسماحة . وكان المسيو مادلين قد فوضها فى كل شىء . وافضل الناس مضطرون لكثرة مشاغلهم ان يفوضوا سواهم فى كثير من الأمور ومنحهم سلطتهم . وبموجب هذه السلطة الكاملة ، وعن اقتناع بأنها خيرا صنعت ، قامت هذه المشرفة بالتحقيق فى هذه القضية ، وفصلت فيها بحكمها ، فأدانت فانتين ونفذت فيها العقوبة .

اما الخمسون فرنكا فقد منحتها من مبلغ اودعه لديها المسيو مادلين للصدقات ومساعدة العاملات ، ولم تكن تؤدى عنه حسابا مفصلا .

وعرضت فانتين ان تعمل خادمة فى هذا الإقليم . وتنقلت من بيت إلى آخر تطرق الأبــواب ، ولكن ما من احــد كان يريدها . ولم تستطع ان تغادر المدينة ، فهى مدينة لتاجــر الأثاث القديم المستعمل بثمن ما اشترته منه . ويا له من أثاث! فقد قال لها :

ــ إن غادرت المدينــة جعلتهم يلقــون القبض عليك كسارقة !

ومالك البيت الذى كانت مدينة له بالإيجار ، قال لها :

ــ انت شابة وجميلة . وفى وسعك دفع الإيجار !

فقســمت الخمســين فرنكا بين المــالك وتاجر الأثاث المســتعمل ، وردت إليه ثلاثـــة ارباع أثاثه ، فلم تستبق إلا الضرورى . وها هى بدون عمل ، وبدون وضع مستقر ، وليس فى حوزتها إلا سريرها . وهى مدينة فضلا عن هــذا بنحو مائة فرنك .

وراحت تحيك اقمصة خشنة للجنود فى حامية المدينة ، وتكسب من هذا اثنى عشر صلديا فى اليوم . وكانت ابنتهــا تكلفها عشرة . وفى ذلك الحين بدات تقصر فى اداء الإتاوة لآل تنردييه .

ولكن امراة عجوزا كانت تشعل لها شمعتها عندما تعود فى المساء علمتها فن الحياة فى الفاقة والتعاسة . فهناك وراء مرحلة العيش على القليــل ، مرحلة العيش على لا شىء .



وراحت تحيك اقمصة خشنة للجنود فى حاملة المدينة ،
وتكسب من هذا اثنى عشر صــلديا فى اليوم ..

فكأنما المرحلتان حجرتين : الأولى معتمة ، ولكن الأخــرى مظلمة كل الإظلام .

وتعلمت فانتين كيف تستغنى تمام الاستغناء عن النار فى الشتاء . وكيف تستغنى عن عصفور غرد فى القفص لأنه يحتاج إلى طعام مهما كان زهيدا . وكيف تجعل من تنورتها غطاء لها ، وكيف تصنع من غطائها تنورة ، وكيف تســتبقى شمعتها بأن تتناول طعامها فى ضوء النافذة المواجهة لهــا . فلا نهاية لما يمكن أن نتعلمه من التدبير من بعض النفوس التى ساخت فى الفاقة والفضيلة ، بحيث تقتصر أكبر نفع ممكن من الصولدى الواحد . وقد تعلمت فانتين هذا الفن من جارتها العجوز ووجدت فى ذلك بعض العزاء والشجاعة .

وقالت فى تلك الفترة لإحدى جاراتها :

ــ عجبا ! انى لأقول لنفسى إنى لا انام إلا خمس ساعات واشغل باقى الوقت كله فى الحياكة ، واكاد احصل من هذا على الخبز . ثم إن المرء عندما يكون حزينا يقل إقباله على الأكل . وهكذا استمد جانبا من غــذائى من كسرة خبز ، واستمد الجانب الآخر من أحزانى .

وفيما هى فى هذا الكرب تمنت لو كانت ابنتها معها ، فتكون مصدر سعادة لها بلا حدود . وفكرت فى استقدامها . ولكن كيف هذا ؟ أتأتى بها لتقاسمها العوز . ثم هى مدينــة بمتأخرات مستحقة لآل تنردييه ! فكيف تفى بهذا الدين ؟ ثم الرحلة ذهابا وإيابا ! من اين تراها تحصل على نفقاتها ؟

وكانت العجوز التى اعطتها ما يمكن ان نسميه دروسا فى الفاقة ، قديسة اسمها مرجريت . متدينة التدين الحقيقى ، فقيرة ولكنها رحيمة بالفقراء ، بل وبالاغنياء ايضا ! وكانت تعرف من القراءة كتابة اسمها بهجاء غير صحيح ، مؤمنة بالله . وهذا كل حظها من العلم ! وكانت تعتقد انه سياتى يوم تسود هذه الفضائل فى عليين . فحياتنا لها غد مامول .

وفى الفترة الاولى من محنتها كانت فانتين تشعر بخزى شديد حتى انها لم تجسر على الخروج . وعندما تكون فى الشارع يخيل إليها ان الناس يلتفتون ليرمقوها من وراء ظهرها ، ويشيرون إليها بأصبعهم . وكان الناس جميعا ينظرون إليها بالفعل وهى مارة بهم ، ولكن ما من احد منهم كان يحييها . وكان هذا الاحتقار الحاد البارد من جانب المارة ينفذ إلى لحمها وإلى روحها ، كأنه جمرة من نار !

وفى المدن الصغيرة تغدو المراة التعسة وكأنها فريسة عارية لسخرية الكافة وفضولهم . وليس الحال هكذا فى باريس ، فهناك على الأقل لا يعرفها احد ، وهذا الغموض كانه ثوب يسترها ! آه كم تمنت لو ذهبت إلى باريس ! ولكن هذا كان من المستحيلات .

لذا كان عليها أن تعود نفسها على الاحتقار ، كما تعودت الحاجة . وشيئا فشيئا اتخذت قرارها، وبعد شهرين او ثلاثة نفضت عنها الشعور بالخزى وراحت تخرج كأن شيئا لم يحدث ، وصارت تقول لنفسها : هذا لا يهمنى !

وجعلت تروح وتغدو عالية الرأس ، وعلى شفتيها ابتسامة مريرة ، وواتتها الجسارة .

واحيانا كانت مدام فكتيرنيان تراها من نافذتها وهى مارة فتحس أنها نجحت فى وضعها فى مكانها الصحيح ، وتهنىء نفسها . وللأشرار نوع من السعادة أسود اللون !

وانهك الانكباب على العمل فانتين ، وزادت عليها وطأة السعال الجاف ، وكانت تقول احيانا لجارتها مرجريت :

ـ المسى يدى ، كم هما ساخنتان !

ولكن فى الصباح عندما كانت تمشط شعرها بمشط قديم مكسر الأسنان وتجده ناعما كالحرير ، كانت تمر بها لحظة من السعادة بهذه النعمة !

الفصل العاشر

بقية النجاح

كانت قد طردت من عملها قرب نهاية الشتاء ، وانقضى الصيف . ولكن الشتاء عاد . والنهار فيه قصـــير . ولذا فالعمل اقل . وفى الشتاء لا ضياء ، ولا حرارة ، ولا ظهر ، فالصباح يلامس المساء ، وهناك الفسق والضباب ، والنافذة فيه رمادية ، والرؤية غير واضحة . والسماء كأنها كرة . ياله من فصل فظيع ! فالشتاء يحول ماء السماء إلى حجارة ، كما يحول قلوب البشر إلى حجارة . وأخذ دائنوها يطاردونها.

كانت فانتين تكسب اقل من القليل ، فتضخمت ديونها. وآل تنردييه الذين تأخرت مستحقاتهم يلاحقونها بالرســـائل التى يكريها مضمونها . وذات يوم كتبوا إليها ان صغيرتها كوزيت عارية تماما والبرد شديد ، وأنها بحاجة إلى تنورة من الصوف ، ولا بد للأم من إرسال عشرة فرنكات على الأقل لشرائها . وتلقت هذه الرسالة، وكورتها فى يدها طول النهار، وفى المساء دخلت محل حلاق عند زاوية الشارع ، وخلعت مشطها ، فتهدل شعرها الأشقر البديع إلى كليتيها ، وصاح الحلاق :

— ما اجمله من شعر !

فقالت له :

— كم تعطينى ثمنا له ؟

— عشرة فرنكات !

— قصه اذن !

واشترت تنورة من التريكو بعثت بها إلى آل تنردييه. واستشاط آل تنردييه غضبا ، فقد كانوا يريدون نقودا . واعطوا التنورة إلى ابنتهما الكبرى ابونين ، وظلت القبرة الصغيرة ترتجف من البرد .

وقالت فانتين فى نفسها :

— ها هى ابنتى لم تعد مقرورة . لقد كسوتها بشعرى!

وصارت تلبس قلنسوات صغيرة مستديرة تخفى راسها المجزوزة ، وكانت تبدو فيها جميلة رغم كل شىء .

وكانت خواطر معتمة تدور فى قلب فانتين . فقد حز فى نفسها فقدان شعرها الذى كانت تتيه به وتزهو ، وصـــارت تضمر الحقد والمقت لكل من حولها . وكانت تشارك النـــاس جميعا اجلالهم للأب مادلين . ولكن مع احساسها المتكرر بأنه هو الذى طردها ، وانه كان سبب ما هى فيه من شقاء وبلاء ، انتهى بها الأمر إلى كراهيته هو ايضا ، بل كرهته بصـــفة خاصة . وعندما كانت تمر أمام المصنع عندما يكون العمال أمام الباب ، كانت تتظاهر بالضحك والغناء . وقالت عاملة عجوز عندما رأتها تضحك وتغنى على هذه الصورة :

— هاكم فتاة ستنتهى إلى شر مآل .

وفعلا اتخذت لها عشيقا ، هو اول من التقت به . وكان رجلا لم تحببه . اتخذته عشيقا على سبيل التحدى ، وقلبها

يغلى بالغضب . كان رجلا بائسا ، موسـيقيا متسـولا ، وصعلوكا ، يضربها ، وفارقها كما التقى بها ، فى تقزز .

كانت تعبد طفلتها .

وكلما انحدرت . كان كل شىء يزداد من حولها قتامة ، ولكن يزداد سطوع نجم ذلك الملك الطاهر الصغير فى اعماق نفسها . وتقول لنفسها :

ـ عندما اغدو ثرية . ستكون ابنتى كوزيت معى .

ثم تضحك . ولم يكن السعال يفارقهـا ، ويتصـبب ظهرها عرقا .

وذات يوم تلقت من آل تنردييه خطابا هذا مضمونه :

ـ كوزيت مريضة . مصابة بمرض منتشر فى الإقليم : حمى عسكرية كما يقولون . ولا بد لها من عقاقير غالية الثمن . وهذا يرهقنا ولم نعد قادرين على دفع ثمنها . فما لم ترسلى إلينا اربعين فرنكا قبل مرور ثمانية ايام ، ماتت الصغيرة !

وما ان طالعت هذه الرسالة حتى قهقهت بالضحك ، وقالت لجارتها العجوز :

ـ آه ! ما اطيب قلبهما ! اربعون فرنكا ! يعنى جنيهين ذهبا ؟ ومن اين يحسبان انى يمكن ان احصل عليهما . ما اغبى هؤلاء الفلاحين !

ومع هذا اتجهت إلى السلم ، وتحت كوة هناك أعادت

قراءة الرسالة . ثم هبطت السلم وخرجت تجرى وتقفز ، وهى تضحك طول الوقت .

وقابلها شخص ، فسألها متعجبا :

ـ ماذا جرى لك حتى بلغ بك الابتهاج هذا المبلغ ؟

فاجابته :

ـ إنها سخافة كتبها إلى أناس من الريف . يطلبون منى اربعين فرنكا . تعسا لهم من فلاحين !

وعند مرورها من الميدان رأت جمعا محتشدا حول عربة غريبة الشكل ، وقد وقف فوقها رجل يخطب الناس فى ثياب حمراء . وكان هذا الرجل حكيم أسنان متجولا ، يعرض على الناس أطقم أسنان كاملة ، وأنواعا من المساحيق والأشربة .

واختلطت فانتين بالجمع الواقف هناك وهى تضحك مثل الآخرين من تلك الخطبة التى حفلت بتعبيرات مبتذلة للسوقة وعبارات سوية للناس المحترمين . ورأى خالع الأسنان هذه الفتاة الجميلة التى تضحك ، فصاح فجأة :

ـ لك أسنان جميلة يا فتاة . ولو بعتنى سنيك الأماميين ، لأعطيتك جنيها ذهبيا مقابل كل واحد منهما .

وصاحت فانتين :

ـ يا للفظاعة !

وزمجرت عجوز درداء (بلا اسنان) كانت واقفة :

ـ جنيهان ذهبيان ! ما اسعد حظها !

ولاذت فانتين بالفرار وسدت أذنيها حتى لا تسمع صوت الرجل الذى صاح بها :

ــ فكرى يا جميلة ! جنيهان ذهبيان ! مبلغ طيب . وإذا طاوعك قلبك وطابت بهذا نفسك تعالى هذا المساء إلى نزل « ظهر السفينة الفضى » تجدينى هناك !

ورجعت فانتين إلى البيت غاضبة اشد الغضب ، وروت الامر لجارتها الطيبة مرجريت ثم قالت :

ــ اتعقلين هذا؟ اليس هذا الرجل شنيعا؟ كيف يتركون رجلا كهذا يطوف الإقليم ؟ يريد ان يخلع لى السنين الأماميين ! ولكنى اصبح عندئذ فظيعة كريهة ! إن الشعر ينبت ثانية ، اما الأسنان ! آه ! يا للرجل الوحش ! إنى لأفضل على هـذا ان القى بنفسى من الطابق الخامس إلى الأرض ، وراسى إلى اسفل ! وقال لى بصفاقة إنه سيكون هذا المساء فى « ظهر المركب الذهبية » .

فسالتها مرجريت :

ــ وكم عرض عليك ؟

ــ جنيهين .

ــ يعنى اربعين فرنكا .

فقالت فانتين :

ــ نعم . يعنى اربعين فرنكا .

وظلت غارقة فى التفكير ، ثم اقبلت على عملها . ولكن بعد ربع ساعة تركت حياكتها وذهبت لتعيد قراءة الخطاب الذى وصلها من آل تنردييه على السلم .

وعندما عادت قالت لمرجريت التى كان تعمل بقربها :

ــ ما هى الحمى العسكرية ؟ أتعرفينها ؟

فقالت الفتاة العجوز :

نعم . انها مرض .

ــ إنه يحتاج إذن إلى عقاقير كثيرة .

ــ أوه . عقاقير هائلة !

ــ ومن اين ياتى للناس هذا المرض ؟

ــ هو مرض يصيب الناس هكذا .

ــ ويصيب الأطفال ايضا ؟

ــ يصيب الأطفال بصفة خاصة .

ــ وهل ينتهى بالموت ؟

فقالت مرجريت :

ــ فى كثير من الأحيان .

وخرجت فانتين إلى السلم لتعيد قراءة الخطاب .

وفى المساء نزلت ، وشوهدت تتجه صـوب شـارع باريس حيث توجد الفنادق .

وفى صباح اليوم التالى ، عندما دخلت مرجريت حجرة فانتين قبل طلوع النهار ــ لأنهما كانتا تعملان دائما معا وبذلك لا تشعلان إلا شمعة واحدة لهما معا ــ فوجدت فانتين جالسة على سريرها شـاحبة مقرورة كالثلج . ولم تكن قد رقدت طول الليل ، وقلنسوتها ملقاة فوق ركبتيها . وكانت الشمعة قد احترقت طول الليل فأوشكت على التلاشى .

ووقفت مرجريت على عتبة البـــاب ، وقد تســـمرت فى مكانها امام هذه الفوضى الشاملة وصاحت :

ـــ رباه ! لقد احترقت الشـــمعة باكملها ! لقد حدثت امور جسام إذن !

ثم نظرت إلى فانتين التى اتجهت إليها براسها الخالى من الشعر .

وكانت فانتين قد شـــاخت عشر سنين منـــذ الليـــلة الماضية . وصاحت مرجريت !

ـــ يا إلهى ! ماذا بك يا فانتين ؟

فاجابتها فانتين :

ـــ ليس بى شىء . بالعكس ! طفلتى لن تموت من هـــذا المرض الفظيع لافتقارها إلى العلاج ! أنا راضية ...

وفيما هى تقول ذلك ارت العجوز جنيهين ذهبيين كانا يلمعان فوق المنضدة .

فقالت مرجريت :

ـــ رباه ! إنهـــا لثروة ! من اين حصـــلت على هـــذين الجنيهين الذهبيين ؟

فاجابتها فانتين :

ـــ حصلت عليهما ...

وابتسمت . وكانت بقية الشمعة تضىء محياها ، فاذا ابتسامة دامية . واللعاب المدمم الاحمر يلطخ ركنى ثغرها . فقد كان فى مقدمة فمها ثقب اسود .

كان السنان منزوعين .

وارسلت الاربعين فرنكا إلى مونفرى .

ولكن كانت تلك مجـــرد حيلـــة من الاعيب آل تنرديبه للحصول على نقود . فكوزيت لم تكن مريضة .

والقت فانتين بمرآتهـــا من النافذة . وكانت قد تركت حجرتها الصغيرة بالطابق الثانى منذ زمن طويـــل واقامت فى علبة (سندرة) اسفل السقف المائل ، حيث يلتقى منحدر السقف بالارض وترتطم به فى كل لحظة . فالفقير لا يستطيع ان يمضى إلى نهاية حجرته إلا إذا انحنى ، ولم يعـــد عندها سرير ، وبقيت لديها خرقة كانت تتخذها غطاء ، وحشـــية من القش على الارض كانت ترقد فوقها . ولديها كرسى منزوع القش . وفى الركن اصيص به شجرة ورد منسية جف عودها ، ووعاء به ماء كان يتجمد فى الشتاء ، وكانت مستويات الماء المتفاوتة على جدرانه تتبقى منها دوائر من الجليد. لقد فقدت الخزى ، وها هى فقدت الدلال والفندرة . حتى انها صارت تخـــرج بقلنسوة قذرة . ولم تعد ترتق ثيابهـــا الداخلية إما لضـــيق الوقت او عن عدم مبالاة . وكان حذاءها فى حـــالة ســـيئة للغاية . وكان الدائنون يتشـــاجرون معهـــا باســـتمرار ، ولا يتركانها فى هدوء يوما واحدا : كانت تلقاهم فى الشـــارع ، او تقابلهم على الســـلم . وكم من ليلة قضـــتها باكية مؤرقة شـــاردة . وصارت عيناها شـــديدتى اللمعان ، وصـــار الم مستمر يخز كتفها ، وهى دائمة السعال . وينصب غضـــبها ومقتها كله على الاب مادلين . ولكنها لا تشـــكو لاحد . بل

كانت تشتغل بالحياكة سبع عشرة ســاعة فى اليوم . ولكن متعهد توريد الملابس للسجون ، وكانت تعمل لحسابه ، لم يلبث ان خفض الأجر ، بحيث هبط اجرها إلى تسعة صلديات فى اليوم . فسبعة صلديات لقاء عمل كادح دائب سبع عشرة ساعة فى اليوم ! وزاد دائنوها قسوة وضراوة . وكان تاجر الأثاث المستعمل الذى استرد معظم اثاثه يقول لها دائما :

ــ متى تسددين دينك لى يا عاهرة ؟

ماذا يريدون منهــا إذن ؟ لقد شعرت انهــا مطاردة ، وصارت تحس انها حيوان تتبعه كلاب الصيد بلا رحمــة . فلا عجب تنقلب كائنا شرسا متوحشا .

وحوالى هذا الوقت كتب إليها تنردييه ان صبره طال حتى نفد ، وانه عاملها بكل طيبة ، ولكن لا بد له من الحصول على مائة فرنك فورا ، وإلا طرد الصغيرة المسكينة كوزيت ، وهى لم تزل فى دور النقاهة من مرضها الخطير ، لتتشرد فى البرد القارص فى الشوارع ، معرضة للهلاك جوعا وبردا .

وقالت فانتين فى نفسها :

ــ مائة فرنك ؟ ولكن كيف الســبيل إلى كســب مائة صلدى ــ لا مائة فرنك ؟

ثم قالت اخيرا :

ــ فلنبع ما تبقى !

ولم يكن تبقى لها شىء سوى حطام جسدها .

وهكذا غدت المنكودة مومسة عمومية

الفصل الحادى عشر

الرب يخلصنا

وما هى حكاية فانتين هذه ؟ إنها قصــة شراء المجتمع لجارية .

وما السبب ؟

إنه الفاقه ! إنه الجوع والبرد والوحشـــة والهجر . وإنها لصفقة تعسة ! تباع فيها روح بشرية لقاء كسرة خبز . البائع فيها هو الفاقة . والمشترى فيها هو المجتمع !

إن القانون السماوى يحكم حضارتنا اسما ، ولكنه لم ينفذ بعد إلى صميمها . ويقــال إن الرق قــد اختفى من الحضارة الأوربية . وهذا خطأ ! فالرق لم يزل موجــودا . ولكنه لم يعد جاثما إلا على صــــدر المراة ، واسمه الحديث هو البغاء !

إنه يجثم على صدر المراة ، وينتهك ضعفها . ويفترس رشاقتها وجمالها وامومتها . وليس هذا عارا يسيرا ووصمة هينة للبشرية .

وفى المرحلة التى وصلت إليها احوال فانتين ، لم يكن قد بقى لها من جمالها السابق إلا اقل القليل . وغدت حجارة صماء لا حياة فيها حين تحولت إلى وحل . فكل من لمســـها

احس قشعريرة البرد . وعندما تمر امام الناس تتجاهلهم ، فهى صورة للعار والصرامة معا . والحياة والمجتمع قالا لها كلمتهما الأخيرة ، واصابها اسوا ما يمكن ان يصيبها . وقد تحملت كل شىء ، وتألمت من كل شىء ، ونزلت عن كل شىء ، وفقدت كل شىء ، وبكت كل شىء ، وصارت مستسلمة ذلك الاستسلام الذى يشبه عدم المبالاة مثلما يشبه الموت النعاس. ولم تعد تتحاشى شيئا ، او تخشى شيئا . فلتسقط عليها كل السحب وليجرفها المحيط ! انها كالغريقة فما خوفها من البلل؟

هذا ما اعتقدته . ولكن المرء يخطىء إن ظن انه وصل إلى قاع المحن الذى ليس بعده قاع . فليس يعرف ما يخبئه لنا القدر غدا إلا علام الغيوب . وهو الله وحده .

الفصل الثانى عشر

تبطل المسيو بماتبوا BAMATABOIS

في جميع المدن الصغيرة ، وفى مدينة «م» على الخصوص فئة من الشبان ينفقون الفا وخمسمائة جنيه إيرادا فى الريف بنفس الأسلوب الذى يلتهم به امثالهم مائتى الف فرنك فى السنة إنهم افراد من نوع خامل طفيلى . يملكون شيئا من الأرض الزراعية ، وفيهم شىء من البلاهة ، وشىء من الفكاهة ، بحيث يبدون اجلافا فى اى صالون ، ولكنهم يخالون انفسهم سادته من العلية فى الحانة ، ويتشدقون بالكلام عن مراعيهم ، وعن غاباتهم ، وعن فلاحيهم ، ويصفرون للممثلات فى المسرح ليثبتوا انهم من اهل الذوق الرفيع ، ويتشاجرون مع ضباط الحامية ليثبتوا انهم من رجال الحرب ، ويقبلون على الصيد ، وعلى التدخين ، ويتشممون الطباق ، ويلعبون البلياردو ، ويتأملون المسافرين وهم يهبطون من الحافلات ، ويعيشون فى المقهى ، ويتغدون فى النزل ، ويصحبهم كلب ياكل العظام تحت المائدة، وعشيقة تضع الأطباق فوقها ، ويدققون فى إنفاق كل صلدى ، ويغرقون فى اتباع موضات الأزياء ، ويعجبون بالمآسى ، ويحتقرون النساء ، ولا يقومون بأى عمل ، ولا فائدة منهم ، واضرارهم هينة مثلهم .

فلو كان المسيو فليكس توموليس بقى فى الريف ولم ير باريس قط ، لكان واحدا من هؤلاء .

ولو كانوا اثرى مما هم لقيل عنهم إنهم من اهل الاناقة . ولو كانوا افقر مما هم لقيل عنهم انهم « تنابلة » . اما هم فهم ببساطة « متبطلون » . ومن بين هؤلاء المتبطلين افراد مملون ، وملولون ، ومغرقون فى الخيال ، وبعضهم غريبو الاطوار مضحكون .

وفى ذلك الحين كان المتانق من هؤلاء له ياقة كبيرة ، ورباط عنق كبير ، وساعة لها سلسلة ذهبية ، وصدار ملون او اكثر من صدار بعضها فوق بعض ، وبدلة على آخر طراز وحذاء له توكة ، وفى وجهه شارب ، وفى حذائه مهماز ... ومتانق الريف يعنى بأن يكون شاربه ضخما ومهمازه اطول !

وكانت هذه بعينها فترة صراع جمهوريات امريكا الوسطى ضد ملك اسبانيا ، او صراع بوليفار BOLIVAR ضد موريلو MORILLO . فكانت القبعات ذات الطنف الصغير تدل على الملكيين ، اما المتحررون فيلبسون قبعات لها طنف كبير . وكانت قبعات النوع الأول تسمى موريلو ، وقبعات النوع الثانى تسمى بوليفار .

وبعد انقضاء ثمانية او عشرة اشهر على مارويناه فى الصفحات السابقة ، وفى اوائل شهر يناير سنة ١٨٢٣ ، فى مساء يوم تساقط فيه الثلج ، كان احد هؤلاء المتانقين المتبطلين ،يرتدى «الموريلو» (شعار الملكيين) ومعطفا كبيرا من النوع الذى يكمل فى ليالى الشتاء الذى على آخر طراز — كان هذا الشخص جالسا فى المقهى يضايق مخلوقة تطوف بذلك الشارع فى ثوب للرقص واسع الفتحات وعلى راسها

زينة من الأزهار ، وتقف امام واجهة مقهى الضباط . وكان هذا المتانق يدخن ، لأن هذه كانت هى الموضة .

ولكما مرت امامه هذه المراة ارسل إليها مع دخان سيجاره كلمة ساخرة يخالها فكهة مرحة ، مثل :

— كم انت قبيحة ! .. لماذا لا تغطين وجهك ؟ — ليست لك اسنان ! الخ الخ ...

وكان هذا السيد يسمى المسيو بماتبوا . وهذه المراة كالشبح تروح وتغدو فوق الثلج ولا ترد عليه ، ولا تنظر إليه ، وراحت تواصل سيرها فى صمت تام فى انتظام دقيق يعيدها كل خمس دقائق إلى مرمى قذائف سخريته ، وكانها جندى محكوم عليه بالجلد . واغتاظ هذا المتبطل الكسول لعدم مبالاتها ، فانتهز فرصة استدارتها وتقدم من خلفها بخطى مختلسة كانه الذئب ، وهو يكتم الضحك ، وانحنى فتناول من الأرض قبضة من الثلج رماها فجاة على ظهرها من فتحة الثوب ، فيما بين الكتفين العاريتين فاطلقت الفتاة صرخة حادة واستدارت إليه ووثبت عليه كالفهد ، وغرست اظافرها فى وجهه وهى تكيل له اقذع الألفاظ والسباب ، وكانت هذه القذائف من الشتائم تندفع محملة برائحة الشراب الرخيص من فمها الذى ينقصه السنان الأماميان . فقد كانت هذه المراة هى فانتين .

وعلى صوت الضجة خرج الضباط يتزاحمون من المقهى . وتجمع المارة ، فتكونت حلقات كبيرة ضاحكة تصفق وتتصايح

حول هذين المخلوقين المتصارعين بعنف بحيث لا تميز فيه المرأة من الرجل . وقد وقعت قبعة الرجل على الأرض ، وراحت المرأة تضربه بيديها ورجليها ، وقد وقعت قلنسوتها فصارت بلا شعر وبلا أسنان . ووجهها مكفهر بثورة الغضب الجائح .

وفجاة خرج من وسط الجمع رجل طويل القامة ، وامسك بالمرأة من ثوبها الساتان الملطخ بالوحل ، وقال لها :

ــ اتبعيني !

فرفعت المرأة راسها ، وسكت صوتها الغاضب فجأة ، وارتجفت رجفة رعب هائلة . فقد عرفت فى هذا الرجل الطويل جانير .

وانتهز الرجل المتانق الفرصة ونجا بنفسه لائذا بالفرار.



وانحنى فتناول من الأرض قبضة من الثلج رماها فجاة على ظهرها من فتحة الثوب ..

الفصل الثالث عشر

حل بعض مسائل الشرطة المحلية

ابعد جافير الحاضرين ، وحطم الحلقة ، ثم سار بخطى واسعة إلى مكتب الشرطة القائم فى نهاية الميدان ، وهو يجر وراءه البائسة . وانقادت له بصورة آلية . فلا هى ولا هو نطقا بأى كلمة . وتبعهما حشد من الناس وهم يتفكهون بمزاح ثقيل ، فقمة التعاسة مناسبة لدى الغوغاء للكلام النابى .

ولما وصل جافير إلى مكتب الشرطة ــ وهو عبارة عن قائمة منخفضة السقف جيدة التدفئة ، ويحرسها شرطى ــ فتح الباب الزجاجى المحصن بالقضبان والمفضى إلى الشارع، ودخل مع فانتين واغلق الباب وراءه ، فخاب امل الفضوليين الذين صاروا يشبون على اطراف الأصابع لينظروا من الزجاج ، لعلهم يرون شيئا مما يدور بالداخل . والفضول نوع من النهم . والرؤية نوع من الالتهام .

ما إن دخلت فانتين حتى القت بنفسها فى ركن وجمدت وخرس لسانها ، مقعية كأنها كلبة خائفة .

وجاء جندى من الحرس بشمعة مشتعلة فوضعها على منضدة . وجلس جافير واخرج من جيبه ورقة مدموغة وشرع يكتب .

وهذه الفئة من النساء تضعها قوانيننا تحت رحمة

الشرطة بالكلية ، بحيث تستطيع الشرطة ان تصنع بهن ما تشاء ، وتصادر على هواها مهنتهن وحريتهن فى آن واحد.

وكان جافير صارما ، ووجهه جادا ولا ينم على اى انفعال ، ولكنه كان شديد الانشغال فى الوقت نفسه ، فهو فى لحظة من اللحظات التى يمارس فيها بكل ذمة وتدقيق صارم سلطته الأمنية الرهيبة . إنها لحظة يحس فيها كرسيه وكأنه منصة القضاء . فهو يحكم . يصدر الحكم ويامر بتنفيذه . ولذا فقد راح يستجمع كل ما فى ذهنه من افكار حول المهمة العظيمة التى يقوم بها الآن . وكلما تمعن فى حالة هذه الفتاة ، شعر باتقاد ثورته واستنكاره . فما من شك عنده فى انه راى بعينى راسه جريمة ترتكب . راى ، هناك فى الشارع ، المجتمع ممثلا فى صاحب املاك وناخب تهينه وتهاجمه مخلوقة من الحثالة . راى مومسة بغيا تعتدى على بورجوازى . لقد راى هذا بعينيه . وراح جافير يكتب فى صمت .

ولما انتهى من الكتابة وقع التقرير بامضائه ، وطوى الورقة وقال لرقيب المحضر وهو يسلمها له :

ــ خذ ثلاثة رجال معك واذهب بهذه الفتاة إلى الحبس.

ثم التفت إلى فانتين وقال :

ــ ستبقين فى الحبس ستة اشهر !

فارتجفت المسكينة التعسة وصاحت :

ــ ستة اشهر ! ستة اشهر فى السجن ! ستة اشهر اتقاضى فيها سبعة صلديات فى اليوم! لكن ماذا سيكون من امر

كزيت ! ابنتى ! ابنتى ! ولكنى لم ازل مدينة لآل تنرديبه بأكثر من مائة فرنك يا سيدى المفتش . اتعرف هذا ؟

وراحت تزحف فــوق بــلاط الأرض الذى بللته احذية الرجال الموحلة من غير ان تنهض ، وقد ضمت يديها ، وركعت على ركبتيها . وانشأت تقول :

— يا مسيو جافير ! إنى اســالك الصفح ! واؤكد لك انى لم ارتكب خطأ . ولو انك رايت المسالة من البداية لتبين لك هــذا . اقسم لك بالله العظيم اننى لست المخطئـــة . بل هذا السيد البورجوازى الذى لا اعرفه هو الذى وضع الثلج فى ظهرى وانا مارة هكذا بهدوء فى الشارع من غير ان اتعرض بالأذى لأحد ! لقد اثارنى هذا . فانا مريضة بعض الشىء . وقد فعل هذا بعد ان ظل فترة يلاحقنى بمضايقته وكلماته النابية . قال لى انت قبيحة الشكل . وانت بلا اسنان . وانا اعــرف جيدا اننى صرت بلا اسنان . ولكنى لم ارد عليــه . قلت فى نفسى هــذا سيد يتلهى . كنت امينة معــه . لم اكلمــه وفى هذه اللحظة وضع الثلج فى ظهرى . يا مســيو جافير . يا سيادة المفتش ! الا يوجد احد هنا ممن شاهدوا هذا الذى حدث ليقول لك إن ما اقوله هو الحقيقة ؟ لعلى اخطات لانى غضبت . والمرء كما تعلم فى لحظة المفاجاة لا يتمالك نفسه . ويثور . ثم هو قد وضع هذا الثلج البارد فى ظهرى على حين غرة . اجل انا مخطئة لانى اتلفت قبعــة هذا السيد . ولكن لمــاذا انصرف ؟ كنت خليقة ان اقدم إليه الاعتذار . آه ياربى لم يكن يهمنى ان اعتذر له . سامحنى هــذه المرة يا مسيو

جافير . انت تعلم ان السجين لا يتقاضى إلا سبعة صلديات فى اليوم . ولست اقول إن هذا خطأ من الحكومة ، ولكن تصور اننى مدينة بمائة فرنك وإلا طردوا ابنتى . ارسلوها إلى هنا آه ياربى ! انا لا اريدها معى . إن ما افعله سيىء جدا . آه يا حبيبتى كوزيت . يا ملاكى يا هبة العذراء المقدسة . ماذا يكون مصيرها هنا بين الذئاب ! سأقول لك ! إن آل تنرديبه من الفلاحين الذين لا عقــل لهم ولا يعرفــون الرحمـــة ! كل ما يريدونه هو النقود ! فلا تلقنى فى السجن ! فمعنى هذا إلقاء طفلة صغيرة فى الشارع . فى قلب الشتاء ! شيئا من الرحمة بهذه الصغيرة يا مسيو جافير الطيب ! فلو كانت اكبر ســـنا لأمكنها ان تكسب عيشها ، ولكنها صغيرة لا تستطيع شيئا فى هــذه السن . وانا لست امراة شريرة فى اعماقى . وليس الطمع ولا الخساسة هما الذى جعلانى هكذا . وقد شربت الخمر ، ولكن بسبب تعاستى . ولست احب الخمر ، ولكنها تسكر وتلهى ، عندما كنت اسعد حالا كان الناظر فى صوان ملابسى يدرك اننى امراة فاضلة وحسنة الترتيب ، وكانت عندى ملابس داخلية كثيرة . ارحمنى يا مسيو جافير !

كانت تتكلم هكذا وهى منحنية نصفين ، تهزها الشهقات والنشيج ، وتعميها الدموع ، عارية النحر ، تعض يديها ، وتسعل سعالا جافا فقيرا . والالم الكبير يغير ملامح البؤساء . ولذا تحولت فانتين فى هذه اللحظة إلى امراة جميلة . وبين لحظة واخرى كانت تتوقف عن الكلام وتلثم ردنجوت مفتش الشرطة . وكان هــذا خليقا ان يعطف عليهــا قلبــا من الجرانيت . ولكن لا سبيل إلى إلانة قلب من الخشب !

وقال جافير :

— هيا! لقد سمعت ما قلت . فهل فرغت من كل اقوالك؟ سيرى الآن ، فلا بد لك من قضاء الشهور الستة فى السجن! والأب السماوى الأبدى نفسه لن يستطيع لك شيئا !

وعند سماع هذه العبارة الرهيبة :

— الأب السماوى الأبدى نفسه لن يستطيع لك شيئا !

ادركت ان الحكم قد صدر ، فانهارت متهالكة وصاحت:

— الرحمة !

وادار جافير ظهره ، وامسك الجنود بذراعيها .

ومنذ بضع دقائق كان رجل قد دخل من غير ان يلقى احد إليه باله ، واقفل الباب، ووقف وظهره إليه ، وسمع تضرعات فانتين القانطة .

وفى اللحظة التى وضع فيها الجنود ايديهم على المسكينة التعسة التى لا تريد ان تنهض ، تقدم خطوة ، فخرج من نطاق الظل إلى نطاق ضوء الشمعة وقال :

— لحظة من فضلكم !

فرفع جافير عينيه وعرف المسيو مادلين ، فخلع قبعته احتراما ، وحياه فى ارتباك مشوب بالغضب ، وهو يقول :

— معذرة يا سيدى العمدة !

وكان لهذه الكلمة « سيدى العمدة » على فانتين تأثير غريب . فانتصبت واقفة على الفور دفعة واحدة كأنها شبح خرج من جوف الأرض ، ودفعت الجنود بذراعيها واتجهت مباشرة إلى المسيو مادلين ، قبل أن يتسع امامهم الوقت لمنعها ، ونظرت إليه محدقة فى وجهه بذهول وصاحت :

— آه ! انت إذن سيادة العمدة !

ثم انفجرت ضاحكة ، وبصقت فى وجهه !

فمسح مسيو مادلين البصقة وقال :

— المفتش جافير ! اطلق سراح هذه المراة !

فكاد يجن جنون المسيو جافير. واجتمعت عليه فى هذه اللحظة اعنف الانفعالات المتناقضة التى عرفها فى حياته . فقد راى فتاة عمومية ، عاهرة محترفة ، تبصق فى وجه عمدة ، وهذا فى حد ذاته عمل يعد مجرد التفكير فيه بمثابة التجديف على رب العالمين ! وفى الوقت نفسه كان يقارن ويقارب بين هذه الفتاة وما يمكن ان تكون حقيقة هذا العمدة الخفية . وعندئذ راى فى ذلك العمل الفظيع من جانب الفتاة نوعا من البساطة الطبيعية . ولكنه عندما راى هذا العمدة — رجل الدولة — يمسح وجهه بهدوء ويقول :

— اطلق سراح هذه المراة !

اعتراه ذهول شديد ، فتوقف عقله عن التفكير ، وتوقف لسانه عن الكلام . وكانت حصيلة دهشته تفوق كل حد ، فظل صامتا .

ولم تكن هـذه العبارة اقل ادهاشـا لفانتين ، فرفعت ذراعها العارى، واتكأت على حافة المدفاة كمن تخشى السقوط على الأرض ، وراحت تنظر فيما حولهـا ، ثم شرعت تتكلم بصوت خفيض ، كأنما تحدث نفسها :

— يطلق سراحى ؟ يتركنى أذهب اين أشاء ؟ لا أقضى فى السجن ستة أشهر؟ ومن الذى قال هذا؟ مستحيل ان يكون هذا قيل فعلا ! لقد اخطأت السمع ! فلا يمكن أن يكون المتكلم هـذا العمدة الوحش ! اهو انت الذى تكلم يا مسـيو جافير الطيب ؟ انت الذى قلت اطلقوا سراحها ؟ ارايت ؟ سأقول لك كل شىء وستتركنى امضى لحال سبيلى . إن هذا العمدة الوحش . هذا الوغد المسن الذى جعلوه عمدة ، هو السبب فى كل شىء حدث لى . تصور يا مسيو جافير أنه طردنى من عملى ! وبسبب حفنة من الخسيسـات ينشرن الأراجيف فى الورشة . اليس هذا فظيعا ؟ يطرد فتاة مسكينة تقوم بعملها فى أمانة وشرف ! ولم استطع بعد ذلك أن أكسب من العمل ما فيه الكفاية ، وبدأ الشـقاء كله ، وهنـاك شىء يجب ان تصنعه الشرطـة اولا . هنـاك تحسين يجب تحقيقه فى السجون . فالمتعهدون خفضوا الاجر اليوم لحياكة القمصان من ١٢ صلديا إلى تسعة صلديات . وبذلك لا تجـد العاملة ما يكفى للقوت الضرورى. وعندئذ تصنع ما تستطيع لتعيش. وانا عنـدى طفلتى كوزيت ، فكان لابد ان اتحـول إلى امراة ساقطة . افهمت الآن يا مسيو جافير ان هـذا العمدة النذل هو سبب المصيبة كلها التى حلت بى واوصلتنى إلى هـذه الحالة . وبعد ذلك اتلفت قبعة ذلك السيد البورجوازى امام

مقهى الضباط . ولكنه بدأ فأفسد لى ثوبى كله بالثلج . ومثيلاتى لا يملكن إلا ثوبا حريريا واحدا للمساء . فها انت ترى يا مسيو جافير انى لم اصنع الشر عمدا . وانا حولى نساء اسوأ منى يعشن سعيدات . أوه يا مسيو جافير ! انت الذى قلت لهم يطلقوا سراحى ! اليس كذلك ! قم بتحرياتك ، واسال صاحب بيتى ، يقل لك إنى اقوم بدفع الايجار فى موعده الآن . سيقول لك الجميع إنى امينة فى معاملاتى ! اسالك الصفح يا مسيو جافير فقد اتكأت على مفتاح المدفاة فبدأ دخانها يتصاعد .

وكان المسيو مادلين يصغى لها بكل انتباه . وبينما هى تتكلم فتش فى جيب صداره . وأخرج كيسه وفتحه ، ولكنه وجده خاويا ، فأعاده إلى مكانه وقال لفانتين :

— بكم قلت انك مدينة ؟ كم يبلغ دينك ؟

فالتفتت إليه فانتين ، التى كانت متجهة إلى جافير دون سواه وصاحت به :

— وجهت إليك انت الكلام ؟

ثم التفتت إلى الجنود وسألتهم :

— ارايتم كيف بصقت على وجهه ؟ يا للعمدة الوغـد ! لقد اتيت إلى هنـا كى تخيفنى ولكنى لا اخافك . بل اخـاف مسيو جافير . اخاف مسيو جافير الطيب وحده !

والتفتت نحو المفتش قائلة :

— ها أنت ترى يا سـيادة المفـتش . ويجب ان تكون منصفا . وانا اعرف انك منصف . وهذا امر بسيط فى الواقع .

سيد يضع الثلج فى ظهر امراة ، هذا شىء يضحك الضباط ، وهذا طبيعى ، فمثيلاتى مهمتهن تسلية السادة ! ثم اتيت أنت، وعليك مسئولية حفظ النظـــام ، وتقتاد المراة إلى المخفر ، ولكن بعد التفكير ، وبما انك رجل طيب ، امرتهم ان يطلقوا سراحى ، من اجل خاطر ابنتى الصغيرة . لان شهور السجن الستة ستمنعنى من إطعام طفلتى ! ولكن إياك والعودة لهذا يا فاجرة ! اقسم لك انى لن أعود لذلك يا مسـيو جافير ! وليصنعوا منذ الآن ما شاءوا ، فلن ابالى ولن اتململ! اما اليوم فقد صرخت لان ذلك كان مؤلما . ولم اكن اتوقع ابدا ان يضع هذا السيد الثلج فى ظهرى . ثم إن صـحتى معتلة وينتابنى السعال . واحس كأن فوق معدتى كرة محـرقة ، وقال لى الطبيب إنى بحاجة إلى علاج . هات يدك تحسس معدتى . هيا ! لا تخف إن الالم ها هنا .

لم تكن تبكى ، بل كان صوتها ملاطفا ، وضغطت على نحرها الأبيض الرقيق يـد جافير الكبيرة الخشـنة ، وهى تنظر إليه باسمة .

وفجاة سوت اضطراب ثيابها وأنزلت ثنايا ذيلها التى ارتفعت وهى تزحف إلى مستوى ركبتيها ، وسارت نحـو الباب وهى تقول للجنود بهزة ودية من راسها :

ـ لقد امر السيد المفتش باطلاقى ، وها انا اذهب .

ووضعت يدها على الأكرة . وبعد خطوة واحدة تصير فى الشارع .

وكان جافير حتى تلك اللحظة قد ظل واقفـا ، جامد الأوصال ، مطرقا إلى الأرض ، كأنه تمثال فى غير موضـعه ينتظر ان ينقلوه إلى مكانه الصحيح . ولكن صـوت تحريك الأكرة ايقظه من شروده ، فرفع راسه فى ضراوة السـلطة الوحشية التى يتميز بها ذوو السلطان من السفلة وصاح :

ـ ايها الرقيب ! (الجاويش) الا ترى هذه المراة تهم بالخروج ؟ من الذى قال لك اطلقها ؟

فقال مادلين :

ـ أنا !

وكانت فانتين عند سماع صوت جافير قـد ارتجفت وتركت الأكرة كما يترك السارق الشىء المسروق. ولما سمعت صوت مادلين التفتت ، ومن غير أن تقـول كلمة واحدة راح بصرها يتنقل من جافير إلى مادلين ومن مادلين إلى جافير ، كلما تكلم احد منهما .

ولابد ان جافير طاش صوابه ، حتى وجه إلى الرقيب هذا الزجر ، بعد ان طلب العمدة إطلاق سراح فانتين . فهل وصل به الحال إلى إغفال وجود سيادة العمدة ؟ اوصـل به الحال إلى اعتقاد انه ما من سلطة يمكن أن تصدر هذا الأمر ، او أن سيادة العمدة قال غير ما كان يريد ان يقول ؟ ام انه بازاء ما رآه من انقلاب الأوضاع خال أن وضعه ايضا انقلب فصار هو الأكبر والعمدة هو المرءوس ؟ وأن المجتمع والدولة والقانون صارت مجسدة فى شخص جافير ؟

ومهما يكن من شيء، فقد قال المسيو مادلين كلمة « أنا » وإذا بمفتش الشرطة جافير يلتفت نحو سيادة العمدة شاحبا باردا ، وقد ازرقت شفتاه وشردت نظراته ، وقال له خافض البصر ، ولكن ثابت الصوت بحزم :

— يا سيادة العمدة . هذا غير ممكن !

فقال مادلين :

— وكيف هذا ؟

— هذه التعسة اهانت بورجوازيا !

فقال مادلين بهدوء ومسالمة :

— أيها المفتش جافير ! اسمع ! انت رجل شريف ، وانا لا امانع فى التفاهم معك . وإليك الحقيقة . لقد كنت مارا بالميدان وانت تقتاد هذه المراة ، وكانت هناك بقايا من حشود الناس ، فاستفسرت منهم وعرفت كل شيء . البرجوازى هو الذى اخطأ ، وكان يجب على الشرطة ان تقوم بواجبها فتقبض عليه .

فقال جافير :

— هذه البائسة أهانت سيادة العمدة .

فقال مسيو مادلين :

— هذا امر يخصنى . والإهانة وجهت إلى ، وانا حر التصرف فيها .

— عفوا يا سيدى العمدة . الإهانة لم تلحق بشخصك . بل بالعدالة !

— ايها المفتش جافير . إن اول عدل هو الضمير . وقد سمعت هذه المراة . وانا اعرف ماذا اصنع .

— وانا يا سيدى العمدة لا افقه ما ارى ...

— إذن عليك ان تقنع بالطاعة !

— انا اطيع واجبى . وواجبى يقضى بأن تقضى هذه المراة ستة اشهر فى السجن !

فاجابه المسيو مادلين بدماثة :

— اسمع جيدا ما اقوله لك . انها لن تسجن يوما واحدا !

وعندئذ تجاسر جافير على التحديق فى وجه العمدة ، وقال له بصوته الذى يفيض بالاحترام :

— انا آسف لمقاومة سيادة العمدة ، فهذه اول مرة فى حياتى اقدم فيها على ذلك . ولكن اسمح لى أن اقول لك انى اتصرف فى دائرة اختصاصى . وما دام سيادة العمدة يريد التنازل عن حقه ، فانا اتمسك بما حدث من اعتداء على البورجوازى . فقد كنت هناك . ورايت هذه الفتاة تهجم على المسيو بماتبوا وهو ناخب وصاحب لملاك ، ويملك ذلك البيت الجميل ذا الشرفة المكون من ثلاث طوابق من الحجر المنحوت ! وفى الدنيا امور يجب مراعاتها . ومهما يكن من شيء يا سيادة العمدة فهذا حادث من اختصاص شرطة الطريق ، وهذا هو اختصاصى ، ولذا فسوف أستبقى المراة فانتين .

وعندئذ عقد المسيو مادلين ذراعيه وقال بصوت صارم لم يسمعه منه احد فى المدينة كلها من قبل :

ــ الحادث الذى رويته من اختصاص شرطة البلدية ، وبمقتضى نص المواد ٩ و ١١ و ١٥ و ٧٠ من القانون الجنائى انا القاضى الطبيعى فى هــذه الحوادث . وانا آمر ان يطلق سراح هذه المراة .

وحاول جافير ان يبذل جهدا اخيرا ، وقال :

ــ ولكن يا سيادة العمدة . .

ــ واذكرك فى الوقت نفسه بالمـــادة ٨١ من القـــانون الصادر فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ بشأن الحجز التعسفى !

ــ اسمح لى يا سيدى العمدة ان . .

ــ ولا كلمة واحدة !

ــ ومع هذا . . .

فقال مادلين :

ــ اخرج !

وتلقى جافير الضربة واقفا ، كاللطمة على وجهه ، وحيا منحنيا إلى الأرض سيادة العمدة وخرج على الفور !

وكانت فانتين بجوار الباب ، ورأته يمر امامها فى ذهول . ولكنها فى الوقت نفسه كانت فى حالة اضطراب لا مزيد عليه . فقد شهدت وسمعت مشاحنة بين ســـلطتين متعارضـــتين ،

ورأت بعينيها رجلين بيدهما حريتها وحياتها وروحها وطفلتها ، واحد هذين الرجلين يشدها ليدسها فى الظلام ، والآخر يدفع بها إلى النور . فبدا لها هذان الرجلان كأنهما عمـــلاقان ، احدهما يتكلم كالشيطان ، والآخـــر يتكلم كأنه ملك كريم . وها هو الملك هزم الشيطان . ولكن هزها من رأسها إلى قدمها ان هذا الملك الكريم هو نفســه الرجل الذى كانت تمقته ، وهو هذا العمدة الذى قضت امدا طويلا وهى تحسبه سبب كل ويلاتها . ولكن فى نفس اللحظة التى اهانته فيها إهانة فظيعة ناضل لإنقاذها ! اتراها كانت مخطئة ؟ وراحت ترتجف. كانت تصغى زائغة البصر ، وتنظر مذعورة ، ومع كل كلمة تفوه بها المسيو مادلين كانت تشعر أن اعماقها تنصهر وتتبدد منها ظلمات الحقد ويتولد فى قلبها عرفان لا حد له ، وفرح ، وثقة ، ومحبة .

ولما خرج جافير ، التفت نحوها المسيو مادلين وقال لها بصوت متمهل ، وهو يغالب نفسه كى يتكلم بجد من غير أن يبكى :

ــ لقد سمعتك . ولم اكن اعرف شيئا من كل ما ذكرت. ولكنى اشعر انك صادقة . لماذا لم تلجئى إلى؟ ولكن ما علينا: سادفع كل ديونك . وساستقدم طفلتك او تذهبين انت لتلحقى بها . وساتكفل بك وبابنتك . وتعيشين هنا او بباريس او حيث شئت . ولن تعملى بعد اليــوم إن أردت هـــذا . لانى ساعطيك كل ما يلزمكما من نقود. وستعودين كما كنت شريفة سعيدة . وإذا كان ما قلت صحيحا فانا اعلن انك كنت دائما شريفة بالقلب والنية امام الله . يا لك من مسكينة !

وكان هذا أقوى من احتمال فانتين ! تسترد كوزيت ؟ تترك حياة العار ؟ تعيش حرة غنية سعيدة شريفة مع كوزيت؟ تعيش فجاة فى فردوس ارضى ! وراحت تنظر كالمذهولة إلى هذا الرجل الذى يتكلم ، ولم يسعها إلا ان تنخرط فى البكاء . وركعت أمام المسيو مادلين ، وقبل ان يتمكن من منعها كانت قد تناولت يده وطبعت شفتيها فوقها ..

ثم غشى عليها ...

الكتاب السادس

جـــــافير

الفصل الأول

بدايـــة الراحـــة

نقل المسيو مادلين فانتين إلى ذلك المستوصف الذى اقامه فى بيته . وعهد بها إلى الراهبات اللواتى ارقدنهـا فى الفراش . وعانت من حمى شديدة ، وقضت جانبا من الليـل تهذى وتتكلم بصوت مرتفع ، ولكنها نامت فى النهاية .

وفى اليوم التالى ، حوالى الظهر ، استيقظت فانتين ، وسمعت تنفسـا قريبا جدا من فراشها . فأزاحت سـتار الفراش ورات المسيو مادلين واقفا ينظـر إلى شىء ما فوق راسها ، وكانت هذه النظرة تفيض بالشفقة والقلق والتوسل . فتعقبت نظرته فراتها موجهة إلى صليب مسمر فى الجدار .

وكانت صورة المسيو مادلين قد انقلبت فى عينى فانتين، فصار يبدو لها فى هالة من نور . وهو فى هذه اللحظة مستغرق فى الصلاة والدعاء . فنظرت إليه طويلا من غير ان تجسر على مقاطعته ، واخيرا قالت له على استحياء :

ـ ما هذا الذى تصنعه ؟

وكان المسيو مادلين قد قضى فى مكانه هذا زهاء ساعة ، فى انتظار يقظة فانتين، فتناول يدها ، وجس نبضها واجابها :

ـ كيف حالك الآن ؟

فقالت :

ـ بخير . لقد نمت . واعتقد انى تحسنت .

وعندئذ اجابها عن سؤالها الأول ، كأنه لم يسمعه إلا الآن :

ـ كنت اصلى لهذا الشهيد العلوى ...

واكمل فى نفسه عبارته قائلا :

ـ لأجل هذه الشهيدة التى على الأرض !

ذلك ان المسيو مادلين قد قضى الليل وهذا الصباح فى الاستخبار ، وصار الآن يعرف كل شىء . عرف قصة فانتين بكل تفصيلاتها الأليمة ، واستطرد :

ـ لقد قاسيت كثيرا ايتها الأم المسكينة ! لا تبتئسى ، فلديك الآن بائنة مختارى الرب . فعن هـذا الطريق يتحول البشر إلى ملائكة . فالذنب ليس ذنبهم ، لأنـه ليس أمامهم طريق آخر . واعلمى ان هذا الجحيم الذى خرجت منه الآن هو أول صور السماء . وكان لابد من البدء به !

وتنهد بعمق ، وابتسمت له تلك الابتسامة البديعة التى ينقصهان سنان .

وكان جافير فى نفس تلك الليلة قد حرر خطابا ، وتولى إيداعه بنفسه فى الصباح مكتب بريد « م » ، وهـو رسـالة موجهة إلى باريس ، باسم « المسيو شابويه ، سكرتير سعادة مدير الشرطة » . ولما كان حادث مخفر الشرطـة فى اليـوم السابق قد ذاع ، وعرفت مديرة مكتب البريد ومن معها خط المسيو جافير ، فادركوا انها رسالة استقالته من منصبه .

واسرع المسيو مادلين بالكتابة إلى آل تنردييه ، وبدلا من المائة فرنك المدينة بها فانتين لهما ، ارسل المسيو مادلين ثلاثمائة فرنك ، وطلب إليهما إرسال الطفلة على وجه السرعة إلى « م » حيث ترقد أمها مريضة وتريدها معها . فأدهش ذلك آل تنردييه ، وقال الرجل لامرأته :

— بحق الشيطان ! لن تفلت الطفلة . فقد غدت بقرة حلوبا ، ولا بد أن ثريا مغفلا عشق الأم !

ورد على الرسالة بفواتير مجموعها اكثر من خمسمائة فرنك، من طبيب ومن صيدلى ، كانا فى الحقيقة قد تقاضيا هذه المبالغ لقاء علاج ابنتى تنردييه من مرض طويل . اما كوزيت فلم تعان اى مرض . وكل ما هناك انه ابـدل الاســماء فى الفواتير . وكتب تنردييه تحت هذه المذكرة عبارة :

— وصلنى تحت هذا الحساب ثلاثمائة فرنك . . .

فأرسل المسيو مادلين ثلاثمائة فرنك أخرى وكتب يطلب الإسراع باحضار كوزيت . فقال تنردييه :

— وحق المسيح لن تفلت هذه الطفلة !

ولم تشف فانتين ، وظلت نزيلة المستوصف . ولم تكن الراهبات فى البداية قد قبلنها واقبلن على علاجها والعناية بها إلا بامتعاض شديد . وكل من راى لوحات كتدرائية ريمس REIMS يذكر انتفـاخ الشفـاه السـفلى للعـذارى الحكيمات وهن ينظرن إلى العذارى الطائشات . وهـذه الزراية من اقوى غرائز الكرامة النسوية . وقد شعرت به

الراهبات مضـاعفا بتأثير تدينهن . ولكن فـانتين تمكنت من التغلب على نفورهن فى بضعة ايام ، فقد كان كلامها دائمـا يدل على العذوبة والتواضـع والاحتشـام ، والأم التى فى اعماقها الانت قلوبهن . وقد سمعنها ذات يوم تقول وهى محمومة :

— لقد كنت خاطئة ، ولكن عندما تصير طفلتى بقربى فتلك علامة على أن الله غفر لى . وعندما كنت غارقة فى الشر لم اشأ ان تكون كوزيت معى، فلم اكن لأتحمل نظراتها الطافحة بالدهشة والحزن . ولكن من اجلها هى صنعت الشر ، وهذا ما يجعل الله يغفر لى . وسأشعر ببركة الرب عندما تكون كوزيت هنا . سأنظر إليها، ويشفينى ان ارى كل هذه البراءة . فهى لا تعرف شيئا . إنها ملاك . ملاك لم تسقط اجنحته بعد !

وكان المسيو مادلين يذهب ليراها كل يوم مرتين ، وفى كل مرة كانت تسأله :

— هل سأرى كوزيت قريبا ؟

ويجيبها :

— ربما كان هذا غدا صـباحا . ســتصل بين لحظة واخرى . انا فى انتظارها .

فيشرق وجه الأم الشاحب وتقول :

— أوه ! كم سأكون سعيدة .

وقد قلنا منذ قليل إنها لم تكن تتقدم نحو الشفاء . بل على العكس كانت حالتها تسوء من اسبوع إلى آخر . فتلك

القبضة من الثلج التى دست بين لوحى الكتفين سببت لها تفجر مرض كان كامنا فيها منذ عدة سنين . وكانت قد بدات فى تلك الفترة دراسة أمراض الصدر ، وفحصها الطبيب وهز راسه ، وسأله المسيو مادلين عما تراءى له ، فقال الطبيب :

ـ اليست لها طفلة ترغب فى رؤيتها ؟

ـ بلى .

ـ اسرعوا إذن بإحضارها .

فارتجف مسيو مادلين. وسألته فانتين عما قاله الطبيب، فتكلف الابتسام وقال :

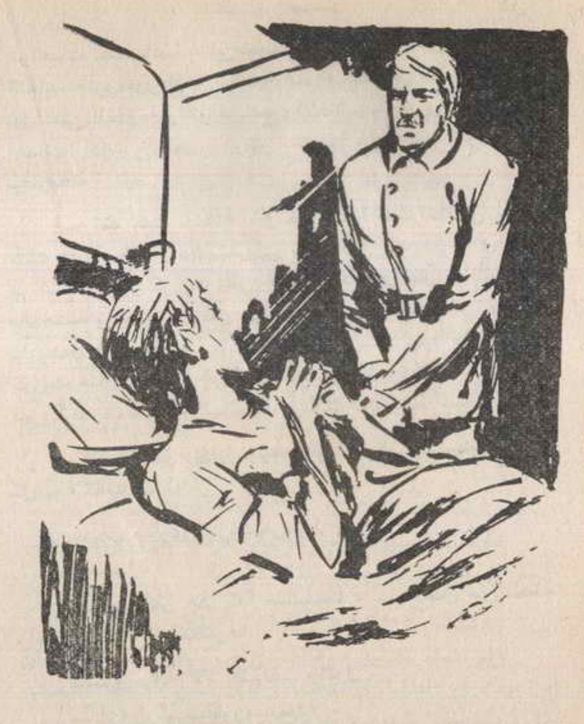
ـ طلب سرعة حضور طفلتك ، وقال إن ذلك سيعيد إليك صحتك . .

فقالت :

ـ اوه ! كم هو على حق ! ولكن ماذا جرى لآل تنردييه حتى يحتجزوا ابنتى هكذا ؟ ولكنها ستحضر . وانى لأرى السعادة تقترب منى مع قدومها .

ولكن تنردييه لم يفلت الطفلة ، وراح يتعلل بالأباطيل ، ويقول إن كوزيت مريضة لا تتحمل السفر فى الشتاء . ثم هناك بقايا ديون باهظة متفرقة يجتهد الآن فى تجميع فواتيرها الخ الخ . . . فقال الأب مادلين غاضبا :

ـ سارسل من يأتى بكوزيت . وإذا لزم الأمر ذهبت بنفسى !



وكان المسيو مادلين يذهب ليراها كل يوم مرتين، وفى كل مرة كانت تسأله:
ـ هل سارى كوزيت قريبا ؟

وكتب بإملاء فانتين هذا الخطاب الذى وقعته بنفسها :

المسيو تنردييه :

سلم كوزيت لحامل هذا الخطاب . وسيتولى دفع كل الديون واللوازم الاخرى . وابعث لك بتحياتى وتقديرى — فانتين ...

وفى غضون ذلك وقع حادث خطير . ومهما اجتهدنا فى نحت صخرة مصيرنا ، ونحينا منها العــروق الســوداء او تجنبناها ، فلا بد للعروق السوداء أن تعاود الظهور ...

الفصل الثانى

كيف أمكن لجان أن يغدو شان CHAMP

وذات صباح كان المســيو مادلين فى مكتبه ، منهمكا فى تصريف بعض أعمال العمودية العاجلة ، استعدادا لاحتمال سفره بنفسه عما قريب إلى مونفرمى. عندما قيل له إن مفتش الشرطة جافير يطلب التحدث إليه . ولم يستطع المسيو مادلين مغالبة شعور بعدم الارتياح عند سماعه هذا الاسم . فمنــذ حادث محضر الشرطة ، وجافير يتجنبه قدر الإمكان ، ولم يره المسيو مادلين قط . وقال العمدة :

— ليدخل !

ودخل جافير ..

ظل المسيو مادلين جالسا قرب المدفأة ، وفى يده ريشة ، وعينه على ملف يقلب اوراقه ويخط عليه التعليقات . ولم يغير من وضعه لدخول جافير . ولم يسعه أن يكف عن التفكير فى المسكينة فانتين ، ولذا كان يبــدو باردا فى استقباله لجافير كالثلج .

وحيا جافير العمدة باحترام ، بينما العمدة مول ظهره عنه ، ولم يرفع بصره إليه ، وواصل تصفح الملف . وتقــدم جافير خطوتين أو ثلاثا من المكتب ، ثم وقف من غير ان يشق حجاب الصمت .

وكان اى عالم بالفراسة له دراية بطبيعة جافير، ودرس منذ مدة طويلة هذا المتوحش الذى يعمل فى خدمة المدينة ، هذا المركب العجيب من الرومـــانى والاســبرطى ومن الراهب والرقيب (الجاويش) . هــذا الجاســوس الذى يعجز عن الكذب ، وهذا الواشى البكر . ولو كان هذا العليم بالفراسة يعرف نفوره من المســيو مادلين ، واصــطدامه به بشــان فانتين ، وتأمل جافير فى هذه اللحظة لقال لنفسه :

ــ ماذا جرى ؟ واضح ان جافير خارج لتوه من صراع داخلى مع ضميره النقى الضارى .

فجافير كان من الذين لا يجرى فى سريرتهم شىء من غير ان يرتسم محياهم . وكان مثل كل ذوى الطبائع العنيفة عرضة لانقلابات فجائية . ولم تكن سحنته قط فى مثل غرابتها هــذا الصباح . وكان عند دخوله قد انحنى امــام المســيو مادلين ونظرته خالية من الحقد أو الغضب او التحدى ، ووقف على مسافة خطوات وراء كرسى العمدة المريح ، وهناك وقف وقفة انضباط ، فى تصلب وصبر . وظل صامتا لا تصدر منه حركة فى تواضع حقيقى وإذعان هادىء ريثما يحلو لسيادة العمدة ان يلتفت إليه ، وقد امسك بقبعته فى يده ، وغض بصره ، فى موقف وسط بين وقفة الجندى امام ضابط ووقفة المذنب امام قاضيه . وقد ارتسم على محياه الجرانيتى حزن صــامت . وكيانه كله ينضح بالاتضاع والحزم معا ، مع تداع لا يخلو من شجاعة .

واخيرا وضع سيادة العمدة ريشته والتفت إليه نصف التفاتة :

ــ ماذا وراءك يا جافير ؟

فظل جافير صامتا لحظة ، كانما ليستجمع نفسه ، ثم رفع صوته وقال بجد وبساطة :

ــ لقد حدث يا سيادة العمــدة حدث ما كان يجوز ان يحدث !

ــ اى حدث هذا ؟

ــ احد صغار رجال السلطة اساء الأدب فى حق كبير من رجال القانون والدولة بصــورة خطيرة جدا . وقد اتيت بمقتضى واجبى ابلغك الواقعة .

فسأله مسيو مادلين :

ــ ومن هذا الجانى ؟

فقال جافير :

ــ انا !

ــ انت ؟

ــ انا !

ــ ومن هو رجل القانون والدولة الذى من حقه ان يشكو من هذا الجانى ؟

ــ انت يا سيادة العمدة !

فوقف المسيو مادلين ، وواصل جافير كلامه فى صرامة ، وهو ينظر إلى الأرض :

— يا سيادة العمدة . لقد حضرت لأرجوك ان تطلب من السلطات العليا فصلى من الخدمة !

ففغر المسيو مادلين فاه مذهولا وهمان يتكلم ولكن جافير قاطعه قائلا :

— قد تقول إنه كان بوسعى تقــديم استقالتى . ولكن هذا لا يكفى . فتقديم الاستقالة يصون الشرف ، فى حين اننى اخطأت ويجب ان اعاقب . ولذا وجب طردى .

وبعد لحظة صمت أردف :

— سيدى العمدة ، لقد كنت منذ ايـــام قاسيا على بغير حق ، فكن قاسيا اليوم بحق !

فصاح مسيو مادلين :

— ولماذا ؟ ما هذه الأحاجى ؟ ما معنى هذا ؟ واين حدث منك هذا العدوان على شخصى ؟ ما الذى فعلته لى ؟ وما وجه هـــذا الخطأ ؟ إنك تتهم نفســـك ، وتطلب أن يحـــل غيرك محلك ...

فقال جافير :

— بل اطلب ان اطرد !

— ليكن ! هذا حسن جدا ! لكنى لا افهم شيئا !

فتنهد جافير من اعماق صدره ، واستأنف الكلام ببرود وحزن معا :

— سيدى العمدة ! منذ ستة أسابيع . على اثر المشادة بسبب تلك الفتاة ، كنت غاضبا فوشيت بك !

— وشيت بى ؟ !

— إلى إدارة الامن العام فى باريس !

ولم يكن المسيو مادلين كثير الضحك — شأنه شـــأن جافير — ولكنه ما إن سمع هذا حتى قهقه عاليا :

— اشكوتنى لإدارة الأمن العام بصفتى عمدة جار على سلطان الشرطة ؟

— بل بوصفك نزيل ليمان سابق !

فاكفهر وجه العمدة ، واسترسل جافير من غير أن يرفع عينيه عن الأرض :

— كان هذا هو اعتقادى . ومنذ وقت طويل خامرتنى افكار . فهناك اوجه شبه ومعلومات وصلتنى ، معلومات عنك عندما كنت فى فافيرول FAVEROLLES وقوة حقويك وكليتيك كما ظهرت فى حادثة فوشليفان ، وبراعتك فى إصابة الهدف ، وساقك التى تضلع قليـــلا ، وهذاء من هـــذا القبيل . وعلى الجملة حسبتك المدعو جان فلجان !

— المدعو من ؟ ... كيف ينطق هذا الاسم ؟

— جان فلجان . إنه نزيل ليمان سابق كنت رايته عندما كنت نائب رئيس حرس السجن فى طولون . وكان جان فلجان هـــذا بعد مغادرة الليمان قد سرق فيما يبدو بيت أسقف ، ثم اقترف سرقة اخرى بالقوة فى الطريق العام من غلام صغير من ابناء السافوا . واختفى اثره منذ ثمانى سنين فلم يعد احد يدرى عنه شيئا وعبثا بحثوا عنه . فتصورت انا .. واقدمت على هذا التبليغ تحت تأثير الغضب !

فقال المسيو مادلين الذى كان قـد تناول الملف منـذ لحظات ، بلهجة عدم الاكتراث التام :

— وبماذا اجابوك ؟

— باننى مخبول !

— ثم ماذا ؟

— كانوا على حق !

— حسن منك ان تعرف هذا !

— كان لا بد من ذلك ، لأنهم عثروا على جان فلجـان الحقيقى !

فسقطت من يد المسيو مادلين الورقة التى كان ممسكا بها ، ورفع راسه وثبت نظره فى جافير وقـال بنبرة لا يمكن الإحاطة بوصفها :

— آه !

وواصل جافير كلامه :

— إليك ما حدث يا سـيدة العمـدة . يبدو انه كان فى الإقليـم ، من ناحيـة « ايى لى هو كلوشـيه » AILLY-LE-HAUT CLOCHER رجل كانوا يسمونه الأب شانماتييه CHANMATHIEU . وكان هذا الرجل بائسا جدا ، فلم يلتفت إليه احد . ولا يدرى الناس من اين يعيش هؤلاء . واخيرا ، فى هذا الخريف قبض على الأب شانماتييه لسرقة تفاح يستخدم للعصير ، من .... ليس لهذا اهمية ! المهم انه حدثت سرقة ، وتسلق سور ، وتكسير اغصان

شجرة . وقبض على شانماتييه . وكان غصن شجرة التفاح ما يزال فى يده ، وحبسوه . وإلى هنا والمسألة جنحة عادية . ولكن هاك ما تدخلت به يد العناية . فقد كان ذلك الحبس فى حالة سيئة ، فامر قاضى التحقيق من المناسـب نقل المتهم شانماتييه إلى اراس حيث السجن المركزى . وفى سجن اراس هذا يوجد نزيل ليمان قديم اسمه بريفيه BREVET مسجونا لتهمة لا ادريها ، ولحسن سلوكه جعلوه حارس احد العنابر . وما كادوا ياتونه يا سيادة العمدة بشانماتييه حتى صاح بريفيه: « انا اعرف هذا الرجل ! إنه زميل سابق فى الليمان ! انظر فى وجهى جيدا يا رجل ! انت جان فلجان ! » .. وتصـنع الرجل الدهشة وتساءل من عساه يكون جان فلجان هذا — فقال له بريفيه: لا تتصنع الخبث! انت جان فلجان! وكنا نزيلين معا ! وانكر شانماتييه . ولكنهم تعمقوا فى التحرى . وبلغتنى هذه المعلومات . واتضح لهم ان شانماتييه هذا كان منذ نحو ثلاثين سنة عامل تقليم اشجار فى عدة قرى ولا سيما فافيرول. وهناك عثروا على اثره . وبعد فترة طويلة شوهد فى اوفرنى AUVERNE ، ثم فى باريس حيث قال إنه عمـل نجـار عربات وكانت له ابنة غسالة ، ولكن ذلك لم يثبت ، ثم شوهد فى هذا الاقليم . وقبل ان يدخل جان فلجان الليمان ماذا كانت مهنته؟ تقليم الأشجار. اين؟ فى فافيرول. وهذه قرينة اخرى. وكان اسم جان فلجان فى العماد هو جان . واسم عائلة امه ماتييه MATHIEU (متى) . وطبيعى انه عند خروجـه من الليمان اتخذ اسم امه ليخفى اسمه الحقيقى فصار اسمه جان ماتييه . ولما ذهب إلى اوفرنى ، وجد الناس ينطقون جان

« شـان » فسموه شانماتييه ، وتركهم الرجل ينادونه هكذا .
وبالاستعلام فى فافيرول ، اتضح ان اسرة جان فلجان اختفت ولم يعد احد يعرف أين هى . وانت تعرف ان هذه الطبقات كثيرا ما تختفى فيها معالم عائلات باسرها . ولم يسفر البحث عنهم عن اى طائل . فامثالهم عندما لا يكونون وحلا. يتحولون إلى تراب . ولما كان هذا التاريخ يرجع إلى ثلاثين سنة ، لم يوجد فى فافيرول احد يتذكر جان فلجان . واجريت تحريات فى طولون ، فاذا بهم لا يجدون — غير بريفيه — إلا سجينين كانا يعرفان جان فلجان ، وهما السجينان المؤبدان كوشباى COCHEPAILLE وشنيلدييه CHENILDIEU فجىء بهما من الليمان وواجهوهما بالمدعو شانماتييه ، فلم يترددا وقررا — مثلما قرر بريفيه — أن هذا هو جان فلجان . نفس العمر . فسنه ٥٤ سنة . ونفس القامة . ونفس السحنة . انه نفس الرجل . وفى هذا الوقت بالذات ارسلت بلاغى إلى إدارة الامن العام بباريس ، فردوا على بأنى مجنون لأن جان فلجان موجود فى اراس فى يد العدالة . وقد ادهشنى هذا لانى كنت أظن انى وضعت يدى هنا على جان فلجان هذا بلحمه ودمه . فكتبت إلى قـاضى التحقيق ، فاسـتدعانى ، وجىء لى بالمدعـو شانماتييه ...

فقاطعه المسيو مادلين :

— وبعد ؟

فاجابه جافير باسى وصدق :

— سيدى القاضى . الحقيقة هى الحقيقـة . وقـد

اغضبتنى ، ولكن ذلك الرجل كان هو بعينه جان فلجان ، وانا ايضا عرفته .

فقال مسيو مادلين بصوت خفيض :

— أمتأكد انت ؟

فأخذ جافير يضحك تلك الضحكة المؤلمة التى تنم على اقتناع عميق :

— متأكد !

وظل شاردا برهة ، ثم تناول قبضة من نشارة الخشب الناعمة التى تستخدم لتجفيف الحبر من فوق المكتب وقال :

— والآن وقد رايت جان فلجان الحقيقى لا ادرى كيف اعتقدت غير ذلك . واستميحك العفو يا سيدى العمدة .

وإذ قال هذه العبارة فى توسل للرجل الذى اذله منذ ستة اسابيع وسط المخفر وقال له « اخرج ! » . كان جافير المتكبر آية فى البساطة وعزة النفس معا . ولم يرد المسيو مادلين على توسله إلا بهذا السؤال المفاجىء .

— وماذا قال ذلك الرجل ؟

— آه يا سيدى العمدة ! وضعه سيىء ومصيره اسود إذا كان هو جان فلجان ، فالعقوبة مشددة لانه مذنب عائد للجريمة . وقد تسلق جدارا ، وكسر غصنا ، وسرق تفاحا . ولو ان طفلا صنع هذا لكان مجرد شيطنة ومجون . اما ان يصنع هذا بالغ فهو جنحة . وإذا اقترفه نزيل ليمان سابق فهو جناية . وخصوصا ان السرقة مصحوبة بالتسلق . فلا بد من تقديمه لمحكمة الجنايات . والعقوبة ليست السجن بضعة

ايام ، بل السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة بالتجـديف فى السفن . ثم هناك سرقة الغلام الصغير من السافوا. فالوضع سيىء . والرجل ماكر ذلك المكر الذى اعهده فى جان فلجان . ولا غيره لصرخ وولول ، ولكن الرجل مصر على رفض الاعتراف بانه جان فلجان . ويبدى عدم الفهم لما يدور حوله ، ويتباله ! كم هو بارع فى التمثيل ! ولكن لا اهمية لهذا ، فالادلة متوفرة . وقد تعرف عليه اربعة اشخاص . فالحـكم عليـه مؤكد . واحيلت القضية إلى محكمة جنايات اراسى ، وسوف أتوجه للشهادة امام المحكمة ، فقد اعلنت بالحضور .

وكان المسيو مادلين قد جلس إلى مكتبه كما كان ، وتناول الملف ، وراح يقلبه بهدوء . ويقرا ويكتب كالمنهمك فى العمل ، والتفت إلى جافير وقال :

ــ حسبك ياجافير . فهذه التفصيلات لا تعنينى . نحن نضيع وقتنا وامامنا اعمال كثيرة عاجلة . عليك يا جافير ان تذهب فورا إلى المراة «بينروبييه» BUNERUPIED التى تبيع الاعشاب عند زاوية شارع سان سولف SAINT-SAULVE، وتقول لها ان تقدم شكواها ضد حوذى النقل بيير شـيزنلون CHESNELONG . فهذا الرجـل المتوحش كاد يسـحق بعربته تلك المراة وطفلها . ولا بد من عقابه . ثم اذهب بعد هذا إلى المسيو شارسليه CHARCELLAY فى شارع مونتر دى شامبنى MONTRE DE CHAMPIGNY ، فهو يشكو لان ميزاب المنزل المجاور يصب ماء المطر على بيتـه ويتهدد اساسه . ثم تحقق مخالفات الشرطة فى شارع جيبور

GUIBOURG عنـد الارملة دوريس DORIS ، وفى شارع جاروبلان GARRAUD-BLANC عنـد مـدام رينيـه رينيـه لى بوسـيه RENEE LE BOSSE وتحرر محضرا بذلك . ألست ستقوم بأجازة ؟ الم تقل لى إنك ستذهب إلى اراس للشـهادة فى تلك القضـية فى مدى ثمـانية ايام أو عشرة ؟ ...

ــ بل قبل هذا يا سيدى العمدة .

ــ فى اى يوم إذن ؟

ــ اظننى قلت لسيادة العمدة إن المحاكمة سـتجرى غدا ، وإنى سأستقل حافلة الليلة .

فندت عن المسيو مادلين حركة لم يلحظها جـافير . وسأله :

ــ وكم يوما ستستمر هذه القضية ؟

ــ يوما واحدا على الأكثر . وسوف يصدر الحكم مساء غد على الأكثر . ولكنى لن أنتظر سماع الحكم . ومتى أدليت بشهادتى عدت إلى هنا .

فقال مسيو مادلين :

ــ هذا حسن .

وصرف جافير بإشارة من يده . ولكن جافير لم ينصرف ، وقال :

ــ عفوا يا سيدى العمدة .

فسأله المسيو مادلين :

— ماذا هناك ايضا ؟

— بقى شىء اريد ان اذكرك به . .

— وما هو ؟

— إننى ينبغى ان اعزل !

فنهض المسيو مادلين قائلا :

يا جافير ! انت رجل شريف ، وانا اقدرك . وانت تبالغ فى غلطتك هذه . ثم إن هذه إساءة تخصنى انا ، اعلم يا جافير انك جدير بالترقية لا بالعقاب . واريد ان تحتفظ بمنصبك .

فنظر جافير إلى المسيو مادلين بعينيه الصريحتين اللتين كان المرء يرى فى اعماقهما ضميره الصارم العف ، وقال بصوت هادىء :

— سيدى العمدة . لا يمكننى ان اجيبك إلى هذا .

فقال المسيو مادلين :

— وانا اكرر قولى إن هذا الأمر يعنينى انا .

ولكن جافير تشبث بفكرته وقال :

— اما عن اننى ابالغ ، فانا لم ابالغ . وإليك كيف افكر فى الأمر . لقد ارتبت بك بغير حق ، وهذا ليس شيئا ذا بال . فمن حقنا نحن الشرطة ان نرتاب ، وإن كان من الخطأ احيانا ان نرتاب فيمن فوقنا . ولكننى تحت تأثير الغضب ، وبدون ادلة ثابتة ، ابلغت عنك انت الرجل المحترم والعمدة ممثل القانون انك نزيل ليمان ! وهذا شىء خطير . خطير جدا ! لقد اهنت السلطة فى شخصك ، وانا من خدام السلطة ! ولو فعل مثل هذا احد مرءوسى لقررت عدم صلاحيته للخدمة

وطردته . اسمع منى كلمة اخرى يا سيادة العمدة . كثيرا ما كنت انا قاسيا فى حياتى ضد الآخرين ، ولكن ذلك كان عدلا، فهو خير . وما لم اكن قاسيا هذه المرة فى محاسبة نفسى لما كنت عادلا . انيجوز لى أن اغض الطرف عن جرمى وانا اقسو على جرائم غيرى ؟ كلا ! لا يحق لى عقاب الآخرين وترك نفسى بلا عقاب ! لأكونن إذن بائسا شقيا ! ويكون من يمقتوننى فى هذه الحالة على حق . يا سيدى العمدة انا لا اتمنى ان تعاملنى بطيبة . وكم كانت طيبتك مع غيرى تثير سخطى وتجعل الدم يغلى فى عروقى ! ولذا لا يحق لى ان اتقبلها لنفسى ! هذه الطيبة التى تنصر فتاة عمومية على برجوازى من ذوى الأملاك ، ورجل الشرطة على العمدة ، والأدنى على الأعلى ، اسميها الطيبة السيئة ! ومثل هذه الطيبة تفسد المجتمع يا إلهى ! ما اسهل ان يكون المرء طيبا ، اما العدالة فصعبة عسيرة التحقق ! ولو صح انك من كنت اظنه ما كنت طيبا معك . ولرايت عندئذ ما افعل بك ! لا بد يا سيادة العمدة ان اكيل لنفسى بعين المكيال الذى اكيل به للآخرين ! وكنت كلما قسوت على مذنب اقول لنفسى : « الويل لك منى يا جافير اذا ضبطتك متلبسا بخطأ يستوجب العقاب ! » . فلتطردنى يا سيادة العمدة ، لا يضير ضميرى هذا ، فانا لى ذراعان قويتان ، وساعمل فى الأرض ، ولن يضيرنى هذا . إن صالح الخدمة فى ضرب المثل الصالح . ولذا التمس منك طرد المفتش جافير من الخدمة !

قال ذلك كله بتواضع وانفة ، بيأس واقتناع ، فاضفى ذلك عليه عظمة من نوع غريب . عظمة الأمانة والشرف .

وقال المسيو مادلين :

ــ سنرى ...

ومد إليه يده ليصافحه ، فتراجع جافير وقال بشراسة :

ــ هذا شيء لا يجوز يا سيادة العمدة. العمدة لا يصافح واشيا متجنيا ! وما دمت قد أسأت استخدام منصبى فأنا لست إلا واشيا حقيرا .

ثم انحنى انحناءة عميقة واتجه إلى الباب . وهناك التفت وقال وهو يغض الطرف :

ــ سيدى العمدة . سأستمر فى عملى إلى ان يحل غيرى محلى ...

وخرج . وظل المسيو مادلين شاردا ، يصغى لخطواته الثابتة الواثقة وهو يبتعد فى الدهليز ...

٤٣٧٩

رقم الايداع : ٦ ــ ٨٠. ــ ١٦٣ ــ ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون : ٨٢٦٢٨٠. القاهرة

الكتاب السابع

قضية شانماتييه

الفصل الأول
الأخت سمبليس

لم تكن الأحداث التى سيطالعها القارئ معروفة كلها فى مدينة (م)، إلا أن القليل الذى تسرب منها ترك فى تلك المدينة أثراً كبيراً، بحيث يكون إغفال أدق تفصيلاتها ثغرة خطيرة فى هذا الكتاب .

وسيجد القارئ فى هذه التفصيلات ظرفين أو ثلاثة لا يكاد يصدقها العقل ، بيد أننا سنبقى عليها احتراماً للحقيقة .

بعد ظهر اليوم الذى زار فيه جافير المسيو مادلين ، توجه المسيو مادلين لزيارة فانتين كالعادة . وقبل الدخول إليها طلب رؤية الأخت سمبليس .

وكانت الراهبتان القائمتان على خدمة المستوصف سيدتين من رهبنة القديس لعازر ، شأن سائر راهبات الرحمة ، واسمهما الأخت بربيتى Perpetue والأخت سمبليس Simplice .

وكانت الأخت بربيتى فلاحة فيها خشونة الفلاحة ، دخلت خدمة الرب كما تدخل أى ريفية الخدمة فى مطبخ أحد البيوتات . وهذا النوع من الراهبات لم يكن نادراً ، فخدمة المرضى عندها وظيفة . والأخت بربيتى فلاحة قوية البنية ، تعامل المريضات بغلظة أقرب إلى الغضب والضيق بهن .

أما الأخت سمبليس فكانت بيضاء كالشمع ، منصرفة بكل كيانها إلى خدمة المرضى والرفق بهم فى تقوى حقيقية . ولم يكن أحد يعرف ما عمرها ، كأنها لم تكن شابة فى يوم من الأيام ، ولا يمكن أن تغدو عجوزاً فى مقبل الأيام . فيها طيبة مغلفة بالجد ، وتباعد أشبه بالفتور ، ولم تكذب فى حياتها كلها قط . كانت من شدة رهافتها تبدو هشة ، إلا أنها كانت أشد صلابة فى حقيقتها من الجرانيت . تلمس المريضات والمسكينات بأنامل دقيقة طاهرة ، وفى كلامها — كما يقولون — سكينة الصمت . لا تتفوه إلا بما هو ضرورى ، ولصوتها جرس ساحر . وتكتسى هذه الرهافة كلها بثوب من الصوف الخشن ، تحس فى ملمسه نداء السماء ونداء الرب . ونعود فنلح على أنها لم تنطق بالكذب أبداً ، ولم تتفوه قط — فى أتفه الأمور — إلا بالحقيقة المقدسة . وكان هذا هو الطابع المميز للأخت سمبليس وما تتمتع به من فضيلة . واشتهرت فى محيطها كله بهذه السمة الفريدة . ولا تعقل أن يوجد شىء اسمه الكذبة الصغيرة أو الكذبة البريئة . فالكذب فى نظرها هو حضيض الشر . هو وجه الشيطان نفسه . بل إن للشيطان اسمين : الشيطان والأكذوبة . هكذا كان اعتقادها . وكانت أفعالها العملية مصداق اعتقادها . ومن ثم أضفى هذا عليها ذلك البياض الشديد الذى يشع حتى من شفتيها ومن عينيها . فابتسامتها كانت بيضاء ، ونظرتها كانت بيضاء ، فلا وجود لنسيج عنكبوت ، ولا لذرة غبار على زجاج هذا الضمير . ولما دخلت سلك الرهبنة

اتخذت اسم سمبليس عن عمد وباختيارها الخاص . فالقديسة سمبليس الصقلية معروف عنها أنها فضلت أن ينزعوا ثدييها على أن تجيب بأنها من مواليد سجسته Segeste مع أنها من مواليد سيراكوزا Syracuse !

وكانت عند دخولها سلك الرهبنة تعانى من عيبين تخلصت منهما شيئاً فشيئاً : وهما حب الحلوى ، وحب تلقى الرسائل . ولم تعد تطالع إلا كتاب صلوات مطبوعاً بحروف كبيرة وباللغة اللاتينية . ولم تكن تفهم اللاتينية ، إلا أنها كانت تفهم الكتاب !

وعطفت هذه الراهبة على فانتين ، ولعلها أحست ما فى أعماقها من فضيلة كامنة ، ولذا كادت تقف كل همتها — تقريباً — على تمريضها .

ولما حضرت الأخت سمبليس لمقابلة المسيو مادلين ، انتحى بها جانباً وأوصاها خيراً بفانتين بنبرة خاصة تذكرتها الأخت سمبليس فيما بعد .

وبعد أن غادر الراهبة ، اقترب من فانتين .

وكانت فانتين تنتظر ظهور المسيو مادلين كل يوم كما ينتظر المرء شعاعاً من الحرارة ومن الفرح والحبور . وكانت تقول للراهبتين :

— أنا لا أعيش إلا عندما يكون سيادة العمدة هنا .

وفى هذا اليوم كانت حرارتها مرتفعة جداً ، وما إن رأت المسيو مادلين حتى سألته :

— وكوزيت ؟

فأجابها وهو يبتسم :

— عما قريب .

وصنع المسيو مادلين مع فانتين كشأنه فى كل يوم ، وكل ما هنالك أنه مكث معها ساعة كاملة بدلا من نصف الساعة . فسرت فانتين كثيراً . وأوصى الجميع بشدة ألا ينقص المريضة شيء . ولوحظ أن محياه اكفهر جداً فى إحدى اللحظات . ولكن اتضح لهم سبب ذلك عندما علموا أن الطبيب مال على أذنه وقال له :

— حالتها تسوء بشدة .

وذهب العمدة بعد ذلك إلى دار العمودية ، ورآه ساعى المكتب يفحص بانتباه خريطة لطرق فرنسا كانت معلقة على جدار مكتبه . وكتب عدة أرقام بالقلم الرصاص على ورقة .

* * *

الفصل الثانى
فطنة المعلم سكوفلير

ومن دار العمودية توجه المسيو مادلين إلى أقصى المدينة ، قاصداً الفلمنكى المتجنس بالجنسية الفرنسية ، المسمى المعلم سكوفلير Scaufflairte الذى يؤجر خيولا وعربات خفيفة تحت الطلب .

وأقصر طريق يؤدى إلى مكان سكوفلير هو سلوك شارع قليل الرواد ، يوجد به بيت الكاهن فى الأبروشية التى يقطنها المسيو مادلين . ويقال إن ذلك الكاهن رجل فاضل ومحترم حسن الرأى والمشورة .

وعندما وصل المسيو مادلين أمام بيت الكاهن ، لم يكن فى الشارع إلا مار واحد ، وقد لاحظ هذا المار أن المسيو مادلين بعد أن تجاوز بيت الكاهن وقف ، وظل جامداً فى مكانه ، ثم ارتد راجعاً إلى أن بلغ باب بيت الكاهن ، وكان باباً صلباً له مطرقة من الحديد ، ووضع يده بهمة على المطرقة ورفعها ، ثم جمدت حركته ثانية كأنه يفكر ، وبعد بضع ثوان ، بدلا من أن يتركها تهوى ، وضعها فى مكانها برفق ، ثم استأنف طريقه بشيء من السرعة أكثر من ذى قبل .

ووجد المسيو مادلين المعلم سكوفلير فى بيته مشتغلا بإصلاح لجام ، فسأله قائلا :

— يا معلم سكوفلبر .. ألديك حصان جيد ؟

فقال الفلمنكى :

— يا سيادة العمدة ، كل خيولى جيدة . ما الذى تعنيه بحصان جيد ؟

— أعنى به حصاناً يمكنه أن يقطع عشرين فرسخاً فى يوم واحد .

فصاح الفلمنكى :

— يا للشيطان ! عشرين فرسخاً ؟

— نعم !

— وكم من الوقت سيستريح بعد هذه الرحلة ؟

— ينبغى أن يكون قادراً ، إذا لزم الأمر ، أن يستأنف السير فى اليوم التالى !

— ألكى يقطع نفس المسافة ؟

— أجل !

— يا للشيطان ! يا للشيطان ! ليقطع عشرين فرسخاً أخرى ؟

فأخرج المسيو مادلين من جيبه الورقة التى معه وعليها الأرقام بالقلم الرصاص ، وأراها للفلمنكى ، فإذا الأرقام ٥ + ٦ + ٨,٥ ؛ وقال :

— ها أنت ترى أن مجموعها تسعة عشر فرسخاً ونصفاً ، لنقل عشرين ..

فقال الفلمنكى :

— يا سيدى العمدة ، عندى طلبك . حصانى الأبيض الصغير ، ولابد أنك رأيته ماراً بك أحياناً . دابة صغيرة الحجم تتأجج ناراً . أراد صاحبه فى البداية أن يجعله حصان ركوب ، ولكنه جعل يرفس ويلقى بكل من يركبه على الأرض . وظن الرجل أن الحصان متمرد ، فاشتريته أنا ، وشددته إلى عربة خفيفة . وكان هذا ما يريده ، وصار سلس القياد كالفتاة الدمثة ، وإن كان يسابق الريح . فلا ينبغى أن تحاول امتطاء ظهره ، لأنه لا يروقه أن يكون جواد ركوب . ولكل فى الحياة طموحه . وطموحه الخاص أن يجر العربة . أما أن يمتطى فلا .

— ويستطيع قطع هذه الرحلة ؟

— العشرين فرسخاً ، بالركض السريع ، وفى أقل من ثمانى ساعات ، ولكن إليك الشروط .

— هات شروطك .

— أولا ، أن تدعه يستريح ويلتقط أنفاسه ساعة فى منتصف الطريق . ويتناول فى هذه الساعة علفه ، على أن تكون أمامه وهو يأكل كى تمنع صبى النزل من سرقة الشعير والشوفان ، فقد لاحظت على صبيان النزل هذه العادة الذميمة .

— سأكون هناك .

— وثانياً ... أهذه العربة الخفيفة سيركبها سيادة العمدة ؟

— نعم .

— وهل يعرف سيادة العمدة قيادة المركبات ؟

— نعم .

— عظيم . إذن ينبغى أن يسافر سيادة العمدة وحده وبلا حقائب حتى لا يثقل على الحصان .

— وهو كذلك .

— ولكن سيادة العمدة ما دام وحده سيراقب هو تقديم الشعير بنفسه .

— اتفقنا .

— أريد ثلاثين فرنكاً فى اليوم. وأيام الراحة يدفع عنها نفس الأجر . لا ينقص فلساً واحداً ، وطعام الدابة على نفقة سيادة العمدة .

فأخرج المسيو مادلين من كيسه ثلاثة جنيهات ، ووضعها على المنضدة وقال :

— هاك أجر يومين مقدماً .

— ورابعاً ، مثل هذه الرحلة ستكون العربة « الكبريوليه » أثقل مما يجب ومرهقة للحصان . لذا لابد لسيادة العمدة أن يوافق على القيام برحلته فى دوكار صغير خفيف موجود عندى .

— موافق .

— إنه خفيف ، ولكنه مكشوف ..

— هذا لا يهمنى .

— هل فكر سيادة العمدة فى أننا فى فصل الشتاء ؟

ولم يجبه المسيو مادلين ، فاستطرد الفلمنكى :

— وأن الجو بارد جداً ؟

ولاذ المسيو مادلين بالصمت .

وواصل المعلم سكوفلير حديثه :

— وأن المطر يمكن أن يهطل ؟

فرفع المسيو مادلين رأسه وقال :

— ينبغى أن يكون الدوكار والحصان أمام بابى غداً صباحاً فى الساعة الرابعة والنصف .

فأجابه سكوفلير :

— مفهوم يا سيادة العمدة .

ثم حك بظفر إبهامه لطخة فى خشب المنضدة ، وقال بتلك اللهجة غير المبالية التى يحسن الفلمنكيون مزجها بدهائهم :

— ولكنى لم أسمع من سيادة العمدة أين يزمع الذهاب ...

وكان هذا السؤال يشغل تفكيره منذ بداية الحديث ، ولكنه لا يدرى لماذا لم يتجاسر على توجيهه إلا الآن . فقال المسيو مادلين :

— هل قائمتا حصانك الأماميتان جيدتان ؟

— نعم يا سيادة العمدة ، ولكن عليك أن تسنده قليلا فى المنحدرات . أتوجد منحدرات كثيرة فى الطريق الذى ستسلكه ؟

فقال مسيو مادلين :

— لا تنس أن تكون أمام بابي فى الرابعة والنصف صباحاً بالضبط :

ثم غادر المكان .

وظل الفلمنكى مشدوهاً لا يفقه شيئاً — على حد قوله — بعد ذلك برهة .

وكان سيادة العمدة قد خرج منذ دقيقتين أو ثلاث ، عندما انفتح الباب مرة أخرى ، وكان الداخل سيادة العمدة . ولم تزل عليه سيما انشغال البال ، وقال :

— يا مسيو سكوفلير ، بكم تقدر ثمن الدوكار والحصان اللذين ستؤجرنى إياهما ؟

— أيريد سيادة العمدة أن يشتريهما منى ؟

— كلا . ولكنى أريد ، فى جميع الأحوال ، أن تكون لديك ضمانة كافية لهما ، وعند عودتى ترد إلى المبلغ . فبكم تقدر الدوكار والحصان ؟

— بخمسمائة فرنك يا سيادة العمدة .

— هاك هى !

ووضع المسيو مادلين على المنضدة ورقة مالية ثم خرج : وفى هذه المرة لم يرجع إليه .

وندم المعلم سكوفلير على أنه لم يقل « ألف فرنك » .

ونادى المعلم سكوفلير زوجته ، وروى لها القصة . ثم قال :

— أين بحق الشيطان يريد سيادة العمدة أن يذهب ؟

وتشاورا ، فقالت المرأة :

— إنه ذاهب إلى باريس .

وقال الزوج :

— لا أظن .

وكان المسيو مادلين قد نسى على المدفأة الورقة التى عليها الأرقام فتناولها الفلمنكى ودرسها :

— خمسة وستة وثمانية ونصف ؟ لابد أن هذه مواضع محطات البريد .

والتفت إلى زوجته وقال :

— وجدتها !

— كيف ؟

— خمسة فراسخ من هنا إلى إيسدن Hesdin ، وستة فراسخ إيسدن إلى سان بول وثمانية ونصف من سان بول إلى أراس Arras إنه ذاهب إلى أراس !

* * *

وعاد المسيو مادلين إلى بيته . ولكن لابد من أن يسلك أقصر الطرق فى عودته من محل المعلم سكوفلير . سلك أطول الطرق . كأنما باب بيت الكاهن يمثل إغراء يريد تجنبه . وصعد إلى حجرته الخاصة وأغلق بابها عليه . ولم يكن هذا مستغرباً ، لأن من عادته أن يأوى

إلى فراشه فى ساعة مبكرة . بيد أن بوابة المصنع ، وهى فى الوقت عينه خادمة المسيو مادلين الوحيدة لاحظت أن ضوءه انطفأ فى الساعة الثامنة والنصف ، وقالت هـذا للصراف عند عودته من الخـارج ، وأضافت إلى ذلك :

— هل سيادة العمدة مريض ؟ فقد وجدت سحنته غريبة .

وهذا الصراف يسكن حجرة تقع بالضبط تحت حجرة المسيو مادلين . ولم يعد الصراف ما قالته البوابة التفاتاً ، وأوى إلى فراشه ونام . ولكنه قرب منتصف الليل استيقظ فجأة ، فقد سمع وهـو نائم ضجة من فوق رأسه . وأصغى . إنه وقع خطى تغدو وتروح ، كما لو كان أحد يتمشى فى الحجرة العلوية . وأصاخ السمع بمزيد من الانتباه ، فعرف خطوات المسيو مادلين . وبدا له هذا غريباً . فقد تعود ألا يصدر صـوت حركة من حجرة المسيو مادلين قبـل وقت يقظته . وبعد لحظة سمع الصراف صوتاً يشبه صوت صوان يفتـح ويقفل . ثم تحركت قطعة أثاث من موضعها ، وساد صمت . وبعـد ذلك عاد صوت المشى ، فوقف الصراف وقد استيقظ تمام اليقظة ، ونظر من خلال زجاج نافذته ، ولمح فوق الجدار المقابل انعكاساً محمر اللون لنافذة مضاءة . ومن اتجـاه الأشـعة ، كان مستحيلا أن تكون صادرة إلا عن نافذة حجرة المسيو مادلين . وكان الانعكاس يرتجف كأنما هو صادر من نار موقدة لا من مصباح . ولم تكن ظلال مربعات الزجاج مرتسمة ، مما يدل على أن النافذة مفتوحة على

سعتها . ونظراً للبرودة الشديدة فى هذه الليلة ، كانت هذه النـافذة المفتوحة مثيرة للدهشة .

وعاد الصراف للنوم . ولكنه استيقظ مرة أخرى بعد ســاعة أو ساعتين . فنفس الخطوات البطيئة المنتظمة كانت تغـدو وتروح دائماً فوق رأسه . وانعكاس الضوء لم يزل مرتسماً على الجدار ، بيد أنه صار الآن شاحباً هادئاً كأنه انعكاس مصباح أو شمعة . والنـافذة لم تزل مفتوحة .

وهاك ما كان يحدث فى حجرة المسيو مادلين .

* * *

الفصل الثالث
عاصفة فى جمجمة

لا شك فى أن القارئ قد خمن أن المسيو مادلين كان هو بعينه جان فلجان ؛

وقد سبق لنا أن ألقينا نظرة فى أعماق هذا الضمير . وقد حان الوقت لإلقاء نظرة أخرى . ونحن لا نلقى هذه النظرة بدون انفعال ، وبدون ارتجاف . فليس ثمة ما هو أدعى للرهبة والرعب من مثل هذا التمعن . وعين الفكر لا يمكن أن تجد فى أى مكان ما هو أحفل بالباهر والمعتم من أعماق الإنسان ، لأنها لا يمكن أن تستقر على شىء أرهب ، وأعقد وأشد غموضاً وأمعن فى اللاتناهى . ولئن كان هناك منظر أهول وأعظم من البحر ، فهو السماء . ولئن كان هناك منظر أهول وأعظم من السماء ، فهو دخيلة النفس .

فالسريرة هى أعوص متاهات الشهوات والمغريات ، وأتون الأحلام ، ومغارة الأفكار التى يخزى منها الإنسان . إنها ساحة حرب الأهواء . أنفذ فى ساعات معينة إلى ما وراء السحنة المكفهرة لكائن بشرى غارق فى الفكر ، وانظر إلى ما وراءها إلى أغوار هذه الظلمات تر تحت هذا الصمت الخارجى معارك الجبابرة كما رواها هومير ، ومعارك التنانين والأشباح كما رواها ملتن ، ولوالب الرؤى كما

رواها دانتى . ففى دخيلة كل إنسان ظلمة لا متناهية ، إليها يقيس إرادات عقله وأفعال حياته !

وذات يوم وجد دانتى نفسه أمام باب رهيب وقف أمامه متردداً . وها هو مثل هذا الباب أمامنا ، وها نحن نقف أيضاً أمامه مترددين . ولكن فلندخل !

ليس لدينا الكثير لنضيفه إلى ما يعرفه القارئ بالفعل عما حدث لجان فلجان منذ حادثته المنكودة مع الغلام الصغير « جرفيه » . وقد رأيناه منذ ذلك اليوم تغير وصار رجلا آخر ، حقق كل ما كان الأسقف أن يجعله منه . فكان هذا أكثر من تحول . كان انقلاباً !

ونجح فى الاختفاء ، وباع فضيات الأسقف ، غير محتفظ منها إلا بالشمعدانين ، ثم راح يتسلل من مدينة إلى مدينة ، فعبر فرنسا ، وجاء إلى مدينة « م » ، وخطرت له الفكرة التى ذكرناها ، وأنجز ما رويناه ، بحيث صار فى حرز حريز فى هذه المدينة ، سعيداً قرير العين لأن ضميره الذى يثقل عليه ماضيه فى الشطر الأول من حياته بيض صفحته شطرها الأخير ، فعاش فى سلام وأمان ، وليس له من هدف إلا إخفاء اسمه الحقيقى وتحويل حياته إلى هيكل للقداسة ، والهرب من الناس والعودة إلى الله .

وكانت هذه الأمانى شديدة الترابط والاندماج فى سريرته بحيث صار لها كيان واحد ، يسيطر على كل فكره وفعله . وهكذا صار رءوفاً متسامحاً بسيطاً محسناً . ولكن فى بعض الأحيان كانت هذه

الأمانى تتعارض وتتصارع . وعندئذ لم يكن الرجل الذى عرفته مدينة « م » باسم المسيو مادلين يتردد فى التضحية بأمنه فى سبيل فضيلته . ولذا وجدناه برغم كل ما أخذ به نفسه من أسباب الحيطة والحذر قد احتفظ بالشمعدانين تذكاراً للأسقف ، وارتدى عليه الحداد ، وراح يستدعى ويسأل كل الغلمان القادمين من السافوا ، وتحرى عن أسرات فرية فافيرول ، وأنقذ حياة الشيخ فوشليفان ، برغم تلميحات جافير وتعريضاته المقلقة . فقد كان يبدو أنه يعتقد كما كان يعتقد الحكماء والقديسون والأبرار الصالحون أن واجبه الأول لم يكن نحو ذاته .

ولكن ينبغى أن نقول : إنه لم يواجه قط مثل الصراع الذى يواجهه اليوم بكل هذه الضراوة . وقد فهم هذا بصورة غامضة ولكنها عميقة منذ الكلمات الأولى التى تفوه بها جافير حين دخل عايه مكتبه . فما إن نطق جافير ذلك الاسم الذى حرص على إخفائه فى أعمق طوايا الكتمان ، حتى تملكه الذهول ، وانتابته هزة غالبها وهى توشك أن تعلن عن نفسها ، وانحنى كما تنحنى البلوطة السامقة عند اقتراب العاصفة ، أو كما ينحنى الجندى عند اقتراب لحظة الهجوم . وأحس بغياهب حافلة بالصواعق والبوارق تكاد تنقض فوق رأسه .

وكان أول ما خامره وهو يصغى لكلام جافير أن يمضى ، بل يعدو عدواً ويبلغ عن نفسه لينقذ من السجن المؤبد شانماتييه ، ويحل

محله فيه . وكان ذلك أليماً موجعاً كأنه شق بالمبضع فى لحمه الحى . ثم لم يلبث أن مر هذا الخاطر وقال لنفسه :

— على رسلك ! على رسلك !

وكبح هذا الاتجاه الكريم وتقهقر ناكصاً على عقبيه أمام هذه البطولة .

ولا مراء فى أنه كان شيئاً رائعاً ، بعد كلمات الأسقف القدسية ، وبعد كل هذه السنوات من الندم والتكفير وإنكار الذات ، أن يقدم هذا الرجل — ولو أمام هذه المحنة الرهيبة — غير هياب ولا متردد طرفة عين على مواصلة مسيرته بخطى ثابتة نحو هذه الهوة الفاغرة ، التى فى أغوارها فردوس السماء . كان هذا خليقاً أن يكون رائعاً جداً وآية فى الجمال ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

وينبغى أن نتعرف إلى الأمور التى كانت تجرى فى هذه النفس. فما كانت له الكلمة العليا أولا وقبل كل شىء هو غريزة حفظ الذات . فاستجمع شتات فكره بسرعة ، وخنق انفعالاته ، وراعى وجود جافير — هذا العدو اللدود — فأجل اتخاذ أى قرار فى المسألة بحزم أملاه الذعر ، واسترد هدوءه مثلما يسترد المصارع درعه بسرعة.

وظل سائر يومه على هذا الحال : فى داخله دوامة ، ومظهره هادئ أشد الهدوء . ولم يتخذ إلا ما يمكن تسميته « إجراءات احتياطية مؤقتة » . فكل شىء داخل رأسه لم يزل مشوشاً متضارباً، إلى حد أنه لم يستطع أن يتبين أى فكرة بوضوح ، ولم يكن فى

استطاعته أن يقول شيئاً عن نفسه ، اللهم إلا أنه تلقى ضربة هائلة .

وكالعادة توجه إلى جوار فراش مرض فانتين ، وأطال زيارته مدفوعاً بغريزة الطيبة ، قائلا لنفسه : إنه ينبغى أن يتصرف على هذا النحو وأن يوصى بها الراهبتين ، تحوطاً لاحتمال غيابه . فقد كان يخامره خاطر غامض بأنه ربما تعين عليه التوجه إلى أراس .

ومن غير أن يستقر عزمه على القيام بهذه الرحلة ، قال لنفسه : إنه بمنجاة من كل ريبة ، وذلك لا يمنعه على كل حال من أن يذهب لمشاهدة ماعساه يجرى فى تلك المحاكمة . ولذا استأجر دوكارسكوفلير لكى يكون على أهبة الاستعداد لكل حادث .

وتناول عشاءه بشهية حسنة .

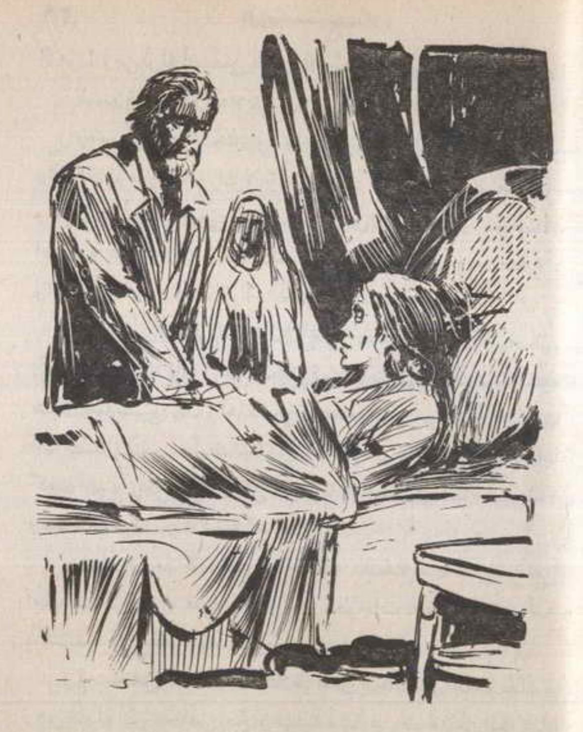
ولما عاد إلى حجرته استجمع نفسه .

وتمعن فى الموقف ، فوجده لا يطاق ، إلى حد أنه فى غمار شروده قام من مقعده ، بدافع من القلق الشديد الذى يكاد يفوق الوصف ويعز على التفسير ، وأغلق باب حجرته بالمزلاج . فقد كان يخشى أن يدخلها عليه شىء آخر ، فتترس متحصناً ضد الممكن .

وبعد برهة أطفأ ضوءه ، لأنه كان يضايقه . فقد خيل إليه أن أحداً يمكن أن يراه .

ومن عساه يكون هذا الأحد ؟

واأسفاه ! إن من أراد رده عن بابه كان قد دخل منه وانتهى



وكالعادة توجه إلى جوار فراش مرض فانتين ، وأطال زيارته مدفوعا بغريزة الطيبة ..

الأمر ! ومن أراد أن يعمى بصره عنه كان يحدق فيه ! إنه ضميره ! ضميره ، أى « الله » .

ومع هذا فقد خدعته أوهامه فى الوهلة الأولى ، فأحس الأمن والعزلة . وما إن دفع المزلاج حتى خال نفسه فى حصن حصين ؛ وما إن أطفأ الشمعة حتى شعر بأنه توارى عن الأبصار . وعندئذ استجمع شتات ذهنه وهدأ جأشه ، ووضع منكبيه على المنضدة ، واتكأ برأسه على يده ، وراح يفكر فى الظلام :

– إلى أين وصلت ؟ أتراني أحلم ؟ ماذا قيل لى ؟ أصحيح أننى رأيت جافير وأنه قال لى هذا الكلام؟ وماذا يمكن أن يكون شانماتييه هذا ؟ أهو يشبهنى إذن ؟ أهذا ممكن ؟ عندما أفكر أننى بالأمس كنت آمنا مطمئن النفس وأبعد ما أكون عن التوجس من شيء ؟ ماذا كنت أصنع إذن أمس فى مثل هذه الساعة ؟ ماذا فى هذا الحادث ؟ وكيف ستكون نهايته ؟ وما العمل ؟

وهذا هو ما كان فيه من عذاب . فذهنه كان قد عجز عن استيعاب الأفكار ، فصارت تمر به فى موجات ، فقبض على رأسه بكلتا يديه كى يستوقفها .

ولم يتمخض هذا الخضم المتلاطم الذى يتجاذب إرادته وعقله ، وهو يحاول أن يستخلص بينة أو قراراً ، إلا عن طوفان من الكرب .

وأحس برأسه يحترق ، فاتجه إلى النافذة وفتحها على سعتها ؛ ورأى السماء خالية من النجوم ، فعاد ليجلس قرب المنضدة .

ومرت الساعة الأولى على هذا النحو .

ورويداً رويداً بدأت خطوط غامضة ترتسم وتثبت فى مكانها ، فاستطاع على هداها أن يلمح الواقع بدقة ، لا فى مجموعه ، بل جوانب جزئية منه .

بدأ بإدراك أن هذا الموقف بالغاً ما بلغ من الشذوذ والحرج ، إلا أنه تحت سيطرته بالكامل .

وزاد هذا من ذهوله .

فبغض النظر عن الهدف الدينى الذى تتحراه أعماله ، كان كل ما فعله حتى هذا اليوم إن هو إلا حفرة حفرها كى يوارى فيها اسمه . فأخوف ما كان يخافه فى الساعات التى يخلو فيها بنفسه ، وفى ليالى الأرق والسهاد ، أن يسمع أحداً على الإطلاق يتفوه بهذا الاسم ، وكان يقول لنفسه : إن ذلك سيكون نهاية كل شيء ، وإن ذلك اليوم الذى يعود فيه هذا الاسم للظهور هو اليوم الذى تنهار فيه حياته الجديدة التى بناها من حوله . ومن يدرى أيضاً أنه لن يكون يوم موت نفسه الجديدة ؟

وراح يرتجف من مجرد التفكير فى أن هذا يمكن أن يحدث . ويقيناً لو أن أحداً قال له فى هذه اللحظات : إنه ستأتى ساعة يرن فيها هذا الاسم فى أذنيه ، أو إن هذا اللفظ الكريه « جان فلجان » سيخرج بغتة من جوف الليل لينتصب أمامه ، أو إن هذا الضوء الرهيب الذى سيبدد السر الذى يحيط به سينقض فجأة على رأسه ، وإن هذا الاسم

لن يهدده بعد ذلك ، وإن هذا الضوء لن يتمخض إلا عن ظلمة أحلك ، وإن انقشاع القناع سيزيد السر خفاء ، وإن هذا الزلزال سيزيد صرحه رسوخاً ، ويجعل وجوده أوضح وأشد حصانة ، وإن مواجهته لشبح جان فلجان سيخرج منها البورجوازى الصالح المسيو مادلين المحترم أعز مكانة وأمناً من ذى قبل — لو أن أحداً قال له هذا لهز رأسه ونظر إلى هذه الأقوال وكأنها هذيان مخبول .

ولكن الله سبحانه كان قد قدر بعزيز قدرته وسامى حكمته أن هذه الترهات كلها ستكون واقعاً ملموساً ، فى الأوان المعلوم لعلام الغيوب وحده !

وواصلت أفكاره سبيلها إلى الوضوح . وازداد إدراكه لموقفه الراهن .

وبدا له كأنما قد استيقظ من نعاس لا يدرى كنهه ، وأنه يتزلق فوق منحدر فى جوف الليل ، وهو واقف يرتجف . وعبثاً يحاول التراجع وهو يجد نفسه على شفا هاوية ما لها من قرار . ولمح بوضوح ، وتميز فى جوف الظلام شخصاً مجهولا . شخصاً غريباً خالته المقادير أنه هو ، وراحت تدفع به إلى الهاوية بدلا منه . ولابد أن يتردى فى الهاوية أحد : إما هو أو ذلك الآخر المجهول .

ولن تكلفه النجاة إلا أن يدع المقادير تجرى فى أعنتها .

وعندئذ تمت له الرؤية الواضحة . واعترف لنفسه بأن مكانه فى تجديف سفن الأسطول فى الليمان كان شاغراً ينتظره ، وأن ما سرقه

من جرفيه الصغير يسوقه إلى هناك ، وأن مصيره إلى هناك قضاء مقدور ...

ثم قال لنفسه : إن له الآن بديلا ، ويبدو أن المدعو شانماتييه شاء سوء طالعه له هذا المصير ، وأنه سيكون فى الليمان فى شخص شانماتييه ، تحت اسم جان فلجان . وسيكون فى المجتمع تحت اسم المسيو مادلين . فلم يعد لديه ما يخشاه ، شريطة أن يختم الناس على رأس المسكين شانماتييه بخاتم العار ، الذى يشبه حجر القبر ، الذى متى استقر فى مكانه لم يرتفع بعد ذلك أبداً .

كل هذا كان بالغ العنف بالغ الغرابة ، فأحدث فيه ذلك الضرب من الهزة التى لا توصف ، الذى لا يعترى المرء إلا مرتين أو ثلاثاً فى حياته كلها . ضرب من تشنج الضمير الذى يحرك كل ما ينطوى عليه القلب من الشك والحيرة ، فهو مزيج من السخرية والحبور واليأس ، وفى وسعنا أن نسميه قهقهة باطنة .

وأشعل شمعته بحركة عصبية ، وقال لنفسه :

— ماذا إذن ؟ مم أخاف؟ ما الذى يدفعنى إلى مثل هذا التفكير؟ ها أنا ذا قد نجوت ! وانتهى كل شىء . فلم يكن هناك إلا باب موارب يمكن أن يقتحمه ماضىّ ليفسد على حياتى . وها هو هذا الباب وقد أضحى مسدوداً ، وإلى الأبد ! وجافير الذى يعكر صفوى ويقلقنى منذ وقت طويل بغريزته التى بدا أنها حدست حقيقتى ، بل إنها حدست حقيقتى فعلا ، وراحت تتعقبنى فى كل مكان ، وكأنه

كلب صيد مرهوب الجانب ، ها هوذا قد ضل طريقه ، وانشغل بغيرى إلى غير عودة ! وهو الآن راض مقتنع بأنه وضع يده على جان فلجان ! ومن يدرى ؟ لعله يصر على ترك المدينة ! وقد حدث كل هذا بغير تدخل منى ! ولا يد لى فيه ! وما الضير فى هـذا ؟ فإن من يرانى الآن يعتقد أنه حلت بى كارثة ! مع أنه إن كانت هناك مصيبة أصابت أحداً ، فليس هذا ذنبى . بل القدر هو الذى صنع هذا كله ! ويبدو أن هذه مشيئته ! فهل من حقى أن أنقض ما دبره القدر ؟ ما الذى أريده أو أبتغيه الآن ؟ وما الذى أهم أن أتدخل فيه؟ هذا أمر لا يعنينى ! كيف إذن أشعر بعدم الرضا ؟ ما الذى ينقصنى ؟

أما الغاية التى سعيت إليها منذ سنوات طوال ، وحلم ليالى ، وموضوع صلواتى إلى السماء ، وهو الأمان ، فها أنا ذا قد أدركته ! والله هو الذى أراد هذا . وليس لى أن أعترض على مشيئة الله . ولماذا يشاء الله هذا ؟ لكى أواصل وأكمل ما بدأته ، ولكى أصنع الخير ، وأغدو يوماً ما قدوة عظيمة تشجع الناس على الاقتداء بها ، ولكى يقال أخيراً إن ثمة بعض السعادة جزاء الكفارة التى قدمتها ، والفضيلة التى عدت إلى أحضانها ! الحق أننى لا أفهم لماذا اعترانى الخوف منذ قليل من الدخول إلى بيت ذلك الخورى الطيب كى أورى له كل شىء على هيئة اعتراف مصون السر ، ثم أسأله النصح . ولا أشك فى أن هذا كان عين ما سيقوله لى . ها قد انتهيت إلى قرار ! لنترك الأمـور تجرى فى أعنتها ! ولندع الله العلى القدير يصنع ما يشاء !

هكذا كان يقول لنفسه فى أعماق ضميره ، وهو منحن فوق حافة ما يمكن أن نسميه هاديته الخاصة . ونهض من كرسيه وراح يتمشى فى الحجرة ، وقال :

– هيا ! لندع التفكير فى هذا الأمر . هذا هو قرارى الأخير ! بيد أنه لم يشعر بأى سرور ، بل الأمر بالعكس !

وليس الإنسان بأقدر على منع عقله من العودة إلى فكرة ما ، منه على منع البحر من العودة إلى الارتطام بالشاطئ ، وهذه العودة عند المذنب تسمى الندم ، لأن الله يحرك النفس على نحو ما يحرك المحيط .

فبعد لحظات قليلة إذا به يستأنف هذا الحوار الكئيب الذى كان فيه هو المتكلم ، وهو هو السامع ، وراح يقول لنفسه ما كان قد قرر الصمت عنه ، ويسمع ما لم يكن يريد أن يسمع ، مذعناً لتلك القوة الخفية التى تقول له : « فكر ! » ، مثلما قالت منذ ألفى سنة لمذنب آخر : امش !

وقبل أن نمضى فى السياق إلى أبعد من هـذا ، ولكى يكون ما نكتبه مفهوماً تمام الفهم ، نذكر هنا ملاحظة ضرورية .

من المؤكد أن الإنسان يكلم نفسه . وما من كائن مفكر لم يجرب هذا . بل ويمكننا القول : إن « الكلمة » ليس سراً عظيماً إلا حينما يمضى فى داخل الإنسان من فكره إلى ضميره ، وحينما يعود من

الضمير إلى الفكر . وبهذا المعنى دون سواه ينبغى فهم الكلمات التى تتكرر كثيراً فى هـذا الفصل ، من قبيل « قال ، وقال لنفسـه ، وصاح » . فالمرء يقول لنفسه ، ويصيح فى داخل نفسه ، من غـير أن يهتك ذلك حجاب الصمت من حوله . ففينا جيشان هائل ، وكل شىء فى داخلنا يتكلم فى هذه الحالة ما عدا الفم . وحقائق الروح وإن لم تكن مرئية ولا ملموسة إلا أن هذا لا يمنع كونها حقائق .

وسأل نفسه : أين هو الآن من هذا الأمر ، وتساءل حول ذلك القرار الذى اتخذه : واعترف لنفسه بأن كل ما رتبه فى ذهنه كان فظيعاً . وأن « ترك الأمور تجرى فى أعنتها » وترك « المولى سبحانه يفعل ما شاء » شىء رهيب . وأن ترك خطأ القدر والبشر يمضى إلى ختامه ، من غير أن يمنعه ، إنما هو بمثـابة مشاركة فيه بالتواطؤ والصمت . أى أن عدم فعل شىء هو فى الحقيقة فعل كل شىء ! وذلك هو الحضيض الأسفل من النفاق ! وجريمة منحطة دنيئـة خبيثة بشعة .

ولأول مرة منذ ثمانى سنوات شعر الرجل التعس بمرارة طعم فكرة شريرة وعمل شرير ! وبصق هذه المرارة فى تقزز .

وواصل مساءلة نفسه فى قسوة عما عناه بقوله :

ـــ لقد أدركت غايتى !

وصارح نفسه بأنه كانت لحياته غاية فعلا . ولكن ما هى هـذه الغاية ؟ أهى إخفاء اسمه ؟ أهى خداع الشرطة ؟ ألأجل شىء بهـذه

الضـآلة صنع كل ما صنع ؟ ألم تكن له غاية أخرى ، هى الغـاية العظيمة ، الغاية الحقيقية ؟ وهى ليست إنقاذ شخصه ، بل إنقاذ روحه . وأن يعود شريفاً صالحاً . أن يكون باراً ! أولم يكن هذا على الخصوص ، بل أولم يكن هذا دون سواه ، هو ما طمع إليه ، وما أمره به الأسقف ؟

أكان مراده أن يغلق الباب فى وجه ماضيه ؟ ولكنه بالإقدام على عمل دنىء لا يغلق هذا الباب ، بل يفتحه على مصراعيه ! ليغدون بهذا العمل لصاً كما كان ، بل وأحط أنواع اللصوص ! لأنه بذلك يسلب رجلا آخر وجوده ، وحياته ، وأمنه ومكانه تحت الشمس ! بل إنه بذلك يصير قاتلا ! يقتل قتلا معنوياً رجلا بائساً ، ويحكم عليـه بالموت حياً ، فى ذلك القبر المفتوح على السماء، الذى يسمونه الليمان ! أما إن سلم نفسه ، وأنقذ هذا الرجل الذى وقع فى براثن غلطة فاجعة بطريق المصادفة ، واسترد اسمه فعاد بمقتضى الواجب جان فلجان نزيل الليمان ، فإنه بذلك يتمم بعثه الروحى ، ويغلق إلى الأبد الجحيم الذى خرج منه ! فعودته الظاهرية إليه إنما هى فى الواقع خروجه منه ! وما فعل شيئاً إن لم يفعل هذا ! وكل حياته تمسى بلا جدوى، وتذهب كفارته كلها هباء .

وأحس أن الأسقف قائم أمامه ، وأنه حى لم يطوه المـوت ، يرمقه بإمعان . وأنه يرى العمدة مادلين بغيضاً إليه بكل فضائله ، وأن السـجين نزيل الليمان جـان فلجان تقى طـاهر فى نظره خـليق

بالإعجاب . فالناس لا يرون منه إلا القناع ، أما الأسقف فيرى وجهه الحقيقى . فالناس يرون حياته ، أما الأسقف فيرى سريرته وضميره .

لابد إذن من الذهاب إلى « أراس » ، وتخليص جان فلجان المزيف ، والكشف عن جان فلجان الحقيقى ! واأسفاه ! هذه هى التضحية الكبرى ، وهذا هو أوجع الانتصارات وأبهظها ثمناً ، والخطوة الأخيرة التى عليه أن يخطوها ، ولا مفر منها !

يا للقدر الأليم ! الذى قضى عليه ألا يدخل من باب القداسة فى عينى الله ، إلا إذا دخل من باب الخزى والعار والمهانة فى أعين الناس !

– ليكن ! لنتخذ هذا القرار ! ولنؤد واجبنا . ولننقذ هذا الرجل !

تفوه بهذه الكلمات فى صوت مرتفع ، من غير أن يفطن إلى أنه كان يتكلم بصوت عال .

وتناول دفاتر حساباته ، وراجعها ، وجعلها محكمة الانضباط . وقذف إلى النار برزمة من وثائق الديون التى له فى ذمة طائفة من التجار الصغار . وكتب رسالة ختم مظروفها وكتب عليه « إلى المسيو لافيت ، المصرفى بشارع أرتوا فى باريس » .

واستخرج من قمطر حافظة بها طائفة من الأوراق المالية ، وجواز السفر الذى كان قد استخدمه فى هذه السنة نفسها للتوجه إلى الانتخابات .

ومن كان يراه وهو يقوم بكل هذه الأعمال التى يمازجها كثير من التأمل الجاد ما كان ليشك فيما يخامره . فكل ما هناك أن شفتيه كانتا تتحركان أحياناً ، وفى لحظات أخرى كان يرفع رأسه ويثبت بصره فى نقطة ما من الجدار ، كأنما يوجد هناك شىء ما يريد أن يستوضحه أو يستنطقه .

وما إن فرغ من خطاب المسيو لافيت حتى وضعه فى جيبه ، شأنه شأن الحافظة وشرع فى السير .

ولم ينحرف فى شروده قط ، لأنه لم يزل يرى واجبه مكتوباً بوضوح بحروف مضيئة كانت تتوهج أمام عينيه ، وتتنقل مع بصره قائلة له :

– امض ! اكشف عن اسمك ! أبلغ عن نفسك !

وكان يرى أيضاً ، كأنما هما ماثلتان أمامه فى أشكال محسة ، تلك الفكرتين اللتين كانتا حتى ذلك الحين القاعدة المزدوجة لحياته : وهما إخفاء اسمه ، وتقديس روحه . ولأول مرة بدتا له الآن منفصلتين تماماً ، وتبين الفارق الذى يفصل فيما بينهما . وعرف أن إحدى هاتين الفكرتين كانت صالحة خيرة بالضرورة ، أما الأخرى فيمكن أن تغدو شريرة . والفكرة الصالحة تمثل الولاء والعبادة ، أما الشريرة فتمثل الشخصية . لأن أولاهما تقول : « الآخر » ، أما الأخرى فتقول « أنا » . ذلك أن الأولى آتية من النور ، أما الأخرى فآتية من الظلام . والفكرتان تقتتلان . وهو يرى بعينه اقتتالهما . وفيما هو يفكر

فيهما ، كانتا تكبران أمام عينى فكره ، حتى صارت لها الآن قامتان عملاقتان ، حتى خيل إليه أنه يرى إلاهة وعملاقة تتصارعان فى داخله ، وسط الوهج والظلمات .

وامتلأ رهبة ورعباً ، ولكن بدا له أن الفكرة الصالحة كتب لها النصر .

وأحس أنه وصل إلى المرحلة الأخرى الحاسمة من مراحل ضميره ومصيره ، وأن الأسقف صنع المرحلة الأولى من حياته الجديدة ، وأن شانماتييه هو صانع مرحلته الثانية . وها قد حلت بعد الأزمة الكبرى ، التجربة الكبرى .

ومع هذا عاودته الحمى رويداً رويداً بعد أن كانت قد خفت برهة . ومرت بخاطره ألف فكرة ، إلا أنها ظلت تدعم تصميمه .

فتارة قال لنفسه : إنه ربما كان يبالغ فى تناول المسألة ، وأن شانماتييه هذا لا أهمية له ، ثم إنه سبق أن سرق على كل حال .

ورد على نفسه قائلا :

— لئن كان هذا الرجل قد سرق بضع تفاحات ، فالعقوبة شهر من الحبس . وما أبعد الفارق بين هذا وبين اللمان وعقوبة التجديف فى سفن الأسطول ! ثم من يدرى ؟ أهو قد سرق حقاً ؟ وهل ثبت عليه هذا ؟ إن اسم جان فلجان هو الذى يرهقه ويقوم مقام الأدلة . أوليست هذه طريقة النيابة العامة الملكية عادة ؟ فهم يعتقدون أنه لص لأنهم يعرفون أنه نزيل اللمان من قبل .

وفى لحظة أخرى ، يخطر له أنهم — إذا ما أبلغ عنه نفسه — ربما قدروا له بطولة عمله هذا ، وقدروا له حياته الشريفة طيلة سبع سنوات ، وما صنعه لخير إقليمه ، فيعفون عنه .

بيد أن هذه الفكرة سرعان ما تبخرت ، وابتسم بمرارة ، وقد تذكر أن سرقة الأربعين صلدياً من « جرفيه الصغير » تجعل منه مجرماً عائداً ، وأن هذه الفعلة سوف تظهر حتماً ، ونصوص القانون صريحة حاسمة فى وجوب الحكم عليه عندئذ بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وأشاح بوجهه عن كل وهم ، وانفصل شيئاً فشيئاً عن الأرض ، وبحث عن العزاء والقوة فى مكان آخر . وقال : إنه ينبغى أن يؤدى واجبه ، ولعله بعد أدائه لا يكون أتعس مما كان حين راغ منه . وإنه لو ترك الأمور تجرى فى أعنتها ، وبقى فى مدينة « م » ، لصارت مكانته ، وسمعته الطيبة ، وأعماله الخيرية ، والإكبار والإجلال ، وصدقاته وثروته وشهرته وفضيلته مشوبة كلها بجريمة ، وأى مذاق فى هذه الحالة عساه يكون لكل هذه الأمور المقدسة المقترنة بهذا الإثم الكريه ؟ أما إن أقدم على تضحيته ، وعاد إلى اللمان ، والعمل الشاق ، وإلى العار بلا رحمة ، لاقترنت تضحيته بفكرة سماوية !

وقال لنفسه أخيراً إن ثمة ضرورة ، وإن مصيره هو هذا ، وإنه ليس من حقه أن يغير تدبيرات السماء ، وإنه ينبغى عليه فى جميع الأحوال أن يختار إما الفضيلة الخارجية أو البرانية والزراية الباطنة أو الجوانية ، وإما القداسة الجوانية والعار البرانى .

ولم تتخاذل شجاعته من جراء تقليب هذه الأفكار المحزنة ، ولكن ذهنه أصيب بالإنهاك . وبدأ يفكر برغمه فى أمور أخرى لا أهمية لها فى الموضوع .

وأخذت عروقه تدق فى صدغيه بعنف ، وهو لا يكف عن السير جيئة وذهاباً . ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فى الكنيسة أولا ، ثم فى دار البلدية . وأحصى الدقات الاثنتى عشرة فى الساعتين ، وجعل يقارن بين صوت الناقوسين . وتذكر بهذه المناسبة أنه كان قد رأى قبل ذلك ببضعة أيام لدى تاجر أدوات حديدية ناقوساً قديماً للبيع ، منقوشاً عليه هذا الاسم : أنطوان ألبان دى رومنفيل .

وأحس البرد ، فأشعل ناراً صغيرة ، ولم يفكر فى إغلاق النافذة .

ومع هذا عاد إلى ذهوله ، واقتضى منه تذكر ما كان يفكر فيه قبل انطلاق دقات منتصف الليل جهداً كبيراً ، وأخيراً نجح فى التذكر ، وقال لنفسه :

— آه !.. لقد اتخذت قراراً بتسليم نفسى .

ثم فكر فجأة فى فانتين ، فقال :

— ويحى ! وتلك المرأة المسكينة !

وعندئذ انتابته أزمة جديدة .

وظهرت فى خواطره فجأة فانتين ، وكأنما هى شعاع ضوء غير متوقع ، حتى لقد خيل إليه أن مظهر كل شىء قد تغير من حوله ، فصاح :

— ولكنى حتى الآن لم أفكر إلا فى أمر نفسى ! ولم أتدبر إلا ما يصلح به شأنى ! وهل أصمت أم أفشى سرى ؟ هل أخفى شخصى أم أنقذ روحى ؟ هل أكون رجل حكم حقيراً فى الباطن محترماً فى الظاهر أم نزيل ليمان مزدرى فى الظاهر جليلا فى الباطن؟ وهذا كله لا علاقة له بأحد سواى ! ولكن رباه ! هذا كله من قبيل الأنانية ! وكلا الخيارين شكلان مختلفان للأنانية ، ولكنهما أنانية على كل حال ! فلماذا لا أفكر قليلا فى الآخرين ؟ إن القداسة الأولى هى التفكير فى الآخرين ! فلننظر فى المسألة فى هذا الضوء ! ولذا ماذا تكون نتيجة فحوى ونسيان شخصى ؟ ماذا يحدث إذا سلمت نفسى ؟ سيلقون القبض على ويطلقون سراح شانماتييه . سيزجون بى فى الليمان . ثم ماذا بعد ؟ ماذا يحدث عندئذ ها هنا ؟ آه ! ها هنا إقلم بأسره ، ومدينة ، ومصانع ، وصناعة ، وعمال ، ورجال ، ونساء ، وأجداد مسنون ، وأطفال ، وفقراء ! لقد أوجدت أنا هذا كله ، وأنا الذى أمده بالحياة . وحيثما تصاعد الدخان من مدخنة فأنا الذى أشعلت جذوة تلك النار ، وأنا الذى وضعت اللحم فى القدر . أنا الذى صنعت اليسر والرخاء ، ودورة الاقتصاد ، والثقة والائتمان ، ومن قبل لم يكن ثمة شىء ! أنا الذى أقمت وأحييت وأخصبت ، وأثريت الإقليم كله . فإن ذهبت أنا ، فارقت الروح هذا الكيان كله . وإذا ما تخليت عنه مات كل شىء . وهذه المرأة التى عانت كثيراً ، وحفل سقوطها بالفضل والنبل الروحى ، وكنت أنا الذى

تسببت – دون قصد – فى تعاستها ! وهذه الطفلة التى كنت أريد الذهاب لإحضارها ، وبذلك وعدت أمها ! أليست على واجبات أيضاً نحو هذه المرأة لإصلاح الخطأ الذى سببته لها ؟ فلو اختفيت ، ماذا سيحدث ؟ تموت الأم ، وتغدو الفتاة مضيعة ! هذا ما سيحدث إن أنا سلمت نفسى للقضاء . أما إن لم أسلم نفسى ؟ لنر ماذا يحدث عندئذ !

وتوقف قليلا . وانتابته لحظة تردد واعترته رجفة . إلا أن هذه اللحظة لم تستمر إلا قليلا ، وقال لنفسه بهدوء :

– ليكن ! سيذهب هذا الرجل إلى اللبان . هذا صحيح . ولكنه – وحق الشيطان – سارق ! وسأظل أنا هنا ، لأواصل أعمالى . وفى مدى عشر سنوات سأكون قد ربحت عشرة ملايين ، أنفقها فى الإقليم ، فأنا لا أحتفظ لنفسى بشىء . وما أعمله لا أعمله لأجل نفسى ! وبذلك يزداد رخاء الجميع ، وتنشط الصناعات وتتكاثر المصانع والمعامل ، وتسعد مئات الأسر وألوفها ! ويزداد العمران ، وتولد قرى حيث لم تكن توجد إلا ضيعات ، وتولد الضياع حيث لم يكن يوجد شىء ، وتختفى الفاقة ، وباختفاء الفاقة يختفى الفجور والبغاء والسرقة والقتل ، وكل الرذائل والجرائم ! وتربى هذه الأم المسكينة طفلتها ! ويمسى الإقليم كله غنياً شريفاً ! آه ! لكم كنت مخبولا ، سخيفاً ، متناقضاً ! فكيف إذن حدثتنى نفسى بإفشاء سرى ؟ ينبغى أن أتنبه جيداً ولا أتسرع . ماذا كنت أريد ؟ أكنت أريد

تسليم نفسى لأنه راقنى أن أكون عظيماً كريماً ؟ يا لها من حبكة مينو درامية ، بعد كل شىء ! وما هذا إلا لأننى لم أفكر إلا فى نفسى ، وفى نفسى فحسب ! ألكى أرفع عن كاهل لص عقاباً مبالغاً فيه ، ولكنه عادل فى جوهره ، أترك إقليماً بأسره يتعرض للدمار ؟ وأدع امرأة مسكينة تهلك فى المستشفى ! وأدع طفلة صغيرة تهلك على قارعة الطريق كالكلبة ! كم هذا فظيع ! ومن غير أن يتاح لهذه الطفلة أن تعرف أمها ! وهذا كله فى سبيل إنقاذ هذا الشيخ الوغد سارق التفاح الذى استحق ولا مراء الأشغال الشاقة جزاء جريمة أخرى ، بفرض أنه لم يقترف هذه السرقة ! يا لها من ترهات جميلة لإنقاذ مذنب واحد والتضحية بألوف الأبرياء ! لإنقاذ منشرد مسن لم تبق أمامه إلا بضع سنوات فى الحياة على الأكثر ، ولن يكون فى اللبان أتعس حالا فى كوخه أو وكره الحقير ، وفى سبيل هذا أضحى بسكان إقليم بأسره ، فيهم الأمهات والزوجات والأطفال ! إن كوزيت الصغيرة المسكينة ليس لها فى الدنيا سواى ، وما من شك أنها الآن زرقاء الجسم من شدة البرد فى مسكن آل تردييه الحقير ! ويا لهذين الزوجين من وغدين لابد من حمايتها منهما ! فكيف يمكن أن أنكص عن واجبى نحو كل هذه المخلوقات التعسة بأن أذهب لتسليم نفسى ؟! إنى بذلك أرتكب حماقة خرقاء ! ولنفرض أسوأ الفروض ! لنفرض أننى مقترف ذنباً فى هذا كله ، وأن ضميرى سوف يؤنبنى عليه يوماً ما . فإن تقبل هذا التأنيب فى سبيل خير

الآخرين لن يضير أحداً سواى، لأن هذا الذنب لا يحيق إلا بروحى، ثم إن هذا من قبيل التقوى والفضيلة .

ونهض وعاد للسير . وخيل إليه فى هذه المرة أنه وصل إلى الرضا والقناعة .

إن الماس لا يوجد إلا فى ظلمات الأرض . وكذلك الحقائق لا توجد إلا فى أعماق الفكر . وقد خيل إليه بعد أن نزل إلى هذه الأعماق ، أنه وجد أخيراً إحدى تلك الماسات ، وجد حقيقة باهرة بعد طول عسعسة فى الدياجير ، وأنها صارت فى قبضة يده ، وانبهر بها وهو يتطلع إليها .

وفكر فى نفسه قائلا :

— أجل ! هذا صحيح ! إنى على حق . وهذا هو الحل . وينبغى التمسك بما توصلت إليه ، لقد قر قرارى . لندع الأمور تجرى فى أعنتها ! ولا ينبغى أن أتردد ، أو أتراجع ! وهذا فى مصلحة الجميع ، وليس فى مصلحتى . أنا مدلين ، وسأبقى مدلين ! والويل للمدعو جان فلجان ! إنه لم يعد أنا ! أنا لا أعرف هذا الرجل ، وهل يوجد فى هذه الساعة من يحمل هذا الاسم . وإن كان له وجود فليرتب أموره ! فهذا شىء لا يعنينى ! إنه اسم منكود طاف فى ظلام الليل ، فإن سقط على رأس مجهول ، فتعساً له !

وتطلع إلى نفسه فى المرآة الصغيرة التى كانت فوق المدفأة ، وقال :

— لقد هدأ بالى لأنى وصلت إلى قرار ! فأنا الآن غير ما كنت تماماً .

وسار بضع خطوات ثم توقف وقال :

— لا ينبغى التوقف أو التردد أمام أى من النتائج المترتبة على القرار الذى اتخذته . فلم تزل ثمة خيوط تربطنى بجان فلجان هذا ، وينبغى تحطيمها ! ففى هذه الحجرة بالذات أشياء تشير نحوى بالاتهام. أشياء خرساء يمكن أن تنقلب شهوداً . فلابد من القضاء على هذا كله.

وفتش فى جيبه ، واستخرج منه كيسه ففتحه وأخذ منه مفتاحاً.

وأولج هذا المفتاح فى ثقب لا تكاد تراه العين بين الرسوم التى تغطى الورق الملتصق بالحائط .. وانفتح مخبأ ، أشبه بخزانة سرية فيما بين زاوية الجدار وإطار المدفأة . ولم يكن فى هذه الفجوة إلا بعض أسمال ، تتبين بينها قميصاً من قماش أزرق ، وسروالا عتيقاً ، وزكيبة قديمة ، وهراوة ضخمة ذات عقد ، ركب على طرفيها كعبان من الحديد . ومن كانوا قد رأوا جان فلجان فى الفترة التى عبر فيها مدينة « د » . فى أكتوبر سنة ١٨١٥ يسهل عليهم أن يتعرفوا على هذا الزى .

وكان قد احتفظ بهذه القطع كما احتفظ بشمعدانى الفضة ، لكى يتذكر على الدوام نقطة بدايته ، ولكنه خبأ ما جاء به من الليمان ، وعرض للأنظار الشمعدانين اللذين جاءاه من الأسقف .

وألقى بنظرة مختلسة صوب الباب كأنما خشى أن يفتح برغم

المتراس الذى أغلقه به ، ثم بحركة مفاجئة ، ومن غير أن يعير هـذه الأشياء التى صانها بكل حرص نظرة واحـدة ، ألقى بهـا جميعاً ، بما فيها العصا ، والزكيبة ، فى نار المدفأة .

وأغلق الخزانة السرية ، ثم ضاعف من احتياطاته التى لم يعد لها موجب ، لأن الخزانة صارت خاوية تماماً ، فأخفى بابها وراء قطعة أثاث ضخمة دفعها إلى هناك .

وما هى إلا ثوان حتى كانت الحجرة والجدار المقابل لهـا قد أضيئا بانعكاس ضوء أحمر مرتجف . واحترق كل شيء ، وانبعث شرر من العصا الغليظة وصل إلى وسط الحجرة .

أما الزكيبة فاحترقت بمـا فيها من أسمال ، وكشفت عن شيء كان يلمع وسط الرماد . ولو انحنى لتبين فيه بسهولة قطعة نقود من الفضة ، هى بلا ريب تلك القطعة من ذات الأربعين صلدياً التى كان قد سرقها من الصبى « جرفيه الصغير » ولكنه لم ينظر إلى النار ، بل جعل يمشى جيئة وذهاباً بخطوة منتظمة . .

وفجأة وقعت عيناه على شمعدانى الفضة اللذين سطعت عليهمـا الأضواء المنبعثة من المدفأة . ففكر قائلا :

– ويحى ! إن جان فلجان لم يزل بأسره فيهما . فلا بد من تدميرهما أيضاً .

وتناول الشمعدانين .



ومن غير أن يعير هذه الأشياء التى صانها بكل حرص نظرة واحدة ، ألقى بها جميعًا ، بما فيها العصا ، والزكيبة ، فى نار المدفأة ..

وكانت هناك نار كافية فى المدفأة لتشويههما بسرعة وتحويلهما إلى سبيكة لا يعرف له شكل .

وانحنى فوق النار واستدفأ قليلا ، واستطاب تلك الحرارة ، ثم حرك الجذوة بأحد الشمعدانين . وبعد دقيقة كان الشمعدانان فى النار .

وفى هذه اللحظة خيل إليه أنه سمع صوتاً يصيح به من فوقه :

ـ جان فلجان ! جان فلجان !

قف شعر رأسه ! وغدا كرجل يسمع شيئاً رهيباً . وقال له الصوت :

ـ أتم ما بدأت ! اقض على هـذين الشمعدانين ! اقض على هذا التذكار ! انس الأسقف ! انس كل شىء ! ضيع شانماتييه ! هذا حسن ! صفق لنفسك ! هكذا قررت ! وهناك شيخ لا يدرى ماذا يراد به ، ولعله لم يقترف إثماً . لعله برىء ، ولكن اسمك أنت هو سبب بلائه ، وعلى كاهله يثقل اسمك وكأنه جرم ، وسيدان بدلا منك ، ويمضى ما بقى من عمره فى المهانة والهول ! كم هـذا حسن ! وتظل أنت رجلا شريفاً ، وعمدة موقراً ، جليلا مبجلا ، تثرى المدينة ، وتطعم الجياع ، وتربى اليتامى ! عش سعيداً فاضلا محاطاً بالتكريم والإعجاب . وفيما أنت هنا يحف بك الضوء والحبور ، يعيش ذلك الآخر تحت سترتك الحمراء ، حاملا اسمك ، مجللا بالعار ، مجرراً أغلالك فى اللبان ! أحسنت صنعاً أيها التعس !

وانساب العرق المتصبب من جبينه . وحدق فى الشمعدانين

بنظرة زائغة . ولكن من كان يخاطبه من داخله لم يكف عن الكلام ، وأردف قائلا :

ـ جان فلجان ! ستحف بك أصوات كثيرة عالية ذات لجب ، تباركك . ولكن صوتاً واحداً لن يسمعه أحد سيظل يلعنك فى جوف الظلام : أصغ أيها التعس ! كل هذه الأصوات التى تباركك ـ تعجز عن الصعود إلى السماء ، أما الصوت الوحيد الذى يلعنك فسوف يصل إلى عرش الله !

وكان هذا الصوت قد بدأ ضعيفاً جداً ؛ ثم أخذ يتعالى من أعمق أعماق ضميره ، إلى أن صار مدوياً رهيباً أشد الرهبة ، وصار يسمعه الآن ملء أذنيه . وكان قد خاله فى البداية خارجاً من داخله ، ثم صار يخاله الآن يخاطبه من خارجه ، لأن عباراته الأخيرة كانت بالغة التمييز ، حتى أنه تلفت حوله فى أرجاء الحجرة فى ارتياع . وسأل بصوت عال مشحون بالدهشة :

ـ أها هنا أحد ؟

ثم قال متضاحكاً ، فكأن ضحكته صادرة من مخبول ، وقال :

ـ ما أغبانى ! لا يمكن أن يكون ها هنا أحد !

وكان هناك أحد فعلا ، ولكنه لم يكن ممن تستطيع العين البشرية أن تراهم !

ووضع الشمعدانين على المدفأة .

ثم استأنف سيره جيئة وذهاباً فى رتابة واكتئاب ، ذلك السير

الذى أيقظ الرجل النائم فى الحجرة التى تحته مذعوراً من أحلامه .

وكان هذا السير يسرى عنه ولكنه يثيره فى الوقت نفسه . ويبدو أن البشر يمشون هكذا فى أوقات الحيرة والقلق ليلتمسوا النصح ممن يمكن أن يلتقوا بهم فى سيرهم . وبعد بضع لحظات لم يعد يدرى على أى شىء قر قراره . وتراجع مستهولا أمام كل من القرارين اللذين كان قد اتخذهما على التوالى ، وبدت له الفكرتان سيئتين على السواء! ويا له من قدر غريب هذا الذى جعلهم يظنون شانماتييه هذا أنه هو جان فلجان! وهكذا وجد نفسه مطارداً بالهلاك من الباب الذى بدا أن العناية دبرته للتمكين لاطمئنانه !

ومرت به لحظة تأمل فيها المستقبل! أيسلم نفسه ويفشى سره ؟ يا إلهى ! وواجه بكل اليأس كل ما يجب عليه التخلى عنه ، وكل ما يجب عليه أن يعود إليه . لابد إذن من أن يقول وداعاً لهذه الحياة التى وجدها ناعمة رغدة ، نقية ، مشرقة ، وللاحترام والتبجيل اللذين يجدهما عند الجميع ، بل وللحرية نفسها! ولن يتسنى له بعد الآن أن يذهب للتنزه فى الحقول ، ولن يسمع بعد الآن الطيور الصداحة فى شهر مايو ، ولن يتصدق على الأطفال الصغار! ولن يحس عـذوبة نظرات العرفان والحب التى توجه إليه ! وسيغادر هذا البيت الذى شيده ! وهذه الحجرة الصغيرة! ولكم بدا له كل شىء فاتنا فى هذه الساعة ! ولن يطالع هـذه الكتب ، ولن يكتب على هذه المنضدة الصغيرة من الخشب الأبيض ! وبوابته العجـوز ، وهى الخادمة

الوحيدة التى لديه ، لن تصعد إليه بقهوته فى الصباح ! يا إله السماء! بدلا من هذا لن يكون إلا السجن ، والسترة الحمراء ، والقيد فى قدمه ، والكد والعناء ، والزنزانة ، وفراش المعسكر ، وكل تلك الأهوال التى يعرفها خير معرفة ! وفى سنه هذه ، بعد أن كان ملء السمع والبصر !

وليته كان لم يزل شاباً ! ولكنه الآن شيخ ، وسيجد الخطاب الجافى المزرى من كل من هب ودب ، ويفتشه الحارس ، ويناله بعصاه وهو صاغر ! ويلبس الحذاء ذا المسامير الحديدية بدون جورب ويتحمل فضول الغرباء الذين يشار لهم إليه بقولهم :

— هذا هو جان فلجان الشهير! جان فلجان الذى كان عمدة «م» !

وفى المساء يصعد وهو منهك يتصبب عرقاً والقلنسوة الخضراء فوق عينيه سلم الايمان العائم تحت سوط الرقيب ! أوه ! أى تعاسة ! أيمكن أن يكون القدر غاشماً إلى هذا الحد ؟

ومهما فكر ، عاد به التفكير إلى حيث كان من هذه المعضلة التى كانت مسيطرة على أعماق نفسه : أيبقى فى الفردوس ليكون فيه شيطاناً ، أم يعود إلى الجحيم لكى يغدو فيه ملكاً كريماً !

ما العمل يارب ! ما العمل ؟

وهكذا تفجر العذاب الذى كان قد خرج من دائرته قبل قليل بمشقة بالغة ، وشرعت أفكاه تختلط من جديد ، وعاوده من جديد اسم رومنفيل Romainvill مقترناً ببيتين من أغنية كان قد سمعها فيما

مضى . وظن رومنفيل غابة صغيرة بالقرب من باريس ، يذهب إليها الشباب من العشاق لقطف زهور الليلك فى شهر أبريل .

وراح يرتجف ظاهراً وباطناً ، ويمشى كطفل صغير تركوه يسير وحده .

وفى لحظات معينة ، كان يقاوم الإنهاك ليستجمع خيوط ذكائه . وحاول للمرة الأخيرة أن يضع نصب عينيه المشكلة التى أثقلت كاهله وأرهقته . أيجب عليه أن يسلم نفسه؟ أم يجب عليه أن يلزم الصمت ؟ ولم يفلح فى تبين حل واضح قاطع ، لأن حجج الجانبين تداخلت وتشابكت وتبددت تباعاً كحلقات الدخان . ولكنه أيقن أنه أياً كان القرار الذى يتخذه ، فلا مناص من أن يموت فيه شيء ما . وأنه ساقط لا محالة فى قبر سواء جنح إلى يمنة أو يسرة . ولا بد أن تحتضر فيه إما السعادة أو الفضيلة .

وهكذا ألفى نفسه حيث كان فى البداية ، لم يتجاوزها قيد أنملة . ومن قبله بألف وثمانمائة سنة كان كائن مقدس على جبل الزيتون قد حاول أن ينحى بيده الكأس الرهيبة عن شفتيه ...

* * *

الفصل الرابع
صور من العذاب أثناء النوم

دقت الساعة معلنة الثالثة صباحاً ، وقد انقضت عليه خمس ساعات وهو يسير على هذا النحو ، بغير انقطاع تقريباً ، فارتمى على كرسيه .

ونام وهو جالس ورأى حلماً .

ولم يكن هذا الحلم ، مثل معظم أحلامه ، يرتبط بالموقف ارتباطاً مباشراً ، ولكنه ترك لديه انطباعاً . وبلغ من دهشته بهذا الحلم أنه سجله بالكتابة فيما بعد ، فى إحدى الأوراق المكتوبة التى تركها . ونرى من واجبنا أن نذكر هنا ما كتبه بحروفه .

وأياً كان هذا الحلم ، فتاريخ هذه الليلة لن يكتمل لو أننا أغفلناه . فهو مغامرة محزنة لروح مريض .

وهاك هو . وقد وجدنا على المظروف هذا السطر بخط يده :

« الحلم الذى رأيته فى تلك الليلة » :

« كنت فى بقعة من الريف . وهى بقعة منه مترامية كئيبة كالحة خالية من العشب . ولم أتبين أكان الوقت نهاراً أم كان ليلا .

« وكنت أتنزه مع أخى . أخ سنوات طفولتى ، وهو ذلك الأخ الذى اعترف أنى لا أفكر فيه أبداً ، ولا أكاد أتذكره الآن .

« وكنا نتبادل الحديث ، والتقيت ببعض عابرى السبيل . وتحدثنا

عن جارة لنا فيما مضى ، يطل بيتها على الشارع ، لذا كانت تعمل دائماً ونافذتها مفتوحة . وفيما نحن نتحدث شعرنا بالبرد بسبب هذه النافذة المفتوحة .

« ولم تكن فى هذه الريف أشجار .

« ورأينا رجلا يمر بقربنا . وكان هذا الرجل عارياً تماماً ، بلون الرماد ، يمتطى حصاناً بلون الأرض . وكان هذا الرجل بلا شعر ، فكنا نرى يافوخه ، وعروقاً فى يافوخه . ويمسك بيده عصا لدنة كأنها عود من أعواد الكرم ، ولكنها ثقيلة كالحديد . ومر هذا الخيال ولم يقل لنا شيئاً .

« وقال لى أخى :

— لنسلك الطريق الخاوى .

« وكان هناك طريق خاو لا ترى فيه عوسجة ولا عود طحلب . وكان كل شىء بلون الأرض ، حتى السماء . وبعد بضع خطوات لم أعد أسمع رداً على كلامى ، وفطنت إلى أخى لم يكن معى ...

« ودخلت قرية رأيتها ، وخيل إلى أنها لابد أن تكون رومنفيل Romainville (ولماذا رومنفيل ؟) .

« وكان أول شارع سلكته مقفراً . ودخلت شارعاً آخر . ووراء زاوية التقاء الشارعين وقف رجل لصق الحائط . فقلت لهذا الرجل :

— ما هذا الإقليم ؟ أين أنا ؟

« ولم يرد الرجل على . ورأيت باب بيت مفتوحاً ، فدخلت .

« وكانت الحجرة الأولى خالية ، فدخلت الحجرة الأخرى . ووراء باب هذه الحجرة كان رجل واقفاً لصق الحائط . وسألت هذا الرجل :

— لمن هذا البيت ؟ وأين أنا ؟

« ولم يجبنى الرجل . وكانت للبيت حديقة .

« وخرجت من البيت ودخلت الحديقة . وكانت الحديقة خالية . ووراء أول شجرة وجدت رجلا واقفاً . وقلت لهذا الرجل :

— ما هذه الحديقة ؟ وأين أنا ؟

« ولم يجبنى الرجل » .

« وتجولت فى القرية ، فتبينت أنها مدينة . وكانت الشوارع كلها مقفرة ، والأبواب كلها كانت مفتوحة . وما من كائن حى كان يمر بتلك الشوارع أو يمشى فى الحجرات أو يتنزه فى الحدائق . ولكن كان وراء كل زاوية جدار ، ووراء كل باب ، ووراء كل شجرة رجل واقف وقد التزم الصمت . ولم يكن يشاهد منهم إلا رجل واحد فى كل مرة . وكان هؤلاء الرجال يرمقوننى وأنا أمر بهم .

« وخرجت من المدينة وشرعت أسير فى الحقول » .

« وبعد فترة من الوقت التفت فرأيت حشداً كبيراً يمشى خلفى . فعرفت فيهم جميع الرجال الذين رأيتهم من قبل فى المدينة . وكانت لهم رءوس غريبة . ولم يبد عليهم أنهم يسرعون ، ومع هذا كانوا

أسرع منى . ولم يكن يصدر عنهم أى صوت وهم سائرون . وسرعان ما لحق بى هـذا الجمع وأحاط بى . وكانت وجـوه أولئك الرجال بلون الأرض .

« وعندئذ قال لى أول من كنت قابلت منهم وسألته عند دخولى المدينة :

— إلى أين أنت ذاهب ؟ ألا تدرى أنك مت منذ وقت طويل؟

« ففتحت فمى لأرد عليه ، وعندئذ لاحظت أنه لم يكن حـولى أحـداً ! » .

* * *

واستيقظ من سباته ، وقد تثلجت أطرافه . وكانت ريح باردة مثل ريح الصباح قد أدارت مفصلات مصراع النافذة المفتوحـة . وقـد خمدت النار ، وأوشكت الشمعة على نهايتها . والليل الدامس لم يزل مخيماً .

ونهض واتجه إلى النافذة ، فإذا السماء لم تزل خالية من النجوم .

ومن نافذته كان يرى فناء البيت والشارع . وترامت قعقعـة جافة صلبة فجأة فوق أرض الشارع ، فحملته على أن يخفض عينيه عن السماء . ورأى من تحته نجمين أحمرين تطول موجات نورهمـا وتقصر بصورة غريبة فى الظلام .

ولما كانت أفكاره لم تزل غـارقة إلى حـد ما وسط ضـباب الأحلام ، قال لنفسه :

— عجباً ! ليس فى السماء نجـوم ، ولـكن ها هى الآن على الأرض !

بيد أن هذا الاضطراب لم يلبث أن تبدد ، وأتمت ضجة أخرى شبيهة بالأولى عملية إيقاظه ، فحدق فى الشارع وعرف فى النجمين الأحمرين مصباحى عربة . وعلى ضوئهما استطاع تبين شكلها ، فإذا هى دوكار شد إليه حصان أبيض صغير . وكانت الضجة التى كان قد سمعها هى وقع حوافر ذلك الحصان على أرض الشـارع . فقـال لنفسه :

— ما هذه العربة ؟ ومن هذا الذى جاء فى هذه الساعة المبكرة؟

وفى هذه اللحظة دقت طرقة صغيرة على باب حجرته .

فارتعد من فرعه إلى قدمه وصاح بصوت رهيب :

— من هناك ؟

وأجابه صوت نسائى :

— هذه أنا يا سيادة العمدة !

فعرف صوت عجوز ، هى بوابته ، وقال :

— ماذا تريدين ؟ ماذا هناك ؟

— يا سيادة العمدة . الساعة توشك أن تبلغ الخامسة صباحاً .

— وما شأنى بهذا ؟

— يا سيادة العمدة ! لقد جاءت العربة .

— أى عربة ؟

– الدوكار ..

– أى دوكار ؟

– أو لم يطلب سيادة العمدة دوكاراً ؟

فقـال :

– لا .

– لقد قال الحوذى : إنه جاء كطلب سيادة العمدة .

– أى حوذى ؟

– حوذى المسيو سكوفلير :

– المسيو سكوفلير !

وجعله هذا الاسم يرتجف كأنما مرق وميض البرق أمام وجهه، وقال :

– فعلا ! المسيو سكوفلير !

ولو كانت العجوز رأته فى هذه اللحظة ، لانتابها الارتياع .

وصمت طويلا . وتمعن بغباء فى شعلة الشمعة ، وتناول بعض الشمع الذائب المحرق وكوره بين أصابعه . وانتظرت العجوز . ثم تجرأت على رفع صوتها مرة أخرى :

– بماذا أجيب الحوذى يا سيادة العمدة ؟

– قولى له إنى سأنزل تواً .

* * *

الفصل الخامس
تعطيـــل

كانت خدمة البريد من أراس إلى «م» تتم فى تلك الفترة من الزمن بواسطة عربات صغيرة منذ عهد الإمبراطورية ، وهى عربات ذات عجلتين مبطنة من الداخل بالجلد، ولها لوالب ، وليس بها إلا مكانان أحدهما للسائق والآخر لمسافر واحد ، وللعجلتين بطبختان كبيرتان صلبتان لإبقاء العربات الأخرى على مبعدة منها . والصندوق الذى به الرسائل ضخم ، مثبت خلف العربة ، ومطلى باللون الأسود ، أما العربة فطلية باللون الأصفر .

وهـذه العربات التى لا شبيه لها اليوم كانت مشوهة الشكل حدباء ، إذا ما شاهدها المرء فى طريق بعيد على الأفق خالها نوعاً من النمل الكبير ذى الصدر الصغير والعجز المنتفخ . وسرعة عربات البريد هذه كبيرة جداً . فالبريد ينطلق من أراس كل ليلة فى الساعة الأولى بعد مرور بريد باريس ، ليصل إلى «م» بعد الساعة الخامسة صباحاً بقليل .

وفى هذه الليلة ، صدم البريد القادم من أراس إلى «م» بطريق إسدان Hesdin عند منعطف أحد الشوارع ، عند دخوله المدينة دوكارا يجره حصان أبيض كان قادماً من الاتجاه المضاد ، وليس فيه إلا شخص واحد ، كان رجلا ملتفاً بعباءة ، فتلقت عجلة هـذا

الدوكار صدمة شديدة ، وصاح حامل البريد بذلك الرجل يستوقفه ، ولكنه لم يسمعه وواصل طريقه بكل سرعته . فقال حامل البريد :

— هاك رجلا بالغ التعجل !

وكان الرجل المسرع على هذا النحو هو الذى رأيناه منذ قليل يتخبط فى تشنجات انفعالية تستحق الرثاء ولا مراء .

وأين كان ذاهباً ؟ هو نفسه لم يكن يدرى على وجه التحديد . ولماذا هو متعجل على هذه الصورة ؟ إنه لا يدرى أيضاً . كان مندفعاً أمامه حيثما اتفق . إلى أين ؟ إلى أراس بلا شك . ولكن لعله كان ذاهباً إلى مكان آخر أيضاً . وفى بعض الأوقات كان يحس هذا ، ويرتجف . ويوغل فى جوف الليل كأنما يغوص فى جب . فثمة شىء يدفعه إلى هناك ويجتذبه . فما يدور فى أعماقه لم يكن ليعبر عنه أحد ، وإن كان الجميع حريين أن يفهموه . ومن هو الإنسان الذى لم يدخل مرة فى حياته على الأقل كهف هذا المجهول ؟

ثم إنه لم يقرر شيئاً معيناً ، ولم يصنع شيئاً . ولم يكن أى فعل من أفعال ضميره نهائياً ، بل هو لم يزل على ما كان عليه فى اللحظة الأولى .

لماذا هو ذاهب إلى أراس ؟

إنه يكرر لنفسه ما سبق أن قاله لنفسه عندما استأجر دوكار سكوفلير ، من أنه أياً كانت النتيجة فليس هناك أى ضرر يترتب على أن يرى بعينيه ويحكم بنفسه على ما يراه . بل إن هذا واجب يمليه الحذر ، فينبغى أن يعرف ما سيجرى هناك . وإنه لا يستطيع أن

يقرر شيئاً من غير أن يلاحظ ويتمعن . فالمرء يبالغ وهو بعيد عن الأحداث ويجعل من الحبة قبة . وإنه فى نهاية المطاف ، عندما يرى شانماتييه هذا على الطبيعة ، ربما هدأ ضميره واطمأن إلى صواب تركه يذهب إلى الليمان بدلا منه . وإنه سيجد هناك فى الحقيقة جافير والسجناء القدامى الثلاثة بالليمان : بريفيه ، وشنيلدييه ، وكوشباى الذين سبق لهم أن عرفوه ، ولكنهم قطعاً لن يعرفوه الآن . وأفكار جافير وظنونه بعيدة عنه الآن مائة فرسخ ، فكل شكوكه منصبة الآن على شانماتييه ، فلا خطر عليه إطلاقاً !

لا شك عنده أنه يمر بفترة سوداء ، ولكنه موقن بأنه سيفرغ منها وتنجلى هذه الغمرة . ومهما كانت الظروف قاسية فزمام مصيره بيده هو . فهو لا سواه سيد الموقف . وتشبث بهذه الفكرة .

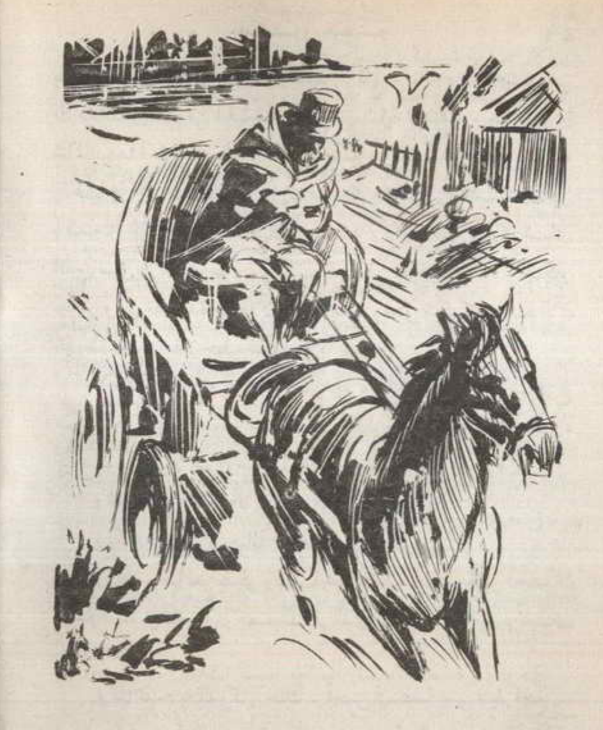
ولقد كان يفضل ألا يذهب إلى أراس إطلاقاً .

ولكنه ذاهب إلى هناك . وها هو فى الطريق .

وكان — فيما هو يفكر ويقلب خواطره — يلهب ظهر الحصان بالسوط ، فيندفع فى ركضه المنتظم الذى يقطع به فرسخين ونصف فى الساعة .

وكلما تقدم به الدوكار حثيثاً ، أحس فى نفسه بشىء يتراجع .

وما إن بزغ النهار حتى كان فى جوف الريف ، وقد خلف مدينة « م » . بعيدة عنه . ورأى الأفق يبيض ، وتطلع من غير انتباه إلى أشكال فجر الشتاء الباردة ، فللصباح كما للمساء أطيافه . وخلسة منه



وما إن بزغ النهار حتى كان فى جوف الريف ، وقد خلف مدينة « م » . بعيدة عنه ..

أضافت الأشجار والتلال السوداء إلى حالته النفسية الجياشة لوناً من الكآبة والجهامة .

وكلما مر أمام إحدى تلك البيوت المنعزلة التى تحف بالطـرق أحياناً ، قال لنفسه :

– أنا فى ثورة نفس ، وفى هذه البيوت أناس يغطون فى نومهم !

ووقع حوافر الحصان على أرض الطريق ، وجلبة العجـلات ، كانت تتردد أصداؤها خافتة رتيبة ، وهى أصداء لطيفة عندما نكون فرحين ، ولكنها تبدو حزينة عندما نكون محزونين .

وكان النهار قد تبلج عندما وصل إلى إسدان ، ووقف أمام نزل ليتيح للحصان أن يسترد أنفاسه ويقدم إليه الشعير .

وهذا الحصان كان كما قال عنه سكوفلير من سلالة بولونيـة ، لهـا رأس كبير ، وبطن كبير ، ورقبة قصيرة ، ولكن صـدره مفتوح ، وكفله عريض ، وساقه رفيعة جافة صلبة ، وحافره قوى . فهى سلالة قبيحة ، إلا أنهـا قوية ذات بأس وعافية . وكانت هـذه الدابة الممتازة قد قطعت خمسة فراسخ فى ساعتين ولم تبد نقطة واحدة من العرق على كفلها .

ولم ينزل المسيو مدلين من الدوكار ، وانحنى فجـأة خـادم الإسطبل الذى كان قـد أحضر الشعير ليفحص العجلـة اليسرى ، وقال الرجل :

– أذاهب أنت إلى بعيد هكذا ؟

وأجابه من غير أن يخرج تقريباً من شروده :

— لماذا ؟

فقال الخادم :

— أقادم أنت من مكان بعيد ؟

— من مسافة خمسة فراسخ.

— آه !

— لماذا تقول آه ؟

فانحنى الخادم مرة أخرى ، وظل صامتاً برهة ، وعينه مثبتة على العجلة ، ثم بسط قامته وهو يقول :

— ذلك أن ها هنا عجلة من الجائز أنها قطعت خمسة فراسخ ، ولكنها عاجزة عن قطع ربع فرسخ آخر .

فقفز المسيو مدلين من الدوكار وصاح :

— ما هذا الذى تقول يا صاحبى ؟

— أقول إنها لمعجزة أنك قطعت خمسة فراسخ من غير أن تتدحرج أنت وحصانك فى إحدى خنادق الطريق الكبير . انظر بنفسك !

وكانت العجلة معطوبة جداً بالفعل . فاصطدام بطيخة عجلة عربة البريد كان قد حطم شعاعين وشدخ بطيخة العجلة شدخاً جعلها معرضة للسقوط العاجل .

وقال مدلين لخادم الإسطبل :

— أيوجد ها هنا يا صاحبى نجار عربات ؟

— بالتأكيد يا سيدى .

— اذهب وأحضره من فضلك .

— إنه هاهنا . على قيد خطوتين . هيه ! يا معلم بوجيار Bour-gaillard

فقد كان المعلم بورجيار ، نجار العربات على عتبة بابه . وجاء لفحص العجلة وتجهم وجهه كتجهم جراح يفحص ساقاً مهيضة .

وسأله مدلين :

— أمن الممكن أن تصلح هذه العجلة فى الحال ؟

— أجل يا سيدى !

— ومتى أستطيع استئناف السير بها ؟

— غـداً .

— غـداً !

— إنها تحتاج إلى يوم بطوله لإصلاحها . هل السيد فى عجلة من أمره ؟

— جداً . ينبغى أن أنطلق من هنا فى مدى ساعة على الأكثر .

— مستحيل يا سيدى !

— سأدفع لك كل ما تطلبه .

— مستحيل .

— ليكن ! لتنقل بعد ساعتين !

— بل مستحيل أن تسافر اليوم ، فلابد من عمل شعاعين وبطيخة للعجلة ، فلن يتمكن سيدى من المضى قبل الغد .

— المسألة التى أسافر بسببها لا يمكن أن تنتظر حتى الغد . لماذا بدلا من إصلاح هذه العجلة — لا تضع أخرى بدلا منها ؟

— كيف هذا ؟

— ألست نجار عربات ؟

— بلى بالتأكيد يا سيدى .

— أليست لديك عجلة جاهزة تبيعنى إياها ؟ وهكذا أتمكن من مواصلة الطريق فوراً .

— تعنى عجلة غيار ؟

— نعم .

— ليست لدى عجلة جاهزة لدوكارك . فللدوكار عجلتان ، ولا يمكن أن تتوافق عجلتان حيثما اتفق .

— فى هذه الحالة بعنى عجلتين .

— ليست كل العجلات تصلح لكل المحاور .

— جرب على كل حال !

— مستحيل ! فليست عندى عجلات إلا لعربات النقل ...

— ألديك دوكار تؤجرنى إياه ؟

وكان نجار العربات قد أدرك من أول نظرة أن الدوكار مستأجر فهز كتفيه وقال :

— أنت حسن الصيانة للدوكارات التى تستأجرها ! ولو كان عندى دوكار لما أجرته لك !

— ليكن ! بعنى إياه !

— ولكن ليس عندى دوكار . ليست عندى إلا عربات نقل ثقيلة : ولكن فى عهدتى مركبة قديمة يملكها برجوازى من المدينة ولا يستخدمها إلا نادراً ، ومستعد أن أؤجرها لك — ولكن ينبغى ألا يراها البرجوازى مارة من أمامه . ثم إنها عربة تحتاج إلى حصانين .

— سأستخدم خيول البريد .

— وإلى أين يذهب السيد ؟

— إلى أراس .

— ويريد السيد أن يصل إليها اليوم ؟

— نعم .

— مستخدماً خيول البريد ؟

— ولم لا ؟

— وهل لا يضير سيدى أن يصل إلى هناك فى الرابعة صباحاً ؟

— طبعاً هذا لا يوافقنى . فالرابعة صباحاً معناها الغد لا اليوم .

— ألدى سيدى جواز سفر ؟

— نعم .

— عظيم ! ولكن باستخدام خيول البريد لن يصل سيدى إلى أراس قبل الغد . فنحن طريق عبور للبريد ، وخيول البدائل سيئة

الحلمة . وخيول الناس فى الحقول . فقد بدأ موسم استخدام المحاريث الكبيرة . ولذلك تجمع لها الخيول من كل مكان ، حتى خيول البريد . ولذلك سيضطر السيد للانتظار ثلاث ساعات أو أربع انتظاراً للبدائل فى كل محطة بريد . ثم إنها خيول لا تركض ، بل تسير بالخطوة البطيئة . وهناك هضاب كثيرة فى الطريق لا بد من صعودها .

— سأذهب راكباً حصاناً إذن . حل الدوكار . وأظن أنه من الممكن أن أشترى سرجاً من هذا المكان .

— بالتأكيد . ولكن أيقبل هذا الحصان السرج ؟

— هذا صحيح ! لقد ذكرتنى ! إنه لا يتقبله .

— إذن ...؟

— ولكن يمكننى أن أجد فى القرية حصاناً للإيجار ؟

— للذهاب عليه إلى أراس دفعة واحدة ؟

— نعم !

— ينبغى لهذا الغرض حصان لا وجود له فى ناحيتنا هذه . ثم لابد من شرائه ، لأنهم لا يعرفونك . ولكنك لن تجد هذا الحصان لا بالإيجار ولا بالشراء ، لا بخمسمائة فرنك ، ولا بألف !

— ما العمل إذن ؟

— رأيى كرجل شريف ، أن أصلح العجلة ، وأن تؤجل رحلتك إلى الغد .

— سيكون الغد بعد الأوان . أليست هناك عربة للبريد تذهب إلى أراس ؟ متى تمر من هنا ؟

— الليلة القادمة . فالعربتان تقومان بالخدمة ليلا ، العربة الذاهبة إليها والعربة القادمة منها .

— أتحتاج حتى إلى نهار بأكمله لإصلاح هذه العجلة ؟

— نهار بطوله !

— ولو استخدمت عاملين ؟

— ولو استخدمت عشرة !

— ألا يكفى أن نربط الشعاعات بالحبال ؟

— الشعاعات ؟ هذا ممكن . أما البطيخة فلا !

— ألا يمكن استئجار عربة من المدينة ؟

— لا .

— ألا يوجد نجار عربات آخر ؟

فرد عليه خادم الإسطبل ونجار العربات فى آن واحد وهما يهزان رأسيهما :

— لا !

فأحس فرحاً غامراً !

فواضح أن العناية الإلهية لها يد فى هذا . فهى التى حطمت عجلة الدوكار فتوقف فى الطريق . وها هو قد بذل أقصى جهده كى يتمكن من إتمام الرحلة . وقد استنفد كل الوسائل بمنتهى الصدق

والإخلاص . ولم ينكص أمام قسوة الجو ولا أمام التعب ، ولا أمام التكاليف . فليس ثمة ما يلوم عليه نفسه . ولئن عجز عن المضى إلى أبعد من هذا ، فليس ذلك عن تقصير منه ! لم يعد هذا خطأه ، لأنه ليس من عمل ضميره ، بل من عمل العناية الإلهية .

وتنهد . وتنفس بحرية وبملء صدره لأول مرة منذ زيارة جافير . وخيل إليه أن القبضة الحديدية التى تعصر قلبه منذ عشرين ساعة قد أفرجت عنه .

وخيل إليه أن الله صار الآن فى جانبه ، وأعلن له هذا .

قال لنفسه : إنه صنع كل ما فى وسعه ، وإنه لم يعــد أمامه إلا أن يعود أدراجه مطمئن البال .

ولو كان حديثه مع نجار العربات جرى فى حجرة داخل المنزل ، لما كان ثمة شهود استمعوا إليه ، وعندئذ ما كنا لنتمكن من إيراد هذا الحديث ولا أى حدث من الأحداث التى سيقرأ القارئ هنا . ولكن هذا الحديث جرى فى الطريق العام . وكل كلام على قارعة الطريق لابد أن يحدث دوائره من الأصداء . وهناك دائماً أشخاص لا مأرب لهم إلا المشاهدة . ففيما هو يسأل نجار العربات وقف بعض السابلة من حولهما . وبعد دقائق من الإصغاء إذا صبى لم يكن أحــد قد ألقى إليه بالا ينفلت من الجمع راكضاً .

وفى اللحظة التى قرر فيها المسافر ، بعــد المداولة الداخلية التى

بيناها ، أن يعود أدراجه ، عاد هذا الصبى ، وفى صحبته امرأة عجوز قالت :

– سيدى . قال لى الغلام : إنك تريد استئجار عربة خفيفة :

وما إن سمع هذه العبارة من العجوز التى يقودها غــلام حتى تصبب جسمه عرقاً ، وقد خيل إليه أن اليد التى أطلقت سراحه منذ برهة بدت له فى الظلام من خلفه تهم باستعادته . وأجابها :

– نعم أيتهــا المرأة الطيبة . أريد اكتراء عربة خفيفـة . ولكن لا شيء من هذا فى هذه الناحية .

فقالت العجوز :

– بلى . توجد يا سيدى عربة خفيفة للإيجار .

فقال نجار العربات :

– أين ؟

فقالت العجوز :

– عندى .

فارتجف مدلين . فها هى القبضة قد عادت لاعتصار قلبه .

وبالفعل كانت عندها تحت عريشة عربة عتيقة ، راح خــادم الفندق ونجار العربات الحانقان لإفلات المسافر منهما يلمانها ويقدحان فى متانتها وقدرتها . وكان هــذا كله صحيحاً ، ولكنها على كل حال شيء مصنوع من الخيزران يجرى على عجلتين ويمكن أن يوصله إلى أراس .

ودفع مدلين للمرأة ما طلبت ، وترك الدوكار كى يصلحه النجار ريثما يعود إليه ، وشد الحصان الأبيض إلى عربة الخيزران الخفيفة وركبها ، واستأنف الطريق الذى كان قد بدأه منذ الفجر .

وفى اللحظة التى انطلقت فيها العربة اعترف لنفسه أنه كان فى اللحظة السابقة سعيداً جداً لعجزه عن المضى قدماً . وتمعن فى ذلك الحبور بشىء من الغضب ، فألفاه سخيفاً . ففيم الحبور لنكوصه على عقبيه ؟ إنه على أى حال يقوم بهذه الرحلة بملء حريته ، فما من أحد كان يجبره عليها .

ومن المؤكد أنه لن يحدث له إلا ما يريده هو .

وعند خروجه من إسدان سمع صوتاً يصيح به :

— قف ! قف !

فأوقف العربة بحركة مفاجئة يشوبها الرجاء . وإذا بالصائح ذلك الغلام الذى كان يقود المرأة العجوز ، وقال له :

— سيدى ! أنا الذى أمددتك بهذه العربة .

— ثم ماذا ؟

— أنت لم تعطنى شيئاً ...

— وكان مدلين يعطى الجميع بكل سهولة ، ولكنه — لأمر ما — وجد هذه المطالبة مثيرة لغضبه ، وتكاد أن تكون وقحة ، فقال :

— آه ! أهو أنت ؟ لن تنال شيئاً !

وضرب الحصان بالسوط وانطلق بكل سرعة . فقد أضاع كثيراً

من الوقت فى إسدان ، وأراد أن يعوضه . وكان الحصان مقداماً ، يجر العربة كأنه حصانان ، ولكننا كنا فى شهر فبراير ، وقد أمطرت السماء فى الليلة الماضية ، فصارت الطرق سيئة . ثم إن هذا ليس دوكارا ، بل عربة مهما كانت خفيفة فهى أثقل من الدوكار ، وثمة مواضع فى الطرق صاعدة . لذا استغرق نحو أربع ساعات للوصول من إسدان إلى سان بول ، أى قطع خمسة فراسخ فى أربع ساعات .

وفى سان بول حل الحصان من العربة فى أول نزل صادفه ، وذهب به إلى الإسطبل . وكما وعد سكوفلير وقف قرب السائس إلى أن انتهى الحصان من طعامه ، وهو يفكر فى أمور حزينة وغامضة .

ودخلت زوجة صاحب الخان إلى الإسطبل وقالت :

— ألا يريد السيد أن يتغدى ؟

فقال :

— معك حق ! بل إنى أحس شهية طيبة للطعام .

وتبع تلك المرأة ذات القامة الناضرة والوجه الباسم ، فقادته إلى قاعة منخفضة السقف بها موائد عليها مفارش من المشمع ، وقال لها :

— أسرعى ! فلا بد أن أواصل الرحلة ، فأنا على عجل من أمرى .

وأسرعت خادمة فلمنكية بدينة بوضع أدوات المائدة بكل سرعة . ونظر إلى تلك الفتاة بارتياح . وقال فى نفسه :

— هذا ما كانت تضيق به نفسى . كنت جائعاً .

وجاء الطعام فانقض على الخبز ، وقضم ملء فمه منه ، ثم أعاده ببطء إلى المائدة ولم يمسه بعد ذلك .

وكان أحد عمال الطرق يأكل فوق مائدة أخرى ، فسأله مدلين :

— لماذا أجد خبزهم بكل هذه المرارة ؟

وكان الرجل ألمانياً فلم يفهم قوله .

وعاد مدلين إلى الإسطبل حيث الحصان . وبعد ساعة كان قد غادر سان بول واتجه صوب « تنك » Tinques التى لا تبعد عن أراس إلا خمسة فراسخ .

وماذا كان يصنع أثناء هذه الرحلة ؟ فيم كان يفكر . كان يفعل ما فعله فى الصباح : ينظر إلى الأشجار والسقوف المصنوعة من القش والحقول المزروعة والمناظر التى تتغير مع كل ثنية فى الطريق . وهو نوع من التأمل الذى يكفى النفس أحياناً ويكاد يعفيها من التفكير . فرؤية ألف شىء للمرة الأولى وللمرة الأخيرة ، فيها كثير من الشجن والعمق ! فالسفر معادل للحياة والموت فى كل لحظة . ولعله فى أعماق نفسه كان يقارن بين هذه الآفاق المتغيرة وبين الوجود البشرى . فكل أمور الحياة فى فرار دائم أمام أنفسنا فى كل لمحة . والأضواء والظلال شد ما تتداخل . فبعد التبلج يأتى الأفول ، وعبثاً يمد المرء يده ليمسك بما يمر أمامه . فكل حدث إنما هو منعطف طريق ... وفجأة نجد أنفسنا فى الظلام ، وشخص مجهول مقنع يحل سيور الحصان الذى يجر عربتنا .

وكان الفسق قد بدأ عندما رأى الأطفال الخارجون من المدرسة ذلك المسافر يدخل « تنك » . وكان النهار قصيراً . ولم يتوقف المسافر فى «تنك» . وفيما هو يغادر القرية ، رفع مرمم الطريق رأسه وقال :

— هاك حصاناً نال منه التعب !

وكانت الدابة بالفعل لا تسير إلا على مهل . وأردف مرمم الطريق :

— أذاهب أنت إلى أراس ؟

— نعم .

— إن مضيت بهذا المعدل فلن تصل فى وقت مبكر .

فأوقف مدلين الحصان وسأل مرمم الطريق :

— كم المسافة بيننا وبين أراس ؟

— قرابة سبعة فراسخ .

— كيف هذا ؟ دليل طرق البريد يقول : إن المسافة خمسة فراسخ وربع !

فقال مرمم الطريق :

— آه ! أنت لا تعلم إذن أن الطريق تحت الإصلاح . ولهذا ستجده مقطوعاً بعد ربع ساعة من ها هنا ، ولا سبيل إلى مواصلة السير فيه .

— حقاً ؟

— لذا عليك أن تتجه إلى اليسار فى الطريق الذاهب إلى كارنسى

وعليك هناك أن تعبر النهر ، وعندما تصل إلى كمبلان Carency Camblin تتجه إلى اليمين ، وهذا هو طريق مون سانت إيلوى Mont St. Eloy الذاهب إلى أراس .

– ولكن ها هو الليل يخيم ، سأضل طريقى .

– ألست من هذا الإقليم ؟

– لا .

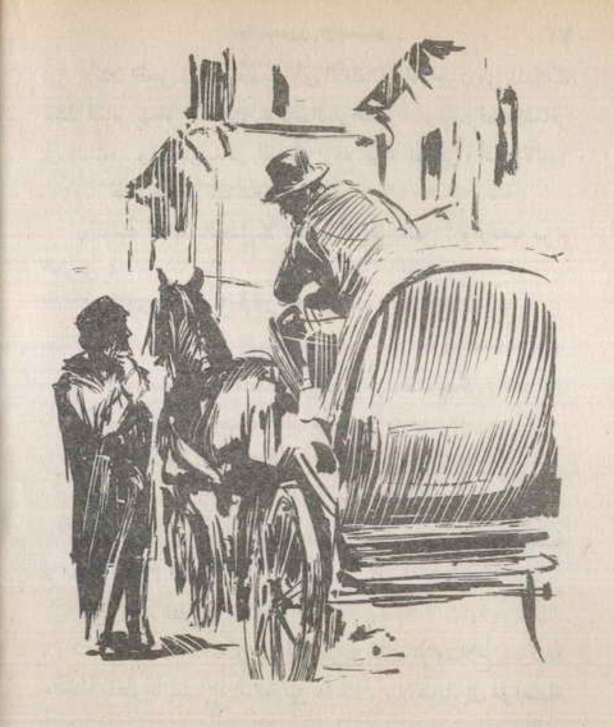
– اسمع يا سيدى . أتحب أن أسدى إليك نصيحة ؟ حصانك مجهد ، عد إلى « تنك » ، وفى القرية نزل طيب ، نم به الليلة واذهب غداً إلى أراس .

– بل لابد أن أكون هناك هذا المساء .

– إن كان ولابد فاذهب على كل حال إلى الخان ، وخذ منهم حصاناً أردفه إلى حصانك ، وسيرشدك سائس الحصان إلى طريقك فى الظلام .

واستجاب لنصح مرمم الطريق ، فعاد أدراجه ، وبعد نصف ساعة ظهر مرة أخرى فى نفس الموضع ، ولكنه كان منطلقاً هذه المرة بكل سرعة ، لأن الحصان الآخر كان قوياً ، وكان معه سائس ذكى .

ومع ذلك أحس أنه يضيع وقتاً . فالظلام كان قد خيم تماماً . ودخل الطريق الفرعى ، فإذا به شديد السوء ، كثير الحفر ، فقال للسائس :



وفيما هو يغادر القرية ، رفع مرمم الطريق رأسه وقال :
ــ هاك حصانا نال منه التعب !..

— انطلق بكل سرعة مهما كان ، وسأضاعف لك الهبة !

وبعد قليل ، انكسر عريش العربة ، وقال السائس :

— ها قد انكسر العريش ، ولم أعد أدرى كيف أربط حصانى ، فهذا الطريق شديد السوء فى الليل ، فليتك تعود لتبيت فى « تنك » وأعدك أن نكون غداً فى وقت مبكر من الصباح فى أراس .

فقال له مدلين :

— ألديك حبل وسكين ؟

— نعم يا سيدى .

فكسر مدلين فرع شجرة وجعل منه عريشاً . وهكذا ضاعت عشرون دقيقة أخرى ، ولكنهم استأنفوا الركض بكل سرعة .

وكان السهل المنبسط حالك الظلمة ، وضباب منخفض أسود يرين على التلال ، ويتصاعد منها كالدخان . وكانت بين السحب أضواء ضاربة إلى البياض . ورياح قوية تهب من البحر وتحدث فى جميع أركان الأفق أصواتاً تشبه أصوات قلقلة الأثاث . وكل ما تلمحه العين يوقع فى النفس الرهبة . فكم ترتعد الأشياء تحت أنفاس الليل القوية .

وتخلله البرد ، لأنه لم يكن قد أكل شيئاً منذ الليلة الماضية . وتذكر فى غموض سفرته الليلة الأخرى فى السهل الكبير فى ضواحى مدينة « د » منذ ثمانى سنين ، وخيل إليه أن ذلك كان بالأمس .

ودقت الساعة فى أحد الأبراج البعيدة ، فسأل السائس :

— ما هذه الساعة ؟

— إنها الساعة السابعة . سنصل إلى أراس فى الثامنة ، فلم تبق أمامنا إلا ثلاثة فراسخ .

وعندئذ قال فى نفسه لأول مرة ، وقد عجب لأن الفكرة لم تخطر له من قبل :

— ربما كانت كل جهودى هذه فى غير طائل . فأنا لا أعرف بالضبط موعد نظر القضية . وكان ينبغى على الأقل أن أستفسر عن هذا . ومن الخطل أن أذهب هكذا من غير أن أعرف هل هذا يمكن أن يكون مجدياً أم لا .

ثم قام ببعض الحسابات فى سريرته ، قائلا : إن جلسات محاكم الجنايات تبدأ عادة فى التاسعة صباحاً . وإن هذه القضية لا يمكن أن تطول كثيراً ، فمسألة سرقة التفاح ستنظر بسرعة كبيرة ، ثم تأتى مسألة التحقق من هويته ، فتسمع أربع شهادات أو خمس ، وليس لدى المحامين الكثير ليقال ، وهكذا سيصل بعد انتهاء كل شىء .

وألهب السائس الحصانين بالسوط ، وكانوا قد عبروا النهر وتركوا وراءهم مون سانت ألوى .

وزادت حلكة الليل سواداً .

* * *

الفصل السادس
الأخت سمبليس تدخل فى تجربة

وفى نفس هذه اللحظة كانت فانتين فى قمة الفرح .

وكانت قد أمضت ليلة سيئة جداً . سعال فظيع ، وحمى شديدة ، ورأت أحلاماً . وفى الصباح عندما جاءها الطبيب كانت تهذى ، فارتاع وأوصى بإخطاره بمجرد حضور المسيو مدلين .

وظلت طيلة الصباح واجمة ، قليلة الكلام ، منصرفة إلى إحداث قطوب وثنيات فى أغطيتها وهى تتمتم بصوت خافت حسابات بدا أنها تتعلق بالمسافات . وكانت عيناها غائرتين ثابتتى النظرة ، وكأنما قد خبت أنوارهما . ولكنهما كانتا تتوهجان فى بعض اللحظات وكأنهما نجمان . والظاهر أنه عند اقتراب الساعات المعتمة العصيبة تملأ أنوار السماء من غادرتهم أضواء الأرض .

وكانت كلما سألتها الأخت سمبليس كيف حالها ، تجيبها بلا اختلاف :

— بخير . أريد أن أرى المسيو مدلين .

وقبل ذلك ببضعة أشهر ، حينما فقدت فانتين آخر بقية من عفتها ، وآخر أفراحها ، وآخر ما كان تبقى لها من حياء ، صارت ظلا لما كانت عليه من قبل ، أما الآن فهى مجرد شبح . فالمرض الجسدى كان قد أتم ما فعله بها الداء الخلقى . فإذا هذه المخلوقة ابنة الخامسة

والعشرين منغضنة الجبين ، غائرة الوجنتين ، مخلخلة الأسنان ، معروقة الرقبة ، كالحة اللون ، هزيلة الأعضاء ، بشرتها بلون التراب ، وقد خالطت شعرها الأشقر الذهبى شعرات بيضاء . وا أسفاه ! كم يعجل المرض بالشيخوخة التى يرتجلها ارتجالا !

وعند الظهر عاد الطبيب لزيارتها ، ووصف أدوية جديدة ، وسأل هل جاء المسيو مدلين إلى المستوصف ، ثم هز رأسه .

وكان من عادة المسيو مدلين أن يحضر فى الساعة الثالثة لرؤية المريضة : ولما كانت الدقة لوناً من الطيبة ، لذا كان دقيقاً فى مواعيده .

وفى نحو الساعة الثانية والنصف بدأت فانتين تتململ . وفى مدى عشرين دقيقة سألت الراهبة أكثر من عشر مرات :

— كم الساعة الآن يا أخت ؟

ودقت الساعة ثلاثاً . وعند الدقة الثالثة انتصبت فانتين فى مضجعها ، وهى التى لم تكن تقدر على التقلب فى فراشها من شدة الإعياء والضنى ، وضمت فى تشنج يديها الصفراوين الهزيلتين . وسمعت الراهبة أنة تخرج من صدرها ، ثم التفتت فانتين وتطلعت نحو الباب .

ولم يدخل أحد . ولم ينفتح الباب .

وظلت هكذا ربع ساعة ، وعينها مثبتة على الباب ، جامدة الأوصال وكأنما قد حبست أنفاسها . ولم تجسر الراهبة على أن تكلمها .

ودقت ساعة الكنيسة الثالثة والربع ، فألقت فانتين بنفسها فوق الوسادة :

لم تقل شيئاً ، وعادت إلى صنع الثنايا فى أغطيتها .

ومر نصف الساعة . ثم ساعة . ولم يحضر أحد . وكلما دقت الساعة كانت فانتين تنهض جالسة وتتطلع إلى الباب ، ثم ترتمى على الفراش مرة أخرى .

كان تفكيرها واضحاً للناظر إليها . ولكنها لم تتفوه بأى كلمة . ولا بأى اسم . لم تشك أو تتذمر . لم تتهم أحداً . كل ما هناك أنها جعلت تسعل بصورة مريعة . وكأنما هبط عليها ظل قاتم . فهى كالحة المحيا ، زرقاء الشفتين . ولكنها كانت فى بعض اللحظات تبتسم .

ودقت الساعة الخامسة . وعندئذ سمعتها الأخت الراهبة تقول بصوت خفيض جداً :

— ما دمت سأمضى غداً ، فهو مخطئ لعدم حضوره اليوم !

وكانت الأخت سمبليس نفسها فى دهشة من تأخر المسيو مدلين.

ومع هذا كانت فانتين تتطلع إلى السماء من فراشها ، وكأنما تحاول أن تتذكر شيئاً ما . وفجأة شرعت تغنى بصوت ضعيف كالهمس . وأصغت الراهبة . وإليك ما كانت تترنم به فانتين :

« سنشترى أشياء جميلة
« ونحن نتنزه فى الضواحى

« الزهور الزرقاء زرقاء . والورد وردى اللون ،
« الزهور الزرقاء زرقاء . وأنا أحب أحبائى :

« العذراء مريم بقرب مدفئتى
« جاءت بالأمس فى عباءة مطرزة ،
« وقالت لى : هاك ، مخبوءاً تحت وشاحى
« وليد اليوم الواحد الذى طلبته منى
« جوبى المدينة واحصلى على قماش
« واشترى خيطاً ، واشترى كستباناً .

« سنشترى أشياء جميلة .
« ونحن نتنزه فى الضواحى

« أيتها العذراء المقدسة الطيبة قرب موقدى
« وضعت مهداً مزيناً بالأشرطة
« وسيعطينى الله أجمل نجم لديه
« كم أحب الطفل الذى أعطيتنيه
« — سيدتى ! ماذا أصنع بهذا القماش ؟
« — اصنعى جهازاً لمولودى .

« الزهور الزرقاء زرقاء ، والورود وردية
« الزهور الزرقاء جميلة ، وأنا أحب أحبائى !

« اغسلى هذا القماش – أين ؟ – فى النهر ..

« واصنعى منه من غير أن تفسديه

« تنورة جميلة وصدرية

« أريد تطريزها وأملؤها بالأزهار .

« – الطفل لم يعد هناك يا سيدتى . فماذا أصنع ؟

« – اصنع منه ملاءة للمواراة ..

« سنشترى أشياء جميلة

« ونتنزه فى الضواحى

« الزهور الزرقاء زرقاء . والورود وردية

« الزهور الزرقاء زرقاء . وأنا أحب أحبائى ! » .

* * *

وكانت هذه الأغنية أمهودة تترنم بها فيما مضى لتنيم ابنتها كوزيت وهى صغيرة . ولم تكن خطرت ببالها منذ خمس سنوات ، أى منذ فارقت طفلتها . وقد غنتها الآن بصوت جد حزين ، وبنغمة بالغة العذوبة ، تغرى بالبكاء من يسمعها ، ولو كانت راهبة . فإذا بالأخت التى ألفت المحن والأرزاء وقد فرت من عينها دمعة .

ودقت الساعة ست دقات ، وبدا على فانتين أنها لم تسمعها ، فهى لم تعد تلقى بالها إلى أى شىء مما حولها .

وأرسلت الأخت سمبليس خادمة تستفسر من بوابة المصنع هل عاد سيادة العمدة أم لا ؟ وهل سيصعد بعد قليل إلى المستوصف أم لا ؟ وبعد دقائق عادت الخادمة .

وكانت فانتين لم تزل جامدة الأوصال ، وواضح أنها مستغرقة فى أفكارها الخاصة .

وقالت الخادمة بصوت خافت للأخت سمبليس إن سيادة العمدة كان قد سافر قبل الساعة السادسة صباحاً فى دوكار صغير يجره حصان أبيض ، رغم شدة البرد ، وإنه سافر وحده ، وليس معه حوذى . ولا يدرى أحد أى طريق سلكه . وقال بعض الناس : إنهم رأوه يأخذ فى طريق أراس ، فى حين قال غيرهم : إنهم رأوه يشرع فى طريق باريس . وقالت لها أيضاً : إن البوابة أكدت لها أنه كان عند سفره رقيقاً دمثاً كعادته ، إلا أنه قال للبوابة ألا تنتظر عودته هذه الليلة .

وفيما كانت المرأتان تتساران ، موليتين ظهريهما نحو فراش فانتين ، والراهبة تسأل والخادمة تجيب ، ركعت فانتين فوق فراشها ، واتكأت بيديها المزيلتين الصفراوين على رأس السرير ، وأطلت برأسها من فرجة فى ستائره وأصغت . وفجأة صاحت :

– أنتما تتحدثان عن المسيو مدلين ! لماذا تتحدثان همساً ؟ ماذا يصنع ؟ لماذا لم يحضر ؟

وكان صوتها حاداً جداً وأجش ، حتى أن المرأتين حسبتا أنهما تسمعان صوت رجل . فالتفتتا مروعتين .

وصاحت فانتين :

– أجيبا إذن !

فغمغمت الخادمة :

– قالت لى البوابة : إنه لن يستطيع الحضور هذا اليوم !

وقالت الراهبة :

– اهدئى بالا يا ابنتى ! وارقدى !

فقالت فانتين ، من غير أن تغير وضعها ، بصوت عال ونبرة آمرة :

– لن يستطيع الحضور؟ ولماذا ؟ أنتما تعرفان السبب. وتتساران به فيما بينكما . وأريد معرفته !

وأسرعت الخادمة تهمس فى أذن الراهبة :

– قولى إنه مشغول فى المجلس البلدى !

فاحمر وجه الأخت سمبليس قليلا ، لأن ما اقترحته الخادمة عليها أكذوبة . ومن جهة أخرى بدا لها أن قول الحقيقة للمريضة قد ينزل بها صدمة رهيبة ولا شك ، وذلك أمر خطير فى مثل حالة فانتين . ولم تطل هذه الحمرة التى علت وجهها طويلا ، ثم رفعت إلى وجه فانتين عيناً تفيض هدوءاً وأسى وقالت :

– المسيو مادلين مسافر .

فجلست فانتين على كعبيها ، ولمعت عيناها ، وأضاءت هذه السحنة العليلة فرحة لا شبيه لها ، وصاحت :

– مسافر ؟ لقد ذهب لإحضار كوزيت ؟

ثم مدت يديها نحو السماء ، وأشرق محياها كله . وتحركت شفتاها . وأخذت تصلى بصوت خافت .

ولما فرغت من صلاتها ، قالت :

– يا أختاه ! أريد الآن أن أرقد . وسأنفذ كل ما يراد منى . فمنذ قليل كنت مشاغبة . وأسألك الصفح لأنى رفعت صوتى هكذا . فعيب كبير أن أرفع صوتى . أعلم هذا يا أخت . ولكن ها أنت ترينني راضية جداً . فالله كريم رحيم . والمسيو مدلين طيب . تصورى أنه ذهب بنفسه إلى مونفرمى لإحضار صغيرتى كوزيت !

ورقدت ، وساعدت الراهبة فى تسوية الوسادة ، وقبلت صليباً صغيراً من الفضة مدلى من عنقها ، كانت الأخت سمبليس قد أعطتها إياه . وقالت الأخت الراهبة :

– يا ابنتى . حاولى الآن أن تستريحى ، ولا تتكلمى ؟

فتناولت فانتين فى يديها الرطبتين يد الراهبة ، التى تألمت عندما وجدتها تتصبب عرقاً هكذا ، وقالت فانتين :

– لقد سافر هذا الصباح إلى باريس . والواقع أنه ليس بحاجة إلى أن يمر بباريس ، فمنفرمى على يسار القادم من باريس . أتذكرين كيف قال لى بالأمس عندما حدثته عن كوزيت : « عما قريب ترينها . عما قريب » . فهى مفاجأة يريد أن يتحفنى بها ! أتعرفين ؟ لقد جعلنى أوقع خطاباً لاستردادها من آل تردييه . لن يجدوا

ما يقولونه . أليس كذلك ؟ سيسلمونه كوزيت ، ما داموا قد قبضوا الثمن. والسلطات لا تسمح باستبقاء طفلة بعد تقاضى النقود. لا تشيرى إلى يا أختاه كيلا أتكلم ! فأنا فى غاية السعادة . وصحتى على ما يرام . لم أعد أشعر بمرض إطلاقاً ، لأنى سأرى كوزيت . بل إنى جائعة جداً . فقد مرت قرابة خمسة أعوام لم أرها فيها . وأنت طبعاً لا تتخيلين كم تتعلق الأم بأطفالها ! ثم إنها ستكون لطيفة جداً . سترين ! آه لو تعلمين ! إن لها أنامل صغيرة وردية ! ستكون يداها آية فى الجمال ! ... لابد أنها كبرت الآن ! فى السابعة من عمرها . هى الآن آنسة ! أنا أناديها كوزيت ولكن اسمها الحقيقى إيفرازى Euphrasie وهذا الصباح رأيت غباراً فوق المدفأة ، وخطر لى عندئذ أننى سأرى كوزيت عما قريب . يا إلهى ! كم يخطئ المرء بترك السنوات تمضى من غير أن يرى أطفاله ! ينبغى أن نتذكر أن الحياة ليست أبدية ! أوه ! ما أطيب قلب سيادة العمدة لأنه سافر ؟ ولكن البرد شديد . أتراه أخذ عباءته على الأقل ؟ سيكون هنا غداً . أليس كذلك ؟ سيكون غداً يوم عيد . ذكرينى يا أختاه غداً صباحاً أن ألبس قلنسوتى ذات الدانتلا ... منفرمى قرية ، وقد قطعت الطريق منها على قدمى ، فى ذلك الحين ... ولكن سيادة العمدة سيركب الحافلة ، وما أسرعها ! وسيكون ها هنا غداً مع كوزيت . كم المسافة من هنا إلى فرمى ؟

وأجابت الراهبة التى لا معرفة لها بالمسافات :

— أوه ! أعتقد أنه سيتمكن من الوصول إلى هنا غداً .

فقالت فانتين :

— غداً ! غداً ! سأرى كوزيت غداً . انظرى أيتها الأخت الصالحة المقدسة . أنا لم أعد مريضة . أنا مجنونة ! لو أردتم لرقصت !

ولو رآها أحد منذ ربع ساعة لما فهم شيئاً ، فهى الآن وردية اللون تماماً ، تتكلم بصوت قوى وطبيعى ، ووجهها كله عبارة عن ابتسامة . وكانت أحياناً تضحك ، وتكلم نفسها بصوت خفيض . ففرح الأم يكاد يكون فرحاً طفلياً . فقالت الراهبة :

— ها أنت سعيدة . أطيعينى الآن وكفى عن الكلام .

فوضعت فانتين رأسها على الوسادة وقالت لنفسها :

— نعم . ارقدى وكونى عاقلة ما دمت سترين طفلتك . الأخت سمبليس على حق . كل الموجودين هنا على حق .

ثم — من غير أن تتحرك أو تحرك رأسها — أخذت تنظر فى كل اتجاه مفتوحة العينين على سعتهما ، فى فرح ، ولم تقل بعد ذلك شيئاً . فأغلقت الأخت الراهبة عليها ستائرها ، على أمل أن تغفو قليلا .

وفيما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة جاء الطبيب . ولم يسمع من الفراش أدنى صوت ، فظن فانتين نائمة ، فدخل بلطف وخفوت ، ودنا من فراشها على أطراف قدميه . وأزاح الستائر ، وعلى ضوء السهارة رأى عينى فانتين الواسعتين الهادئتين تنظران إليه . وقالت له :

— سيدى . إنهم سيسمحون لى أن أرقدها بجوارى فى فراش صغير . أليس كذلك ؟

وظن الطبيب أنها تهذى . وأردفت :

— انظر بنفسك . فهناك مكان كاف لهذا .

وانتحى الطبيب بالأخت سمبليس التى شرحت له الموقف ، وأن المسيو مدلين غائب عن المدينة لمدة يوم أو يومين ، ولم تشأ أن تخيب رجاء المريضة التى تظن أن المسيو مدلين سافر إلى « منمفرمى » ولا أحد يدرى أين سافر بالضبط ، فربما كان حدسها صحيحاً . فأقرها الطبيب على ذلك . واقترب من فراش فانتين التى قالت له :

— إن ذلك سيتيح لى ، كما ترى ، عندما تصحو من نومها فى الصباح أن أقول لها صباح الخير يا قطتى . وفى الليل أسمعها — أنا التى لا أنام — فتستغرق فى النوم . ويفيدنى أن أسمع تنفسها اللطيف .

فقال الطبيب :

— أعطنى يدك .

فمدت ذراعها وصاحت ضاحكة :

— خذ ! أنت طبعاً لا تعرف أنى شفيت . كوزيت تصل غداً .

واستولى العجب على الطبيب . فقد كانت حالتها أحسن بالفعل . فالنبض قد استرد قوته . ونوع من الحياة الطارئة فجأة جدد حيوية هذه المسكينة المنهكة . واستطردت هى :

— سيادة الطبيب . هل قالت لك الأخت الراهبة إن سيادة العمدة سافر لإحضار الطفلة ؟

وأوصى الطبيب بالصمت وتجنب أى انفعال بقدر الإمكان . ووصف دواء ، وإذا ارتفعت حرارتها أثناء الليل تأخذ شراباً مهدئاً . وعند انصرافه قال للراهبة :

— حالتها أحسن . وإذا أسعدنا الحظ وعاد سيادة العمدة بالطفلة ، فمن يدرى؟ هناك أزمات عجيبة الشأن ، وقد لوحظت حالات سرور عظيم أوقفت المرض فجأة . وأنا أعرف أنها تعانى من مرض عضوى ، ومتقدم جداً ، ولكن هذه كلها ألغاز ! وربما نجحنا فى إنقاذها .

* * *

الفصل السابع
بعد وصول المسافر اتخذ احتياطات للعودة

كانت الساعة تقارب الثامنة مساء عندما وصلت العربة التى كنا قد تركناها فى الطريق تحت سقيفة باب فندق البريد فى أراس . وعندما نزل منها الرجل الذى تعقبناه حتى هذه اللحظة ، صرف الحصان المستأجر وقاد بنفسه الحصان الأبيض الصغير إلى الإسطبل ، ثم دفع باب قاعة للبلياردو تقع فى الطابق الأرضى ، وجلس هناك ، واتكأ بكوعه على مائدة . وكان قد قضى أربع عشرة ساعة فى هذه الرحلة التى كان قد قدر لها ست ساعات . والتمس لنفسه العذر لأن الذنب فى هذا ليس عليه ، ولكنه فى أعماق نفسه لم يكن غاضباً جداً لهذا التأخير .

ودخلت ربة الفندق .

— أيبيت سيدى ؟ أيتعشى سيدى ؟

وهز رأسه سلباً .

— خادم الإسطبل يقول : إن حصان سيدى مجهد ؟

وعندئذ قطع صمته ، وقال :

— ألن يستطيع الحصان استئناف السير غداً صباحاً ؟

— أوه يا سيدى ! يلزمه على الأقل يومان للراحة .

فسألها :

— أليس ها هنا مكتب البريد ؟

— بلى يا سيدى !

وقادته ربة الفندق إلى ذلك المكتب . وأبرز جواز سفره وسأل : أليست هناك أى وسيلة للعودة فى تلك الليلة نفسها إلى مدينة « م » . بطريق مركبة البريد . فقيل له : إن المكان الذى بجوار السائق شاغر فحجزه ودفع أجره . فقال وكيل مكتب البريد :

— لا تتأخر يا سيدى عن الحضور إلى هنا قبل قيام العربة فى الساعة الواحدة تماماً بالضبط . .

وما إن فرغ من هذا حتى غادر الفندق وشرع فى المشى فى المدينة .

ولم يكن يعرف أراس . والشوارع كانت مظلمة ، وهو يسير خبط عشواء ، على غير هدى . ومع هذا تشبث بألا يستفهم من المارة عن طريقه . وعبر نهر كرنشون Crinehon الصغير ، فألفى نفسه فى متاهة من الحوارى الضيقة التى ضل فيها . ورأى برجوازياً يتمشى ومعه فانوس ، وبعد شىء من التردد قرر أن يسأل هذا البرجوازى ، بعد أن نظر أولا أمامه وخلفه ، كأنه يخشى أن يسمع أحد السؤال الذى سيتفوه به . قال :

— سيدى . سراى العدالة من فضلك ؟

فأجابه البرجوازى الذى كان متقدماً فى السن :

— أنت لست من هذه المدينة يا سيدى . اتبعنى ، فأنا ذاهب

بالذات إلى قرب سراى العدالة ، أى إلى قرب سراى المحافظة . فسراى العدالة الأصلية يجرى الآن إصلاحها ، ولذا تعقد المحاكم جلساتها بصفة مؤقتة فى المحافظة .

فسأله :

– أهناك أيضاً ينظرون الجنايات ؟

– بلا شك يا سيدى .. وفيما مضى كانت هذه المحافظة هى قصر الأسقفية ، قبل الثورة . وقد شيد المسيو دى كونزييه Conzie – الذى كان أسقف أراس فى سنة ١٧٨٢ قاعة كبيرة فيها . وفى هذه القاعة الكبرى تعقد المحكمة .

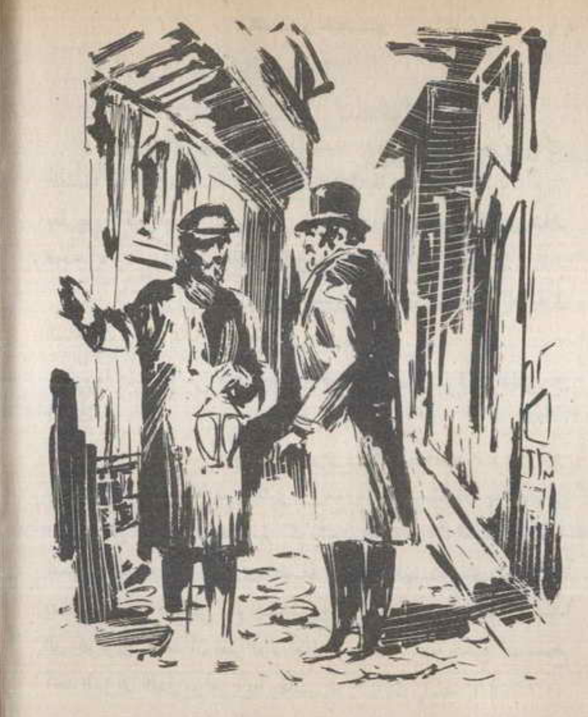
وفى الطريق قال له البرجوازى :

– إن كان السيد يريد حضور قضية بها ، فالوقت متأخر بعض الشىء . فالجلسات تنتهى عادة فى السادسة مساء .

وعندئذ كانا قد وصلا إلى الميدان الكبير ، فأشار له البرجوازى إلى أربع نوافذ طويلة مضاءة فى واجهة بناء كبير معتم ، قال :

– ولكنك وايم الحق يا سيدى وصلت فى وقتك ! إنك لمجدود ! أترى هذه النوافذ الأربع ؟ هذه هى محكمة الجنايات . والنور مضاء. فالجلسة لم تنته إذن . ولابد أن القضية استطالت فعقدوا جلسة مسائية أمهتم أنت بهذه القضية ؟ أهى قضية جنائية ؟ أأنت شاهد ؟

فأجابه :



ورأى برجوازيا يتمشى ومعه فانوس ، وبعد شىء من التردد قرر أن يسأل هذا البرجوازى ..

— لم أحضر بسبب أى قضية . كل ما هناك أنى أريد التحدث إلى محام .

فقال البرجوازى :

— هذه مسألة أخرى . هاك هو الباب . وما عليك إلا أن ترقى السلم الكبير .

واتبع إرشادات البرجوازى ، وبعد بضع دقائق ، ألفى نفسه فى قاعة بها خلق كثير ومجموعات مختلطة من المحامين تتهامس هنا وهناك فى أروابهم .

وإنه لما يقبض القلب دائماً أن يرى المرء هذه الحشود ذات الأردية السوداء ، تتبادل الهمس على عتبات حجرات العدالة . ومن النادر أن تخرج الرحمة من كل هذه الأقوال . وإنما هى فى الغالب تكهنات بالإدانة . وتبدو هذه الجماعات لعين الملاحظ العابر الشارد وكأنها خلايا قاتمة تشيد فيما بينها تلك الصروح المعتمة .

وكانت القاعة الفسيحة ، المضاءة بمصباح واحد ، هى قاعة الانتظار فى قصر الأسقفية القديم . وثمة باب عريض له مصراعان ، كان مقفلا فى هذه اللحظة ، يفصلها عن القاعة الكبرى التى عقدت بها محكمة الجنايات .

وكانت العتمة بحيث إنه لم يخش توجيه الخطاب إلى أول محام صادفه :

— إلى أى مرحلة وصلت القضية ؟

فقال المحامى :

— انتهت القضية .

— انتهت !

وكانت نبرته من الغرابة بحيث التفت إليه المحامى قائلا :

— عفوك يا سيدى . أأنت من الأقارب ؟

— لا . أنا لا أعرف أحداً هنا . وهل صدر حكم بالعقوبة ؟

— بلا شك . لم يكن من الممكن خلاف ذلك .

— بالأشغال الشاقة ؟

— المؤبدة .

فقال مدلين بصوت شديد الخفوت لا يكاد يسمع :

— أثبتت الهوية إذن ؟

فأجابه المحامى :

— أى هوية ؟ لم يكن هناك إثبات هوية . فالقضية بسيطة واضحة . هذه المرأة قتلت طفلها . وثبت عليها ذلك . ونفى المحلفون عنها سبق الإصرار ، فحكم عليها بالسجن مدى الحياة .

فسأله :

— هى إذن امرأة ؟

— بالتأكيد . الفتاة ليموزان Limosin . عن أى شىء كنت تكلمنى إذن ؟

— عن لا شيء . ولكن ما دامت القضية انتهت ، فلماذا ظلت القاعة مضاءة ؟

— لنظر القضية الأخرى التى بدأت منذ نحو ساعتين .

— أى قضية أخرى ؟

— هذه القضية واضحة أيضاً . إنه صعلوك ، مجرم عائد ، كان نزيل الليمان . وقد سرق . وقد نسيت اسمه . وسحنته سحنة قاطع طريق . وأنا مستعد على أساس سحنته هذه فحسب أن أعيده إلى الليمان !

— أليست هناك وسيلة يا سيدى للدخول إلى القاعة ؟

— لا أعتقد هذا . فالزحام كبير ، ولكن الجلسة مرفوعة حالياً ، ولذا خرج بعض الناس منها . ولك أن تحاول عند استئناف الجلسة .

— ومن أين يمكن الدخول ؟

— ومن هذا الباب الكبير .

وغادره المحامى . وفى بضع لحظات كان قد شعر ، فى آن واحد تقريباً ، بكل الانفعالات الممكنة . فكلمات هذا المحامى غير المكترث اخترقت قلبه وكأنها إبر من الثلج وألسنة من النار . ولما عرف أن القضية لم تنته تنفس ، وهو لا يدرى أهو تنفس الارتياح أم الألم .

واقترب من جماعات عديدة وأصغى لما يقال . ولما كان جدول هذا الموسم القضائى مزدحماً ، فقد حدد الرئيس لهذا اليوم بالذات نظر قضيتين بسيطتين وقصيرتين . وبدأ بنظر قضية قاتلة ابنتها ،

والآن حل دور هذا الشقى العائد للإجرام . فهذا الرجل سرق تفاحاً ، وإن لم يكن هذا ثابتاً ضده فيما يبدو : أما الثابت فإنه كان نزيل ليمان طولون . وهذا ما يجعل موقفه سيئاً . وقد انتهى استجواب الرجل وسماع الشهود . وبقيت مرافعة المحامى المنتدب ، ومرافعة النيابة العامة : ولن تنتهى القضية قبل نصف الليل . والمرجح أن المتهم سيدان . فالمحامى العام بارع جداً ، ولا يفلت منه متهم . وهو ذكى نابه يقرض الشعر .

ووجد حاجباً واقفاً بجوار الباب الموصل إلى قاعة الجلسة ، فسأله :

— هل سيفتح الباب عما قريب يا سيدى ؟

فقال الحاجب :

— الباب سوف لا يفتح !

— كيف هذا ؟ ألن يفتح عند إعادة فتح الجلسة ؟ أليست الجلسة مرفوعة ؟

فأجابه الحاجب :

— لقد استؤنف انعقادها منذ هنيهة . ولكن الباب سوف لا يفتح .

— لماذا ؟

— لأن القاعة مكتظة .

— ألم يعد بها مكان ؟

– ولا مكان واحد . لذا فالباب مغلق ، ولن يتمكن أحد من الدخول .

ثم أردف الحاجب بعد لحظة صمت :

– بقى هناك مكانان أو ثلاثة خلف ظهر سيادة الرئيس ، ولكن سيادته لا يسمح بها إلا للموظفين العموميين .

قال له الحاجب هذا ، ثم أدار له ظهره .

وانسحب مدلين خافض الرأس ، فاجتاز حجرة الانتظار ببطء ، وكأنه يشعر بالتردد فى كل خطوة . ولعله كان يتداول مع نفسه . فالمعركة العنيفة التى كانت ناشبة بداخله منذ الليلة الماضية لم تكن قد انتهت . وفى كل لحظة كانت تنتابه تقلبات جديدة فى المشاعر . ولما وصل إلى رأس السلم اتكأ على السياج بظهره وعقد ذراعيه . وفجأة فتح ردنجوته ، وأخرج حافظته ، واستخرج منها قلم رصاص ، وقطع ورقة من دفتر صغير . وكتب بسرعة على هذه الورقة فى ضوء الفانوس هذا السطر :

– مسيو مدلين ، عمدة مدينة « م » .

ثم عاد أدراجه بخطى واسعة وهو يشق الجمع المحتشد ، واتجه مباشرة صوب الحاجب ، وقدم له الورقة وهو يقول له بسلطان :

– احمل هذه إلى سيادة الرئيس .

فتناول الحاجب الورقة ، وألقى عليها نظرة ، وصدع بالأمر .

* * *

الفصل الثامن
دخول بطريق الحظوة

وكانت لعمدة « م » شهرة ذائعة – من غير أن يدرى – فنى هذه السنوات السبع من الفضل والفضيلة تجاوزت سمعته الطيبة إقليمه الصغير إلى الأقاليم الثلاثة المجاورة . ففضلا عن أياديه على حاضرة إقليمه بتنشيط صناعة الخرز الأسود فيها ، لم تكن هناك بلدة من المائة والأربعين المحيطة بمدينة « م » إلا وله عليها فضل ما . فقد عرف كيف ينشط الصناعة والتجارة فى تلك البلدان والقرى . فهو مثلا أمد بالضمان المالى صناعة التل فى بولونى Boulogne وصناعة غزل الصوف بالطرق الميكانيكية فى فريفان Frevent والصناعة المائية للأقمشة فى بوربيه سيركانش Bourbers — Sur—Canche ؛ فصار الجميع يلهجون بذكره فى إجلال بكل مكان . بل إن أراس ودويه Douai كانتا تحسدان مدينة « م » الصغيرة على عمدتها المسيو مدلين .

لذا كان مستشار محكمة دويه الملكية الذى يرأس هذه الدائرة الجنائية فى أراس يعرف – كما يعرف سائر الناس – هذا الاسم المبجل من الجميع . فلما فتح الحاجب خلسة الباب المفضى من حجرة المداولة إلى قاعة الجلسة ، وانحنى وراء مقعد الرئيس وسلمه الورقة التى كتب فيها ذلك السطر الذى ذكرناه آنفاً ، قائلا له :

— هذا السيد يرغب فى حضور الجلسة .

بدرت من الرئيس حركة اهتمام واضحة ، وتناول ريشته وكتب بضع كلمات أسفل تلك الورقة وأعادها إلى الحاجب وهو يقول له :

— أدخله .

وكان الرجل التعس الذى نروى قصته قد ظل قرب باب القاعة فى نفس الموضع الذى تركه فيه الحاجب . وسمع – وهو فى شروده – أحداً يقول له :

— هل يتفضل السيد فيولينى شرف المجىء ورائى ؟

وكان هو نفس الحاجب الذى كان قد أولاه ظهره فى اللحظة السابقة ، وإذا به الآن يحييه بالانحناء حتى الأرض . وفى الوقت نفسه سلمه الحاجب الورقة ، فبسطها ، ولما وجد نفسه بالقرب من المصباح استطاع أن يقرأ فيها ما يأتى :

— رئيس محكمة الجنايات يقدم احترامه إلى المسيو مدلين .

فكور الورقة فى يديه ، كأنما هذه الكلمات القلائل لها فى فمه طعم غريب مرير .

وتبع الحاجب .

وبعد بضع دقائق ألفى نفسه فى حجرة يغلب عليها طابع الجهامة ، تضيئها شمعتان على مائدة ذات مفرش أخضر . وكانت لم تزل ترن فى أذنيه آخر كلمات ذلك الحاجب الذى لم يلبث أن غادره :

— سيدى . هاأنت ذا فى حجرة المداولة ، وما عليك إلا أن

تدير الأكرة النحاسية لهذا الباب لتجد نفسك فى قاعة الجلسة وراء مقعد سيادة الرئيس .

واختلطت هذه الأقوال فى تفكيره بذكرى الدهاليز الضيقة ، والسلالم المعتمة التى اجتازها منذ قليل .

وكان الحاجب قد تركه بمفرده . وها هى اللحظة الكبرى قد حانت . فاجتهد أن يستجمع شتاته من غير أن يفلح فى ذلك . ومن دأب خيوط التفكير أن تنقطع فى الوقت الذى يحتاج فيه المرء إلى لم شعثها للربط بين الحقائق الأليمة . وها هو فى نفس الموضع الذى يتداول فيه القضاة ويصدرون أحكامهم . فراح ينظر بهدوء إلى هذه الحجرة الوادعة المسالمة المخيفة فى آن واحد والتى تحطمت فيها حيوات كثيرة . وبعد قليل سيرن فيها اسمه . وها هو مصيره يجتازها فى هذه اللحظة . وحدق فى جدارها ، ثم حدق فى نفسه ، ودهش لوجوده فى هذه الحجرة .

ولم يكن قد تناول طعاماً منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وجسمه مرضوض من أثر ارتجاجات العربة فى الطريق الوعر ، ولكنه لم يشعر بشىء من هذا ، بل خيل إليه أنه لا يشعر بأى شىء .

واقترب من إطار أسود كان مثبتاً فى الحائط ، يضم خلف الزجاج خطاباً قديماً مصوراً لجان نيقولا باش Zean Nicolas Pache عمدة باريس ، والوزير ، مؤرخاً – وهذا خطأ حتماً – فى ٩ يونيو سنة ٢ ، ومن كان يشاهد مدلين وهو يمعن النظر فى هذا الخطاب

كان خليقاً أن يتصور أن هذا الخطاب يبدو له مثيراً للدهشة والفضول ، لأنه لم يحول عنه عينيه ، وقرأه مرتين وثلاثاً . ولكنه كان يقرؤه من غير أن يلقى إليه بالا ، لأنه شارد يفكر فى فانتين ، وكوزيت .

وفى لحظة ما ، بدرت منه إشارة تدل على التمرد ، كأنه يقول :

— ويحى ! ومن ذا يجبرنى على هذا ؟

ثم استدار بقوة ، فرأى أمامه الباب الذى كان قد دخل منه ، فذهب إليه ، وفتحه وخرج منه . وها هو لم يعد فى تلك الحجرة ، بل فى الخارج : فى دهليز طويل ضيق تضيئه مصابيح متفرقة هزيلة أشبه بسهارات المرضى ، وهو بعينه الدهليز الذى كان قد دخل منه ، وتنفس الصعداء ، وأصغى فلم يسمع خلفه صوتاً ، ولا أمامه ، وشرع فى الهرب كأنما كان يطارده أحد .

وبعد أن انعطف فى عدة منحنيات فى ذلك الدهليز ، أصاخ السمع مرة أخرى ، فإذا نفس الصمت ونفس الظلال من حوله . وتسارعت أنفاسه اللاهثة وترنح ، فاتكأ على الجدار . وكانت أحجاره باردة ، وعرقه فى برودة الثلج فوق جبينه ، فانتصب قائماً على قدميه وهو يرتعد .

ووقف وحده تماماً فى هذه العتمة ، يرتعد من البرد ، وربما من شىء آخر أيضاً ، وراح يفكر .

وكان قد فكر طول الليل ، وطول النهار ، ولم يعد يسمع فى أعماقه إلا صوتاً يهيب به :

— واأسفاه !

وانقضت ربع ساعة وهو على هذا الحال ، وأخيراً خفض رأسه ، وتنهد فى كرب ، واسترخت ذراعاه ، وكر راجعاً ، يمشى ببطء كالمتداعى ، وكأنما أدركه شخص ما وهو لائذ بالفرار وعاد به أدراجه .

ودخل مرة أخرى حجرة المداولة . وكان أول ما لفت نظره أكرة الباب . وومضت هذه الأكرة من النحاس اللامع أمام عينيه كالنجم الرهيب . فحدق فيها كما تحدق النعجة فى عين نمر مفترس . ولم تستطع عيناه أن تتحولا عنها .

وما بين حين وحين جعل يخطو خطوة ليقترب من الباب . ولو أصغى لسمع لغط القاعة المجاورة كالهمهمة الغامضة . ولكنه لم يصغ ، ولم يسمع .

وفجأة ، من غير أن يعرف كيف حدث هذا ، ألفى نفسه بقرب الباب ، فقبض على الأكرة بحركة تشنجية ، وانفتح الباب . وإذا به فى قاعة الجلسة .

* * *



ودخل مرة أخرى حجرة المداولة . وكأن أول ما لفت نظره أكرة البـاب .
ومضت هذه الأكرة من النحاس اللامع أمام عينيه ..

الفصل التاسع
مكان تتجمع فيه الأسانيد

وخطا خطوة ، وأغلق الباب وراءه بحركة آلية وظل واقفاً ، يتأمل ما تقع عليه عيناه .

وكان المكان قاعة رحبة قليلة الإضاءة ، يسودها الهمس حيناً، ويرين عليها الصمت حيناً آخر . وتدور فيها المحاكمة الجنائية فى وقار حزين متجهم وسط جمع حاشد .

وفى أحد طرفى القاعة ، حيث وقف هو ، جلس قضاة يبـدو عليهم الشرود ، فى أثواب نال منها البلى ، يقضمون أظافرهم أو يسدلون أجفانهم . وفى الطرف الآخر جمع من الناس فى أسمال ، ومحامون فى جلسات متباينة ، وجنود تبدو على وجوههم الصرامة . وبطانة الجدران تتناثر عليها اللطخ ، والسقف قذر ، والموائد عليها أغطية من قماش أقرب إلى الصفرة منه إلى الخضرة ، والأبواب قد سودها كثرة احتكاك الأيدى ، وقناديل ينبعث منها الدخان أكثر مما ينبعث منها الضوء . وعلى الموائد شموع فى شمعدانات من النحاس الأصفر . ورغم العتمة والقبح والكآبة كانت تسود القاعة مسحة من الصرامة المهيبة ، لأن المرء يشعر فيها بذلك الشيء البشرى الجليـل الذى يسمونه القانون ، وذلك الشيء الإلهى الذى يسمونه العدالة .

ولم ينتبه إليه فى هذا الحشد من الناس أحد ، فجميع الأنظـار

كانت متجمعة فى نقطة واحدة ، بها مقعد طويل من الخشب مرتكن
إلى باب صغير ، على امتداد الجدار الذى عن يسار رئيس الجلسة .
وفوق هذا المقعد – الذى كانت تضيئه عدة شموع – جلس رجل
فيما بين شرطيين .

وكان هذا الرجل ، هو « الرجل » الذى يحاكمونه .

ولم يبحث مدلين عنه . بل رآه . فقد اتجهت إليه عيناه بصورة
طبيعية ، كأنما كانتا تعرفان سلفاً أين يوجد .

وحسب أنه يرى نفسه ! وقد شاخ . ولئن لم يكن شبيهه فى الوجه
تماماً، فهو شبيهه فى السحنة واللفتة، بشعره المشوش، وإنسانى عينيه
الوحشيين القلقين ، وهذا القميص . فهو هكذا تماماً كان يوم دخل
مدينة « د » . طافح القلب بالكراهية والحقد ، وملء نفسه الأفكار
الشريرة التى ظل تسعة عشر عاماً يجمعها ويختزنها فى الليمان .

فقال لنفسه وهو يرتجف :

– يا إلهى ! أهكذا حقاً سأعود أنا أيضاً ؟

وبدا له أن سن الرجل لا تقل عن ستين سنة ، وفيه فظاظة
وغباء وشراسة .

وكان الجالسون خلف الرئيس قد أفسحوا له مكاناً عندما دخل
من الباب ، واستدار الرئيس برأسه ، وأدرك أن الشخص الذى
دخل هو المسيو مدلين عمدة « م » . وحياه برأسه ، وعرفه المحامى العام
الذى كان قد رأى المسيو مدلين فى مدينة « م » . فى مرات كثيرة

عندما دعته مهام عمله للذهاب إلى هناك ، فحياه . أما هو فلم يكد
يلحظ شيئاً من هذا كله ، فقد كان فريسة لضرب من الرؤى المختلطة
كأنها الهلوسة ، فراح ينظر أمامه . وإذا قضاة ، وكاتب جلسة ،
وشرطة ، وزحام من رءوس تثير الفضول بقسوة . وكان قد رأى
مشهداً كهذا فيما مضى ، منذ سبعة وعشرين عاماً . وها هى هـذه
الصور الرهيبة تلوح له مرة أخرى ، وتتحرك معلنة عن وجودها
العينى . فهى إذن ليست جهداً من ذاكرته ، أو سراباً من تفكيره ،
فما يراه أمامه شرطة حقيقيون وقضاة حقيقيون، وحشد من رجال
حقيقيين من لحم ومن عظام . قضى الأمر ، وها هو يرى مشاهد
ماضيه الفظيعة حية من جديد بكل فظاعة الواقع الحقيقى .

كان هذا كله فاغراً أمامه .

واستولى عليه منه فزع ، فأغمض عينيه ، وصرخ من أعمـق
أعماق نفسه :

– أبداً ! لن يكون هذا .

وبلعبة مأسوية من ألاعيب القدر التى تزلزل جميع أفكاره ،
وتكاد تصيبه بالخبال ، كان القائم أمامه نسخة منه ! فالرجل الذى
يحاكمونه يناديه الجميع جان فلجان .

فما تحت عينيه منظر لم يسمع بمثله أحد ، هو نسخة من اللحظة
التى كانت أفظع لحظات حياته ، كأنها شبح ذلك الماضى .

فكل شىء كان هناك : نفس الجهاز ، ونفس الساعة من الليل ،

وتقريباً نفس وجوه القضاة والجنود والحاضرين . وكل ما هناك أنه رأى الآن فوق رأس رئيس الهيئة صليباً ، وهو شيء لم يكن له وجود فى المحاكم حين حوكم هو . فحينما حوكم هو كان الله غائباً !

ووجد وراءه كرسياً ، فارتمى فوقه ، مرتعباً من أن يراه أحد وهو واقف . ولما جلس استغل كومة من الورق المقوى كانت فوق مكتب القضاة ليخفى وراءها وجهه عن القاعة بأسرها . وصار فى استطاعته الآن أن يرى من غير أن يُرى . وعاد بكليته إلى الوعى بالواقع ، إلى أن استقر فيه تماماً . ووصل إلى تلك المرحلة من الهدوء الذى يستطيع فيها المرء أن يصغى .

وكان المسيو بماتبوا فى عداد المحلفين .

وفتش عن جافير ، ولكنه لم يره . وكان مقعد الشهود الطويل محجوباً عنه وراء منضدة كاتب الجلسة . ثم إن القاعة — كما قلنا — كانت قليلة الضوء .

وفى اللحظة التى دخل فيها ، كان محامى المتهم يختم مرافعته . وكان اهتمام الجميع قد استثير إلى درجة كبيرة . فالقضية كانت منظورة منذ ثلاث ساعات . ومنذ ثلاث ساعات كان هذا الجمع كله يرى الاتهامات تكال وتطبق شيئاً فشيئاً على رجل مجهول بائس بادى الغباء ، أو لعله شديد البراعة . وهم يعرفون من قبل أن هذا الرجل متشرد ضبط فى حقل وفى يده غصن مثقل بالتفاح الناضج ،

منزوع عنوة من شجرة تفاح فى بستان مجاور ، يسمونه بستان بييرون Pierron . فمن كان هذا الرجل ؟

لقد أجريت تحريات ، وسمعت أقوال شهود ، وقد أجمع الكل على حقيقة تجلت من كل وجهات النظر . وقال الاتهام :

— إن الذى تحت يدنا ليس مجرد سارق تفاح ، أو متشرد ، بل تحت يدنا منا قاطع طريق ، وخريج ليمان ، ومجرم عتيق من أشد المجرمين خطراً . إنه شرير اسمه جان فلجان تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . وكان منذ ثمانى سنوات ، عند خروجه من ليمان طولون قد اقترف سرقة فى الطريق العام بالقوة من طفل من أبناء سافوا اسمه حرفيه الصغير ، وهى جريمة تقع تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، ونحتفظ بالحق فى محاكمته عنها فى وقت لاحق ، بعد ان تثبت هويته ثبوتاً قضائياً . وقد ارتكب بموجب هذه السرقة الجديدة ما يعد « عوداً » . فأدينوه بالفعلة الجديدة وسوف يحاكم فيما بعد عن السرقة القديمة .

وأمام هذا الاتهام ، وأمام إجماع الشهود ، أبدى المتهم دهشة بالغة : وراح يقوم بإشارات وحركات تعنى النفى . أو يتأمل سقف القاعة . وكان يتكلم بصعوبة ، ويجيب بارتباك ، ولكنه من رأسه إلى قدميه كان ينكر ما قيل عنه . فكان أشبه بالأبله فى مواجهة كل هذه العقول المحتشدة أمامه للقتال ، وأشبه بالأجنبى الغريب وسط مجتمع يضيق عليه الخناق . ولكن هذا الذى يحدث يتعلق به مستقبله ،

وها هو شبه يطبق عليه فى كل لحظة ، وها هو الجمهور المحتشد يتطلع بلهفة وقلق إلى ذلك الحكم بالإدانة الذى يحدق به رويداً رويداً . وقد يكون هذا الحكم بما هو أكثر من الليمان ، فيحكم عليه بالإعدام ، إذا ثبتت هويته وانتهت قضيته بجرفيه الصغير ، فيما بعد بالإدانة .

فمن تراه كان هذا الرجل ؟ وما كنه هذا الذهول غير المبالى الرائن عليه ؟ أبلاهة هى دعته أم مكر ؟ أكان يفهم ما يدور حوله أكثر مما يجب ، أم تراه لا يفهم منه شيئاً على الإطلاق ؟

أسئلة انقسم الجمهور الحاضر حولها ، وتكاد تقسم آراء المحلفين أيضاً . ففيها ما يفزع وما يحير . والمأساة ليست قاسية فحسب ، بل هى غامضة أيضاً .

وكانت مرافعة الدفاع لا بأس بها . فى أسلوب قضائى تقليدى كان يجرى على لسان جميع المحامين يومئذ فى باريس كما فى الأقاليم ، ثم بطل بعد ذلك استخدامه .

وقد بدأ المحامى بتناول تهمة سرقة التفاح وراح يفسرها ، فأثبت أن سرقة هذا التفاح لم تثبت على المتهم – الذى كان المحامى يدعوه « شانماتييه » بإصرار – فهو لم يشاهده أن يتسور ذلك البستان أو يكسر هذا الغصن ، بل قبض عليه ممسكاً بهذا الغصن (الذى كان المحامى يسميه « فرعاً ») وقال : إنه وجده ملقى على أرض الطريق فالتقطه . فمن أين للنيابة الدليل المناقض لهذا ؟ ولئن كان مما لا شك فيه أن هذا

الغصن كان قد كسر وسرق بعد تسلق السور ، ثم ألقاه اللص فى عرض الطريق عندما أفزعه طارئ ما ، فهذا دليل على وجود سارق . ولكن ما الدليل على أن هذا السارق هو شانماتييه ؟

ليس هناك – فى يد النيابة – إلا دليل واحد ، أو قرينة ، هى أن شانماتييه نزيل سابق لليمان . ولم ينكر المحامى أن هذه الصفة قائمة لسوء الحظ فيما يبدو . كذلك كان المتهم مقيماً لفترة من الزمن فى فافيرول ، وكان أيضاً مشتغلا بتشذيب الأشجار وتقليمها . ومن الممكن أيضاً أن يكون الأصل فى اسم شانماتييه هو « جان ماتييه » ، هذا كله صحيح . وأخيراً هناك أربعة شهود قرروا أن شانماتييه هو نزيل الليمان جان فلجان . وأمام هذه القرائن والشهادات لم يستطع المحامى أن يقدم إلا إنكار موكله ، وهو إنكار مغرض هو فيه صاحب مصلحة . ولكن على فرض أنه نزيل الليمان السابق جان فلجان ، أذلك يثبت أنه سارق التفاح ؟ إن هذه التهمة استنتاج فرضى على الأكثر ، وليست ثابتة بالدليل القاطع .

وصحيح أيضاً أن المتهم – وبذلك اعترف محاميه بحسن نية – اتبع سياسة سيئة للدفاع عن نفسه ، بإصراره على الإنكار التام لكل شىء ، أى إنكار السرقة وأنه نزيل سابق بالليمان . وكان اعترافه بالشق الأخير أفضل له ، لأنه يكفل له عدم تشدد قضاته معه . وكان المحامى قد نصحه بهذا فعلا ، إلا أن المتهم رفض بإصرار ، معتقداً أنه ينقذ كل شىء بإنكاره كل شىء . وهذا خطأ . ولكن ألا ينبغى أن تراعى

المحكمة قصور تفكيره الواضح ؟ فهذا الرجل من الجلى البين أنه غبى ذهب بذكائه طول الشقاء والمعاناة فى اللبان ، وطول الشقاء والمعاناة خارج اللبان ... إلخ ...

لقد أساء الدفاع عن نفسه . ولكن أهذا سبب كاف لإدانته ؟ وأما مسألة جرفيه الصغير ، فالمحامى لم يتعرض لها ، فهى ليست عنصراً من عناصر هذه القضية . وختم المحامى مرافعته بالتوسل إلى المحلفين وهيئة المحكمة ، إن بدت لهم هوية جان فلجان بينة أن يطبقوا عليه عقوبات الشرطة التى تنصب على المفلتين من الرقابة بعد مغادرة السجن ، لا عقوبة المجرم العائد بالغة القسوة .

وانبرى المحامى العام (ممثل الاتهام) للرد والتعقيب على المحامى : فكان فى تعقيبه مزخرف الأسلوب عنيفاً ، كعادة أمثاله من المحامين العامين .

بدأ بتهنئة الدفاع على إخلاصه وولائه وتحريه الصدق ، ولكنه استغل هذا الولاء وهذا التحرى للصدق ، فهاجم المتهم بكل التنازلات التى أدلى بها المحامى . فالمحامى بدا عليه أنه مسلم بأن المتهم هو جان فلجان ، فتمسك المحامى العام بهذا ليؤكد أنه فعلا جان فلجان . وجعل من ذلك قضية مسلمة للاتهام لا محل للنزاع أو المراء فيها . وتأدى المحامى العام من هذا إلى الكلام عن الطبائع الإجرامية وطنطن بالهجوم على المدرسة الرومانسية (التى تقول : إن الإنسان يولد خيراً بطبعه وإنما هى ظروف البيئة التى تجعله يخطئ ويفعل الشر)

وندد بآثار هذا الأدب الرومانسى الوبيلة ، وجعل من بينها جريمة شانماتيه ، أو بالأحرى جان فلجان . ولما فرغ من هذه الاعتبارات انتقل إلى جان فلجان نفسه . فمن هو جان فلجان هذا ؟

ووصف جان فلجان بأنه وحش ضار ، وما إلى ذلك من النعوت التى جعلت جمهور الحاضرين والمحلفين يقشعرون من هولها . ولما فرغ من هذا الوصف اندفع فى مرافعة قصد بها إلى التأثير فى صحيفة الإقليم صباح الغد ، قائلا :

— ومثل هذا الرجل المتشرد الأفاق المتسول الذى لا مورد يتعيش منه :.. إلخ الذى اعتاد فى حياته الماضية الأعمال الإجرامية ، ولم تصلح منه إقامته الطويلة فى اللبان ، كما تدل على هذا جريمته التى اقترفها ضد جرفيه الصغير إلخ ... هذا الرجل الذى وجدوه على قارعة الطريق متلبساً بالسرقة ، على قيد خطوات من جدار تسوره ، ولم تزل فى يده مسروقاته ، ينكر حالة التلبس ، والسرقة ، وتسلق الجدار . بل ينكر كل شيء ، حتى اسمه وهويته نفسها ! وبالإضافة إلى مائة دليل لن نكرر ذكرها الآن تعرف عليه أربعة شهود ، أولهم « جافير » ، مفتش الشرطة النزيه جافير ، ثم ثلاثة من رفاقه القدامى فى الإجرام ، هم نزلاء اللبان بريفيه ، وشنلدييه ، وكوشباى . فما الذى يقدمه لينقض هذا الإجماع الدامغ ؟ الإنكار ! فأى عناد ومكابرة هذه ! وإنكم لتعدلون ياحضرات المحلفين ...إلخ.

وفيما كان المحامى العام يتكلم ، كان المتهم مصغياً فاغر الفم ،

بنوع من الدهشة يشوبه شيء من الإعجاب بهذا التدفق . فلا ريب في أنه كان شديد العجب لأن رجلا يسعه أن يتكلم على هذا النحو الطلق . وبين الحين والحين ، في أشد اللحظات مأسوية من مرافعة الاتهام ، وهي اللحظات التي تدفقت فيها بلاغة المحامي العام بطوفان من النعوت القبيحة التي أطبقت على المتهم كالعاصفة ، كان يهز رأسه ببطء يمنة ليسرة ويسرة ليمنة ، في شيء من الاحتجاج الصامت الحزين الذي اكتفى به منذ بداية المرافعات . ومرتين أو ثلاثاً سمعه أقرب الحاضرين إلى موضعه يقول بصوت خافت :

— هذه هي نتيجة عدم طلب المسيو بالو Baloup !

ولفت المحامي العام نظر الدفاع إلى هذا المسلك الذاهل ، وقال : إنه متعمد قطعاً ، فهو لا يدل على البلاهة ، بل على البراعة والمكر وتعود خداع العدالة . فهذا المسلك يفضح بأجلى بيان كل ما ينطوي عليه هذا الرجل من انحراف شنيع في جبلته .

وختم كلامه باحتفاظه بحقه مستقبلا في محاكمة المتهم عن جريمته ضد جرفيه الصغير ، ثم طلب تشديد العقوبة .

وكانت هذه العقوبة — في ذلك الحين — هي الأشغال الشاقة المؤبدة .

ونهض الدفاع ، فبدأ بتهنئة « سيادة المحامي العام » على كلمته الرائعة في بلاغتها ، ثم رد عليه على قدر إمكانه . فكان واضحاً أن موقفه ضعيف ، وأن الأرض كانت تغوص تحت قدميه .

الفصل العاشر
طريقة الانكار

وحلت لحظة إقفال باب المرافعات . فأوقف الرئيس المتهم ووجه إليه السؤال المعتاد :

— ألديك ما تضيفه إلى دفاعك ؟

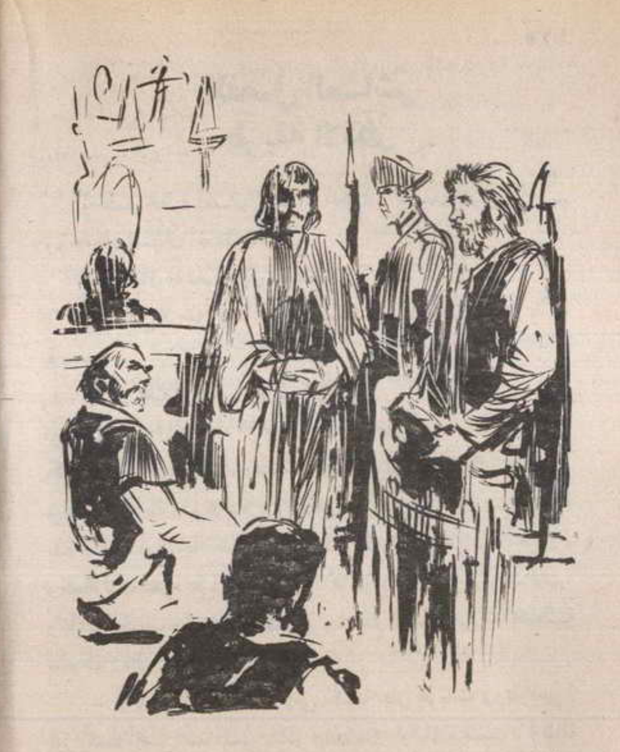
وبدا على الرجل وهو واقف يفرك بين يديه قلنسوة زرية أنه لم يسمع .

وكرر عليه الرئيس السؤال .

وفي هذه المرة سمعه الرجل . وبدا أنه فهم . وبدرت منه حركة كمن يستيقظ من سبات ، ودار بعينيه فيما حوله ، ونظر إلى الجمهور ، وجنود الشرطة ، ومحاميه ، والمحلفين ، والمحكمة ، ووضع قبضة يده الرهيبة فوق حافة السياج القائم أمام مقعده ، ونظر مرة أخرى ، وفجأة ثبت نظره على المحامي العام ، ثم شرع في الكلام كالطوفان ، وكأنما الكلمات والعبارات تتزاحم وتتدافع لتتدفق من فمه مختلطة مشوشة . قال :

— أريد أن أقول هذا . إنني كنت نجار عربات في باريس . بل كنت أعمل عند المسيو بالو Baloup . والحالة ضنك ، وشاقة في مهنة نجار العربات . العمل يجري دائماً في الهواء الطلق ، في الأفنية أو تحت سقوف الورش التي لا جدران لها ، عند المعلمين الكبار ،

ولكن لا توجد فى المهنة ورش مقفلة ، لأنها تحتاج إلى مساحات كبيرة . فاهم ؟ فى الشتاء نحس بشدة البرد ، حتى أننا نضرب أذرعنا كى تستدفئ . لكن المعلمين لا يريدون هذا ، ويقولون إنه يضيع الوقت . وتشكيل الحديد عندما يغطى الثلج الأرض ، عملية شاقة .. سرعان ما تستهلك صحة العامل . فيشيخ وهو لم يزل بعد شاباً فى هـذه المهنة . ففى سن الأربعين يكون قد انتهى . وأنا كنت فى الثالثة والخمسين ، قد اشتدت على العلة . ثم إن العمال أشرار جداً ! فما إن يتجاوز أحد الشباب حتى يقول عنه الجميع إنه دابة عجوز ! ولذا لم أعد أكسب إلا ثلاثين صلدياً فى اليوم ، لأنهم كانوا يعطوننى أقل أجر ممكن ، فالمعلمون يستغلون كبر سنى . يضاف إلى هذا أن ابنتى كانت غسالة فى النهر . فكانت تكسب من جانبها بعض الشىء . تضعه فوق أجرى ونعيش معاً عيشة الكفاف . وانتابها المرض هى الأخرى ، لأنها تقضى طول النهار فى قادوس حتى منتصف قامتها ، تحت المطر ، والثلج ، والريح التى تهرأ الوجه . ويتساقط الثلج ، وتجمد المياه . لا أهمية لهذا . لابد من مواصلة الغسل . فهناك أشخاص لا يملكون ثياباً داخلية كثيرة ، ولابد من غسل ثيابهم فوراً وإلا تحولوا إلى متعهد آخر . وألواح الخشب ليست محكمة الالتصاق ، والماء ينزل منها فوقك فى كل موضع . وينفذ من خلال الثياب . وعملت ابنتى أيضاً فى مغسل الأطفال الحمر ، حيث يصل الماء فى صنابير ، ولا يجرى العمل فى قادوس ، بل تقوم بالغسل أمامها تحت الصنبور ،



وفجأة ثبت نظره على المحامى العام ، ثم شرع فى الكلام كالطوفان وكأنما الكلمات والعبارات تتزاحم وتتدافع لتتدفق فى فمه ..

وتشطف خلفها فى حوض ، ولما كان هذا المكان مقفلا ، فالجسم أقل تعرضاً للبرد . ولكن هنـاك بخار المـاء الساخن وهـو فظيع ، ينتهى بإصابتك بالعمى . وكانت تعود فى السابعةمساء وتنام بسرعة ، لأنها مجهدة جداً . فيضربها زوجها . وماتت . ولم نكن سعداء جداً . كانت فتاة صـالحة ، لا تذهب إلى المرقص ، وشديدة الهـدوء . وأتذكر أنها نامت ليلة الكرنفال فى يوم عيد المرافع فى الساعة الثامنة . وهذه هى الحقيقة . ويمكنكم أن تسألوا عنى . تسألون ؟ كم أنا غبى ! باريس دوامة كبيرة ، من ذا فيها يعرف الأب شانماتييه ؟ ولكنى ذكرت لكم المسيـو بالو . ابحثوا لدى المسيو بالو . أما بعد هـذا فلا أعرف ماذا يراد منى .

وسكت الرجل وظل واقفاً . وكان قد قال هذا بصوت مرتفع سريع أجش ، وبسذاجة ساخطة ضارية . وكان قد توقف وسط الكلام لكى يحيى شخصاً ما بين الجمع المحتشد . والتأكيدات التى كان تبدو عليه أنه يلقيها اعتباطاً أمامه ، فتخرج من فه وكأنما أصيب بالفواق ، ويلوح بيده بإيماء كإيماء الحطاب الذى يفلق الخشب . ولما سكت انفجر الجمهور ضاحكاً ، فتطلع إليه ، ولما وجـد الناس يضحكون ، ولم يفهم السبب ، شرع يضحك هو أيضاً .

وكان هذا فى حد ذاته فاجعاً .

ورفع الرئيس المنتبه الطيب صوته وقال مذكراً السادة المحلفين : إن السيد بالو ، وهو المعلم السابق الذى قال المتهم إنه كان يعمل

عنده لم يمكن العثور عليه ، لأنه أفلس وترك محل إقامته القديم . ثم التفت نحو المتهم وطلب منه أن يصغى لما سيقوله له ، ثم أردف :

— أنت فى موقف يوجب عليك التفكير ، فالريب الخطيرة محدقة بك من كل جانب ، ويمكن أن تتمخض عن أخطر النتائج . لذا أناشدك أيها المتهم للمرة الأخيرة أن تفسر بوضوح هاتين الواقعتين . أولا : هل تسلقت سور بستان بيرون أم لا ؟ وكسرت الغصن ، وسرقت التفاح ؟ أى هل اقترفت جريمة السرقة مع التسلق ؟ وثانياً : هل أنت نزيل اللمان السابق جان فلجان أم لا ؟

فهز المتهم رأسه باقتـدار ، شأن الرجـل الذى أحسن الفهم ويعرف بمـاذا سيجيب . وفتح فمه ، واستدار نحو الرئيس ، وقال :

— أولا ...

ثم لم يلبث أن نظر إلى قلنسوته القذرة فى يده ، ونظر بعـد هذا إلى السقف ولاذ بالصمت .

وقال المحامى العام بصوت صارم :

— أيها المتهم . ركز اهتمامك . فأنت لا تجيب عن شيء مما سئلت عند . فاضطرابك يدينك . فواضح أن اسمك ليس شانماتييه ، وأنك نزيل اللمان السابق جان فلجان الذى استخفى أولا تحت اسم جان ماتييه وهـو اسم عائلة أمه ، وأنك ذهبت إلى أوفرنى Auvergne وأنك من مواليد فافيرول حيث كنت تعمل فى تقليم الأشجار . وواضح

أنك سرقت مع التسلق تفاحاً ناضجاً من بستان بيبرون . وسيتولى
السادة المحلفون تقييم موقفك .

فانتهى الأمر بالمتهم الذى كان قد جلس بالوقوف فجأة بعد أن
فرغ المحامى العام من كلامه ، وصاح به :

ـ أنت شرير ! أنت خبيث ! هـذا ما أردت قـوله ! فأنا
لم أجد ما أقوله أولا . فأنا لم أسرق . أنا رجل لا يجد فى كل يـوم
ما يأكله . وكنت قادماً من آيى Ailly ، وأمشى فى الريف بعد
سقوط المطر الذى كسا الريف كله باللون الأصفر . وطفحت
المستنقعات ، ولم أجد فى الرمال إلا أعواد عشب على حافة الطريق
وإذا بى أجد غصناً مكسوراً ملقى على الأرض وبه تفاح ، فالتقطت
الغصن من غير أن أعرف أنه سيسبب لى الألم والعقاب . ولى فى
السجن ثلاثة أشهر ، وهم يجرجروننى من حجرة لأخرى ولا أستطيع
أن أقول شيئاً والكل يتكلمون ضدى ، ويقال لى : أجب !
والشرطى الطيب القلب يدفع فى كوعى ويقول لى بصوت خافت :
« أجب » . وأنا لا أستطيع التفسير ، فأنا لم أتلق تعليماً . أنا رجل
فقير مسكين . ومن الخطأ ألا تروا هذا بأنفسكم . وأنا لم أسرق .
أنا التقطت من الأرض أشياء كانت ملقاة عليها . وأنتم تقولون :
جان فلجان . وجان ماتييه ! وأنا لا أعرف هذين الشخصين . فهما
من القرويين . وأنا كنت أعمل عند المسيو بالو ، فى شارع المستشفى .
واسمى شانماتييه . ومن خبثكم أنكم تذكرون لى أين ولدت . أما أنا

فلا أعرف أين ولدت . فليس لجميع الناس بيوت يولدون فيها .
لو أن هذا كان صحيحاً لكان شيئاً مريحاً أكثر مما يجب . وأعتقد أن
أبى وأمى كانا من الذين يجوبون الطرقات . ولا أعرف عنهما أكثر
من هذا . وعندما كنت طفلا كانوا يسموننى الصغير . والآن
يسموننى الشيخ . وهذان هما اسماى فى العماد . وافهموا من هـذا
ما تشاءون . وقد كنت فى أوفرنى ، وكنت فى فريفول . طظ !
وماذا فى ذلك ؟ أليس فى وسع المرء أن يكون فى أوفرنى وأن يكون
زمناً ما فى فافيرول من غير أن يكون سابقاً من نزلاء الليمان ؟ قلت
لكم : إنى لم أسرق ، وإنى الأب شانماتييه . وكنت أعمل لدى المسيو
بالو . وكان لى عندئذ محل إقامة . ولكنكم تسئموننى بتهريفكم هذا .
فلماذا يناصبنى الجميع العداء بكل هذا الإصرار ؟

وكان المحامى العام قد ظل واقفاً ، فقال للرئيس :

ـ سيدى الرئيس ! أمام كل هذا الإنكار المختلط ، ولكن فى
براعة شديدة ، من جانب المتهم الذى كان يريد من قبل أن يبدو لنا
فى صورة الأبله ، ولكنه لن يتمكن من هذا ـ وها نحن نحذره ـ
لذا نكرر على المحكمة الموقرة طلب إعادة سماع السجناء بريفيه ،
وكوشباى وشنلدييه ومفتش الشرطة جافير ، وسؤالهم للمرة الأخيرة
عن هوية المتهم لإثبات أنه نزيل الليمان السابق جان فلجان .

فقال الرئيس :

ـ أود أن أنبه السيد المحامى العام إلى أن مفتش الشرطة جافير

قد اضطرته أعمال منصبه للذهاب إلى مركز مجاور ، فغادر الجلسة ، والمدينة بأسرها بمجرد انتهائه من إدلائه بشهادته ، وقد أذنا له فى هذا بعد موافقة سيادة المحامى العام ومحامى المتهم .

فقال المحامى العام :

— هذا صحيح يا سيادة الرئيس . وفى غيبة السيد جافير ، أعتقد أننى يجب أن أذكر السادة المحلفين بما قاله هنا منذ بضع ساعات . وجافير رجل فاضل يؤدى أعباء وظيفته الصغيرة بنزاهة وصرامة . وإليكم ألفاظ شهادته : « لست بحاجة إلى سرد الافتراضات الخلقية ولا الأسانيد المادية التى تكذب إنكار المتهم . فأنا أعرفه تماماً . وهذا الرجل ليس اسمه شانماتيه ، بل هو نزيل سابق بالليمان بالغ الخطر والشر واسمه جان فلجان . ولم يطلق سراحه عند انتهاء فترة عقوبته إلا على مضض شديد . وقد أمضى تسعة عشر عاماً من الأشغال الشاقة بسبب السرقة التى ضبط متلبساً بها . وقد حاول الهرب خمس مرات أو ستاً . وفضلا عن سرقة جرفيه الصغير وسرقة بستان بييرون ، ارتاب فى ارتكابه السرقة من بيت عظمة أسقف د . الراحل . وقد رأيته كثيراً فى الفترة التى عملتها مساعداً لمأمور ليمان تولون . وأكرر لكم أنى أعرفه تمام المعرفة » .

وبدا أن هذا الإعلان الدقيق المحدد كان له تأثير عميق على الجمهور والمحلفين . ثم قال المحامى العام بعد ذلك : إنه لئن لم يكن جافير حاضراً ، فالسجناء الثلاثة بريفيه وشنلدييه وكوشباى ستسمع

شهادتهم من جديد . ويتم استدعاؤهم . وأصدر الرئيس أمره إلى أحد الحجاب ، وإن هى إلا لحظة حتى فتح باب حجرة الشهود . وأدخل الحاجب ، ومع حارس من الشرطة مستعد للتدخل بالقوة عند اللزوم ، المذنب بريفيه . وكان الجمهور مشدود الأعصاب ، والصدور تعلو وتهبط ، كأنما هى صدور نفس بشرية واحدة .

وكان المذنب بريفيه فى نحو الستين من عمره ، له سحنة رجل أعمال ونظرات وغد ... وهما سمتان قد تتوافقان أحياناً . وقد رشحه سلوكه الماكر فى السجن المركزى للقيام بعمل البواب . وتقارير رؤسائه عنه أنه رجل يحرص على أن يكون ذا نفع . وقسوس السجن لهم رأى حسن فى تدينه . وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن ذلك كان على عهد إعادة الملكية إلى فرنسا .

وقال الرئيس :

— يا بريفيه . أنت محكوم عليك بعقوبة مخلة بالشرف ولا يمكنك أن تحلف اليمين .

فغض بريفيه بصره . واستطرد الرئيس :

— ومع هذا ، فمن الجائز للرجل الذى حط القانون من مقامه ، إذا كانت له بقية من التقوى ، أن ينطوى على إحساس بالشرف والعدالة . وأنا أناشد هذا الإحساس فيك فى هذه الساعة الفاصلة ، إن كان له وجود ، أن تتأنى قبل أن تجيب . تأمل سحنة هذا الرجل الذى يمكن أن تودى به كلمة واحدة منك ، أو أن تبرئ ساحته .

إن هذه اللحظة حاسمة ، ولم يزل أمامك متسع من الوقت للتراجع عن أقوالك إذا تبين لك أنك كنت مخطئاً . أيها المتهم قف ! – انظر يا بريفيه جيداً إلى المتهم واستجمع ذاكرتك ، وقل لنا بوحى من ذمتك وروحك : هل تصر على أن هذا الرجل هو زميلك القديم فى الليمان ، جان فلجان ؟

وتطلع بريفيه إلى المتهم ، ثم التفت صوب المحكمة وقال :

– نعم يا سيدى الرئيس. أنا أول من عرفه وأصر على أقوالى . هذا الرجل هو بعينه جان فلجان ، الذى دخل ليمان تولون فى سنة١٧٩٦ وخرج منه فى سنة ١٨١٥ ؛ وخرجت أنا فى السنة التالية . ولئن بدا الآن بهذه الصورة الزرية ، فلابد أنه فعل السن . أما فى الليمان فكان خبيثاً داهية . أجل أعرفه بالتأكيد .

فقال الرئيس :

– اذهب واجلس . ابق واقفاً أيها المتهم .

وأدخل شنلدييه ، المحكوم عليه بالمؤبد ، كما تدل على هذا كسوته الحمراء وقلنسوته الخضراء . وهو يقضى عقوبته فى ليمان تولون ، الذى أخرجوه منه لهذه القضية خصيصاً . وهو رجل قصير فى نحو الخمسين من عمره ، نشط ، يقظ، نحيف ، أصفر ، كالمحموم ، يسرى الضعف فى كل أعضائه ، ولكن فى نظرته قوة هائلة . وقد لقبه رفاقه فى الليمان « جنيدييه » Jenie Dieu (أى أنا أنكر وجود الله !) .

وقال له الرئيس كلاماً يقارب أقواله لبريفيه . وعندما ذكره الرئيس بأن إدانته تحرمه من حق أداء اليمين ، رفع شنلدييه رأسه وواجه الجمهور بنظراته . ودعاه الرئيس للتيقظ ، وسأله – كما سأل بريفيه – هل يصر على معرفة المتهم ؟

فقهقه شنلدييه ضاحكاً وقال :

– وايم الله ! هل أعرفه ؟ لقد قضينا خمس سنوات مشدودين بسلسلة واحدة .

فقال الرئيس :

– اذهب واجلس .

وجاء الحاجب بكوشباى ، وهو محكوم عليه بالمؤبد أيضاً ، فحضر من الليمان فى كسوة حمراء مثل شنلدييه . وهو فلاح من لورد ، وفيه وحشية سكان جبال البرانس . وكان يشتغل برعى الأغنام فى الجبل ، ثم ترك الرعى إلى القرصنة وقطع الطريق . وبدا أنه لا يقل غباء عن المتهم . فهو من البشر المساكين الذين برتهم الطبيعة وحوشاً ضارية ، وحولهم المجتمع إلى نزلاء ليمان .

وحاول الرئيس أن يهز هذا الشاهد ببضع عبارات مؤثرة جادة مهيبة ثم سأله ، كما سأل سابقيه ، هل يصر ، بلا تردد أو اضطراب على معرفة الرجل الواقف أمامه ، فقال كوشباى :

– إنه هو جان فلجان . حتى ولو سموه جان « العفريتة » ، بسبب قوته الخارقة !

فسببت كل هذه التأكيدات الثلاثة المخلصة ، وبحسن نية ، لدى جمهور الحاضرين همهمة تنذر المتهم بالشؤم ، وأخذت هذه الهمهمة ترتفع مع كل شهادة جديدة . أما المتهم فكان يصغى بسحنة ناطقة بالدهشة ، كانت النيابة تقول : إنها حيلته الوحيدة لدفع التهمة عنه . وعندما سمع الشاهد الأول ، سمعه جنود الشرطة المجاورون له يهمهم من بين أسنانه :

— آه . عال ! هذا واحد !

وبعد سماع الشهادة الثانية ، قال بصوت أعلى ، وبنبرة تكاد تنم على الرضا :

— عال !

وعند سماع الشاهد الثالث صاح :

— عظيم !

وناداه الرئيس :

— أيها المتهم ! لقد سمعت بنفسك . فما قولك ..؟

فأجابه :

— أقول : عظيم !

فانفجرت همهمة بين الجمهور كادت تشمل المحلفين . فقد كان واضحاً أن الرجل ضائع لا محالة !

فقال الرئيس :

— أيها الحجاب ! أقروا السكون ! سأغلق باب المرافعات .

وفى هذه اللحظة ، حدثت حركة بجوار الرئيس مباشرة . وسمع الناس صوتاً يصيح :

— بريفيه ! شنلدييه ! كوشباى ! انظروا إلى هذه الناحية !

فأحس كل من سمعوا هذا الصوت ببرودة الثلج ، لأنه كان صوتاً بالغ الرهبة . واتجهت العيون كلها نحو الموضع الذى صدر منه هذا الصوت . وإذا رجل قائم بين مجموعة الحاضرين الممتازين الجالسين خلف هيئة المحكمة ، وقد انبرى واقفاً ، ثم دفع الباب القصير الفاصل بين مكان هيئة المحكمة وبين سائر القاعة ، واخترقه فوقف وسط الفراغ الفاصل بين الهيئة والجمهور . وعرفه الرئيس والمحامى العام ومسيو بمتابوا وعشرون شخصاً آخر على الأقل ، وصاحوا فى نفس واحد :

— المسيو مدلين !

* * *

الفصل الحادى عشر
شانماتييه تزداد دهشته

وكان هو المتكلم فعلا . فقد أضاء مصباح الكاتب وجهه . وكان ممسكاً بقبعته فى يده ، وليس فى ثيابه أى اضطراب . وردنجوته مزرر بعناية . وكان شاحباً جداً . ويرتجف رجفة خفيفة . وشعره الذى كان رمادياً لحظة وصوله إلى أراس صار الآن خالص البياض ، فقد ابيض فى خلال الساعة التى قضاها هنا .

وارتفعت كل الرءوس ، وصارت الإثارة تفوق الوصف : وسادت الحاضرين لحظة تردد . فقد كان صوته شديد الحدة ، ولكن الرجل الماثل هنا يبدو شديد الهدوء ، فاستغلق عليهم الفهم للوهلة الأولى . وتساءلوا : من ذا الذى صاح ، ولم يصدقوا أن ذلك الرجل الهادئ الرصين هو الذى أطلق هذه الصيحة الثاقبة .

ولم يطل هذا التردد إلا بضع ثوان . وقبل أن يتسنى للرئيس أو المحامى العام أن يقول كلمة واحدة ، وقبل أن يتسنى للشرطة والحجاب أن تبدر منهم حركة ، تقدم الرجل الذى كان الجميع يدعونه حتى هذه اللحظة المسيو مدلين نحو الشهود الثلاثة : كوشباى ، وبريفيه ، وشنلديه . وقال لهم :

— ألا تعرفوننى ؟

فظل الثلاثة مأخوذين ، وبإيماءة من رءوسهم عبروا عن عدم

معرفتهم إياه . وأدى له كوشباى التحية العسكرية فى وجل . فالتفت المسيو مادلين صوب المحلفين وصوب هيئة المحكمة وقال بصوت رقيق :

— يا حضرات المحلفين . أطلقوا سراح المتهم . يا سيادة الرئيس مر بإلقاء القبض على . فالرجل الذى تبحثون عنه ليس هذا المتهم ، بل أنا ! أنا جان فلجان !

واحتبست الأنفاس فى جميع الأفواه . وأعقب الإثارة الأولى والدهشة صمت كصمت القبور . وشعر الجميع فى القاعة بتلك الرهبة الدينية التى تستولى على الجموع عندما يحدث أمر عظيم .

ومع هذا اكتسى وجه الرئيس بالتعاطف والأسى : وكان قد تبادل إشارة سريعة مع المحامى العام ، وتبادل عبارات خافتة مع زميليه المستشارين . ثم قال للجمهور بلهجة فهمها الجميع :

— أيوجد ها هنا طبيب ؟

وتكلم المحامى العام ، فقال :

— يا حضرات المحلفين ، إن الحدث الشديد الغرابة وغير المتوقع الذى هز الحاضرين لا يوحى إلينا ، ولا إليكم ، إلا بشعور لا حاجة بنا إلى التعبير عنه . فأنتم تعرفون جميعاً — بحكم شهرته وسمعته المجيدة على الأقل — المسيو مدلين المبجل ، عمدة « م » . فإذا كان بين الحاضرين طبيب ، فنحن نضم صوتنا إلى سيادة الرئيس لمناشدته التفضل بإسعاف المسيو مدلين وتوصيله إلى مقره .

ولم يدع المسيو مدلين المحامى العام يتم كلامه . بل قاطعه بلهجة شديدة الوداعة وإن كانت ذات سلطان . وهاك ما قاله عندئذ بحروفه ، كما سجله بعد الجلسة مباشرة أحد مشاهدى هذا الحدث ، كما كان يرن فى آذان من سمعوه ، منذ أربعين سنة تقريباً :

– أشكرك يا سيادة المحامى العام . ولكنى لست مخبولا ، وسترون ذلك بأنفسكم . فقد كنتم على شفا ارتكاب خطأ جسيم . أطلقوا سراح هذا الرجل ، فأنا إنما أقوم بواجب ، فأنا ذلك الشقى المحكوم عليه . وأنا الوحيد الذى أرى الحقيقة بوضوح من بينكم . وما أقوله لكم هو الحقيقة . وما أفعله ها هنا الآن يراه الله فى علاه ، وهذا يكفى : وفى وسعكم أن تقبضوا على ، ما دمت هنا . وإن كنت قد بذلت قصارى جهدى ، فاختفيت تحت اسم جديد ، وصرت ثرياً ، وعمدة ، وكنت أحرص على البقاء فى عداد الشرفاء . ولكن يبدو أن هذا غير ممكن . وأخيراً هناك أمور لا يسعنى البوح بها ، ولن أسرد عليكم تاريخ حياتى ، وسوف يحين وقت يعرف فيه الجميع . لقد سرقت يا سادة مولانا الأسقف . هذا صحيح ، وسرقت جرفيه الصغير . هذا صحيح . ومن قالوا لكم : إن جان فلجان كان شقياً شريراً جداً كانوا على حق . وقد لا يكون الذنب كله ذنبه . اسمعوا أيها السادة القضاة ، إن رجلا مثلى ليس من حقه أن يعتب على القدر ، ولا أن يدلى بالنصائح للمجتمع . ولكن اعلموا أن الوصمة التى حاولت الخلاص منها ضارة جداً . ولكن الليمان هو الذى يصنع

المجرم . صدقونى . فأنا قبل الليمان كنت فلاحاً فقيراً ، قليل الذكاء جداً . شبه أبله . وغيرنى الليمان . كنت غبياً فجعلنى الليمان شريراً . كنت حطبة فصرت حربة . وجاءت الطيبة بعد ذلك فأنقذتنى . مثلما أضاعتنى القسوة . وأستميحكم العفو ، فليس فى وسعكم أن تفهموا هذا الذى أقوله . وسوف تجدون فى مسكنى ، فى رماد المدفأة ، قطعة الأربعين صلدياً التى سرقتها منذ سبع سنين من جرفيه الصغير ، وليس لدى الآن ما أضيفه . خذونى ! يا إلهى ! إن سيادة المحامى العام يهز رأسه وأنتم تقولون : لقد جن المسيو مدلين ، لأنكم لا تصدقوننى ! وهذا فظيع . إياكم أن تدينوا هذا الرجل على الأقل ! إن هؤلاء الثلاثة لم يعرفونى ! وكم أتمنى لو كان جافير هنا ، فقد كان حرياً أن يعرفنى هو !

وما من كلمات يمكن أن تصور مدى الأسى والطيبة والرهبة التى اجتمعت فى نبرة هذه الأقوال .

والتفت صوب الشهود الثلاثة ، وقال :

– أما أنا فأعرفكم ! يا بريفيه ! أتذكر ...

وسكت لحظة متردداً ثم قال :

– أتذكر تلك الحمالة من التريكو التى كنت تلبسها فى الليمان ؟

فانتفض بريفيه فى دهشة ، وحدق فيه من فرعه إلى قدمه فى ذعر ، أما هو فاستطرد :

– يا شنلدييه ! الذى لقب نفسه « جينديه » ، إنك محترق

على امتداد كتفك اليمنى حرقاً عميقاً ، لأنك رقدت ذات يوم فوق مدفأة ملآنة بالجمر ، لكى تمحو من جلدك الحروف الثلاثة T. F. P. التى لم تزل مشاهدة مع هذا . أجبنى .. أليس هذا صحيحاً ؟

فقال شنلديه :

— هذا صحيح .

وخاطب كوشباى قائلا :

— يا كوشباى ! إن بالقرب من ثنية ذراعك اليسرى تاريخاً محفوراً بأحرف زرقاء . وهو تاريخ نزول « الإمبراطور » فى كان : أول مارس سنة ١٨١٥ ؛ ارفع كمك !

فرفع كوشباى كمه ، واتجهت جميع الأنظار إلى ذراعه العارية . وقرب أحد الشرط مصباحاً ، فإذا بهذا التاريخ هناك .

والتفت الشقى نحو الحاضرين والقضاة بابتسامة كاشرة . هى ابتسامة النصر ، وابتسامة اليأس .

وقال مسيو مدلين :

— ها أنتم ترون أنى جان فلجان !

ولم يبق فى هذه القاعة قضاة ، ولا رجال نيابة ، ولا شرطة ، بل كل من فيها عيون شاخصة وقلوب واجفة . ولم يعد أحد يتذكر الدور الذى كان من الممكن له أن يقوم به ، أو ينبغى عليه القيام به . فالمحامى العام نسى أنه هناك لكى يقوم بالاتهام ، والرئيس نسى أنه هناك لكى يرأس الجلسة ، ومحامى الدفاع نسى أنه هناك ليدافع .

والمذهل حقاً أنه ما من سؤال وجه وما من سلطة تدخلت . فمن شأن المشاهد الرائعة أن تستولى على كل الألباب . وتحول جميع الشهود إلى متفرجين . ولعله ما من أحد وعى ما يمر به أو يخامره ، وما من أحد قطعاً قال لنفسه : إنه رأى أمام عينيه نوراً عظيماً يتبلج ، ولكن الكل شعروا فى دخيلة أنفسهم بالانبهار .

وكان جلياً أن الذى أمام أعينهم هو جان فلجان . لم يعد فى هذا ريب . فظهور هذا الرجل كان كافياً بإلقاء الضوء على هذه المغامرة التى كانت غامضة تماماً منذ لحظة . ومن غير أن يكون ثمة داع لأى تفسير بعد ذلك ، فهم هذا الجمْع الحاشد بأسره — كأنما مسّهم كهرباء — بنظرة واحدة هذه القصة البسيطة العظيمة لرجل يسلم نفسه لينقذ رجلا آخر من الإدانة والعقاب بدلا منه . وضاعت التفصيلات ، والترددات ، والمقاومات الصغيرة الممكنة فى غمار هذا الحدث الضخم المضىء .

انطباع لم يلبث أن مر بسرعة ، ولكنه كان فى حينه لا يقاوم .

واستأنف جان فلجان الكلام ، قال :

— لا أريد أن أعطل الجلسة أكثر من هذا . فسوف أنصرف ، ما دام أحد لم يقبض على . فأمامى عدة مهام أقوم بها . وسيادة المحامى العام يعرف من أنا . ويعرف أين أنا ذاهب . وفى وسعه أن يقبض على عندما يشاء .

واتجه إلى باب الخروج . فلم يرتفع صوت ، ولم تمتد ذراع لمنعه . وتباعد الجميع عنه . فقد تمثل فيه عنصر إلهى – لا أدرى ما هو – فى تلك اللحظة ، جعل الجموع تتراجع عن هـذا الرجـل . وشق الزحام بخطى بطيئة . ولا يدرى أحد من الذى فتح الباب ، ولكن مما لا شك فيه أن الباب كان مفتوحاً عندما وصل إليه . وعنـدئذ استدار وقال :

– سيادة المحامى العام . سأظل رهن أمرك .

ثم خاطب الجمهور قائلا :

– وأنتم أيها الحاضرون جميعاً . إنكم ترونني جديراً بالرثاء . أليس كذلك ؟ رباه ! بل أكاد أرانى جديراً أن أغبط ! ومع هذا كنت أتمنى لو لم يحدث شيء من هذا !

وخرج ، وأغلق الباب من تلقاء نفسه كما انفتح من قبل ، لأن من يصنعون الأعمال الخارقة يجدون من غمار الناس من يخدمهم .

وبعد أقل من ساعة صدر قرار المحلفين بتبرئة المدعو شانماتييه من كل تهمة ، وأطلق سراحه على الفور ، فخرج مذهولا ، وهو يظن جميع الناس مخبولين ، لأنه لم يفهم شيئاً مما تراءى له .

* * *

الكتاب الثامن

رد الفعـــل

الفصل الأول

فى اى مرآة رأى المسيو مدلين شعره

بدأ النهار ببزغ . وكانت فانتين قد قضت ليلة محمومة أرقة ، إلا أنها حافلة بالصور السعيدة . وعند الصباح بدأت تخلد للكرى . واغتنمت الأخت سمبليس التى كانت ساهرة عليها هذا النعاس لكى تذهب لتحضير شراب جديد من الكنكينا – كأمر الطبيب . وكانت الأخت الموقرة فى المعمل منذ بضع لحظات ، مكبة على عقاقيرها وقنانها ، تحدق فيها عن كثب بسبب الضباب الذى يكتنف الأشياء . وفجأة أدارت رأسها وندت عنها صرخة خافتة . فقد كان المسيو مدلين قبالتها ، وكان قد دخل فى صمت .

وصاحت :

– أهو أنت يا سيادة العمدة ؟

فأجابها بصوت خفيض :

– كيف حال تلك المرأة المسكينة ؟

– لا بأس بحالها فى هذه اللحظة . ولكننا كنا مشغولتى البال عليك !

وشرحت له ما حدث ، وأن فانتين كانت بشر حال فى الليلة

الماضية . وأنها الآن أحسن ، لأنها اعتقدت أن سيادة العمدة كان قد ذهب ليحضر لها طفلتها من منفرمى . ولم تجسر الأخت على سؤال سيادة العمدة ، إلا أنها تبينت من سحنته أنه لم يأت من هناك . وقال :

— كل هذا حسن. وكنت أنت على صواب بعدم تصحيح ظنها.

فقالت الأخت :

— نعم . ولكنها الآن ستراك يا سيادة العمدة ، ولا ترى معك طفلتها ، فماذا ستقول لها ؟

فظل شارداً لحظة ، ثم قال :

— لسوف يلهمنا الله .

فهمهمت الأخت بصوت خفيض :

— لن يتسنى لنا مع هذا أن نكذب عليها .

وكان وضح النهار قد ملأ الحجرة : وسطع على محيا المسيو مدلين . وشاءت الصدفة أن ترفع الأخت عينيها ، فصاحت :

— يا إلهى يا سيدى ! ماذا حدث لك إذن ؟ إن شعرك كله ناصع البياض !

فقال :

— البياض ؟

ولم يكن لدى الأخت سمبليس مرآة ، ولكنها فتشت بين الأدوات الجراحية وأخرجت مرآة صغيرة يستخدمها الطبيب للتحقق

من وفاة المريض وانقطاع تنفسه . وتناول المسيو مدلين المرآة ، وحدق فى شعره وقال :

— هكذا !

قال هذه الكلمة بعدم مبالاة وكأنه يفكر فى شىء آخر .

وأحست الأخت بالبرودة تشملها لسبب مجهول استشفته فى هذا كله . وقال هو :

— أيمكننى أن أراها ؟

فقالت الأخت ، وهى لا تكاد تتجاسر على السؤال :

— ألن يحضر لها سيادة العمدة طفلتها ؟

— بلا شك . ولكن لابد لهذا من انقضاء يومين أو ثلاثة .

فقالت الأخت فى تهيب وعلى استحياء :

— إن لم تر سيادة العمدة حتى ذلك الحين لم تعرف أن سيادة العمدة قد عاد ، وسهل علينا أن نجعلها تصبر ، وعندما تحضر الطفلة اعتقدت أن سيادة العمدة عاد مع الطفلة . ولم نضطر للكذب .

وبدا على المسيو مدلين أنه يفكر بضع لحظات ، ثم قال بوقاره الهادئ :

— كلا يا أخت . لابد أن أراها . فلعلى على عجل من أمرى .

ولم يبد أن الراهبة لاحظت قوله « فلعلى » بمعناها الغامض الشاذ بين كلمات سيادة العمدة . فأجابته خافضة عينيها وصوتها باحترام :

– إنها تستريح الآن، ولكن فى وسع سيادة العمدة أن يدخل .

وأدلى ببضع ملاحظات عن باب سيىء المفصلات يمكن أن يوقظ المريضة ، ثم دخل حجرة فانتين ، واقترب من السرير وأزاح الستائر قليلا . وكانت نائمة . ونفسها يخرج من صدرها بصوت فظيع معهود فى هؤلاء المرضى ، يثير الأمهات المسكينات عندما يسهرون ليلا بالقرب من أطفالهن المرضى النائمين . إلا أن هذا التنفس المؤلم لم يكد يعكر الطمأنينة المرتسمة على محياها وهى نائمة . وقد تحول شحوبها إلى بياض، وأما وجنتاها فكانتا قرمزيتين . وأهدابها الطويلة الشقراء – وهى سمة الجمال التى بقيت لها من أيام عذريتها وشبابها – فكانت ترتجف وإن بقيت مطبقة مرتخية . وكل كيانها كان ينتفض كانتفاضة جناحين يهمان بالانطلاق والتحليق بها . فمن كان يراها هكذا ما كان ليعتقد أبداً أنها مريضة تكاد حياتها أن يكون ميئوساً منها .. فهى أشبه بمن توشك أن تطير منها بمن توشك أن تموت .

إن الغصن إذا ما اقتربت منه يد لكى تنتزع الزهرة منه يرتجف، ويتأود ما بين التمنع والاستجابة . والجسم البشرى تنتابه مثل هذه الرجفة عندما تحين اللحظة التى تمتد فيها أصابع الموت لقطف الروح .

وظل المسيو مدلين بعض الوقت ساكناً بقرب هذا الفراش ، ينقل بصره بين المريضة والصليب ، مثلما فعل قبل شهرين ، عندما



ثم دخل حجرة فانتين ، واقترب من السرير وأزاح الستائر قليلًا . وكانت نائمة ..

جاء لأول مرة ليراها فى هذا المأوى . وها هما الآن فى نفس الوضع : فهى نائمة وهو يصلى ، ولكن بفرق واحد ، أنها بعد هذين الشهرين قد صار شعرها رمادياً ، وصار شعره أبيض .

ولم تكن الأخت الراهبة قد دخلت معه ، فظل واقفاً قرب هذا الفراش ، وإصبعه على فمه ، كأنما فى الحجرة أحد يريد أن يلزمه الصمت .

وفتحت عينيها ، فرأته ، وقالت بوداعة وهى تبتسم :

— وكوزيت ؟

* * *

الفصل الثانى

فانتين سعيدة

لم تبدر منها حركة دهشة ، ولا حركة سرور ، بل كانت هى السرور نفسه ! وكان سؤالها البسيط هذا :

— وكوزيت ؟

موجهاً إليه بإيمان عميق ، وبثقة بالغة ، خالية تمام الخلو من القلق أو الشك ، بحيث لم يجد ما يقوله . فاستطردت :

— كنت أعلم أنك موجود هنا . كنت نائمة ولكنى كنت أراك . وأنا منذ مدة طويلة أراك ، وقد تبعتك بعينى طول الليل . كنت أراك فى هالة من المجد ومن حولك كل أنواع الشخوص السماوية .

فرفع عينيه إلى الصليب ، وأردفت هى :

— ولكن قل لى : أين كوزيت ؟ لماذا لم تضعها على فراشى لكى أجدها عندما أستيقظ ؟

فأجاب بصورة آلية بشىء لم يستطع أبداً أن يتذكره بعدذلك :

ولحسن الحظ ، كان الطبيب قد أبلغ فحضر ، وخف لنجدة المسيو مدلين . قال الطبيب :

— اهدئى يا ابنتى . طفلتك هناك .

فتوهجت عينا فانتين وشع منهما الضوء على محياها كله ، وضمت يديها بضراعة بالغة الشدة وبالغة الوداعة فى آن واحد ، وصاحت :

— أوه ! احملها إلى !

يا لأوهام الأم المؤثرة ! فكوزيت كانت دائماً فى نظرها الطفلة الصغيرة التى يحملونها .. وقال الطبيب :

— ليس الآن . ليس فى هذه اللحظة . فما زلت تعانين من آثار الحمى . ورؤية طفلتك من شأنها أن تهزك وتسبب لك الأذى : فلابد أولا من تمام شفائك .

فقاطعته باندفاع قائلة :

— ولكنى شفيت تماماً ! أقول لك : إنى شفيت ! أتراه حماراً هذا الطبيب . آه ! أريد أن أرى طفلتى ، حالا !

فقال الطبيب :

— ها أنت نفسك ترين كيف تحتدين . وما لبثت هكذا فأنا أعارض فى أن تأتى إليك طفلتك . فليس يكفى أن تريها ، بل لابد أن تعيشى لها . وعندما تصبحين معقولة ، ومتعقلة ، سأحضرها لك بنفسى .

فأحنت الأم المسكينة رأسها ، وقالت :

— يا سيادة الطبيب ، أسألك الصفح . أسألك العفو من كل قلبى . فيما مضى لم أكن لأتكلم على نحو ما تكلمت الآن : ولكن المصائب التى مرت بى جعلتنى أحياناً لا أدرى ما أقول . وأنا فاهمة أنك تخشى الانفعال . وسأنتظر كل الوقت الذى تريدونه . ولكنى أقسم لك أن رؤية ابنتى ما كانت لتسبب لى أذى . فأنا أراها ،

ولا تفارقها عيناى منذ مساء أمس . أتدرى ؟ إن حملوها إلى الآن سأشرع فى التحدث إليها بكل لطف وخفوت . وهذا كل شىء . أليس طبيعياً جداً أن أتوق إلى رؤية طفلتى التى أحضروها لى خصيصاً من منفرمى ؟ أنا لست غاضبة . وأعرف أنى سأكون سعيدة جداً ؛ وقد ظللت طول الليل أرى أشياء بيضاء وأشخاصاً يبتسمون لى . وليتفضل سيادة الطبيب بإحضار كوزيت إلى حينما يشاء . لم أعد أعانى من الحمى ، لأنى شفيت . وأحس أنى لم أعد أعانى من شىء . ولكنى سأتصنع المرض ولا أتحرك كى أرضى السيدتين القائمتين على تمريضى . وعندما تريان أنى هادئة تمام الهدوء ، ستقولان : ينبغى إحضار طفلتها إليها .

وكان المسيو مدلين قد جلس على مقعد إلى جوار الفراش . فالتفتت إليه ، وكان واضحاً أنها تبذل جهداً كى تبدو هادئة « وعاقلة » — على حد قولها فى ضعف المرض الذى يشبه الطفولة ، لكى لا يمانعوا فى إحضار كوزيت إليها عندما يجدونها مخلدة للهدوء والدعة . ولكن برغم محاولاتها لتمالك نفسها لم تستطع أن تمنع نفسها من توجيه ألف سؤال إلى المسيو مدلين :

— أكانت رحلتك طيبة يا سيادة العمدة ؟ آه ! ما أطيبك لأنك ذهبت كى تأتينى بها ! قل لى فقط كيف هى ؟ كيف حالها ؟ هل تحملت مشاق الرحلة ؟ واأسفاه ! إنها لن تعرفنى ! لطول الوقت لابد أنها نسيتنى ، هذه العزيزة ! الأطفال ليست لهم ذاكرة . إنهم

كالعصافير . يرون شيئاً اليوم ، ويرون شيئاً آخر غداً ، ولا يفكرون بعد ذلك فى شىء . أترى كان لديها على الأقل ملابس داخلية بيضاء ؟ وهل كان آل تنردييه يحافظون على نظافتها ويعنون بها كما يجب ؟ كيف تراهم كانوا يغذونها ؟ أوه ! كم عانيت ، لو تعلم ! لأنى كنت ألقى على نفسى كل هذه الأسئلة فى وقت محنتى ! أما الآن فقد انتهى كل شىء ! وأنا سعيدة ! أوه ! كم أريد أن أراها ! يا سيادة العمدة : أوجدتها جميلة ؟ أليست ابنتى حسناء ؟ لابد أنك شعرت بالبرد فى هذه العربة ؟ ألا يمكن أن يحضروها إلى ولو لحظة قصيرة ؟ ثم يأخذونها بعد ذلك على عجل ! قل لهم ! فأنت السيد ، إن شئت فعلوا !

فتناول يدها وقال :

— كوزيت جميلة . كوزيت بخير صحة ، وسترينها قريباً ، ولكن اهدئى . فأنت تتكلمين بحرارة شديدة ، وتخرجين ذراعيك من الفراش ، وهذا يجعلك تسعلين .

وفعلا أخذت نوبات السعال تقطع على فانتين كلامها بين كل كلمة وأخرى تقريباً .

ولم تنبس فانتين ، فقد خشيت أن تكون قد نكثت بشكواها الحارة هذه الثقة التى كانت تريد أن تلهمها ، وشرعت بعد ذلك تتكلم فى أمور لا أهمية لها . قالت :

— مونفرمى جميلة . أليس كذلك ؟ وفى الصيف يذهب إليها

الناس فى رحلات للنزهة والمتعة . وهل أحوال آل تنردييه المعاشية جيدة ؟ إن من يمرون بالمكان ليسوا كثيرين . ومطعمهم صغير وحقير ...

وكان المسيو مدلين ممسكاً على الدوام بيدها ، ناظراً إليها فى قلق . وكان واضحاً أنه جاء إليها لكى يقول لها أموراً يقف فكره أمامها الآن حائراً . وكانت زيارة الطبيب قد انتهت فانسحب ، وبقيت الأخت سمبليس وحدها معهما .

ومع هذا ، قطعت فانتين هذا الصمت صائحة :

— إنى أسمعها ! يا إلهى ! إنى أسمعها !

ومدت ذراعها كى يسود الصمت حولها ، وكتمت أنفاسها ، وراحت تصغى فى طرب ونشوة . وكانت هناك طفلة تلعب فى الفناء ، هى طفلة البوابة أو إحدى العاملات . وهى مصادفة تحدث دائماً فى الظروف العصيبة . وكانت البنت الصغيرة تروح وتغدو وتجرى وتضحك وتغنى بصوت مرتفع . وما أكثر تنوع لهو الأطفال ! وكانت هذه الطفلة الصغيرة هى التى تسمعها فانتين تغنى . فقالت :

— أوه ! إنها كوزيت ! فأنا أعرف صوتها !

وابتعدت الطفلة كما اقتربت . وخمد صوتها . وأصغت فانتين بعض الوقت ، ثم أظلم وجهها بعد إشراق . وسمعها المسيو مدلين تقول بصوت خافت :

ـ ما ألأم هذا الطبيب الذى لم يدعنى أرى ابنتى . إن له سحنة شريرة !

ومع هذا عادت إليها أفكارها الضاحكة . وظلت تكلم نفسها ، ورأسها على الوسادة ، قائلة :

ـ كم سنكون سعيدتين ! ستكون لنا حديقة صغيرة قبل كل شيء . فالمسيو مدلين وعدنى بهذا . وستلعب ابنتى فى الحديقة الصغيرة. ولابد أنها تعرف الآن حروف الهجاء . وسأجعلها تتهجى . وستجرى فى العشب وراء الفراشات . وسوف أنظر إليها . ثم ستتناول أسرارها المقدسة للمرة الأولى . آه ! متى يا ترى سيتم ذلك؟

وشرعت تعد على أصابعها :

ـ واحد . اثنان . ثلاثة . أربعة ... آه . عمرها الآن سبعة أعوام . بعد خمسة أعوام إذن . وسيكون لها خمار أبيض ، وجورب مطرز ، فتغدو شابة ! يا أختى المقدسة الصالحة . أنت لا تدرين كم أنا غبية . ها أنا أفكر فى الأسرار المقدسة الأولى لابنتى !

ثم أخذت تضحك .

وكان قد ترك يد فانتين . وراح يصغى لهذه الأقوال مثلما يصغى لهبوب الريح ، مفضياً إلى الأرض ، وفكره غارق فى أغوار لا تسبر . وفجأة كفت عن الكلام ، فرفع رأسه آلياً . وقد غدت فانتين مروعة . لم تعد تتكلم . ولم تعد تتنفس ، ونهضت فى موضعها نصف نهوض ، وخرجت كتفها الهزيلة من قميصها . ووجها الذى كان

مشرقاً منذ لحظة اكفهر ، وشخصت بعينيها إلى شيء ما فى الطرف الأقصى للحجرة فى نظرة ارتياع . فصاح :

ـ يا إلهى ! ماذا بك يا فانتين؟

فلم تجب . ولم تفارق عيناها ذلك الشيء الذى بدا عليها أنها تراه ، ولمست ذراع المسيو مدلين بإحدى يديها ، وبالأخرى أشارت إليه أن ينظر خلفه .

فالتفت . ورأى جافير .

* * *

الفصل الثالث
جافير راضيا

وهاك ما حدث :

كانت الساعة قد دقت الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما غادر المسيو مدلين محكمة الجنايات فى أراس . وعاد إلى نزله ليدرك فى آخر لحظة مركبة البريد التى كان قد حجز مكانه فيها بجوار السائق. وقبيل الساعة السادسة صباحاً وصل إلى « م » ، وكان أول ما اهتم به هو أن يلقى فى البريد خطابه إلى المسيو لافيت ، ثم ذهب إلى المستوصف ليرى فانتين .

ومع هذا ، ماكاد يغادر قاعة محكمة الجنايات ، حتى أفاق المحامى العام من ذهوله، وقام ليندد بذلك العمل الجنونى الذى أقبل عليه سيادة عمدة « م » ، المبجل، وأعلن المحامى العام أن موقفه لم يتغير بهذا الحادث الغريب الذى ستتضح خوافيه فيما بعد ، وطالب فى الختام بمعاقبة شانماتييه، لأنه بلا شك جان فلجان الحقيقى .

وكان إصرار المحامى العام من الواضح أنه مناقض لشعور الجميع : شعور الجمهور، والمحلفين ، وهيئة المحكمة . ولم يجد محامى الدفاع كبير عناء فى تفنيد هذه المرافعة وتجلية الوجه الحقيقى للقضية التى انقلبت رأساً على عقب بسبب ماكشف عنه المسيو مدلين ، الذى هو جان فلجان الحقيقى ، وهكذا صار المتهم بريئاً تماماً فى نظر

المحلفين .. وكانت فرصة للمحامى للتنديد بحجج ليست جديدة للأسف عن أخطاء القضاء إلخ ... وانضم الرئيس فى تلخيصه للدفاع ، وبعد بضع دقائق برأ المحلفون ساحة شانماتييه .

ولكن كان لابد من جان فلجان للمحامى العام . وما دام شانماتييه قد أفلت من يده ، لذا قرر القبض على مدلين .

وفوراً على أثر إطلاق سراح شانماتييه، اختلى المحامى العام بالرئيس ، وتداولا فى « ضرورة التحفظ على شخص سيادة عمدة م » وهذه العبارة من صياغة المحامى العام، وقد كتبها فى ختام تقريره . إلى النائب العام . وبعد التغلب على انفعاله الأول، لم يعترض الرئيس على هذا الإجراء . فلا بد للعدالة أن تأخذ مجراها . ثم إن الرئيس وإن كان رجلا طيباً وعلى قدر كاف من الذكاء، إلا أنه فى الوقت نفسه ملكياً متحمساً ، وقد صدمه أن عمدة « م »، حين تكلم عن النزول على شاطئ كان، قال « الإمبراطور » ولم يقل «بونابرت» .

وهكذا إذن صدر أمر القبض. وأرسله المحامى العام إلى « م » مع رسول خاص ،وكلف بموجبه مفتش الشرطة جافير بتنفيذه .

ونحن نعلم أن جافير كان قد عاد إلى « م » بعد الإدلاء بشهادته فوراً . ونهض جافير فى لحظة تسليم الرسول الخاص أمر القبض إليه ومعه أمر الضبط والإحضار .

وكان الرسول الخاص نفسه من رجال الشرطة المعروفين ، وفى كلمتين أبلغ جافير بما حدث فى أراس. وكان أمر الضبط والإحضار

الموقع من المحامى العام يجرى على هذا السياق :

– يتولى المفتش جافير القبض على السيد مدلين ، عمدة « م » الذى تبين فى جلسة هذا اليوم أنه نزيل الليمان السابق جان فلجان .

ومن قابل جافير لحظة دخوله حجرة انتظار المستوصف ما كان ليخمن ما جرى ، وكان خليقاً أن يجد سحنته عادية تماماً . فقد كان بارداً ، هادئاً ، وقوراً ، وشعره الرمادى مسدل على عارضيه ، وهو يصعد السلم ببطئه المعتاد . ومن كان يعرفه أعمق المعرفة ، لو تأمله عن كثب لانتابته رجفة . فأبزيم ياقته الجلدية بدلا من أن يكون على عنقه ، كان عند أذنه اليسرى . وهذا ينم على اضطراب لا نظير له .

وكان جافير شديد التدقيق فى كل شىء ، لا يسمح بخلل بسيط فى واجبه أو كسوته الرسمية ، بالغ الصرامة مع الأوغاد ، ومع أزرار كسائه ! فإهماله فى وضع أبزيم ياقته يدل على انفعال شديد ، أشبه بالزلزال الباطنى .

ولكنه حضر ببساطة ، بعد أن استحضر من المخفر القريب رقيب وأربعة جنود ، وترك الجنود فى الفناء ، وطلب من البوابة أن تدله على غرفة فانتين من غير أن يثير ريبتها ، وكانت معتادة على رؤية العسكريين يأتون لمقابلة المسيو مدلين .

ولما وصل إلى حجرة فانتين ، أدار جافير المفتاح ، ودفع الباب برفق كأنه ممرضة أو متلصص ، ثم دخل .

وهو فى الواقع لم يدخل ، بل وقف فى الباب المنفرج ، وقبعته

فوق رأسه ، ويده اليسرى فى ردنجوته المقفل حتى الذقن . وفى ثنية الكوع شوهد مقبض عصاه الغليظة ، وهو من الرصاص ، أما العصا فكانت مختفية خلفه .

وظل هكذا ما يقرب من دقيقة ، من غير أن يلحظ أحد وجوده .

وفجأة رفعت فانتين عينيها ، فرأته ، وجعلت المسيو مدلين يلتفت نحوه .

وما إن التقى نظر مدلين بنظر جافير ، حتى غدا جافير رهيباً مفزعاً من غير أن يتحرك ، ومن غير أن يقترب . وما من شعور بشرى يمكن أن يغدو مروعاً مثل شعوره هذا بالفرح ! فغدا وجهه وجه شيطان عثر على فريسته اللعينة . واستطاع يقينه من وضع يده أخيراً على جان فلجان أن يظهر على سحنته ما كان كامناً فى سريرته . فإذا بالقاع الجياش يطفو على السطح . وانمحى خزيه لفقدان أثر جان فلجان بحيث خاله شانماتيه وحل محله الزهو لأنه كان أسبق الجميع إلى صدق الحدس ، مما يدل على صواب غريزته . وتجلى رضا جافير عن نفسه فى مسلكه المتعالى . وظهرت علائم الانتصار على جبينه الضيق ...

كان جافير فى هذه اللحظة محلقاً فى عنان السماء . ومن غير أن يشعر ، بل بحدس غامض بأهميته ونجاحه ، كان جافير يجسد العدالة والنور والحقيقة وهى تؤدى مهمتها فى سحق الشر . فكانت تحيط به هالة من السلطة المتمثلة فى حكم قضائى ، وفى الضمير القانونى ،

والثأر العام . فهو حامى النظام ، وصاعقة القانون ! وهو الآخذ بثأر
المجتمع . فانتصب بكل أمجاده هناك ، مع إثارة من التحدى والرغبة
فى النزل . وكأنما يسحق تحت كعبه الجريمة والرذيلة والتمرد والجحيم
وهو مفتر عن ابتسامة كاشرة ، فبدا فى وقفته هذه لا يخلو من عظمة .
وقد خلا تماماً من علائم الحساسة . فهو نموذج للنزاهة والإخلاص
والاقتناع بالواجب . وهى صفات إن اقترنت بالحقد ، إلا أنهـا
تظل عظيمة ، رغم دمامتها الناجمة عن الضغينة والتعصب وضيق
الأفق . وهكذا تجسد فى وقفته ما قد ينطوى عليه الخير من الشر عندما
تتقمصه النفوس الصغيرة .

* * *

الفصل الرابع

السلطة تسترد واجباتها

ولم تكن فانتين قد رأت جافير منذ اليوم الذى انتزعها فيه سيادة
العمدة من براثن هذا الرجل . ولم يستوعب ذهنها المريض شيئاً سوى
أنه إنما جاء ليأخذها . ولم تستطع أن تتحمل هذه السحنة الفظيعة ،
وأحست أنها توشك أن تموت ، فغطت وجهها بيديها وصاحت
فى رعب :

— يا مسيو مدلين . أنقذنى !

وكان جان فلجان قد نهض — فلن ندعوه منذ الآن إلا بهذا
الاسم — وقال لفانتين بألطف صوت وأرقه :

— اهدئى واطمئنى . فهو لم يأت من أجلك .

ثم خاطب جافير قائلا :

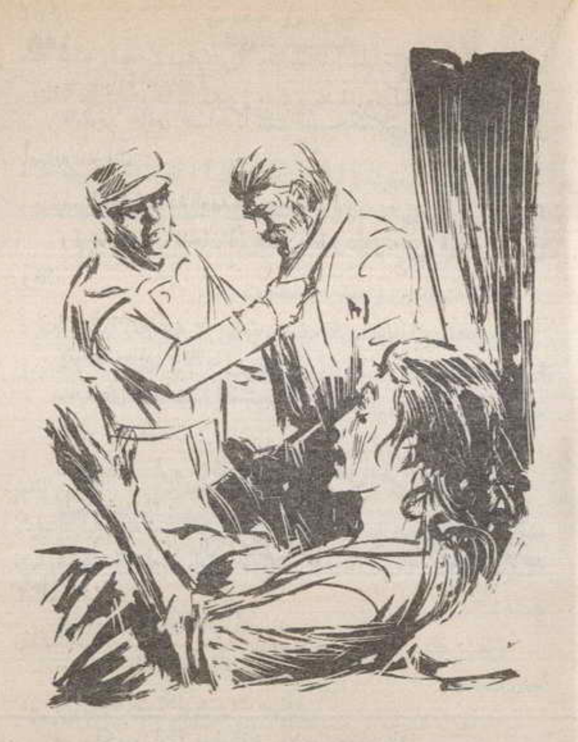
— أنا أعرف ماذا تريد .

فأجابه جافير :

— هيا إذن . أسرع !

وكانت لهجته نفسها جياشة تلاطمت فيها المقاطع ، فكأنما ما قاله
ليس كلاماً بشرياً ، بل زئير وحش ضار !

ولم يسلك المنهج المعتاد فى هذه الأحوال ، فلم يبرز أمر ضبط
وإحضار . فجان فلجان فى نظره منازل خارق للعادة ، كانت يده



رأت الشرطى جافير يأخذ بتلابيب سيادة العمدة ، ورأت سيادة العمدة يحنى رأسه .
وخيل إليها أن العالم ينهار

عليه منذ خمس سنين ، من غير أن يقدر على قهره . فهذا القبض الآن ليس بداية ، بل هو ختام ، ولذلك اكتفى بقوله :

— هيا إذن . أسرع !

ولم يخط خطوة واحدة وهو يتكلم ، وألقى على جان فلجان نظرته التى تشبه شد الوثاق ، والتى اعتاد أن يجذب بها إليه البؤساء بكل عنف .

وكانت هذه النظرة هى التى أحستها فانتين تنفذ حتى النخاع داخل عظامها ، قبل ذلك بشهرين . وما صاح جافير هذه الصيحة حتى فتحت فانتين عينيها ، ولكن سيادة العمدة موجود هنا فما الذى يمكن أن تخشاه .

وتقدم جافير إلى وسط الحجرة ، وصاح :

— آه . هيا بلا تلكؤ !

فنظرت المسكينة حولها ، ولم يكن هناك أحد اللهم إلا الراهبة وسيادة العمدة ، فلمن من عساه يتوجه بهذه اللهجة المهينة .. إليها هى طبعاً لا إلى أحد سواها . وارتجفت .

وعندئذ رأت شيئاً لم يسمع به أحد من قبل ، ولم يكن ليتراءى لها فى أغرب رؤى هذيان الحمى .

رأت الشرطى جافير يأخذ بتلابيب سيادة العمدة ، ورأت سيادة العمدة يحنى رأسه . وخيل إليها أن العالم ينهار .

وكان جافير قد أخذ بخناق جان فلجان فعلا . فصاحت فانتين :

– سيادة العمدة !

فانفجر جافير ضاحكاً تلك الضحكة التى تكشف عن كل أسنانه ، وقال :

– لم يعد لسيادة العمدة وجود هنا !

ولم يحاول جان فلجان أن يخلص ياقة ردنجوته من قبضة جافير ، وقال :

– يا جافير ...

فقاطعه جافير قائلا :

– نادنى « يا سيادة المفتش » .

فقال جان فلجان :

– سيدى . أود أن أقول لك كلمة على انفراد .

فأجابه جافير :

– بل بصوت عال ! تكلم بأعلى صوت ، الناس يكلموننى بأعلى صوت .

فقال جان فلجان خافضاً صوته :

– إنه رجاء أوجهه إليك .

– أقول لك تكلم بصوت مرتفع .

– ولكن ما أريد قوله ينبغى ألا يسمعه سواك .

– وما شأنى أنا ؟ لست مصغياً .

فالتفت نحوه جان فلجان وقال له بسرعة وبصوت خفيض جداً :

– أمهلنى ثلاثة أيام ! ثلاثة أيام كى أذهب لإحضار طفلة هذه المرأة المسكينة ! سأدفع ما يجب دفعه ! ولك أن تصحبنى إن شئت .

فصاح جافير :

– أتريد أن تهزل ؟ لم أكن أظنك غبياً ! تطلب منى مهلة ثلاثة أيام لتهرب ! وتقول : إنك تريد الذهاب لإحضار طفلة هذه الفتاة ؟ آه ! آه ! هذا عظيم !

فاعترت فانتين رجفة ، وصاحت :

– طفلتى ! تذهب لإحضار طفلتى ؟ هى إذن ليست هنا ! قولى لى يا أختى الراهبة : أين كوزيت ؟ أريد طفلتى ! يا مسيو مدلين ! يا سيادة العمدة !

فضرب جافير الأرض بقدمه وصاح :

– ها هى هذه الأخرى تتكلم الآن ! اخرسى ! يا له من إقليم منكود ذلك الذى يتولى فيه خريجو الليمان السلطة ، وتعالج فيه الفتيات العموميات مثل الكونتسات ! ولكن هذا كله سيتغير ، حان الوقت لهذا !

وثبت نظره فى فانتين وأردف ، وهو لم يزل آخذاً بخناق جان فلجان :

– أقول لك إنه لم يعد هناك مسيو مدلين ولا سيادة العمدة . بل هنا لص . قاطع طريق ، خريج ليمان اسمه جان فلجان ! وهو هذا الذى أمسك به ! هذا هو الموجود هنا !

فانتصبت فانتين منتفضة ، معتمدة على ذراعيها ويديها ، وحدقت فى جان فلجان ، وحدقت فى جافير ، وحدقت فى الراهبة ، وفتحت فاها كمن تهم بالكلام ، فخرجت شهقة من حلقها ، واصطكت أسنانها ، ومدت ذراعيها فى رعب ، وفتحت يديها بحركة تشنجية ، وهى تبحث فيما حولها كمن توشك على الغرق ، ثم ارتمت فجأة على وسادتها .

وارتطمت برأس السرير فسقط رأسها على صدرها ، فاغرة الفم ، مفتوحين العينين ، وقد خبا منهما النور .

لقد ماتت !

فوضع جان فلجان يده على يد جافير القابضة عليه وفتحها كما لو كانت يد طفل ، ثم قال لجافير :

— لقد قتلت هذه المرأة !

فصاح جافير مهتاج الغضب :

— لنفرغ مما نحن فيه . فأنا لست هنا لأسمع مواعظ . ولنوفر هذا كله . الحراس أسفل المبنى ، لنسر على الفور ، وإلا وضعت فى يديك القيد الحديدى !...

وكان فى ركن من الحجرة سرير عتيق من الحديد فى حالة سيئة تستخدمه الراهبات عند السهر على المريضة . فاتجه جان فلجان إلى هذا السرير ، وفك فى لمح البصر رأسه الحديدى — وهذا أمر هين على من كانت له عضلات كعضلاته — ونظر إلى جافير ، فتراجع

جافير نحو الباب . ومشى جان فلجان ببطء وعارضة السرير الحديدية فى يده نحو سرير فانتين . ولما وصل إليه التفت إلى جافير وقال له بصوت لا يكاد يسمع :

— لا أنصحك بأن تزعجنى فى هذه اللحظة .

ومن المؤكد أن جافير ارتعدت فرائصه .

وخطر له أن يذهب لدعوة الحراس لنجدته، ولكن جان فلجان يمكنه أن يستغل هذه الدقيقة ليلوذ بالفرار ، فبقى حيث هو ، وأمسك بعصاه من طرفها الدقيق ، واتكأ على عارضة الباب ، ولم يحول بصره عن جان فلجان .

ووضع جان فلجان كوعه على تفاحة رأس السرير ، ووضع جبهته فوق يده ، وراح يتأمل فانتين الهامدة . ولبث هكذا ، مستغرقاً ، صامتاً ، وكان واضحاً أنه لا يفكر فى شىء من أمور هذه الحياة الدنيا. ولم تبق على محياه ومسلكه إلا علائم الرحمة التى لا توصف وبعد بضع لحظات من هذا الشرود ، انحنى فوق فانتين كلمها بصوت خفيض ...

ماذا قال لها ؟ وماذا كان يسع هذا الرجل وهو فى محنة أن يقول لهذه المرأة الميتة ؟ وماذا كانت أقواله تلك ؟ ما من أحد على وجه الأرض سمعها . فهل سمعتها الميتة ؟ هناك أوهام مؤثرة لعلها حقائق علوية . ولكن ما لا شك فيه أن الأخت سمبليس — وهى الشاهد الوحيد على ما جرى — كثيراً ما روت أنها رأت ابتسامة

تلوح على شفتى فانتين حين همس جان فلجان فى أذنها بمـا همس ، ورأتها تلوح فى عينيها أيضاً !

وتناول جان فلجان فى يديه رأس فانتين ، وسواه على الوسادة ، وكأنه أم رحيمة بطفلتها ، ثم ربط لهـا حبل قميصها ، وسوى شعرها تحت قلنسوتها . وبعد أن فرغ من هذا أغمض لهـا عينيها .

وبدا وجه فانتين فى هذه اللحظة وقد غمره ضوء غريب .

فالموت دخول فى عالم الضوء الأعظم .

وكانت يد فانتين مدلاة خارج فراشها ، فركع جان فلجـان أمام هذه اليد ، ورفعها برفق وقبلها .

ثم نهض قائماً والتفت نحو جافير ، وقال :

— أنا الآن رهن إشارتك !

* * *

الفصل الخامس

قــبر لائق

أودع جافير جان فلجان سجن المدينة ..

وأحدث القبض على مسيو مدلين إثارة هائلة فى مدينة « م » ، كانت خارقة للعادة كأنها الزلزال . ومما نأسف له أن كلمة « خريج اللمان » جعلت كل الناس تقريباً ينفضون من حوله . وفى أقل من ساعتين كان كل الخير الذى أسداه قد نسى ، ولم يعد أكثر من « خريج ليمان » . وإن لم تعرف بعد تفصيلات ما حدث فى أراس . وظلت طول النهار أحاديث كهذه تتردد فى كل أنحاء المدينة :

— ألا تعرفون ؟ لقد كان نزيل ليمان أطلق سراحه !

— من هذا ؟

— العمدة .

— غير معقول ! المسيو مدلين ؟

— نعم .

— حقـاً ؟

— لم يكن اسمه مدلين ، بل له اسم فظيع : بيجان . بوجان ... شىء كهذا .

— آه يا إلهى !

— وقد ألقى القبض عليه .

– قبض عليه ؟

– وأودع السجن . سجن المدينة ، وربما ينقلونه .

– لينقلوه ! سينقلونه ! وأين سينقلونه ؟

– سيقدم لمحكمة الجنايات لجريمة سرقة مع قطع الطريق اقترفها فيما مضى .

– آه . لقد كنت أرتاب به . فقد كان هذا الرجل أطيب مما يجب . وأصلح ما يجب . وكان يعطي النقود لكل مسكين يقابله في الطريق . ولذا كنت أعتقد أن وراء هذه المظاهر قصة مريبة .

وكانت « الصالونات » على الخصوص تفيض بهذه التنديدات .

فقالت سيدة عجوز ، من المشتركات في صحيفة « اللواء الأبيض » هذه الملاحظة البالغة العمق :

– أنا لست غاضبة مما حدث . فهو درس للبونابرتيين !

وهكذا تبدد هذا الشبح الذي كان يدعى المسيو مدلين في مدينة « م » . ولم يبق وفياً لذكراه فيها إلا ثلاثة أشخاص أو أربعة ، ومنهم البوابة العجوز .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه كانت هذه العجوز الوقور جالسة في حجيرتها ، مهمومة منكودة . وكان المصنع قد أغلق أبوابه طول النهار وأقفر الشارع كله . وليس في المبنى إلا الراهبتان الساهرتان على جثة فانتين .

وقرابة الساعة التي اعتاد فيها المسيو مدلين العودة ، نهضت

البوابة بحركة آلية ، وتناولت مفتاح حجرة المسيو مدلين من الدرج ، والشمعدان الذي كان يستخدمه كل مساء للصعود إلى حجرته ، ثم علقت المفتاح على المسمار حيث تعود أن يجده ووضعت الشمعدان بجواره ، كأنها تتوقع قدومه . ثم جلست على مقعدها واستغرقت في التفكير . وكانت هذه العجوز الطيبة قد صنعت هذا كله من غير وعي .

ولم تفق من شرودها إلا بعد أكثر من ساعتين وصاحت :

– وي ! يا إلهي ! لقد وضعت مفتاحه على المسمار !

وفي هذه اللحظة انفتح زجاج حجيرتها ، وامتدت يد من الفجوة وتناولت المفتاح والشمعدان ، وأشعلت الشمعة من شمعتها الموقدة .

ورفعت البوابة عينيها وظلت فاغرة الفم ، ووقفت في حلقها صرخة مكتومة . فقد عرفت هذه اليد ، وهذه الذراع ، وكم الردنجوت .

كان هو المسيو مدلين .

ومرت بضع ثوان قبل أن تتمكن من الكلام ، وأخيراً صاحت :

– يا إلهي يا سيادة العمدة . كنت أحسبك ...

وتوقفت ، لأن بقية الجملة تنافي ما في أولها من الاحترام . فجان فلجان كان دائماً في نظرها سيادة العمدة .

وأتم هو ما جال بخاطرها . قال :

– في السجن ! كنت فيه ولكني حطمت أحد قضبان النافذة

وقفزت من فوق أحد الأسطح . وها أنا ذا . سأصعد إلى حجرتى . اذهبى أنت فأحضرى لى الأخت سمبليس . فلابد أنها بجوار تلك المسكينة .

وصدعت العجوز بالأمر بكل سرعة . ولم يوصها بالكتمان ، فقد أيقن أنها حفيظة عليه أكثر من نفسه .

وصعد السلم المفضى إلى حجرته . ولما وصل إلى أعلى ، ترك الشمعدان على آخر درجات السلم ، وفتح الباب برفق ، وأغلق المصراع الخشبى لنافذته ثم عاد فأخذ الشمعة ودخل الحجرة . ولم تكن لهذا الاحتياط جدوى ، لأن نافذته تطل على الشارع .

وألقى فيما حوله نظرة على منضدته وكرسيه وسريره الذى ظل على حاله منذ ثلاثة أيام، وكانت قد تولت البوابة تسويته . كما نظفت الحجرة وألقت الرماد ووضعت على المنضدة الكعبين الحديدين للهراوة وقطعة الأربعين صلداً . وتناول ورقة كتب عليها : « هذان هما كعبا هراوتى ، وقطعة الأربعين صلدياً المسروقة من جرفيه الصغير ، كما ذكرت فى محكمة الجنايات » . ووضع الورقة تحت هذه الأشياء بحيث لا يخطئها الداخل إلى الحجرة . وأخرج من صوانه قميصاً قديماً مزقه ولف فيه الشمعدانين الفضيين . فى أناة وروية . وتناول كسرة خبز أسود ففضم منها قضمة . ولعلها كانت كسرة خبز السجن التى حملها معه عند هروبه .

وسمع طرقتين صغيرتين على الباب ، فقال :

— ادخل .

وكانت الداخلة الأخت سمبليس ، شاحبة ، حمراء العينين ، والشمعة التى تحملها ترتجف فى يدها لفرط تأثرها بما شهدته فى يومها ، مما جعل الراهبة ترتد امرأة باكية مرتعدة .

وكتب جان فلجان بضعة أسطر على ورقة أعطاها للراهبة وهو يقول لها :

— أعط هذه الورقة لسيادة الخورى (القس) . وفى وسعك قراءتها .

فقرأت فيها : « أرجو سيادة الخورى أن يرعى كل ما تركته هنا . وأن يتفضل بأداء نفقات قضيتى ودفن المرأة التى ماتت اليوم . ووزع الباقى على الفقراء » .

وأرادت الراهبة أن تقول شيئاً، ولكنها لم تقدر إلا على الهمهمة بأصوات غير مفهومة . ثم تمكنت أن تقول :

— ألا يريد سيادة العمدة أن يلقى نظرة أخيرة على هذه المسكينة؟

فقال :

— لا . فهم فى أعقابى . ولو قبضوا على فى حجرتها لأزعجها هذا .

ولم يكد يتم عبارته حتى علت ضجة فى السلالم ، وسمعا صوت خطوات تصعدها ، وسمعا البوابة العجوز تقول بأعلى صوتها الثاقب :

— يا سيدى الطيب . أقسم لك بالله العظيم ، أنه لم يوجد هنا

أحد طول النهار ، وطول المساء ، وأنى لم أغادر الباب .

وأجابها رجل :

— ومع هذا هناك ضوء فى هذه الحجرة .

وعرفا صوت جافير . وكان باب الحجرة إذا انفتح أخفى زاوية الجدار الأيمن . فنفخ جان فلجان الشمعة ووقف فى ذلك الركن . وركعت الأخت سمبليس أمام المنضدة . وانفتح الباب . ودخل جافير . وسمعت همسات عدة رجال واحتجاج البوابة عليهم فى الدهليز :

ولم ترفع الراهبة عينيها ، وواصلت صلاتها . وكانت الشمعة الصغيرة فوق المدفأة ولا تلقى إلا أقل الضوء . ولمح جافير الراهبة ووقف مرتبكاً .

كانت قرارة نفس جافير تنطوى على احترام كل سلطة وإجلال الدين بلا حدود ولا قيود ، لأن السلطة الدينية هى أعظم السلطات . وهو نفسه متدين صارم . والكاهن فى نظره روح منزه عن الخطأ ، والراهبة روح بلا خطيئة . ولا يمكن أن تقول إلا الحق. ولذا كان أول ما خطر له عندما رأى الراهبة أن ينسحب . ولكن فى الوقت نفسه كان هناك واجب آخر عليه أداءه . ولذا بقى لكى يسألها على الأقل . وكانت الأخت سمبليس كما يعلم جافير لم تكذب فى حياتها قط ، ولذا كان يجلها بصفة خاصة . وسألها :

— أختى المقدسة . أأنت وحدك فى هذه الحجرة ؟

وكاد يغشى على الراهبة لحظة السؤال ، ولكنها رفعت عينيها وأجابته :

— نعم .

— سامحينى إذا اقتضانى واجبى أن ألح عليك . ألم ترى هذا المساء رجلا هارباً منا نبحث عنه ، اسمه جان فلجان . ألم تريه ؟

— لا .

وكذبت مرتين ، بلا تردد ، وبسرعة . فقال جافير :

— عفوك إذن .

وانسحب وهو يحييها بانحناءة عميقة . واحتسبت الأكذوبتان حسنتين للراهبة فى السماء ! أما جافير فلم يخامره فى صدقها شك ، مع أنه رأى الشمعة التى أطفأها جان فلجان ترسل بقية من دخانها فوق المنضدة .

وبعد ساعة كان رجل يمشى عبر الأشجار والضباب فى اتجاه باريس . وكان هذا الرجل جان فلجان . واتضح من شاهدة عابرى سبيل صادفاه أنه كان يحمل صرة ، وعليه سترة عمال . فمن أين حصل عليها ؟ لا أحد يدرى . ولكن عاملا كان قد مات فى المستوصف منذ ثلاثة أيام ولم يترك من متاع الدنيا إلا هذه السترة . ولعلها هى هذه التى يلبسها جان فلجان .

وبقيت كلمة أخيرة عن فانتين :

إن الأرض أمنا جميعاً ، وقد أعيدت فانتين إلى هذه الأم .

وظن الخورى (القس) أنه خيراً صنع باحتجاز أكبر مبلغ من المال للفقراء . وقال فى نفسه إن الأمر يتعلق بنزيل ليمان سابق وفتاة عمومية ! ولذا اختصر مراسم دفن فانتين إلى أقصى حد ، ودفنها فى المقبرة العامة ، ولم يخصها بقبر لائق كما طلب المسيو مدلين. بل ثوت بين الفقراء والمعدمين . ولكن من حسن الطالع أن الله يعرف أين يجد الأرواح . واختلطت عظام فانتين بعظام سائر المعدمين : وهكذا تشابه قبرها مع فراشها فى الحياة الدنيا .

* * *